

الفكر التربوي عند ابن القيم

تأليف

الدكتور حسن بن علي بن حسن الحجاجي
موجه التربية الإسلامية
بإدارة التعليم بمكة المكرمة

توزيع
دار حافظ للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م


الفكر التربوي
عند ابن القيم



دار حافظ للنشر والتوزيع
شارع الجامعة ـ ص. ب ٢٩٧٣ جدة ٢١٤٦١
هاتف: ٦٨٧١٤٠٠ ـ ٦٨٧٠٥٨٢ (٠٢)

يطلب الكتاب في الرياض من
دار الهدى للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا الكتـاب

عبارة عن بحث قدم لقسم التربية بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لنيل درجة (الدكتوراه): «العالِمية» في التربية الإسلامية، بعنوان: «آراء ابن القيّم التربوية».

ولقد أوصت لجنة المناقشة منح الباحث درجة الدكتوراه في التربية الإسلامية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة... وجعل العنوان: «الفكر التربوي عند ابن القيم». ولقد بني هذا الكتاب على أربعة أبواب تتلوها خاتمة:

الباب الأول: مدخل عام للبحث؛ ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: خطة البحث.

الفصل الثاني: ابن القيم وعصره الذي عاش فيه.

والباب الثاني: رأي ابن القيم في الإنسان والتربية. ويشتمل على فصلين أيضاً:

الفصل الأول: رأي ابن القيم في الإنسان الذي هو محور العملية التربوية.

الفصل الثاني: مفهوم التربية وبعض متعلقاتها.

والباب الثالث: جوانب التربية عند ابن القيم. ويشتمل على تسعة فصول:

الفصل الأول: التربية الإيمانية.

الفصل الثاني: التربية الروحية.

الفصل الثالث: التربية الفكرية.

الفصل الرابع: التربية العاطفية.

الفصل الخامس: التربية الخلقية.

الفصل السادس: التربية الاجتماعية.

الفصل السابع: التربية الإرادية.

الفصل الثامن: التربية البدنية.

الفصل التاسع: التربية الجنسية.

والباب الرابع: التوجيهات التربوية العامة لنجاح التربية عند ابن القيم. ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: المحتوى العلمي والمعرفي عند ابن القيم.

الفصل الثاني: عوامل النجاح في تقديم المحتوى وطريقة تلقيه.

الفصل الثالث: توجيه المؤسسات التربوية.

أما **الخاتمة** فتشتمل على:

أولاً: الخلاصة.

ثانياً: النتائج.

ثالثاً: التوصيات.

رابعاً: ما نستفيده من فكر ابن القيم التربوي في تربيتنا المعاصرة.

وإنني إذ أقدم هذا الكتاب في طبعته الأولى لأرجو الله العلي القدير أن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم فهو حسبي ونعم الوكيل.

المؤلف

الإهداء

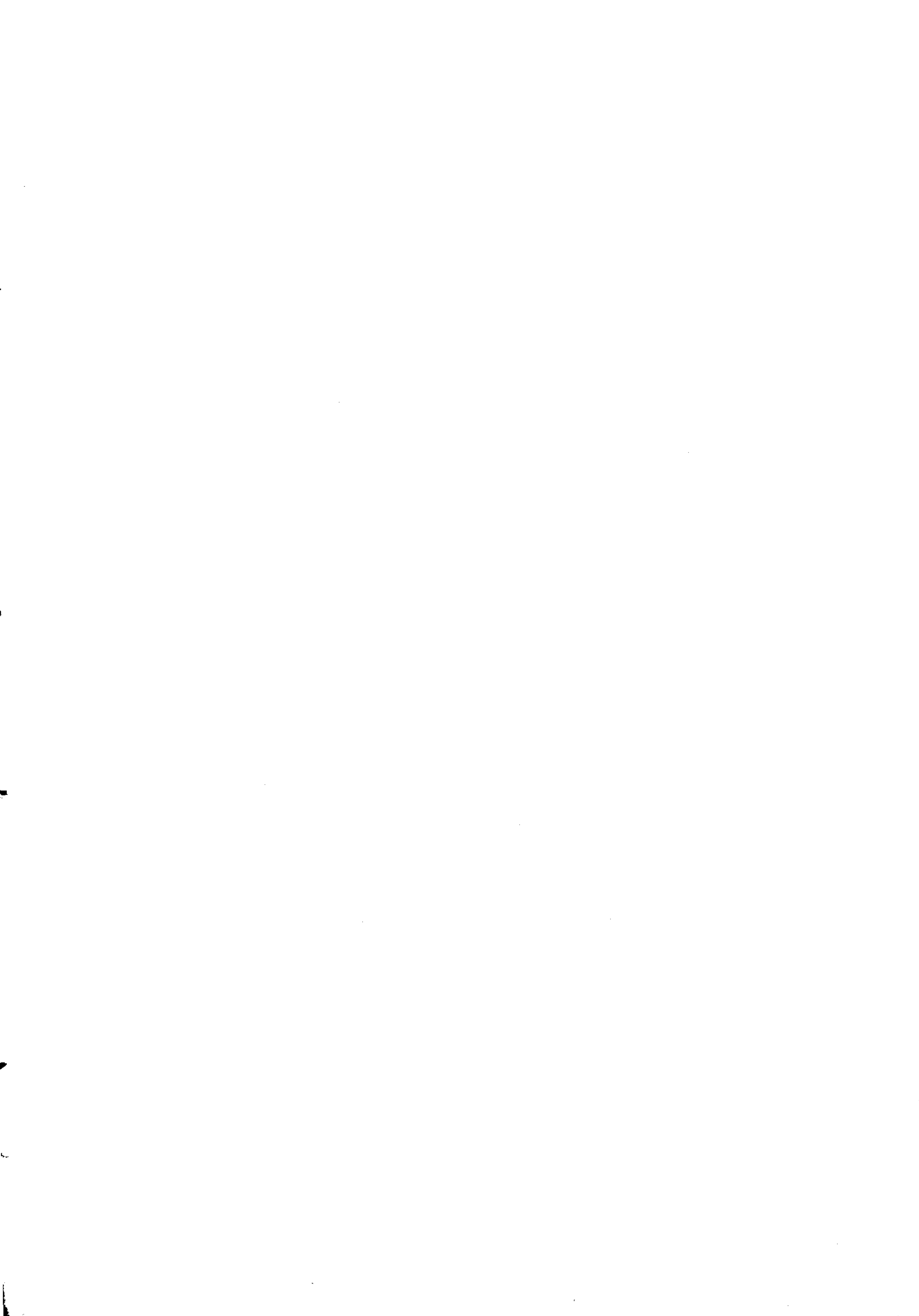
○ إلى جميع الآباء والأمهات الذين يريدون السعادة لأبنائهم في الدنيا والآخرة.

○ إلى جميع العاملين في حقلي التربية والتعليم الذين يريدون سعادة المجتمع وتقدمه.

○ إلى الذين ينادون بالجمع بين الأصالة والمعاصرة في التربية الإسلامية.

○ إلى هؤلاء جميعاً أهدي أول ثمرة قطفتها من ثمار التربية الإسلامية.

المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فإنه يطيب لي بعد إتمام هذا العمل بتوفيق الله أن أتقدم بالشكر الجزيل لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، التي تلقيت بها دراستي الجامعية في كلية الشريعة، وها أنا ذا أكمل دراستي العليا بها أيضاً، فإنني مدين لها بعد الله بالفضل، فلا أملك إلا أن أدعو للقائمين على هذه الجامعة العريقة والعاملين فيها، وعلى رأسهم معالي مديرها فضيلة الشيخ الدكتور عبدالله التركي، بالتوفيق والسداد فجزاهم الله عني خيراً.

كما أتقدم بالشكر لكلية العلوم الاجتماعية، وعميدها الشاب الدكتور محمد شديد العوفي الذي كان كثير السؤال عني وعن بحثي، والذي كان يدعو لي حال حضوري أو عند ذكر موضوعي حال غيابي، فجزاه الله عني خيراً.

كما أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان والتقدير لقسم التربية بهذه الكلية برئيسه وجميع أعضائه الذين أبدوا ملاحظاتهم الدقيقة والصادقة على خطة البحث، فقد أفادتني ملاحظاتهم في تقويم البحث وتسديده، فجزاهم الله خيراً.

أما أستاذي المشرف فضيلة الشيخ عبد الرحمن الباني، فإن لساني لعاجز عن شكره والثناء عليه، وإن قلمي لعاجز أيضاً عن التعبير عمّا يكنه قلبي له من تقدير وحب واحترام.

لقد فتح لي منزله أطرقه ليلاً ونهاراً فيقابلني برحابة صدر وطيب قلب وكرم جم، ويجلس معي جلسات علمية طويلة تستمر في كثير من الأحيان من الصباح الباكر إلى ما بعد العشاء، لا يتخللها إلا حضور الجماعة لأداء الصلوات كما فتح لي مكتبته القيّمة، وأعارني من كتبه الشيء الكثير، وبعض هذه الكتب من المصادر النادرة التي قد لا توجد في المكتبات العامة، وما دفعه إلى هذا إلا حبه في البحث العلمي، ورغبته في نشر العلم، ومساعدة طلابه، وإنني ويشهد الله على صدق قولي لا أملك له إلا الدعاء بظهر الغيب أن يمد الله في عمره وأن يوفقه لنشر العلم، وتربية الجيل وتوجيه الشباب، وأن يكسبنا وإيّاه الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعلنا ممن يسعى إلى كسب العلم النافع المقرون بالعمل الصالح.

كما أتقدم بالشكر والتقدير لسعادة كل من الدكتور بشير الحاج التوم الاستاذ المشارك بكلية التربية جامعة أم القرى بمكة. والدكتور مقداد يالجن الاستاذ المشارك بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على ما تكلفا من عناء في قراءة هذا البحث وتسديده وإبداء الملاحظات عليه فجزاهما الله عني كل خير.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من ساهم في إخراج هذا البحث من حين ما كان فكرة إلى أن أصبح عملاً معداً للمناقشة، وفي مقدمتهم ذاك الإنسان الذي وجدت عنده الأمن النفسي والجو الهادىء وخلوّ البال وراحة الضمير. والأستاذ عبدالله مبارك باحاوي مدير ثانوية مكة الذي فتح لي مدرسته بكل ما فيها من إمكانيات مادية، وقدّم لي كل دعم وسند، والاستاذ مسحل وادع الثبيتي مدير مدرسة الحسين بن علي الثانوية الذي هيأ لي الجو المناسب وخفّف عني كثيراً من الأعباء، وجميع الإخوة المدرسين والإداريين بهاتين المدرستين العامرتين.

فجزى الله الجميع عني خير الجزاء وأثابهم خير المثوبة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المؤلف

رموز الجامع الصغير وزيادته

لقد اعتمدت في تخريج بعض الأحاديث التي وردت في هذا الكتاب على كتابي: «صحيح الجامع الصغير وزيادته» و«ضعيف الجامع الصغير وزيادته» لمؤلفهما الشيخ: محمد ناصر الدين الألباني وحيث إن كتاب الجامع الصغير وزيادته للحافظ السيوطي قد وضع رموزاً لأمهات كتب السنة وهذه الرموز بحاجة إلى توضيح لذا رأيت لزاماً عليّ أن أنقل مفتاح هذه الرموز من الكتاب ذاته، وهي:

(خ) للبخاري
(م) لمسلم
(ق) لهما
(د) لأبي داود
(ت) للترمذي
(ن) للنسائي
(هـ) لابن ماجه
(٤) لهؤلاء الأربعة
(٣) لهم إلا ابن ماجه
(حم) لأحمد في «مسنده»
(عم) لابنه عبدالله في «مسنده»
(ك) للحاكم فإن كان في «مستدركه» أطلقت وإلا بينته.
(خد) للبخاري في «الأدب».

(تخ) له في «التاريخ».

(حب) لابن حبان في «صحيحه».

(طب) للطبراني في «الكبير»

(طس) له في «الأوسط».

(طص) له في «الصغير».

(ص) لسعيد بن منصور في «سننه»

(ش) لابن أبي شيبة.

(عب) لعبد الرزاق في «الجامع»

(ع) لأبي يعلى في «مسنده»

(قط) للدارقطني، فإن كان في «السنن» أطلقت وإلا بينته.

(فر) للديلمي في «مسند الفردوس»

(حل) لأبي نعيم في «الحلية»

(هب) للبيهقي في «شعب الإيمان».

(هق) له في «السنن».

(عد) لابن عدي في «الكامل»

(عق) للعقيلي في «الضعفاء».

(خط) للخطيب فإن كان في «التاريخ» أطلقت وإلا بينته[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته. محمد ناصر الدين الألباني ١/٢٦، ٢٧.

الباب الأول

مدخل عام للبحث

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : خطة البحث

الفصل الثاني : ابن القيم وعصره الذي عاش فيه .



هذا الباب جعلته مدخلاً عاماً للبحث. وهو عبارة عن فصلين:

الفصل الأول: توضيح للخطة التي اتبعتها في هذا الكتاب. فذكرت موضوع البحث. وأهميته. ودوافعه. ومسلمات البحث والدراسات السابقة له. ومنهجي في البحث ـ وحدوده ـ ومصطلحاته.

أما الفصل الثاني: فهو ترجمة لحياة ابن القيم، ونبذة تاريخية للعصر الذي عاش فيه: ففي الترجمة ذكرت اسمه وكنيته.. وتاريخ ولادته ـ ومكانته العلمية ـ ومؤلفاته، ومنهجه في التأليف، ومصادره، وخلقه وعبادته، وشيوخه وتلاميذه، وأقوال العلماء فيه، ووفاته، ثم ذكرت الحالة السياسية للعصر الذي عاش فيه. والحالة الاجتماعية السائدة في هذا العصر، والحالة العلمية.

. لأن في بيان هذا كشفاً لأهم الجوانب التي أثرت في شخصية ابن القيم بوصفه عالماً ومربياً ومصلحاً.



الفصل الأول

خطة البحث

- مقدمة
- موضوع البحث
- أهمية البحث ودوافعه
- مسلمات البحث
- الدراسات السابقة
- منهج البحث
- حدود البحث
- مصطلحات البحث



بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمـالنا، من يهـده الله فلا مضـلّ له، ومن يضلل فـلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهـد أن محمداً عبـده ورسولـه، ﴿يَـأَيُّهَا ٱلَّـذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُـواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِـهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١]، ﴿يَـأَيُّهَا ٱلنَّـاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّـذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّـذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[٢] ﴿يَـأَيُّهَـا ٱلَّذِينَ ءَامَنُـواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَـدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[٣] أما بعد:

فإن التربيـة في أي مجتمع تتـأثر بمـا فيه من مبـادىء ونظم وفلسفـات، فالمجتمع الرأسمالي القائم على أساس فردية الإنسان وحريتـه، يعظم من شأن الحرية زيادة عن الحد المعتدل، فيولي هذه الفردية عنـاية فـائقة إلى أبعد الحدود، ويترك لهذا الفرد الحرية المطلقة في جميع الأمـور، فالفـرد في هذا المجتمع لا يعترف بحق أحد في توجيهه، وضبط تصرفاته، ويرى أن من حقه أن يطلق العنان لشهواته وأهوائه، ولو حـطم الأخلاق وحـارب التقـاليد[٤]، فـالتربيـة في هذا المجتمـع قامت وبنيت على هـذا التصور،

(١) سورة آل عمران /١٠٢.

(٢) سورة النساء /١.

(٣) سورة الأحزاب /٧٠، ٧١.

(٤) انظر منهج التربية الإسلامية. محمد قطب ط ٥ سنة ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م. دار الشـروق ١٦٢/١.

فروادها نادوا بالحرية في التربية، ورأوا بأنه: (لا خير يمكن أن يصيب هذا العالم الإنساني إلا عن طريق النشاط الحر للأفراد رجالاً ونساءً)[1] ويؤمنون بـ: (أن من المثل العليا العامة التي تقررها الطبيعة ويؤيدها العقل أن يتمتع الشخص بالحرية في معالجته لشؤون الحياة بطريقته الخاصة، وفي استخلاصه خير ما تنطوي عليه من نفع وفائدة)[2]، فهم يرون أن: (... الحرية إن لم تكن مصدراً للسعادة فهي سر الخير في هذا العالم)[3].

أما المجتمع الشيوعي الذي يحارب النزعة الفردية ويحجر على كل نشاط للأفراد، ولا يترك لهم سبيلاً للاختيار، فالتربية فيه قائمة على أساس (أن النزعة الجماعية هي الأصل، فالطفل يولد ضعيفاً لا حول له ولا قوة ولا كيان، ولولا وجوده في الجماعة ما استطاع أن ينمو وأن يعيش، وهو في حاجة دائمة للجماعة لكي يستمر في وجوده، وإذن فالنزعة الفردية رجس ينبغي أن يقاوم، ينبغي أن تسحق هذه الرغبة وأن تزال)[4].

أما المجتمعُ الإسلاميُّ القائمُ على منهج الله عز وجل، الذي يُعْنىٰ بالفرد وبالمجتمع في آن واحد، فيأخذ بيد الفرد منذ ميلاده، وينظم علاقته بربه وخالقه، وعلاقته بنفسه وأسرته وبالبيئة الطبيعية من حوله، والمجتمع البشري على وجه العموم، ويأخذ بيد المجتمع وينظم شؤون حياته. فالمجتمع يتكون من أفراد ذوي اهتمامات وذوي شعور اجتماعي، وهم مسؤولون عن المجتمع الذي يعيشون فيه، وعن عمارة الكون، وإحقاق الحق، والدعوة إليه والدفاع عنه، ونشره بين الناس، فالتربية فيه ربانية

---

(١) التربية مادتها ومبادئها الأولية. سير برسي نن، ترجمة صالح عبد العزيز شحاتة، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦١م ص ١١.

(٢) المرجع السابق ص ١٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٦.

(٤) منهج التربية الاسلامية. محمد قطب ١٦٣/١.

الغاية محددة الأهدافِ والوسائلِ ، تحرص على إيجاد الفرد الصالح والمجتمع الصالح .

إذن للمجتمع المسلم تربيةٌ متميزةٌ، لا يصلح لهذا المجتمع أيّ نوع من أنواع التربية المبنية على تلك الفلسفات المتقدمة، وتطبيق أيّ لون من ألوان التربية عدا التربية الإسلامية في المجتمع المسلم سيجر على هذا المجتمع البلاء والشقاء وفقدان الأصالة الإسلامية. لكن الحقيقة التي لا مراء فيها ولا جدال أن الأمة القوية الممكنة في الأرض تملي فلسفاتها ونظمها التربوية على الأمم المغلوبة والضعيفة.

هذا وإن المتتبع لحركة التاريخ الآخذ منه العبرة والعظة يجد أن أمة الإسلام فيما مضى من الزمان كانت هي القائدة لركب البشرية، لأنها كانت مؤهلة لهذه المسؤولية فكرياً وتربوياً وعسكرياً وسياسياً. فسادت أفكارها وعقيدتها وثقافتها ونظمها التربوية كثيراً من أرجاء المعمورة.

ثم حلت بها دواعي التأخر والجمود، وجرت عليها في تقدمها وتأخرها سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[1] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[2].

والسؤال الذي يطرح نفسه: بماذا تسود أمة من الأمم على غيرها وتأخذ بزمامها، وتملي عليها مبادئها وأفكارها وثقافتها؟ وما هي الأسباب والدواعي التي إذا توافرت فيها جعلتها تذوي وتضمحل وتعود في مُؤخّرةِ القافلة البشرية؟

إن الأمة التي تروم التقدم، وتستشرف للقيادة، وترجو السيادة لا بد وأن تأخذ بنصيب وافر من العلم والمعرفة يمكنها من ذلك، فتنظرَ في علوم الأولين وثقافات الماضين، وتراثهم العلمي، نظر إنعام وفهم وتدبر

(١) سورة الأحزاب /٦٢.

(٢) سورة فاطر /٤٣.

وتمحيص وغربلة، ثم تختار من هذا التراث ما يلائم عصرها، ويلبي حاجاتها في حاضرها ومستقبلها ولا يصطدم مع عقائدها، ثم تنمي ما اختارت من هذا التراث، وتحافظ عليّه، وتستعمل في هذا الاختيار بعد التمحيص والغربلة ما وهبها الله عز وجل من أدوات العلم ووسائله من السمع والبصر والفؤاد. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(1).

فأمة الإسلام في عهدها الزاهر ومجدها التليد جاءت إلى تراث الأمم السابقة من اليونان والفرس والهنود فعربته وأمعنت النظر فيه، وأخذت منه ما رأت أنه يلائم شخصيتها، ويتفق مع مصالحها، ولا يصطدم بعقائدها وأفكارها واتجاهاتها، ثم أضافت إليه وزادت فيه، وصبغته بالصبغة الإلّهية، فإذا بالعلوم الإنسانية، والعلوم التجريبية، وكثير من العلوم والمعارف محاطةً بإطارِ الإسلامِ.

هذه الأمة كانت لها شخصيتها المتميزة ورسالتها السامية، ومناهجها المتفردة التي حددت لها غايتها وبينت لها أهدافها ورسمت لها طرق هدايتها وسيرها إلى خالقها، ونظمت لها جميع شؤون حياتها، في الأمور التربوية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك.

واليوم نشاهد ـ مع الأسف ـ أمة الإسلام في مُؤخَرَة ركب البشرية تغط في سبات نوم عميق، وما ذلك إلا لأن دواعيَ التأخرِ وأسبابه قد توافرت فيها، فتحجرت الأفكار، وركدت العقول، وتقاعست الهمم، واستحوذ عليها الخمول والكسل، وفرّطت في كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ فأصبحت محاطة بالذئاب الضارية قد مُزِّق جسدُها ونُهبت خيراتُها وضاعت ثروتها، وأصبحت لقمة سائغة لأعدائها، وقُضي على الخلافة الإسلامية التي كانت سبباً في تماسكها وقوتها، وتوزع الأعداء تركة ما سموه بالرجل المريض.

(1) سورة النحل /٧٨.

ومنذ ذلك الوقت وهذه الأمة في كثير من البلدان تحكم بغير شريعة الإسلام ويربى أفرادها بمناهج مستوردة تحمل ثقافة المستعمرين وأفكارهم ومبادئهم، المناوئة لعقائد الأمة ومبادئها وأفكارها.

وبعد مرور زمن غير قصير على هذا الاستعمار، فكر الأعداء المستعمرون أن استعمارهم العسكري قد لا يطول كثيراً ففكروا في البديل الأمثل، فكان القرار النهائي منهم هو إحكام الغزو الفكري وأسْرُ العقول وجعلها تدور في فلكهم، وتحرص على مصالحهم، فقاموا بتربية جيل من شباب الأمة غذوهم بأفكارهم وصبغوهم بثقافتهم وحمّلوهم عقائدهم وفكرهم ومبادئهم، ثم بعد أن صنعوهم هذه الصناعة المحكمة، رحلوا من ديار الإسلام وقد سلموهم قيادة الأمة فكرياً وثقافياً وعقيدياً، وأوهموا الشعوب المغلوبة أن ساعة التحرير قد حانت فرحل الأجنبي وحررت البلاد مع أن الحقيقة غيرُ ذلك؛ فقد قام أولئك الصنائع بالمهمة التي أناطها بهم أسيادهم خير قيام، فألفوا لها الكتب واستخدموا سلاح الفكر، وناضلوا عن الثقافة التي أُشربوا حبها والإيمان بنفعها، فخرج منهم من ينادي بوحدانية العلم، ناسياً أو متناسياً وحدانية الله الفرد الصمد، فيضع في مقدمة كتاب ألفه العبارة الآتية: (إلى كل من يؤمن بوحدانية العلم كمعبر نحو مستقبل أفضل)[1].

ومنهم من جعل الأساس الاقتصادي هو الذي يحدد مسار التطور الاجتماعي والسياسي وما يرتبط به من قيم واتجاهات في مجتمعنا، ويرى أنه (من البديهيات التي لا تقبل الجدل أن النظام السياسي في أي بلد ما هو إلّا انعكاس للأوضاع الاقتصادية)[2]، فالاتجاه الذي يجعل كل النظم

---

(١) أبعاد مطورة للفكر التربوي. نبيه يس. مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م. صفحة الإهداء.

(٢) في أصول التربية. الأصول الثقافية. محمد الهادي عفيفي. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة ١٩٧٦ م ص ١٣١

منبثقة من الأساس الاقتصادي ما هو إلا اتجاه يساري ومبدأ شيوعي لا مجال للدين فيه.

لهذا أصبحت التربية في غالب ديار الإسلام لا تنطلق من منطلقات إسلامية، بل هي متأرجحة بين الشرق الملحد والغرب المنحلّ الكافر، فقلدت الشعوب المسلمة أعداءها في كل شيء، في نظم التربية والتعليم ومسار الثقافة، وأساليب التفكير.

ولكن مع هذا الواقع المؤلم نرى ولله الحمد بشائر الأمل والرجاء متمثلة في هذا الاتجاه القوي الذي ينادي بالعودة إلى الأصالة الإسلامية والرجوع إلى المنهج الرباني، فالله سبحانه الذي تكفل بحفظ هذا الدين وحراسة منهجه لا زال يغرس في هذه الأمة غرساً إلى يوم القيامة، يحملون العلم أمانة وينشرونه عبادة، فيستحقون بذلك وصف رسول الله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله يَنْفَون عنه تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين»[1]... يقول ابن القيم في ذلك: (اخبر ﷺ أن العلم الذي جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب..)[2].

من هؤلاء من كتب عن التربية في الإسلام وبيّن أصالتها في وضوح غايتها وكفاية أهدافها وسلامة وسائلها وأساليبها وذكر مؤسساتها وتاريخها إلى غير ذلك من الجهود الموفقة بإذن الله تعالى[3].

---

(١) الحديث للديلمي في مسند الفردوس من كنوز الحقائق في أحاديث خير الخلائق. المناوي ط ٤ مصطفى الحلبي ٢/١٩٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة. ابن القيم من توزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد. الرياض ١/١٦٣-

(٣) مثل: معالم في التربية د/ عجيل النشمي، التربية الإسلامية الحرة - أبو الحسن الندوي، من معين التربية الإسلامية - محمد منير الغضبان، منهج القرآن في التربية. محمد شديد، التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة. النحلاوي، التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة د / إسحق أحمد فرحان، منهج التربية الإسلامية. محمد قطب. إلى غير ذلك من الكتب.

وهم بعملهم هذا إنما ينهلون من منبع لا يَنْضَبْ ومعين لا يجف، فهذه التربية التي يدندنون حولها هي التي بُعث بها رسول الله ﷺ فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] وهي التي برزت جوانبها العملية التطبيقية في سلوكه وأخلاقه عليه أفضل الصلاة والسلام فـ «كان خلقه القرآن»[2] كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهي التي ربى بها رسول الله ﷺ جيل الصحابة، الذي يعتبر جيلاً فريداً في التاريخ.

فإذا أردنا للتربية ثماراً كتلك الثمار، وكانت إرادتُنا صادقةً مخلصة فعلينا أن نبني هذه التربية على منهج الإسلام الواضح، كتاب الله الكريم وسنة نبيه الأمين ﷺ، عندئذ تتضح غاية هذه التربية وأهدافها ووسائلها.

وباستعراضنا للتربية الإسلامية التي قام بها الرسول ﷺ نجد أنه وهو المعلم الأول والقدوة إلى الخير قد حَرَص على تربية أمته تربية سليمة متزنة وشاملة مكنتها من أداء دورها في الوجود ورسالتها في الحياة فاستحقت الأمة التي ربِّيت عليها وصف الله لها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[3].

فربى الرسول ﷺ الفرد ووجه سلوكه بمثل قوله: «قل آمنت بالله ثم استقم»[4] ونزل الوحي عليه ليوجه الإنسان إلى العمل في الدنيا والإصلاح فيها وعمارتها واجتناب الإفساد فيها وحثه على استغلال خيراتها بجانب العمل للآخرة والاتجاه إلى الله فقال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ

---

(١) صحيح رواه (ابن سعد، خ، ك، هب) عن أبي هريرة. من صحيح الجامع الصغير وزيادته. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي. بيروت ط ٣ سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م. ٢/ ٢٨٥. رقم الحديث ٢٣٤٥.

(٢) صحيح رواه (حم، م، د) عن عائشة. من صحيح الجامع الصغير وزيادته. الألباني ٤/ ٢٣٨، رقم الحديث ٤٦٨٧.

(٣) سورة آل عمران / ١١٠.

(٤) صحيح رواه (حم، م، ت، ن، هـ) عن سفيان بن عبدالله الثقفي. من صحيح الجامع الصغير وزيادته. الألباني ٤/ ١٣٨. رقم الحديث ٤٢٧١.

ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1] وذكّره بمراقبة الله له على كل حال، وتلا عليه قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] كما حمَّل الأسرة بما فيها من أفراد وفي مقدمتهم الأبوان مسؤولية التربية وأمانة رعاية الطفل، فقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه»[3]، وجعل هذه التربية مسؤولية عظيمة في عنق الآباء والأمهات، يسألون عنها أمام الله عز وجل فقال ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها»[4]، ونزل عليه الوحي محذراً المؤمنين من أسباب غضب الله وسوء عقابه وداعياً لهم إلى وقاية أنفسهم وأهليهم من النار، بتعليمهم ما ينفعُهم في أمر دينهم ودنياهم قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ. . .﴾[5].

من هذا وغيره يتضح أن التربية في الإسلام واضحةُ المعالمِ محددةُ الغاية والأهداف معروفة الوسائل والأساليب، نجد ذلك في ثنايا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وأن محور هذه التربية هو الإنسان بروحه وعقله

(١) سورة القصص /٧٧.

(٢) سورة المجادلة /٧.

(٣) صحيح رواه (ع، طب) عن الأسود بن سريع. من صحيح الجامع الصغير وزيادته. الألباني ٤/١٨١ رقم الحديث ٤٤٣٥.

(٤) صحيح رواه (حم، ق، د، ت) عن ابن عمر. من صحيح الجامع الصغير وزيادته. الألباني ٤/١٨٤ رقم الحديث ٤٤٤٥.

(٥) سورة التحريم /٦.

وقلبه وبدنه، وأن المربِّي الحق هو الله عز وجل القائل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[1] وهو الذي: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ، عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[2]، وغاية هذه التربية تعبيد الإنسانِ لربه وخالقه سبحانه وتعالى، تحقيقاً لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3]، ولقد بينت لهذا الإنسان المسؤولية المناطة به، ألا وهي عمارة الأرض والاستخلاف فيها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[4]، وقال: ﴿. . . وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[5]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[6]، وبينت هذه التربية أن الإنسان مخلوق مكرم ومفضل على كثير من المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[7]، وبينت له أنه أُعطي من الوسائل ما يستطيع به كسب العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[8]، وبينت له أن الله قد سخر له ما في السموات وما في الأرض، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾[9]، كل ذلك ليحققَ تلك الغاية التي خلقه الله من أجلها، ويقومَ بتلك المسؤوليةِ التي كلفه الله القيام بها. فهذه النصوص وغيرها تعطينا الدليل القاطع على سعة الإسلام وشموله، وأن التربية التي ينادي بها تحقق التوازن في حياة المسلم في دينه ودنياه.

---

(١) سورة الفاتحة /٢.
(٢) سورة الرحمن /٣، ٤.
(٣) سورة الذاريات /٥٦.
(٤) سورة الأنعام /١٦٥.
(٥) سورة هود /٦١.
(٦) سورة البقرة /٣٠.
(٧) سورة الإسراء /٧٠.
(٨) سورة النحل /٧٨.
(٩) سورة الجاثية /١٣.

أما وقد عـرفنا أن هنـاك تربيـةً إسـلاميةً لها أسسهـا وأهدافهـا ووسائلهـا وخصائصها، فهل لعلمائنا السابقين أو لبعضهم جهود تبرز جوانب هذه التـربية ومعالمها الأسـاسية، وهل لهم اجتهادات في هذه التـربية المـاثـلة في الكتاب والسنـة، ثم هل هنـاك أحد من الكتـاب أو الباحثين المعـاصرين تنـاول هؤلاء العلماء بالدراسة والبحث وأبرز جهودهم وتراثهم وآراءهم في التربية؟

فلو أخذنا مثلاً ابن القيم بوصفه عالماً من هؤلاء العلماء، نجد مبدئياً أن له بجانب جهـوده في الفقه والعقـائد والتصـوف والنحو واللغة بعض الإشارات واللمحات الواردة في بعض كتبه والتي لها دلالات تربويـة، فمثلاً في معـرض حديثه عن الفطرة التي هي المحور الذي تقوم عليه التربيـة، يقول: (. . . فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعـرض لها مـا يفسدهـا ويحولهـا ويغيرهـا عما فطرت عليه ولأقرت(*) بوحـدانيته ووجـوب شكره وطـاعته)[١]، وقـد أشار في مَعْرِضِ حديثه عن المراتب التي تمر بها المعلومـات في الذهن قبـل تبلورها، وهي إشـارة ذات علاقـة وثيقة بـالإدراك والتعلم، أشـار إلى أن التعليم بـالقلم يستلزم ثلاث مراتب: مرتبة الـوجود الـذهني الذي يميـز فيه بين المعلومـات، ومـرتبة الـوجود اللفـظي الذي يعبـر به عن تلك المعلومـات، ومرتبـة الـوجـود الرسمي الذي ترسم به تلك الألفاظ[٢].

ويقول في تربية الطفل، وحاجته إلى التربيـة الخلقية، وأن الأخـلاق أيّاً كان نوعها يكتسبها بالتعويد في سن مبكرة، ما نصه: (. . . وممـا يحتاج إليـه الطفل غاية الاحتيـاج الاعتناء بـأمر خلقـه فإنـه ينشأ على مـا عوده المـربِّي في صغـره من حَـرْدٍ[٣]، وغضب، ولجـاج، وعجلة، وخفـة مـع هـواه، وطيش، وحدَّة، وجشع، فيصعب عليه تلافي ذلك. .)[٤].

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/ ٢٨٠.

(٢) انظر المفتاح. ابن القيم ١/ ٢٧٩، ٢٨٠.

(٣) حرد: معناها: الاعتزال والتنحي.

(٤) تحفة المودود بأحكام المولود: ابن القيم ط ١سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م مكتبة دار البيان بدمشق تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ص ٢٤٠.

(*) هكذا. ولعله تصحيف والصواب «لأقرت» بالقاف ودون واو ـ والله أعلم.

فهذه النصوص تَلْفِت النظر إلى اهتمامات تربوية لدى هذا العالم، ولقد أشار عليَّ من أثق برأيه، وأطمئن لدينه وخلقه وإخلاصه وثقته، أَحْسَبُه كذلك ولا أزكيه على الله، أن أتحرى ما لدى هذا العالم من فكر تربوي، فوجدت هذه المشورة قبولاً في نفسي ورغبة مني في البحث، فاستخرت الله وعملت بالنصيحة، وبدأت بالعمل مستعيناً بالله عز وجل، سائلاً إياه التوفيق والسداد.

وهكذا أراني أصبحت وجهاً لوجه أمام موضوع يستدعي البحث.

فما هو موضوع البحث؟

لبلورة الموضوع طرحت على نفسي الأسئلة الآتية:

هل النصوص والآراء التي ذكرت آنفاً والمقتبسة من كتب ابن القيم لها أخوات؟ وهل تدل بمجموعها على فكر تربوي أصيل؟ وهل هذا الفكر بارز فيما كتبه، أم إنه يحتاج إلى استنباط ودراسة؟ وهل هذا الفكر في كتاب واحد أم هو موزع في كتبه؟ ثم ألا يحتاج هذا الفكر إلى عرض منظم يقربه من ثقافتنا التربوية المعاصرة؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ونحوها ستبرز ما لدى هذا الإمام السلفي من فكر تربوي بشكل واضح وجلي إن شاء الله تعالى.

ومن منطلق الرغبة في المساهمة في مجال البحث العلمي التربوي تقدمت للتسجيل في قسم الدراسات العليا بكلية العلوم الاجتماعية، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، قسم التربية، واخترت عنوان البحث: «الفكر التربوي عند ابن القيم».

أهمية البحث ودوافعه:

إذا كان البحث في التراث مهماً بصفة عامة فإن له أهمية خاصة في مجال التربية؛ لأن التربية من أخطر الثغور، فما أحوجنا إلى تأصيل التربية في ديار الإسلام، وبنائها على أسس متينة وثابتة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لتخريج أجيال يعرفون ما لهم وما عليهم، تجاه أنفسهم وخالقهم وأمتهم

والبشرية، ولقد اخترت هذا الموضوع بدوافع منها:

١ ـ الرغبة في إبراز الفكر التربوي لعلم من أعلام الإسلام.

٢ ـ المشاركة في علاج ما أشاهده من انحراف في الفكر التربوي لدى كثير من الكتاب المسلمين في التربية، وافتتان بنظم التربية الغربية والشرقية على حد سواء[1] وبالتالي فقدان الأصالة الإسلامية في تربيتنا والتورط في التبعية الفكرية العمياء لرجال التربية الحديثة.

٣ ـ ما رأيته من اتهام التربية الإسلامية بأنها لا تهتم بالحياة الإنسانية والعلوم الكونية وأن مجالها العلم الديني فقط.

٤ ـ نظم ما تناثر من آراء ابن القيم التربوية في ثنايا كتبه العديدة. فإن تناثرها يجعل من الصعب على القارىء أو الدارس في التربية أن يلمّ بها إلاّ بعد جهد مشقة.

٥ ـ الإسهام في تأصيل التربية عن طريق الوقوف على التراث التربوي الإسلامي.

مسلمات البحث:

١ ـ استناد النظريات التربوية عند علماء المسلمين، ومن بينهم ابن القيم، على نصوص الكتاب والسنة وقواعد العقل السليم والفطرة السوية، والخبرة والتجربة.

٢ ـ شمولية التربية لجميع مناحي الحياة، وتعدد جوانبها ووحدة غايتها وتعدد أهدافها عند علماء المسلمين عامة، وبالأخص عند ابن القيم.

٣ ـ سبق علماء المسلمين إلى وضع نظريات تربوية هامة.

٤ ـ ممارسة علماء المسلمين للعملية التربوية التعليمية.

---

(١) انظر ص (٢٣) من هذه المقدمة. الحاشية رقم (١) و (٢).

٥ ـ محور العملية التربوية الإسلامية هو الإنسان بروحه وعقله وقلبه وقالبه.

الدراسات السابقة:

لا يوجد على حد علمي إلى الآن أيّ كتاب عن الفكر التربوي لابن القيم، عدا مقال مختصر، بعنوان: «آراء ابن القيم في التربية» للأستاذ عبد الناصر عيسوي، نشر في مجلة «منار الإسلام» العدد: الحادي عشر، في شهر ذي القعدة، من السنة السابعة لعام ١٤٠٢ هـ، وهو في حدود ثمان صفحات من صفحة ٦٨ إلى ٧٦.

ذكر الكاتب بعض آراء ابن القيم، وبين أنها واقعية، وليست خيالية، وأنها إرشادات للآباء والمربين، وذكر تبعاً لابن القيم الآثار والنتائج المترتبة على سوء التربية، وكيفية معالجتها، وأن تربية الأولاد واجب على الآباء والمسؤولين عن تربيتهم، وذكر استشهاده أو استدلاله على ذلك بنصوص من الكتاب والسنة مع ما استأنس به ابن القيم من أقوال الصحابة.

كما أورد رأي ابن القيم في أهمية العدل بين الأولاد ونتائجه من إشاعة روح المحبة والألفة والطمأنينة بينهم، فأورد النصوص التي استدل بها ابن القيم على وجوب العدل بين الأبناء، وقد أشاد الكاتب بمنهج ابن القيم في التأليف، وذكر أنه عملي يستفاد منه في الواقع المعاش، كما أن الكاتب ألمح إلى أن ابن القيم يحمِّل الآباء والمربين مسؤولية الشذوذ لدى الاطفال.

ذكر الكاتب أن ابن القَيم يدعو كلاًّ من الآباء والمربين أن يهتموا بتربية أبنائهم ويركزوا على:

١ ـ غرس محبة الله ومحبة رسوله في نفوس الأبناء.

٢ ـ الاهتمام بالتربية العقلية وإبعاد الأطفال عن كل ما يخيفهم ويفزعهم.

٣ ـ الاهتمام بالتربية الخلقية وتعويدهم الألفاظ الحسنة والأخلاق الحميدة، وحب الخير، وكراهية الشر.

٤ ـ المحافظة على الاستعداد النفسي الجيد، وتنمية الميول والمواهب.

وقد اعتمد الكاتب في ذلك على كتاب ابن القيم «تحفة المودود بأحكام المولود».

هـذا وإن ما قـام به الكـاتب يعتبر حسنـاً في إبـراز بعض آراء ابن القيم التربوية، إلا أن ما ذكـره لا يبلور الفكر التـربوي لـدى ابن القيم، ولا يوضـح الصورة التي رسمها لطبيعة الإنسان، والإنسان الكامل، ونوعية التربية التي تعدّه والمفهوم الصحيح لها، ونظرته إلى الكون والحياة، ولا يعطي فكرة عن مفهوم الفطرة والعبادة لديه، ولا يبين غاية التربية وأهدافها ووسـائلها عنـده، ولا يبين نوعية المحتوى الذي يقدم لهذه التربية، والـطريقة التي يقـدّم بها المحتـوى، ولا جـوانب هذه التـربية، ووسـائطها. فما ذكـره الكـاتب في هـذه الصفحـات المحـدودة على ما فيـه من فضل السبق لا يكفي للتعـريف بفكر هـذا المـربِّي المسلم لذا فإنني سأتناول بإذن الله فكر هذا المربِّي، بشكل واضح متكامل.

منهج البحث:

أما منهج البحث الـذي ارتضيته لهـذه الدراسـة فهو يجمع بين المنهـج الاستنبـاطي والمنهج التـاريخي الوصفي فـأقوم بجمـع آراء ابن القيم التربـوية وترتيبها وتصنيفها وتبويبهـا على ضوء المفـاهيم التربـوية المعـاصرة، وأوردهـا شارحاً لها ومعلقاً عليها دون إسهاب إلا مـا تقتضيه حـاجة البحث، وقـد رأيت باديء الأمر أن أجري دراسة مقارنة بين فكره والفكر التـربوي المعـاصر، لكن عـدلت عن هذا الـرأي، لأنـي تبينـت بـأن الـدراسـة المقـارنـة تستحق بحثـاً مستقلاً، فإن كان في العمر متسع فإنني سأقوم بهذا العمل إن شـاء الله تعالى. وحسبي الآن جمع أفكاره التربوية المتناثرة في كتبه الكثيرة وترتيبهـا وتصنيفها. كم أنني لمـا أُخَـرِّج الآثـار، واكتفيت بتخـريـج الأحـاديث التي أذكـرهـا في كلامي، أما الأحاديث التي يوردها ابن القيم فأخرِّج منها ما أجده ميسراً، أما إذا أعياني البحث عن الحديث فأكتفي بذكر ابن القيم له في الكتـاب الذي أورده فيه.

حدود البحث:

إنني في استقصاء الفكر التربوي لابن القيم اعتمدت بعد الله عز وجل على كتب ابن القيم نفسه، وبالذات المطبوع منها. . .

مصطلحات البحث:

١ ـ النظرية التربوية الإسلامية:

هي: (مجموعة مترابطة من قواعد ومفاهيم ومبادىء تربوية مستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة تكون الأساس المتين لبناء تربوي يهدي للعمل)[١].

٢ ـ التربية الإسلامية:

هي: (تلك الجهود التي يبذلها المربّون لتنمية المربيَّ وتنشئته ورعايته حتى ينمو ويترعرع ويبلغ كماله اللائق به في جميع الجوانب الروحية والفكرية والخلقية والاجتماعية والارادية والبدنية والجنسية، ليعيش سعيداً في دنياه وآخرته، ويكون إيجابياً في مجتمعه الذي يعيش فيه.

كما أنها تطلق على تلك الجهود التي يبذلها المربّون في تربية الأمّة على منهج الله عز وجل المتمثل في كتابه وسنة نبيه ﷺ.

وهذه الجهود مستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة ومسترشدة باجتهاد علماء الإسلام في التربية)[٢].

٣ ـ الوسيلة التربوية:

هي الطريقة التي تحقق بها التربية بعض أهدافها وشيئاً من غايتها.

٤ ـ الأسلوب التربوي:

هو النهج الذي يختطه المربِّي لنفسه في تنمية المربَّى ـ وتنشئته.

---

(١) تأصيل تربية المعلم. دكتور بشير الحاج التوم. ط ١ سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م مطابع الصفا. مكة المكرمة ص ٣٢.

(٢) انظر هذه الرسالة ص: ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩.

٥ ـ السعادة:

ضد الشقاوة تقول: منه «سعد» الرجل من باب سلم فهو «سعيد»[1].

٦ ـ الفكر التربوي:

هو التصور المتكامل لفلسفة التربية وأصولها وأسسها وغايتها وأهدافها.

٧ ـ النظرية التربوية:

(تستمد النظرية التربوية مفهومها في أي مجتمع من العقيدة أو الفلسفة السائدة فيه سواء أكانت عقيدة دينية أو فلسفة مثالية أو مادية أو طبيعية)[2].

وبعد فإن وفقت فبفضل الله وكرمه وَمَنِّهِ وعطائه، وإلّا فما هي إلّا باكورة عمل ومحاولة متواضعة وخطوة في مشوار، وميدان البحث والدراسة لا يعرف الكلمة الأخيرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) مختار الصحاح. الرازي. مادة «سعد».

(٢) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ـ ماجد عرسان الكيلاني. ط ١ سنة ١٩٧٨ م جمعية عمال المطابع التعاونية عمان ص ٢٣.

الفصل الثاني

ابن القيم وعصره الذي عاش فيه

ـ ابن القيّم حياته ومنهجه :

تمهيد .

اسمه وكنيته .

تاريخ ولادته .

مكانته العلمية .

مؤلفاته .

منهجه في التأليف .

مصادره .

خلقه وعبادته .

شيوخه .

تلاميذه .

أقوال العلماء فيه .

وفاته .

ـ العصر الذي عاش فيه :

الناحية السياسية .

الناحية الاجتماعية .

الناحية العلمية .



ابن القيم حياته ومنهجه

تمهيد:

في هذا الفصل من الرسالة سأتحدث عن أهم ملامح شخصية ابن القيم بوضع ترجمة لحياته، وبيان لمنهجه في التأليف.

كما أعطي لمحة تاريخية مختصرة عن العصر الذي عاش فيه، من الناحية السياسية، والناحية الاجتماعية، والناحية العلمية.

والذي دفعني إلى الكتابة في هذا هو الإيمان بأن التعرض لآراء أي شخص في ميدان من الميادين بالدراسة والبحث، يتطلب التعرف بوجه عام على حياته وآثاره العلمية، كما يتطلب معرفة أوضاع عصره الذي عاش فيه، لأن هذه الآراء تتأثر بأوضاع العصر الذي نشأت فيه الشخصية، وبالاتجاه العام لتلك الشخصية..

هذا وابن القيم علم من أعلام المسلمين البارزين، ولقد كُتب عنه الكثيرُ من الكتب والأطروحات العلمية، وفي كل كتابة عنه يتعرض الكاتب أو الباحث للترجمة عن حياته، لذا فإنني سأختصر الحديث في الترجمة عنه بما يعطي لمحة سريعة عن شخصيته والصفات البارزة فيه، وأحيل القارىء الذي يريد التوسع في دراسة حياة هذا العالم إلى تلك الكتب والبحوث، بل إلى مصادرها.

اسمه وكنيته:

هو (محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، ثم

الدمشقي . .)[1] (. . شمس الدين أبو عبدالله، ابن قيم الجوزية(*))[2].

تاريخ ولادته:

(ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة . .)[3].

(مولده ووفاته في دمشق)[4]. .

مكانته العلمية:

في هذا المبحث سنتناول بإذن الله مكانة ابن القيم العلمية بشيء من التفصيل، كما ورد في كتب التراجم وما ورد في كتبه ومؤلفاته من مناقشات علمية، وأمور ثقافية تدل على سعة اطلاعه وغزارة علمه وعمق ثقافته. ذكرت كتب التراجم أنه: (سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع في علوم متعددة، لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين، ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ،

---

(١) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة. ابن رجب. وقف على طبعه وصححه محمد حامد الفقي سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م. مطبعة السنة المحمدية ٢/٤٤٧.

(*) المدرسة الجوزية بدمشق: «هي بسوق القمح بالقرب من الجامع الأموي أنشأها محيي الدين ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله . . . في أيام الملك الصالح عماد الدين» اهـ.

من الدارس في تاريخ المدارس. تأليف عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي. نشر وتحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م، ٢/٢٩ وجاء في الحاشية من نفس الصفحة وفي نفس الجزء ما نصه: «في سوق البزورية، جوار قصر العظم، وغربيه حرقت ودرست، وجدد مكانها مخازن ومصلى بسيط، وكان على عتبة بابها الكتابة الآتية:

«البسملة. هذا ما وقف الصاحب محيي الدين ابن الجوزي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وقف عليها قرية غزارا بالشعراء، ومن قرية فاما باليرموك الربع والثمن، ومثله من دير ابن عصرون في الغوطة، ومن مزرعتين بأرض المليحة، وقرية رنكوس، تقبل الله منه، فرغ من عمل هذه المدرسة في سنة اثنتين وخمسين وستمائة . .» اهـ من حاشية الدارس للنعيمي ٢/٢٩.

(٢) كتاب الذيل. ابن رجب. ٢/٤٤٧.

(٣) المرجع السابق ٢/٤٥٠.

(٤) الاعلام. خير الدين الزركلي ط ٥، سنة ١٩٨٠ دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان ٦/٥٦.

فأخذ عنه علماً جمّاً، مع ما سلف من الاشتغال فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً، وكثرة الابتهال وكان حسن القراءة. . .)[1]، ولقد وصفه أحد تلاميذه، فقال عنه: (. . . الفقيه الأصولي، المفسر، النحوي، العارف. . . ، تفقه في المذهب [الحنبلي][*]، وبرع وأفتى ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية وله فيها اليد الطولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالماً بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى، قال الذهبي في المختصر[2]: «عني بالحديث ومتونه، وبعض[3]

---

(١) البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير. دار الفكر العربي ١٤/٢٣٤.

(*) زيادة للإيضاح.

(٢) هكذا. ولعله تصحيف. والصواب: «المختص»، لأن من آثار الذهبي: «المعجم المختص بمحدثي العصر» ذكره بنفسه فقال: «. . . وقد كنت ألفت معجماً لي يختص بمن طلب هذا الشأن [يعني الحديث النبوي][**] من شيوخي ورفاقي فاستوعبت من له أدنى عمل وبينت أحوالهم) ا. هـ تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي ط ٣ سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند ٤/١٥٠٠.

وقال عنه ابن حجر: (. . وخرج لنفسه المعجم الكبير والصغير والمختص بالمحدثين فذكر فيه غالب الطلبة من أهل ذلك العصر وعاش الكثير منهم بعده إلى نحو أربعين سنة) ا. هـ. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ابن حجر تحقيق محمد سيد جاد الحق. دار الكتب الحديثة ٣/٤٢٦، ٤٢٧.

وقال الدكتور بشار عواد معروف. بعد أن أورد قول الذهبي، وقول ابن حجر: «. . وذكره السبكي، وابن تغري بردي، وابن العماد، وتحرف في الإعلان للسخاوي، وكشف الظنون، وفهرس الأوقاف إلى «المختصر» وهو وهم جد ظاهر) ا. هـ. من كتاب (الذهبي ومنهجه في كتابة تاريخ الاسلام). الدكتور: بشار عواد معروف. ط ١. سنة ١٩٧٦ م. مطبعة: عيسى البابي الحلبي. القاهرة. ص ١٨٥، ١٨٦.

(٣) هكذا. ولعله تصحيف. والصواب: «فحص». والله أعلم.

(**) زيادة للايضاح انظر كتاب (الذهبي ومنهجه في كتابة تاريخ الإسلام الدكتور: بشار عواد معروف. ص ١٨٥.

رجاله، وكان يشتغل في الفقه، ويجيد تقريره وتدريسه وفي الأصلين... وتصدى للاشغال وإقراء العلم ونشره»... ودرّس بالصدرية[1] وأم بالجوزية مدة طويلة، وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة)[2].

ومما يدل على غزارة علمه وعمق ثقافته وطول باعه في التأليف ما تركه من تراث علمي في فنون شتى من المعرفة، وما كتبه في كثير من المواضيع والقضايا العلمية، لدرجة أن المطلع على ما كتبه في قضية من القضايا أو أمر من الأمور أو فن من الفنون يقول: إنه لا يحسن غير ذلك، والأدلة على هذا كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ مقدرته الكبيرة في الردّ على أصحاب المناهج والأفكار المنحرفة المبنية على الأوهام والخيالات كرده على المنجمين وإبطال مزاعمهم[3] واطلاعه الواسع على كثير من الكتب التي تعينه على الردّ عليهم، ذكر هذا عن نفسه فقال: (... فقد رأينا نحن وغيرنا ما يزيد على مائة مصنف في الرد على أهله [التنجيم][*] وإبطال أقوالهم وهذه كتبهم بأيدي الناس وكثير منها للفلاسفة الذين يعظمهم هؤلاء ويرون أنهم خلاصة العالم كالفارابي وابن سينا وأبي البركات الأوحد وغيرهم وقد حكينا كلامهم...)[4].

٢ ـ ما ذكره عن التوقيت بالأشهر القمرية، وأنه أفضل من التوقيت

---

(١) قال عز الدين الحلبي رحمه الله تعالى: واقفها صدر الدين بن منجا، قال الذهبي (في العبر)...: والصدر بن المنجا واقف الصدرية.. وقال تلميذه ابن كثير في سنة سبع وخمسين وستمائة:... (وفيها توفي من الأعيان) واقف الصدرية الرئيس صدر الدين أسعد بن المنجا بن بركات بن مؤمل التنوخي المغربي ثم الدمشقي الحنبلي أحد المعدلين ذوي الأموال والمروءات والصدقات الدارّة البارة، وقف مدرسة الحنابلة، وقبره بها...) ا. هـ. من الدارس في تاريخ المدارس. النعيمي ٢/٨٦، ٨٧ وأيضاً من البداية والنهاية. ابن كثير ١٣/٢١٦.

(٢) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة. ابن رجب. ٢/٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩.

(٣) انظر المفتاح. ابن القيم ٢/١٢٦ إلى ٢٢٩.

(*) زيادة للايضاح.

(٤) المفتاح. ابن القيم ٢/٢٢٧.

الشمسي لخلوه من الغلط والاضطراب، قال في ذلك: (... ولذلك كان الحساب القمري أشهر وأعرف عند الأمم وأبعد من الغلط، وأصح للضبط من الحساب الشمسي، ويشترك فيه الناس دون الحساب الشمسي، وفي هذا قال تعالى في القمر: ﴿....... وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ ولم يقل ذلك في الشمس، ولهذا كانت أشهر الحج والصوم والأعياد ومواسم الإسلام إنما هي على حساب القمر، وسيره ونزوله في منازله لا على حساب الشمس وسيرها، حكمة من الله ورحمة وحفظاً لدينه لاشتراك الناس في هذا الحساب. وتعذر الغلط والخطأ فيه، فلا يدخل في الدين من الاختلاف والتخليط ما دخل في دين أهل الكتاب)[1].

٣ ـ ما ذكره بشأن معرفة مواضع الكنوز، وهو ذو صلة بعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا)، قال: (... ومعرفة مواضع الكنوز علم متداول بين الناس، وفيه كتب مصنفة معروفة بأيدي أرباب هذا الفن، وفيها خطأ كثير، وصواب قد دل الواقع عليه)[2].

٤ ـ حديثه عن العسل وما فيه من الفوائد. فهو يذكر أنه من أفضل الأدوية، ويتحدث عن ذلك وكأنه من كبار الأطباء، فيقول: (... وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر، ولا هو مذكور في كتبهم أصلاً، وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل، وهو المذكور في كتب القوم، ولعمر الله إنه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط وأقمع لها وأذهب لضررها، وأقوى للمعدة، وأشد تفريحاً للنفس وتقوية للأرواح، وتنفيذاً للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن)[3].

٥ ـ ذكره بعض آلات الهندسة، مثل البيكار، في معرض حديثه عن

---

(١) المفتاح. ابن القيم ٢/١٩٦ سورة يونس/ ٥.
(٢) المرجع السابق ٢/١٤٠.
(٣) المرجع السابق ١/٢٤٩.

إبداع النحل صناعة الشمع بشكل هندسي منتظم، وكأن ذوقه الفني والهندسي يضعه في عداد المهندسين، فيقول: (.. تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات، فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل، وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعاً، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل كل هذا من غير مقياس ولا آلة ولا بيكار..)[1].

٦ ـ وصف الطبيعة بوصفها الحقيقي، وبيان أنها تحت مشيئة الله وقدرته وتسخيره، يفعل فيها ما يشاء، وهو بهذا يرد على الطبيعيين الذين يرون أنها تخلق وتفعل ما تشاء، يقول رحمه الله: (.. والمسلمون يقولون إن الطبيعة خلق من خلق الله مسخر مربوب، وهي سنته في خليقته التي أجراها عليه، ثم إنه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء، فيسلبها تأثيرها إذا أراد، ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء، لِيُري عباده أنه وحده الخالق البارىء المصور وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء)[2].

٧ ـ ذكره المغناطيس، وأن من خاصيته جذب الأشياء إليه، يقول رحمه الله: (فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، فجعل منها جبالاً هي مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه، فهي تهوي إليها كلما ذكرتها)[3].

٨ ـ حديثه عن الهواء وحاجة الأحياء إليه، وبيانه أن من خواصه نقل الصوت فكأنه بذلك يشير إلى الموجات الكهرومغناطيسية[4] فيه، يقول:

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٢٤٨.

(٢) المرجع السابق ١/٢٦٢.

(٣) المرجع السابق ١/٢٢٠.

(٤) جاء في كتاب «الفيزياء» للصف الثاني الثانوي العلمي. ط ٤. سنة ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م. وزارة المعارف. إدارة الكتب والمكتبات المدرسية. بالمملكة العربية السعودية: (.. وتنقل الأمواج الكهرومغناطيسية أيضاً الطاقة الصوتية كما يحدث في الراديو...) ص ٩٤.

(. . . ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لهاٰ من داخل بما يستنشق منه، ومن خارج بما تباشر به من روحه، فتتغذى به ظاهراً وباطناً، وفيه تَطَّرِدُ هذه الأصوات، فتحملها، وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل. . . فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة، ثم يمحى بإذن ربه، فيعود جديداً نقياً لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت)[1].

٩ ـ كلامه على قانون الطفو فهو يقول عنه: (. . وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء، فإنه لا يرسب فيه، لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة. .)[2].

١٠ ـ حديثه عن دوران الكواكب، وهو يضرب مثالاً ميسراً لتقريب صورة الدوران يقول رحمه الله: (. . . ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب، . . وهذه السيارة لها في سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف، سير عام يسير بها فلكها، وسير خاص تسير هي في فلكها، كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحى ذات الشمال والرحى تأخذ ذات اليمين، فللنملة في ذلك حركتان مختلفتان إلى جهتين متباينتين إحداهما بنفسها، والأخرى مكرهة عليها، تبعاً للرحى تجذبها على غير جهة مقصدها)[3].

١١ ـ معرفته بالجاذبية الأرضية، التي يسميها القوة الماسكة فهو يقول عنها: (. . . ثم تأمل ما أُعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً، فمن أعطى هذه القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها، وهل ذلك إلا بتقدير

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٢١٦، ٢١٧.

(٢) المرجع السابق ١/٢٠١.

(٣) المفتاح. ابن القيم ١/٢١١.

العزيز العليم)[١]، ونلاحظ من كتابات هذا المربي في مثل هـذه الأمور ظهـور الجانب الإيماني في عرض هذه القضايا، فما أحوجنا اليوم أن نصبغ المناهـج العلمية والمعارف العامة بالصبغة الإلٓهية، وأن نجعل فيها نصيباً لـذكر الله عـز وجل.

١٢ ـ كلامه على التقدير الزمني لليل والنهار بأربع وعشرين ساعة يقـول في ذلك: (.. ثم تأمـل الحكمة في مقـادير الليـل والنهار تجـدها على غـاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لـو زاد على ما قـدّر عليه أو نقص لفـاتت المصلحة واختلفت الحـكمـة بذلـك، بـل جعـل مكيـالهـا أربعـة[*] وعشرين ساعة)[٢].

١٣ ـ إشارته إلى أسماء رياح الـرحمة وريـاح العذاب وفق فقهـه لكتاب الله عز وجل، يقول رحمه الله: (... وتسمى رياح الرحمة المبشرات والنشـر والـذاريـات والمـرسـلات والـرخـاء واللواقــح، وريـاح العــذاب العـاصف، والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر وهما في البر..)[٣].

١٤ ـ ذكره نزول المطر وإنبات الـزرع، فهو يتحـدث عن أنواع الـزروع حتى كأنه من علماء النبات، يقـول رحمه الله: (.. ثم أخـرج به [المـطر][*] أنواع الأغذيـة والأدوية والأقـوات، فهذا النبـات يغذي، وهـذا يصلح الغذاء، وهـذا ينفذه، وهـذا يضعفه، وهـذا سمٌّ قاتـل، وهـذا شفـاء من السمِّ، وهـذا يمرض، وهذا دواء من المرض، وهذا يبرد وهذا يسخن، وهـذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق)[٤].

(١) المرجع السابق، ١/٢١٦.
(*) هكذا. والصواب «أربعاً» والله أعلم.
(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٢٠٩.
(٣) المفتاح. ابن القيم ١/٢٠١.
(*) زيادة للايضاح.
(٤) المرجع السابق ١/٢٠٢.

١٥ ـ حديثه عن البحار وأنها من عجائب خلق الله، وكونها تغطي مساحة كبيرة من الأرض، يقول رحمه الله: (. . . ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض، حتى إن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء لجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء، ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها)(١).

١٦ ـ كلامه على ظاهرة الكسوف والخسوف بشيء من التفصيل والتوضيح لأسباب كل منهما، كأنه واحد من علماء الفلك البارزين يقول رحمه الله: (. . فأما سبب كسوف الشمس فهو توسط القمر بين جرم الشمس وبين أبصارنا، فإن القمر عندهم جسم كثيف مظلم وفلكه دون فلك الشمس. وأما سبب خسوف القمر فهو توسط الأرض بينه وبين الشمس، حتى يصير القمر ممنوعاً من اكتساب النور من الشمس، ويبقى ظلام ظل الأرض في ممره، لأن القمر لا ضوء له أبداً، وأنه يكتسب الضوء من الشمس. . . . وهل هذا الاكتساب خاص بالقمر أم يشاركه فيه سائر الكواكب، ففيه قولان، لأرباب الهيئة. .)(٢)، ثم يحدد الوقت الذي يقع فيه كل من الكسوف والخسوف، فيقول: (. . . إن الشمس إنما تكسف ليالي السرار(*) كما أن القمر إنما يكسف في الأبدار. . .)(٣).

وهذا يدل على أن لابن القيم باعاً في كثير من العلوم والمعارف، مما يدل على سعة علمه وكثرة اطلاعه، فعلماء الفلك بالدراسة يحددون مكان

(١) المرجع السابق ١/٢٠٤.
(٢) المفتاح. ابن القيم ٢/٢٠٦، ٢٠٧.
(*) السرار آخر الشهر. ليلة يستسر الهلال. انظر. لسان العرب ابن منظور. مادة (سرر). ٤/٣٥٧.
(٣) تحفة المودود. ابن القيم ص ١٠٩.

وزمان الخسوف والكسوف بالساعة والدقيقة، وهذا لايعني اطلاعهم على شيء من علم الغيب، بل إن دراستهم لمنازل القمر ومعرفة البروج والمنازل تعينهم على معرفة خسوف القمر وكسوف الشمس، وهل هو جزئي أو كلي.

إن ما وصل إليه العلماء اليوم سبقهم إليه ابن القيم رحمه الله، وتميز عنهم بردّ كل الظواهر الكونية لقدرة الخالق وحكمته وعظمته سبحانه وتعالى، فما أحوجنا اليوم إلى علماء من هذا الطراز، يجمعون إلى غزارة العلم في الدين علوم الحياة العصرية، ويوجهونها وجهتها الإيمانية الصحيحة.

مؤلفاته:

لقد خلّف لنا ابن القيم ثروة علمية ضخمة في فنون شتى من المعرفة، وألف من الكتب الشيء الكثير، وإننا في ذكر مؤلفاته سنورد ما ذكره هو من هذه المؤلفات حسبما ظهر لنا من خلال الاطلاع على بعض ما كتب، ثم نذكر من مؤلفاته ما أورده بعض تلاميذه في الترجمة له، وأخيراً نحصر هذه المؤلفات كما جاءت في كتب بعض المعاصرين.

أ ـ ما ذكره هو من مؤلفاته:

١ ـ كتاب التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير: ذكره في كتابه الطب النبوي. فقال: (... وقد أشبعنا الكلام فيما يحل ويحرم من لباس الحرير، في كتاب: «التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير»)[١].

٢ ـ كتاب المفتاح[٢]: ذكره بقوله: (... وقد اشبعنا الكلام في هذه المسألة في كتاب المفتاح، بأطول من هذا)[٣].

٣ ـ تهذيب سنن أبي داود: ذكره بقوله: (... فسمى جزاء الجاني

---

(١) الطب النبوي. ابن القيم. كتب المقدمة وراجع الأصل وصححه وأشرف على التعليقات عبد الغني عبد الخالق، مطبعة دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م ص ٦٢.

(٢) الاسم الكامل للكتاب هو: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة» انظر المفتاح ١/ ٤٧.

(٣) الطب النبوي. ابن القيم ص ١٢١.

قصاصاً لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل، وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيقتل بمثل ما قتل به لتحقيق معنى القصاص، وقد ذكرنا أدلة المسألة من الطرفين، وترجيح القول الراجح بالنص والأثر والمعقول في كتاب تهذيب السنن[1].

٤ ـ أيمان القرآن: ذكره بقوله: (. . . وقد ذكر وجه الاستدلال بذلك في كتاب أيمان القرآن. عند قوله: ﴿**فلا أقسم بما تبصرون، وما لا تبصرون، إنه لقول رسول كريم**﴾)[2].

٥ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية: ذكره بقوله: (. . . وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب، وهو كتاب: اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية)[3].

٦ ـ معرفة الروح والنفس: وهذا الكتاب غير كتاب الروح المطبوع، لأنه ذكره في كتاب الروح، وقال عن الروح: (. . . أنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن، وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا الكبير في معرفة الروح والنفس. . .)[4].

٧ ـ التعليق على الأحكام: قال عنه: (. . . وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معاً بضعة عشر دليلاً في مسألة ـ القرء ـ من كتاب «التعليق على الأحكام»)[5].

---

(١) المفتاح. ابن القيم ٢/٩٧.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. ابن القيم، دار الكتب العلمية بيروت ص ٢٣. والآيات من سورة الحاقة: ٣٨، ٣٩، ٤٠.

(٣) المرجع السابق. ابن القيم ص ١٠٠.

(٤) الروح. ابن القيم، دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ص ٣٨، المفتاح. ابن القيم ٢/١٥٦.

(٥) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام. ابن القيم. تحقيق طه يوسف شاهين. دار الطباعة المحمدية القاهرة. ص ٨٥.

٨ ـ تحفة النازلين بجوار رب العالمين: قال عنه في مدارج السالكين: (. . . وقد بينا بطلان هذا المذهب من ستين وجهاً، في كتابنا المسمى «تحفة النازلين بجوار رب العالمين»)[١].

٩ ـ الاجتهاد والتقليد. ذكره بقوله: (. . . وقد ذكرت الحكمين الداودي والسليماني ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا ومن صار إلى هذا، وترجيح الحكم السليماني من عدة وجوه، وموافقته للقياس، وقواعد الشرع في كتاب «الاجتهاد والتقليد»)[٢].

١٠ ـ كتاب في أحكام أهل الملل. ذكره بقوله: (. . . وليس المقصود ذكر هذه المسائل وما يصير به الطفل مسلماً، فإنا قد استوفيناها في كتابنا في أحكام أهل الملل بأدلتها)[٣].

ب ـ ومن مؤلفاته ما ذكره تلميذه ابن رجب في ترجمته له:

حيث قال: (. . . وصنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم. . . فمن تصانيفه. . .)[٤]، ثم ذكرها، ونحن نورد منها ما لم نذكره فيما استخرجناه من مطالعة كتبه.

١١ ـ (كتاب سفر الهجرتين وباب السعادتين. . .

١٢ ـ مراحل السائرين[*] بين منازل ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. . وهو شرح «منازل السائرين» لشيخ الإسلام الأنصاري. .

---

(١) مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين. ابن القيم تحقيق محمد حامد الفقي. دار الكتاب العربي بيروت ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ١/ ١٢٣٠.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/ ٥٧.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. ابن القيم. تحرير الحساني. دار التراث ص ٦٢٤.

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة. ابن رجب ٢/ ٤٤٩.

(*) وهو فيما نرى اسم آخر لكتاب: «مدارج السالكين» انظر: التقريب لفقه ابن قيم الجوزية تأليف: بكر بن عبدالله أبو زيد. القسم الأول ص ٢٤١.

١٣ ـ عقد محكم الأحباء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء. . .

١٤ ـ شرح أسماء الكتاب العزيز. . .

١٥ ـ زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء. . .

١٦ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد. . .

١٧ ـ جلاء الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام، وبيان أحاديثها وعللها.

١٨ ـ بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل. . .

١٩ ـ نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول. . .

٢٠ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين. . .

٢١ ـ بدائع الفوائد. . .

٢٢ ـ الشافيةُ الكافيةُ للانتصار للفرقة الناجية، وهي القصيدة النونية في السنّة. . .

٢٣ ـ الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة. . .

٢٤ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. وهو كتاب صفة الجنة. . .

٢٥ ـ نزهة المشتاقين وروضة المحبين. . .

٢٦ ـ الداء والدواء[١].

٢٧ ـ تحفة المودود بأحكام المولود. . .

٢٨ ـ مصايد الشيطان. . .

٢٩ ـ الطرق الحكمية. . .

٣٠ ـ رفع اليدين في الصلاة.

٣١ ـ نكاح المحرم. . .

٣٢ ـ تفضيل مكة على المدينة. .

٣٣ ـ فضل العلماء. . .

---

(١) وهو كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي. انظر الأعلام للزركلي ط: ٥ سنة ١٩٨٠ م. ٦/٢٨٠.

٣٤ ـ عدة الصابرين. . .

٣٥ ـ الكبائر. . .

٣٦ ـ حكم تارك الصلاة. . .

٣٧ ـ نور المؤمن وحياته. .

٣٨ ـ حكم إغمام هلال رمضان. . .

٣٩ ـ جوابات عابدي الصلبان وأن ما هم عليه دين الشيطان. . .

٤٠ ـ بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً. . .

٤١ ـ الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه. .

٤٢ ـ الكلم الطيب والعمل الصالح.

٤٣ ـ الفتح القدسي. . .

٤٤ ـ التحفة المكية. . .

٤٥ ـ أمثال القرآن. . .

٤٦ ـ شرح الأسماء الحسنى. . .

٤٧ ـ المسائل الطرابلسية. . .

٤٨ ـ الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم. . .

٤٩ ـ كتاب الطاعون. . .)[1].

جـ ـ وقد ذكر الصفدي: ت سنة ٧٦٤ هـ:

وهو ممن لقيه، طائفة من كتبه نذكر منها ما لم يسبق ذكره:

٥٠ ـ (. . . الرسالة الحلبية في الطريقة المحمدية. . .

٥١ ـ الفروسية المحمدية. . .

٥٢ ـ تفسير الفاتحة. . .

٥٣ ـ اقتضاء الذكر بحصول الخير ودفع الشر. . .

٥٤ ـ كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء. . .

٥٥ ـ الرسالة الشافية في أسرار المعوذتين. . .

---

(١) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة. ابن رجب. ٢/٤٤٩، ٤٥٠.

٥٦ ـ معاني الأدوات والحروف. . .)[1].

د ـ وقد قام الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد بجهد مشكور في حصر كتب ابن القيم وأوصلها إلى أكثر من ستة وتسعين كتاباً نورد منها فيما يأتي ما لم نذكره سابقاً:

٥٧ ـ (. . . أسماء مؤلفات ابن تيمية. . .

٥٨ ـ أصول التفسير. . .

٥٩ ـ الأعلام باتساع طرق الأحكام. . .

٦٠ ـ إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان. . .

٦١ ـ الإيجاز. . .

٦٢ ـ تدبير الرئاسة في القواعد الحكمية بالذكاء والقريحة. .

٦٣ ـ الجامع بين السنن والآثار. . .

٦٤ ـ الجواب الشافي لمن سأل عن ثمرة الدعاء إذا كان ما قد قدر واقع. . .

٦٥ ـ الحامل هل تحيض أم لا؟. . .

٦٦ ـ الحاوي. . .

٦٧ ـ حكم تفضيل بعض الأولاد على بعض في العطية. . .

٦٨ ـ دواء القلوب. . .

٧٩ ـ ربيع الأبرار في الصلاة على النبي المختار. . .

٧٠ ـ رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه. . .

٧١ ـ الرسالة التبوكية. . .

٧٢ ـ رفع التنزيل. . .

٧٣ ـ الروح. . .

٧٤ ـ السنة والبدعة. . .

---

(١) الوافي بالوفيات. الصفدي ط ٢ سنة ١٣٩٤ هـ، ١٩٧٤ م باعتناء س. ديدرينغ ٢ / ٢٧١، ٢٧٢.

٧٥ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. . .

٧٦ ـ الصبر والسكن. . .

٧٧ ـ طب القلوب. . .

٧٨ ـ الطب النبوي. . .

٧٩ ـ طريقة البصائر إلى حديقة السرائر في نظم الكبائر. . .

٨٠ ـ طلاق الحائض. . .

٨١ ـ الفتاوى. . .

٨٢ ـ الفتح المكي. . .

٨٣ ـ الفروسية. . .

٨٤ ـ الفروسية الشرعية. . . .

٨٥ ـ فضل العلم وأهله. . .

٨٦ ـ فوائد في الكلام على حديث الغمامة وحديث الغزالة والضب وغيره. . .

٨٧ ـ الفوائد. . .

٨٨ ـ قرة عيون المحبين وروضة قلوب العارفين. . .

٨٩ ـ الكافية الشافية في النحو. . .

٩٠ ـ اللمحة في الرد على ابن طلحة. . .

٩١ ـ مقتضى السياسة في شرح نكت الحماسة. . .

٩٢ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف. . .

٩٣ ـ المورد الصافي والظل الوافي. . .

٩٤ ـ مولد النبي ﷺ. . . .

٩٥ ـ المهد. . .

٩٦ ـ «المهذب في. . .». . .

٩٧ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. . .)[1].

---

(١) التقريب لفقه ابن قيم الجوزية، تأليف / بكر بن عبدالله أبو زيد، ط ١ سنة ١٤٠١ هـ مطابع دار الهلال للاوفست القسم الأول ص ١٧٦ ـ ٢٥٠.

هـ ـ ومما عزم ابن القيم على الكتابة فيه مواضيع ومسائل في فصول أو مقالات أو كتب، ذكرها ولا ندري أكتبها وفقدت ضمن ما فقد من تراث السلف، أم أن العمر لم يسعفه والوقت لم يساعده على تنفيذها، منها ما يأتي:

١ ـ قال رحمه الله: (... وسنفرد إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على السكر من طرق عديدة لا تمنع وبراهين كثيرة لا تدفع)[١].

٢ ـ قال رحمه الله: (... وسنذكر إن شاء الله فصلاً فيما بعد نبين فيه أن جميع أرباب المذاهب الباطلة سوفسطائية صريحاً ولزوماً قريباً وبعيداً)[٢].

٣ ـ كتاب في مناقب إسحاق بن راهويه، قال عن ذلك: (... وكان الإمام أحمد يسميه أمير المؤمنين وسنذكر هذا وأمثاله في كتاب نفرده لمناقبه إن شاء الله تعالى)[٣].

منهجه في التأليف:

يقوم منهجه في البحث والتأليف على أمور نذكرها فيما يأتي:

١ ـ اعتماده رحمه الله أصول مذهب أحمد بن حنبل الذي لا يقدم ـ بعد القرآن ـ على الحديث الصحيح شيئاً، فإن وجد في المسألة حديثاً صحيحاً لم يقدم عليه شيئاً، وإن لم يجد فيها إلا حديثاً ضعيفاً ولم يوجد ما يعارضه عمل به، وإن عارضه ما هو أقوى منه تركه للمعارض القوي، وإذا وجد في المسألة حديثاً ضعيفاً وقياساً قدم الحديث الضعيف على القياس، وإن لم يكن في المسألة حديث أخذ فيها بأقوال الصحابة، وإن اختلفوا رجح من أقوالهم ولم يخرج عنها، ففي الغالب يكون عنه فيها روايتان أو أكثر. ومع اتباعه لأصول المذهب الحنبلي، ومدحه لإمام المذهب. بقوله: (... وهو أتبع خلق الله

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٢٤٩.

(٢) المرجع السابق ٢/٦٣.

(٣) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢١١.

للسنن مرفوعها وموقوفها)[1] إلا أنه لا يرى التعصب لرأيه، ولا التمسك بقوله، إذا كان غيره أصح رأياً وأصوب قولاً، يقول رحمه الله: (وإذا اختلف أحمد وغيره من أئمة الحديث في حديث، فالدليل يحكم بينهم، وليس قوله حجة عليهم)[2].

٢ ـ وموقف ابن القيم من المذهب الحنبلي الذي ذكرناه، يدل على شدة تمسكه بنصوص الكتاب والسنة، ومما يزيد هذا الموقف وضوحاً أنه إذا رأى لبعض الصحابة اجتهاداً ونظراً في بعض الأحاديث وكان هذا الرأي مرجوحاً لا يأخذ به، بل يبين أنه مرجوح، فمثلاً عندما ردّت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حديثاً ظنت أنه يقتضي إثبات الطيرة، قال: (... والمقصود أن عائشة رضي الله عنها ردّت هذا الحديث وأنكرته، وخطأت قائله، ولكن قول عائشة هذا مرجوح، ولها رضي الله عنها اجتهاد في رد بعض الأحاديث الصحيحة، خالفها فيه غيرها من الصحابة وهي رضي الله عنها لما ظنت أن هذا الحديث يقتضي إثبات الطيرة التي هي من الشرك لم يسعها غير تكذيبه)[3].

٣ ـ من منهجه رحمه الله الاعتماد على نصوص الكتاب والسنة والإجماع في كل ما يكتب، فمثلاً في عرضه لجواز النكاح بدون تسمية المهر ووجوب مهر المثل، يقول: (... وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع جواز عقد النكاح من غير تسمية مهر ووجوب مهر المثل...)[4].

٤ ـ وإذا كان ابن القيم يعتمد في أقواله على الكتاب والسنة، فإنه يعتبرهما بمنزلة الميزان لأقوال الرجال وآرائهم، فما وافق هذين الأصلين أخذ به واعتمد عليه، وما خالفهم ردّه ولم يقبله من أي شخص كائناً من كان، وهو

---

(١) الفروسية. ابن القيم. دار التراث العربي ص ٦٧.
(٢) المرجع السابق ص ٦٤.
(٣) المفتاح. ابن القيم ٢/٢٥٤.
(٤) الفروسية. ابن القيم ص ١٢٣.

ينهى عن التقليد والتعصب لأقوال الرجال، يقول في ذلك: (. . . ونتولى علماء المسلمين، ونتخير من أقوالهم ما وافق الكتاب، والسنة، نزنها بهما، لا نزنهما بقول أحد كائناً من كان، ولا نتخذ من دون الله ورسوله رجلاً يصيب ويخطىء فنتبعه في كل ما قال، ونمنع بل نحرم متابعة غيره في كل ما خالفه فيه، وبهذا أوصانا أئمة الإسلام، فهذا عهدهم إلينا، فنحن في ذلك على منهاجهم وطريقهم وهديهم دون من خالفنا)[1]. وهذا قول يفيد طالب العلم الباحث عن الحقيقة، ليتحلى بالأمانة العلمية والبعد عن التعصب للآراء والتحرر من الهوى وأن يسعى إلى طلب الحكمة لأنها ضالة المؤمن، وينبغي أن يفرق بين الفكرة وصاحبها فلا يتعلق بالأشخاص، ولا يتعصب لأقوالهم، فالفكرة الصادقة والكلمة الصائبة[2] يأخذ بها ويتبناها ولو صدرت من ألد أعدائه، والفكرة الكاذبة والكلمة الخاطئة يردها ويرفضها وإن صدرت من أقرب أصدقائه.

٥ ـ اعتماده على العقل الصحيح والفطرة بجانب اعتماده على الكتاب والسنة، لأنه لا تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح والفطرة السوية، فهو يطالب بالمحاكمة إلى ذلك في جميع القضايا والأحكام، ويرى أن الأمر الذي يخالف العقول السليمة والفطر المستقيمة والنقل الصحيح لا ينبغي الالتفات إليه، فمثلاً في إنكاره على من يقول إن الأرواح لا تنعم ولا تعذب يطالعنا برد هذا القول والتعقيب عليه بقوله: (. . . وهذا قول يرده الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقول والفطن والفطرة. وهو قول من لم يعرف روحه فضلاً عن روح غيره)[3]، ويؤكد دائماً شأن المحاكمة إلى العقل والنقل، فيقول في رده على خصومه: (. . . فالمحاكمة إلى النقل الصريح والعقل الصحيح)[4] يريد أنهما المرجعان في كشف الحق ومعرفته.

---

(١) الفروسية. ابن القيم ص ١٠٢.

(٢) وفي المثل مع الخواطىء سهم صائب. لسان العرب. ابن منظور مادة صوب ٢/ ٢٤.

(٣) الروح. ابن القيم ص ١١١.

(٤) المفتاح. ابن القيم ٢/ ١١٣.

٦ ـ وابن القيّم يعتمد في الاستدلال على ما ثبت بالأحاديث الصحيحة، ثم الحسنة وبعد أن يقيم الأصل الذي تشهد له هذه الأحاديث، لا يرى مانعاً من ذكر الحديث الضعيف إذا كان بمنزلة الشواهد والمتابعات، ومثال ذلك ما ذكره في ثواب من أحيا سنة، وإثم من ابتدع بدعة فختم كلامه بقوله: (. . . فهذا الأصل محفوظ عن النبي ﷺ فالحديث الضعيف فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات. فلا يضرّ ذكره)[1].

٧ ـ اعتماده على الأدلة العقلية في دحض شبه المنحرفين والمعطلين فلنستمع إليه وهو يخاطب المعطلة الجاحدة لوجود الله وصفات كماله، فيقول: (. . . ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه، بحيث لا يرى الناظر فيه خللاً في مادته، ولا في صورته، وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها. وفي تلك الحديقة من يلم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها، فلا يختل شيء ولا يتلف ثمارها، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج، بحسب حاجاتهم وضروراتهم فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به، ويقسمه هكذا على الدوام، أترى هذا اتفاقاً بلا صانع ولا مختار ولا مدبر؟!)[2]

٨ ـ يورد أحياناً حديثاً لا ينكشف له أمره، يقول لا أدري ما حاله، وأحياناً يورد أثراً، ويقول مثل هذا عنه، ويذكر أحياناً أثراً إسرائيلياً ويبين هذا للقارىء، فيقول عن الحديث: (. . . وقد روى في حديث ـ لا أدري ما حاله ـ؟ عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ نهانا أن نشرب على بطوننا ـ وهو الكرع. .»)[3] ويقول عن الأثر: (. . . وقد روى في أثر ـ لا أعرف حاله ـ

---

(١) المفتاح ابن القيم ١/٧٥، ٧٦.

(٢) المرجع السابق ١/٢١٤.

(٣) الطب النبوي. ابن القيم ص ١٧٨. والحديث رواه ابن ماجه في كتاب الأشربة. باب الشرب بالأكف والكرع ٢/١١٣٤.

حمى يوم كفارة سنة»)(*)[1] ويقول في الأثر الإسرائيلي: (. . . وفي أثر إسرائيلي أن موسى سأل ربه عن شأن من يعذبهم من خلقه. .)[2].

٩ ـ إذا كان في المسألة عدة أقوال مختلفة ومتضاربة، يذكرها بالتفصيل، ثم يبين الرأي الصحيح فيها، الذي يوافق الحق والصواب من وجهة نظره، فمثلاً في المناضلة اختلف الفقهاء في ارتفاع السهم في الجو ونزوله وسداده، فابن القيم يقول عن هذا: (. . . اختلف أهل العلم في ذلك اختلافاً متبايناً، ونحن نذكر أقوالهم، وما فيها ونبين الصحيح منها)[3] وقد فعل هذا كما وعد. ويقول في مكان آخر مؤكداً هذا المنهج، في معرض بيان مصير الأرواح بعد الموت: (. . . فهذا ما تلخص لي من جميع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت. ولا تظفر به مجموعاً في كتاب واحد غير هذا البتة. ونحن نذكر مآخذ هذه الأقوال، وما لكل قول وما عليه، وما هو الصواب من ذلك، الذي دل عليه الكتاب والسنة، على طريقتنا التي منّ الله علينا بها. وهو مرجو الإعانة)[4].

١٠ ـ الكتابة بأسلوب مقتبس من القرآن، فمثلاً: في معرض ذكره لأنواع الناس وتصنيفهم بحسب العلم والعزيمة يطالعنا، بقوله: (. . الضرب الثاني من حرم هذا وهذا، وهم الموصوفون بقوله: **﴿إن شر الدوابِّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون﴾**. وبقوله: **﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾** . . . وهذا الصنف شر البرية يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون ولكن ظاهراً من الحياة

---

(١) الطب النبوي. ابن القيم ص ٢٣ والحديث رواه (سعيد بن منصور في سننه) من كنوز الحقائق من حديث خير الخلائق. المناوي ط ٤ مصطفى الحلبي ١/١١٩.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/١٠٩.

(٣) الفروسية. ابن القيم ص ١٧٠.

(*) حديث حسن من مختصر المقاصد الحسنة. الزرقاني. بتحقيق د. محمد الصباغ ط ١، سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م من منشورات مكتبة التربية العربية. الرياض ص ٩٩.

(٤) الروح. ابن القيم ص ٩٣.

الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ويعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم، وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون، ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون، ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت، ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ويتفكرون ويبيتون ولكن ما لا يرضى من القول..)[1].

١١ - استعمال الأسلوب القصصي في الكتابة أحياناً، فمثلاً في بيان فضل العلم وشرف أهله أورد القصة التالية: (... ويحكى عن بعض العلماء أنه ركب مع تجار في مركب فانكسرت بهم السفينة فأصبحوا بعد عزّ الغنى في ذلّ الفقر، ووصل العالم إلى البلد فأكرم وقصد بأنواع التحف والكرامات، فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم، قالوا له: هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة، فقال: نعم، تقولون لهم: إذا اتخذتم مالاً لا يغرق إذا انكسرت السفينة فاتخذوا العلم تجارة)[2].

١٢ - يمتاز في كتابته بطول النفس، فمثلاً في ذكر شرف الفكر ومكانته في الوجه الثالث والخمسين بعد المائة في باب شرف العلم وأهله ودعوته للنظر والفكر في آيات الله المشاهدة والمتلوة أطال الكتابة من الصفحة الثمانين بعد المائة من الجزء الأول من كتاب المفتاح إلى صفحة خمس وثلاثمائة، وبعد هذا الاستطراد نستمع إليه وهو يقول معتذراً إلى القارىء الذي رافقه في هذه الرحلة الطويلة: (... ولا تستطل هذا الفصل وما فيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة فإن الحاجة إليه ماسّة والمنفعة عظيمة...)[3]. وفي مكان آخر يقول: (... ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة..)[4] وطول النفس في الكتابة راجع إلى عمق ثقافته وسعة اطلاعه وغزارة علمه، وراجع إيضاً إلى قناعته بأن الإطالة في بعض

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/١١٤، سورة الأنفال /٢٢، سورة الفرقان /٤٤.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/١٠٧.

(٣) المرجع السابق ١/٢٦٣.

(٤) المرجع السابق ١/٢٥٣.

الأمور الهامة والخطيرة أمر له ما يسوّغه.

مصادره:

إن ابن القيم لا يَكُفّ عن الاطلاع على كتب العلم في علوم مختلفة وفنون شتى من المعرفة لذا فهو غزير العلم واسع الاطلاع، فمن هذه الكتب:

١ ـ شرح السنة: للبغوي[١].

٢ ـ غريب الحديث: لأبي عبيد[٢].

٣ ـ صحيح البخاري[٣].

٤ ـ كتاب السنة: عبدالله بن الإمام أحمد[٤].

٥ ـ فتاوى ابن تيمية[٥].

٦ ـ معجم الطبراني[٦].

٧ ـ الكامل: لأبي أحمد بن عدي[٧].

٨ ـ الذخيرة: لابن طاهر[٨].

٩ ـ تاريخ نيسابور: للحاكم[٩].

١٠ ـ الموضوعات: لابن الجوزي[١٠].

١١ ـ تاريخ الطبري[١١].

١٢ ـ اختلاف الحديث: ابن قتيبة[١٢].

---

(١) الطب النبوي. ابن القيم ص ١٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ٨٧.

(٣) حادي الأرواح. ابن القيم صححه وعلق عليه محمود حسن ربيع ط ٣ سنة ١٢٩٢ هـ ١٩٧٢ م مطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة ـ ص ٢٤٨.

(٤) المرجع السابق ص ٢٥١.

(٥) هداية الحيارى. ابن القيم ص ٢٣٨.

(٦) حادي الأرواح. ابن القيم ص ٧٩.

(٧) الطب النبوي. ابن القيم ص ٢١٤.

(٨) المرجع السابق ص ٢١٤.

(٩) المرجع السابق ص ٢١٤.

(١٠) المرجع السابق ص ٢١٤.

(١١) الفروسية. ابن القيم ص ١٤١.

(١٢) الطب النبوي. ابن القيم ص ١١٨.

١٣ ـ الصحاح : للجوهري[١] .

١٤ ـ كتب المغازي : لابن اسحاق[٢] .

١٥ ـ المغازي : لموسى بن عقبة[٣] .

١٦ ـ المغازي : للأموي[٤] .

١٧ ـ تهذيب الكمال : أبو الحجاج الحافظ[٥] .

١٨ ـ كتاب النسب : للزبير بن بكار[٦] .

١٩ ـ الكامل : للمبرد[٧] .

٢٠ ـ التاريخ : للبخاري[٨] .

٢١ ـ تهذيب الآثار : لابن جرير[٩] .

٢٢ ـ النهاية : لأبي المعالي الجويني[١٠] .

٢٣ ـ كتاب المجالسة : لأبي بكر أحمد بن مروان المالكي[١١] .

٢٤ ـ كتاب الحافظ ابن عبد الواحد المقدسي . فيمن مسخوا عند الموت خنازير[١٢] .

٢٥ ـ كتاب الشفاء : لابن سينا[١٣] .

---

(١) المفتاح . ابن القيم ١/١٥٥، الطب النبوي . ابن القيم ص ١٠٧ .

(٢) الفروسية . ابن القيم ص ٢٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٥) المرجع السابق ص ٦ .

(٦) المرجع السابق ص ٦ .

(٧) المفتاح . ابن القيم ٢/١٣٥ .

(٨) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى . ابن القيم . تقديم وتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، المكتبة القيمية ط ٢، ١٣٩٩ هـ ص ٢٣٤ .

(٩) الفروسية . ابن القيم ص ٩٥ .

(١٠) المرجع السابق ص ١١٢ .

(١١) الروح . ابن القيم ص ٣٢ .

(١٢) المفتاح . ابن القيم ١/٢٥٥ .

(١٣) الطب النبوي . ابن القيم ص ١٧ .

٢٦ ـ كتاب القانون: لابن سينا[١].

٢٧ ـ كتاب مادة البقاء: للتميمي[٢].

٢٨ ـ كتاب الفصول: لأبقراط[٣].

٢٩ ـ كتاب الطب النبوي: لأبي نعيم[٤].

٣٠ ـ كتاب الروح والنفس: للحافظ أبو عبدالله بن منده[٥].

٣١ ـ جالينوس في الطب[٦].

٣٢ ـ علائم الموت: لأبقراط[٧].

٣٣ ـ رسالة لأبي علي بن الهيثم في أقسام الخلل الواقع في آلات الرصد[٨].

٣٤ ـ كتاب السبق: لأبي الشيخ[٩].

٣٥ ـ كتاب المترجم: للسعدي[١٠].

٣٦ ـ كتاب الاتباع[١١] والمؤانسة: لأبي حيان التوحيدي[١٢].

٣٧ ـ كتاب المقابسات[*]: لأبي حيان التوحيدي[١٣].

٣٨ ـ كتاب السماع الطبيعي: أرسطاطاليس[١٤].

---

(١) الطب النبوي. ابن القيم ص ١٧.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠، ٢١.

(٣) المرجع السابق ص ٨٦، التحفة ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٤) الطب النبوي. ابن القيم ص ٨٤ ـ ٨٦.

(٥) الروح. ابن القيم ص ٤٦.

(٦) الطب النبوي. ابن القيم ص ٢٠، ٢١.

(٧) المفتاح. ابن القيم ٢/٢١٧.

(٨) المرجع السابق ٢/١٣٠.

(٩) الفروسية. ابن القيم ص ٤٧.

(١٠) المرجع السابق ص ٩٤.

(١١) هكذا. والصواب «الإمتاع». انظر معجم المؤلفين. عمر رضا كحالة ـ طبعة دار إحياء التراث ـ بيروت لبنان. ٣/٢٠٥، والأعلام ـ للزركلي ٤/٣٢٦.

(١٢) المفتاح. ابن القيم ٢/١٣٧.

(١٣) المرجع السابق ٢/١٧٥.

(١٤) المرجع السابق ٢/١٧٠.

(*) في المطبوع (المقايسات). والصواب ما أثبتناه ـ انظر الأعلام للزركلي ٤/٣٢٦.

٣٩ ـ كتاب الأجنة: بقراط[١].

٤٠ ـ كتاب بهجة المجالس: ابن عبد البر[٢].

٤١ ـ كتاب القبور: أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا[٣].

٤٢ ـ المنامات: لابن أبي الدنيا[٤].

٤٣ ـ البستان: للقيرواني[٥].

٤٤ ـ قرأ (كتاباً) بخط (مؤلّفه) الفاضل جبريل بن رَوْح الأنباري[٦].

هذا ما وقفت عليه من مصادره، خلال مطالعاتي في بعض كتبه، ولقد ألّف الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد كتاباً عن موارد ابن القيم[٧]، فمن أراد مزيداً عن هذا فإنني أحيله إلى هذا الكتاب.

خلقه وعبادته:

بعد أن عرفنا مكانة ابن القيم العلمية، ومؤلفاته وبعض مصادره التي اقتبس منها آراءه وأفكاره، نريد أن نعرف في هذا المبحث شيئاً عن خلقه وعبادته، لأن في معرفة هذا كشفاً عن جانب مهم في شخصيته رحمه الله.

وخير ما يدلنا على خلقه وعبادته ما ذكره بعض تلامذته الذين عاشوا معه ولاحظوا سيرته، من هؤلاء ابن رجب رحمه الله الذي قال عنه: (... وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله[*] ولهج

---

(١) التحفة. ابن القيم ص ٢٤٧.

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين. ابن القيم ص ١٧٤. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان.

(٣) الروح. ابن القيم ص ٥.

(٤) المرجع السابق ص ٧٠.

(٥) المرجع السابق ص ٧٠.

(٦) المفتاح. ابن القيم ١/٢٢٢، والجواب الكافي ص ٣.

(٧) موارد ابن القيم في كتبه. بكر بن عبدالله أبو زيد. ط ١، سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م. المكتب الاسلامي. بيروت.

(*) التألُّه: التنسك والتعبد. مختار الصحاح ـ الرازي ـ ط ١ سنة ١٩٦٧ م. دار الكتاب العربي ـ بيروت ص ٢٣.

بالذكر وشغف بالمحبة، والإنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطّراح بين يديه على عتبة عبوديته. . ، وحج مرّات كثيرة وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمراً يتعجّب منه)[1].

ومن هؤلاء ابن كثير، الذي قال عنه إنه: (كثير التودد لا يحسد أحداً، ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد، وكنت من أصحب الناس له، وأحب الناس إليه، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة، يطيلها جداً، ويمدّ ركوعها وسجودها، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله، وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير، والأخلاق الصالحة، سامحه الله ورحمه)[2].

وقال عنه ابن حجر. ت. سنة ٨٥٢ هـ: (. . وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار، ويقول: هذه غدوتي لو لم أقعدها سقطت قواي، وكان يقول: بالصبر والفقر تنال الإمامة في الدين، وكان يقول: لا بد للسالك من همة تسيّره وترقّيه، وعلم يبصّره ويهديه)[3].

شيوخه:

من أراد أن يكون عالماً متمكناً لا بد له من أن يلقي ويلازم فحول العلماء، وقد سار على هذا النهج ابن القيم رحمه الله، فكان بذلك عالماً فذاً ومربياً قديراً، وسنذكر فيما يأتي طائفة من كبار العلماء الذين لازمهم، وانتفع بصحبتهم في فنون شتى من المعرفة، وقد ذكرت بعض التراجم. أنه: (سمع

---

(١) كتاب الذيل. ابن رجب، ٢/٤٤٨.

(٢) البداية والنهاية. ابن كثير. دار الفكر بيروت ١٤/٢٣٤، ٢٣٥.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ابن حجر. دار الكتب الحديثة تحقيق وتقديم. محمد سيد جاد الحق ٤/٢١.

من التقي سليمان[1] وأبي بكر بن عبد الدائم[2]، والمطعم[3]، وابن

---

(١) تقي الدين سليمان: ٦٢٨ ـ ٧١٥ هـ.

قاضي القضاة تقي الدين أبو الفضل سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن أبي عمر محمد ابن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ثم الصالحي الحنبلي، ولد في منتصف رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة، وحضر على ابن الزبيدي صحيح البخاري... وابن المقير وجماعة... وأكثر عن الحافظ الضياء، حتى قال: سمعت منه نحو ألف جزء، وكتب كثيراً من الكتب الكبار والأجزاء، وأجاز له خلق من البغداديين كالسهروردي... ومن المصريين كابن عمار، وعيسى بن عبد العزيز... ولازم الشيخ شمس الدين بن أبي عمر، وأخذ عنه الفقه والفرائض وغير ذلك... وكان شيخاً جليلاً، فقيهاً، كبيراً، بهي المنظر، وضيء الشيبة، حسن الشكل، مواظباً على حضور الجماعات وقيام الليل، والتلاوة والصيام وأوراد وعبادة، وكان عارفاً بالفقه خصوصاً كتاب المقنع قرأه وأقرأه مرات، وكان قوي النفس، لين الجانب، حسن الخلق متودداً إلى الناس حريصاً على قضاء الحوائج... وحدث بثلاثيات البخاري سنة ست وخمسين وستمائة، وحدث بجميع الصحيح سنة ستين، وولي القضاء سنة خمس وتسعين... شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ابن العماد. منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ـ ٦/٣٥، ٣٦.

(٢) أبو بكر بن عبد الدايم: ٦٢٥ ـ ٧١٨ هـ.

أبو بكر بن المنذر بن زين الدين أحمد بن عبد الدايم بن نعمة المقدسي الحنبلي، قال الذهبي: كان مُسْنِد الوقت صالحاً. سمع حضوراً في سنة سبع وعشرين وستمائة، وسمع من ابن الزبيدي، والناصح، والإربلي، والهمذاني، وسالم بن صصري، وطائفة، وتفرد. وكان ذا همة وجلادة وذكر وعبادة، لكنه أُضِرّ وثقل سمعه، وتوفي في رمضان عن ثلاث وتسعين سنة وأشهر.

شذرات الذهب. ابن العماد ٦/٤٨.

(٣) المطعم: ـ ٦٤٥ ـ ٧١٩ هـ

عيسى بن عبد الرحمن بن معاني بن أحمد بن إسماعيل بن عاطف بن مبارك بن علي بن أبي الجيش المقدسي الصالح المطعم، راوي صحيح البخاري وغيره، وقد سمع الكثير من مشايخ عدة... توفي ليلة السبت رابع عشر ذي الحجة (٧١٩ هـ)، وصلي عليه بعد الظهر في اليوم المذكور بالجامع المظفري، ودفن بالساحة بالقرب من تربة المولهين، وله أربع وسبعون سنة رحمه الله تعالى.

البداية والنهاية: ابن كثير، ١٤/٩٥.

الشيرازي[1]، وإسماعيل بن مكتوم[2]، وقرأ العربية على أبي الفتح[3]، والمجد التونسي[4]، وقرأ الفقه على المجد الحراني، وأخذ الفرائض عن أبيه

---

(١) ابن الشيرازي: - ٧٥١ هـ.

يوسف بن يحيى بن الناصح عبد الرحمن بن الحنبلي الشيرازي الأصل، الدمشقي ثم الصالحي من بيت مشهور بالعلماء والفضلاء... حضر على والده وسمع من ابن أبي عمر، وابن البخاري وابن المحاور، وولي مشيخة العالمة والنظر عليها وعلى الصاحبة، ودرس بهما، وسمع منه ابن رافع، وابن المقري، وابن رجب والحسيني رحمهم الله تعالى، توفي يوم الجمعة سادس شعبان سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بالصالحية، وصلي عليه عقب الجمعة بالجامع المظفري ودفن بسفح قاسيون. الدارس في تاريخ المدارس: النعيمي، ١١٣/٢.

(٢) إسماعيل بن مكتوم: ٦٢٣ - ٧١٦ هـ.

المقرىء المعمَّر صدر الدين أبو الفدا إسماعيل بن يوسف ابن مكتوم بن أحمد القيسي الدمشقي، سمع من ابن اللتي، ومكرماً، وابن الشيرازي والسخاوي، وقرأ عليه بثلاث روايات، وكان فقيهاً بالمدارس، ومقرباً بالزويزانية وله أملاك، وتفرد بأجزاء، وتوفي بدمشق في شوال عن ثلاث وتسعين سنة. شذرات الذهب: ابن العماد ٣٨/٦.

(٣) أبو الفتح: ٥٩٨ - ٦٥٧ هـ(*)

أبو الفتح أسعد بن عثمان بن أسعد بن المنجا، التنوخي الدمشقي، واقف المدرسة الصدرية بدمشق. دفن بها.. ولد سنة ثمان وتسعين وخمسمائة بدمشق، وسمع بها من حنبل وابن طبرزد، وحدث، وكان أحد المعدلين ذوي الأموال والثروة والصدقات، وولي نظر الجامع مدة وثمر له أموالاً كثيرة...). كتاب الذيل. ابن رجب. وقف على طبعه وصححه محمد حامد الفقي سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م. مطبعة السنة المحمدية ٢٦٨/٢.

(٤) المجد التونسي: ٦٣٦ - ٧١٨ هـ.

مجد الدين أبو بكر بن محمد بن قاسم التونسي الشافعي، قال الذهبي: (هو شيخ النحاة والبحاثين أخذ القراءات والنحو عن الشيخ حسن الراشدي، وتصدر بتربة الأشرفية وبأم الصالح وتخرج به الفضلاء، وكان ديناً، صيناً، ذكياً، حدثنا عن الفخر علي، وتوفي في ذي القعدة عن اثنين وثمانين سنة). شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ٤٨/٦.

(*) البداية والنهاية. ابن كثير. ٢١٦/١٣.

أبي بكـر، وقرأ الأصـول على الصفي الهندي[1]، وابن تيميـة[2]، وكان أكثـر ملازمة لابن تيميه من غيره فغلب عليه حبّه. .)[3].

وذكـر ابن رجب أنـه: (. . . سمـع من الشهـاب النـابلسي العـابـر[4]، والقاضي تقي الدين سليمان، وفاطمـة بنت جوهـر[5]، وعيسى المطعم، وأبي

---

(١) الصفي الهندي: ٦٤٤ ـ ٧١٥ هـ.

محمـد بن عبد الـرحيم بن محمد الأرمـوي أبو عبـدالله صفي الدين الهنـدي، فقيـه أصـولي ولد بالهند وخرج من دهلي سنة ٦٦٧. . . . واستوطن دمشق سنة ٦٨٥ وتوفي بها، ووقف كتبه بدار الحديث الأشرفية، له مصفنات منها «نهاية الوصول إلى علم الأصول» ثلاث مجلدات. . ، و «الفائق في أصول الدين» والزبدة في علم الكلام، والـرسالـة التسعينية في الأصـول الدينيـة. البداية والنهاية، ابن كثير ١٤/٧٤.

(٢) ابن تيمية: ٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ.

(أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبـدالله. . . أبو العبـاس تقي الدين ابن تيميـة. . . ولد في حران فتحـول به أبـوه إلى دمشق، فنبغ واشتهـر. . . اعتقل سنـة ٧٢٠ هـ، وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلاً، في قلعة دمشق. كـان كثير البحث في فنـون الحكمة، داعيـة إصلاح في الدين. . .). الأعلام للزركلي ١/١٤٤.

(٣) الفتـح المبين، في طبقات الأصـوليين. عبدالله مصـطفى المراغي، ملتـزم الطبـع والنشـر عبـد الحميد حنفي. ط ٢ ٢/١٦٨، وانظر أيضـاً الأعلام للزركلي ٦/٥٦، بغيـة الوعـاة في طبقات اللغويين والنحاة. للسيـوطي ط ١. سنة ١٣٢٦ هـ ص ٢٥، والبـدر الطالـع بمحاسن من بعـد القرن السابع للشوكـاني. ط ١، ١٣٤٨ هـ مطبعـة السعادة ٢/١٤٣، الـدرر الكامنـة ابن حجر ٤/٢١.

(٤) الشهاب النابلسي: ٦٤٠ ـ ٧٣٠ هـ.

أيـوب بن نعمـة بن محمـد بن نعمـة بن أحمـد بن جعفـر النـابلسي، زين الـدين الكحـال، الدمشقي ولد سنـة ٦٤٠ هـ، وحفظ قطعـة من التنبيه، وأخـذ الصنعة عن طـاهر الكحـال. . . وسمع من عبدالله بن بركات والـرشيد العـراقي وعثمان بن خـطيب القرافي، وابن أبي الفضـل المرسي، وغيرهم، وحدث بالكثير وتفرد بأشياء قال الذهبي كان فيه ود وتواضع ودين. . ، رجع إلى دمشق فـأقام بهـا، وخرجت لـه مشيخة إلى أن مـات، بعـد أن عجـز وشـاخ، ونـزل بـدار الحديث الأشرفية، ومات في ذي الحجة سنة ٧٣٠ هـ الدرر الكامنة ١/٤٣٥.

(٥) فاطمة بنت جوهر: ٦٢٥ ـ ٧١١ هـ.

فـاطمة بنت إبـراهيم بن محمود بن جـوهر البـطائحي، وهي والـدة إبـراهيم بن بـركـات ابن القـرشيـة، ولـدت سنـة ٦٢٥ هـ، وسمعت الصحيـح من ابن الـزبيـدي، وسمعت من غيـره، =

بكر بن عبد الدائم وجماعة. . . .)[1].

ولقد ذكر رحمه الله من مشايخه ابن تيمية، فقال: (. . . وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية. . .)[2]، وذكر أيضاً من مشايخه أبا الحجاج، جمال الدين المزي[3] محدّث الشام، فقال: (. . . كان شيخنا أبو الحجاج. . .)[4].

تلاميذه:

إن ابن القيم مربّ فاضل، مارس العمل التربوي ممارسة عملية، (درّس بالصدرية وأمّ بالجوزية مدة طويلة)[5]، (أما تلاميذه فلا يحصون عدداً. . .)[6]، ومن أبرز تلاميذه: ابن كثير[7] صاحب البداية والنهاية ذكر هذا

= وحدثت قديماً من زمن ابن عبد الدايم، وماتت في ليلة ٢٥ صفر سنة ٧١١ هـ بقاسيون، ودفنت هناك، أخذ عنها السبكي).

الدرر الكامنة. ابن حجر ٣/٢٢٠، ٢٢١.

(١) كتاب الذيل. ابن رجب، ٢/٤٤٧، ٤٤٨.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٢٥٠.

(٣) الحافظ المزي: ٦٥٤ ـ ٧٤٢ هـ.

(يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك بن يوسف ابن علي بن أبي الزهر القضاعي الكلبي الحلبي الدمشقي المزي «جمال الدين أبو الحجاج» محدث حافظ مشارك في الأصول والفقه والنحو والتصريف واللغة، ولد بظاهر حلب، ونشأ بالمزة وسمع الكثير ورحل، وحدث بالكثير نحو خمسين سنة، فسمع منه الكبار والحفاظ، وولي دار الحديث الأشرفية ثلاثاً وعشرين سنة ونصفاً، وأخذ عنه شمس الدين الذهبي وتقي الدين السبكي وغيرهما، وتوفي بدمشق ١٢ صفر، ودفن بمقابر الصوفية، غربي قبر صاحبه ابن تيمية. من تصانيفه تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف في الحديث، ثماني مجلدات، تهذيب الكمال في أسماء الرجال اثنا عشر مجلداً، قال ابن طولون: ومن المعلوم أن المحدثين بعده عيال على هذين الكتابين. وله «المنتقى من الأحاديث. خ» و«الكنى المختصر من تهذيب الكمال. خ» في ١٠١ ورقة. . .).

انظر الأعلام ٨/٢٣٦، ٢٣٧.

(٤) الروح. ابن القيم ص ٣٧.

(٥) كتاب الذيل. ابن رجب ٢/٤٤٩.

(٦) الفتح المبين في طبقات الأصوليين: عبدالله مصطفى المراغي ط ٢ ـ ٢/١٦٩.

(٧) انظر (الحالة العلمية) من هذه الرسالة: ترجمة ابن كثير ص (٨٦).

عن نفسه فقال في ترجمته لابن القيم: (وكنت من أصحب الناس له، وأحبّ الناس إليه. .)[1]، وابن رجب[2] صاحب كتاب الذيل على طبقات الحنابلة، ذكر في ترجمته لابن القيم ما يفيد أنه من تلاميذه الملازمين له، فقال: (. . . ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنّة، وأشياء من تصانيفه وغيرها)[3]، وابن عبد الهادي[4]، وغيره من الفضلاء، ذكر هذا ابن رجب في ترجمته له بقوله: (. . . وأخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه، وإلى أن مات، وانتفعوا به، وكان الفضلاء يعظّمونه

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/٢٣٤.

(٢) ابن رجب: ٧٣٦ ـ ٧٩٥ هـ.

عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج، زين الدين: حافظ للحديث، من العلماء. ولد في بغداد ونشأ وتوفي في دمشق من كتبه «شرح جامع الترمذي» و«جامع العلوم والحكم ـط» في الحديث وهو المعروف بشرح الأربعين، و«فضائل الشام ـ خ» و«الاستخراج لأحكام الخراج ـ ط» و«القواعد الفقهية ـ ط» و«لطائف المعارف ـ ط» و«فتح الباري ـ شرح صحيح البخاري ـ خ» لم يتمه، و«ذيل طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ـ ط» جزءان، و«الاقتباس من مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس ـ ط»، و«أهوال القبور ـ خ» و«كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة ـ ط»: رسالة في شرح حديث «بدأ الاسلام غريباً» و«التوحيد ـ خ» و«الرسالة في معنى العلم ـ خ». الأعلام للزركلي ٣/٢٩٥. وقد اطلعت على رسالة له (ط): «فضل علم السلف على علم الخلف» ورسالة (مطبوعة) بعنوان: (شرح حديث أبي الدرداء (في فضل العلم).

(٣) كتاب الذيل. ابن رجب ٢/٤٤٨.

(٤) شمس الدين بن عبد الهادي: ٧٠٥ ـ ٧٤٤ هـ.

(شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الصالحي الحنبلي ولد سنة خمس وسبعمائة، وسمع أباه والقاضي تقي الدين سليمان وأبا بكر بن عبد الدايم، وهذه الطبقة. ولازم الحافظ المزي، فأكثر عنه وتخرج به واعتنى بالرجال والعلل، وبرع وجمع وصنف، وتفقه بشيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية، وكان من جملة أصحابه، ودرس بالمدرسة الصدرية. . وتصدر للاشتغال والإفادة، وكان رأساً في القراءات، والحديث والفقه والتفسير والأصلين(*) والعربية واللغة، وتخرج به خلق، وروى الذهبي عن المزي عن السروجي عنه، توفي يوم الاربعاء عاشر جمادى الأولى. .) الدارس في تاريخ المدارس. النعيمي ٢/٨٨، ٨٩. البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/١٨٩، ٢١٠.

(*) لعل الأصلين: علم أصول الفقه والتوحيد.

ويتتلمذون له، كابن عبد الهادي وغيره)[1] وابنه عبدالله الذي قال عنه ابن كثير: (. . . ذكر الدرس بالصدرية. . . عوضاً عن أبيه رحمه الله فأفاد وأجاد، وسرد طرفاً صالحاً من فضل العلم وأهله)[2]، (كما تتلمذ عليه شمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسي[3] صاحب مختصر طبقات الحنابلة)[4].

أقوال العلماء فيه:

لا شك أن كل عالم له أتباع محبون، وطلاب ملازمون يتأثرون بأقواله ويستفيدون من آرائه، وهؤلاء في وصفهم له يختلفون كل الاختلاف عن المخالفين لهذا العالم في الرأي والفكر والاتجاه، وقد لا يخلو عالم في أي عصر من العصور من محبين له، وكارهين. وابن القيم من هذا الصنف من العلماء، ولقد وصفه علماء عاصروه ولازموه، من هؤلاء ابن كثير الذي قال عنه: (كان ملازماً للاشتغال ليلاً ونهاراً كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، كثير التودد لا يحسد ولا يحقد. . . لا أعرف في زماننا من أهل العلم أكثر عبادة منه وكان يطيل الصلاة جداً ويمد ركوعها وسجودها، وكان يقصد للإفتاء بمسألة الطلاق)[5]. وابن رجب الذي قال عنه: (. . . وكان رحمه الله ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية التصوى، وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة، والإنابة، والاستغفار والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطراح بين

---

(١) كتاب الذيل. ابن رجب ٢/٤٤٩.

(٢) البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/٢٣٥.

(٣) النابلسي: . . . - ٧٩٧ هـ.

(محمد بن عبد القادر بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبد المنعم، الجعفري النابلسي، أبو عبدالله شمس الدين، فاضل، من فقهاء الحنابلة. من أهل نابلس (بفلسطين) يقال له «الجنة» لكثرة ما فيه من الفضائل. صحب ابن قيم الجوزية، وتفقه عليه. وأصيب في آخر عمره بفقد ولد له، ففقد عقله، ومات بنابلس عن نحو سبعين عاماً. من كتبه «طبقات الحنابلة - ط» اختصره من كتاب «طبقات الأصحاب - خ» لابن أبي يعلى، و«مختصر كتاب العزلة» للخطابي، و«تصحيح الخلاف» فقه). الأعلام. الزركلي ٦/٢١١.

(٤) شذرات الذهب، ابن العماد ٦/١٦٩.

(٥) البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/٢٣٤ - ٢٣٥.

يديه على عتبة عبوديته لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله.. وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وتصانيفه مليئة بذلك، وحج مرات كثيرة وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة، وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه)[1].

ومن العلماء الذين جاءوا بعده ووصفوه... ابن حجر ت /٨٥٢ هـ الذي ترجم لحياته فقال عنه: (... وكان جريء الجنان، واسع العلم، عارفاً بالخلاف، ومذاهب السلف، وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وكان له حظ عند الأمراء المصريين، واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة، بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروباً بالدِّرّة، فلما مات (ابن تيمية)[*] أفرج عنه، وامتحن مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه... قال الذهبي في المختصر[**]: (حبس مرة لإنكاره شد الرحل لزيارة قبر الخليل، ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم، ولكنه معجب برأيه، جريء على الأمور...)[2].

وقال الشوكاني ت «١٢٥٠ هـ» في الرد على كلام الذهبي: (... قلت بل كان متقيداً بالأدلة الصحيحة، معجباً بالعمل بها، غير معول على الرأي، صادعاً بالحق لا يحابي فيه أحداً، ونعمت الجرأة...)[3].

وقال عنه صاحب كتاب الفتح المبين في طبقات الأصوليين: (...

---

(١) كتاب الذيل. ابن رجب ٢/٤٤٩.

(*) زيادة للايضاح.

(**) المختص. انظر ص (٣٩) من هذه الرسالة.

(٢) الدرر الكامنة. ابن حجر ٤/٢١.

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. محمد بن علي الشوكاني ط ١ سنة ١٣٤٨ هـ مطبعة السعادة ٢/١٤٣.

وكـان كثير الصـلاة والتلاوة، إذا صلى الصبـح جلس مكانـه يـذكـر الله، حتى الضحوة الكبرى، وكـان حسن الخلق، كثير التـودد للناس، جم التـواضع، لا يحسد ولا يحقد، وكان يقول: بالصبر واليقين ينـال المرء الإمـامة في الـدين، وكان أيضاً يقول: لا بد للسالك من همة تسيره وترقيه وعلم يبصره ويهديه. . . ولقد لقي في سبيل حرية الـرأي والجهر بـالحق والإعلان عمـا يعتقد مـا لاقى شيخه ابن تيمية من اضطهاد وتعذيب وسجن، فقد اعتقل مع شيخـه ابن تيمية بالقلعة، بعـد أن أهين وطيف به محمـولاً على جمل، ثم أفـرج عنه بعـد وفاة ابن تيمية، وحبس مرة أخرى لإنكاره شد الرحيـل لزيـارة قبر الخليـل)[1]، هذه بعض أقوال محبي الشيخ ممن عاصروه أو جاءوا بعده.

أمـا عن أقوال خصـومه فنكتفي بمـا ننقله عن الدكتـور عـوض الله جـاد حجازي حيث يقول: (. . . ومن أولئـك الأعداء الشيـخ «تقي الدين السبكي» صـاحب كتاب السيف الصقيـل[2] في الرد على ابن زفيـل، وقد ألفـه ليرد بـه على ابن القيم فيمـا ذكـره في قصيـدتـه: «الشـافيـة في الانتصـار للفـرقـة الناجية». . . كما ألف كتاب «الاعتبار ببقاء الجنة والنار» ليرد به على ابن تيمية وابن القيم معاً.

ومن هؤلاء الأعداء أيضاً ابنه «تاج الدين السبكي» صاحب كتاب طبقات الشـافعية الكبرى، («والتقي الحصني» الذي ألف كتـاب «دفـع شبـه من شبـه وتمرد» ونسب ذلك لـلإمام أحمـد. . . والسبب في عداوة هؤلاء العلمـاء - كما يظهر من كتاباتهم - أنه قد فتح باب الاجتهاد في الفروع. . .)[3].

---

(١) الفتح المبين في طبقات الأصوليين، عبدالله مصطفى المراغي. ط ٢، ٢/١٦٨، ١٦٩.

(٢) يقول الزركلي: (. . . من كتبـه. . «السيف الصقيل. .» رأيتـه بخطه في ٢٥ ورقـة في المكتبة الخالدية بالقدس، في الرد على قصيدة نونية تسمى «الكافيـة» في الاعتقاد منسـوبة لابن القيم) الأعلام ٤/٣٠٢.

(٣) ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي. تـأليف / عوض الله جـاد حجازي. سنـة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م. دار الطباعة المحمدية. ص ٣٨ - ٣٩.

وبالرجوع إلى كتاب «طبقات الشافعية» في البحث عن كتاب «السيف الصقيل» لاحظت عدم وروده ضمن مؤلفات «تقي الدين السبكي» وصاحب كتاب الطبقات هو «تاج الدين السبكي» ابن «تقي الدين السبكي» وهو أعلم من غيره بمؤلفات أبيه[1].

وفاته:

(. . . توفي رحمه الله وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس ثالث عشرين[*] رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وصلى عليه من الغد بالجامع عقيب الظهر، ثم بجامع جراح، ودفن بمقبرة الباب الصغير، وشيعه خلق كثير، ورئيت له منامات كثيرة حسنة)[2].

العصر الذي عاش فيه

إن الصورة التي تكشف لنا حقيقة العصر الذي عاش فيه ابن القيم هي التي تشتمل على بيان الحالة السياسية والحالة الاجتماعية والحالة العلمية لهذا العصر، إذن من المناسب جداً أن نعطي لمحة عن هذه الحالات، فنبدأ بالأولى منها.

الحالة السياسية:

لإبراز الحالة السياسية في عصر ابن القيم، سنتناول بالحديث وضع البلاد الداخلي، من حيث الكيفية التي ينصب بها الخليفة، وبيان الوضع الحقيقي له في السلطة، وأن تنصيبه كان شكلاً لا حقيقة، وأن كل حاكم من حكام المماليك كان يبايع الخليفة ويعقد له البيعة علناً ليُكسب ملكه الشرعية أمام الناس، وسنلمح بالحديث عن ذكر الحروب المتطاحنة بين حكام

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى. تاج الدين السبكي ـ ط ٢، دار المعرفة. بيروت لبنان. ٦/٢١٣ إلى ٢١٦.

(٢) كتاب الذيل على طبقات الحنابلة. ابن رجب، بتصحيح محمد حامد الفقي. سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م. مطبعة السنة المحمدية ٢/٤٥٠.

(*) هكذا. والصواب (عشر من). ر. البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/٢١٤.

المماليك على السلطة، مما كان له الدور الرئيسي في ضعف الحالة السياسية للبلاد.

كما سنتحدث عن الوضع السياسي الخارجي للبلاد، فنذكر حروب المسلمين مع الصليبيين، ونتائج هذه الحروب وما آلت إليه حالة البلاد بعدها، وسنذكر حروب المسلمين مع التتار ونتائج هذه الحروب وحالة البلاد أثناءها وبعدها.

١ ـ الوضع الداخلي للبلاد:

لقد أصبحت البلاد في هذا العصر تعيش فوضى سياسية متناهية، فالخليفة كان ينصب على الخلافة شكلاً بلا مضمون، فكان يدعى له على المنابر، واسمه على السِّكَّة، والحكم النافذ لغيره، يروي لنا هذه الحالة ابن القيم، في معرض ذمه للذين لا يعطون نصوص الكتاب مكانتها اللائقة بها فقد قال رحمه الله عنهم: (... أنزلوا[*] النصوص منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه على السكة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع، والحكم النافذ لغيره، فحكمه غير مقبول ولا مسموع)[١].

ليس هذا فحسب بل إن السلطان من المماليك كان ينفذ أمره في الخليفة، فله أن يسجنه إن أراد، أو ينفيه، أو يمنع الناس عنه، يقول ابن كثير في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة: (استهلت بيوم الجمعة، والخليفة المستكفي قد اعتقله السلطان الملك الناصر ومنعه من الاجتماع بالناس...)[٢]، وبعد سجن السلطان له بدا له اطلاقُه من سجنه وبالفعل: (أفرج عن الخليفة المستكفي وأطلق من البرج في حادي عشرين ربيع الآخر ولزم بيته)[٣] وفي

(*) الفقهاء المتعصبون للمذاهب.

(١) مدارج السالكين في منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين. ابن القيم تحقيق محمد حامد الفقي. دار الكتاب العربي ـ بيروت ١/٢٤٩، ١/٥.

(٢) البداية النهاية. ابن كثير ١٤/١٧٦.

(٣) المرجع السابق ١٤/١٧٧.

نهاية الأمر نفاه السلطان وأهله وذويه إلى بلاد قوص. يقول ابن كثير: (. . . نفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليفة وأهله وذويه، وكانوا قريباً من مائة نفس إلى بلاد قوص، ورتب لهم هناك من يقوم بمصالحهم)[1]، هذا هو وضع الخليفة وما ذكره ابن كثير موافق لما ذكره ابن القيم.

أما الوضع بين السلاطين وأمراء الجند فكان يتسم بالفوضى، والاضطراب والمكر والكيد؛ يقول ابن كثير في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة: (وفي العشر الأخير من رمضان جاء البريد من نائب غزة إلى نائب دمشق بقتل السلطان الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد، وقع بينه وبين الأمراء، فتحيزوا عنه إلى قبة النصر، فخرج إليهم في طائفة قليلة، فقتل في الحال، وسحب إلى مقبرة هناك، ويقال قطع قطعاً)[2]. ويقول ابن كثير أيضاً: (. . . ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة. . . والأمير ركن الدين بيبرس الأحمدي نازل بقصر تنكز بطريق داريا(*)، وكتبُ السلطان واردة في كل وقت بالاحتياط عليه والقبض وأن يمسك ويرسل إلى الكرك(**)، هذا والأمراء يتوانون في أمره ويسوّفون المراسيم، وقتاً بعد وقت، وحيناً بعد حين، ويحملهم على ذلك أن الأحمدي لا ذنب له، ومتى مسكه تطرق إلى غيره. . .)[3].

وبجانب هذا المكر والكيد كان السلاطين والأمراء ومن حولهم يعيشون حياة لهو وترف وبذخ، مصحوبة بقسوة وبطش بالمسلمين أحياناً، وتقريب للكافرين أحياناً أخرى، يقول ابن كثير في بيان السبب المانع للأمراء من

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/١٧٨.

(٢) المرجع السابق ١٤/٢٢٤.

(*) هذه قرية تقع غربي دمشق. معروفة الآن.

(* *) هذه بلدة بالأردن وهي معروفة الآن.

(٣) البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/٢٠٢.

القبض على الأحمدي: هو (. . . أن السلطان يبلغهم عنه أحوال لا ترضيهم من اللعب والاجتماع مع الأرذال والاطراف ببلد الكرك، مع قتله الفخري وطشتمر قتلاً فظيعاً، وسلبه أهلهما، وسلبه لما على الحريم من الثياب والحلي، وإخراجهم في أسوأ حال من الكرك وتقريبه النصارى وحضورهم عنده. .)[1] يقول ابن كثير في سنة ثمان عشرة وسبعمائة: (وفي هذا الشهر [جمادى الأولى][2] كان مقتل رشيد الدولة، فضل الله بن أبي الخير بن عالي الْهَمْداني، كان أصله يهودياً عطاراً، فتقدم بالطب، وشملته السعادة، حتى كان عند خرابندا الجزء الذي لا يتجزأ، وعلت رتبته ومكانته، وتولى مناصب الوزراء، وحصل له من الأموال والأملاك والسعادة ما لا يحد ولا يوصف)[3].

وفي مقابل هذه الصورة المعتمة لسلاطين المماليك هناك صورة مشرقة، حيث قاموا بحرب الصليبيين ودحرهم والانتصار عليهم، يقول ابن كثير في أحداث سنة ثلاث وستين وستمائة: (. . . وفيها خرج الملك الظاهر في عساكره فقصد بلاد الساحل لقتال الفرنج ففتح قيسارية في ثلاث ساعات. . . وتسلم قلعتها. . . وانتقل إلى غيرها، ثم جاء الخبر بأنه فتح مدينة أرسوف وقتل من بها من الفرنج. .)[4]

وقاموا أيضاً بدحر التتار وصدهم في موقعة عين جالوت التي دارت بين المسلمين والمغول سنة ستمائة وثمان وخمسين يقول ابن كثير: (إن المظفر قطز لما بلغه ما كان من أمر التتار بالشام. . . بادرهم قبل أن يبادروه، وبرز إليهم. . . في عساكره، وقد اجتمعت الكلمة عليه. . . فكان اجتماعهم على عين جالوت. . . فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فكانت النصرة ولله الحمد للإسلام وأهله)[1].

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/٢٠٢.

(٢) زيادة إيضاح.

(٣) المرجع السابق ١٤/٨٧.

(٤) المرجع السابق ١٣/٢٤٤، ٢٤٥.

(١) البداية والنهاية. ابن كثير ١٣/٢٢١.

ولقد كان لمخالفة الشيعة لأهل السنة وتحزبهم ضدهم دور في إشاعة الفوضى والرعب والخوف بما كان يكيده الرافضة لأهل السنة، بممالأتهم لأعدائهم، والوشاية بهم، يصور هذا الكيد ابن القيم بقوله: (... فإنه قط ما قام عدو من غيرهم [الرافضة][1] إلا كانوا أعوانهم على الإسلام، وكم جروا على الإسلام وأهله من بلية، وهل عاثت سيوف المشركين عباد الأصنام - من عسكر هولاكو وذويه من التتار - إلا من تحت رؤوسهم؟ وهل عطلت المساجد وحرقت المصاحف، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم إلا بسببهم ومن جرائهم؟ ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة، وآثارهم من الدين معلومة...)[2].

هذه هي الصورة للوضع الداخلي للبلاد في عصر ابن القيم وذلك مما دفعه هو والمصلحين من علماء الإسلام أمثال شيخه ابن تيمية إلى القيام بالدعوة الإصلاحية والمناداة بالاعتصام بنصوص الكتاب والسنة، والتحذير من الرافضة والابتعاد عن التقليد؛ ففي هذا خلاص للأمة من الاضطراب والخوف والفوضى.

٢ - الوضع الخارجي للبلاد:

لقد كانت البلاد قبل مولده قد مُنيت بالحروب الصليبية[3] من الغرب، والغزو التتري من الشرق.

فالصليبيون أغاروا على بلاد الإسلام من الغرب، ودارت بينهم وبين

---

(١) زيادة ايضاح.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين. ابن القيم. تحقيق محمد حامد الفقي. سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م. دار الكتاب العربي. بيروت. ١/٧٢.

(٣) لقد انتهت الحروب الصليبية في نهاية القرن السابع. يقول ابن كثير: (... ثم دخلت سنة تسعين وستمائة من الهجرة - فيها فتحت عكا وبقية السواحل التي كانت بأيدي الفرنج من مدد متطاولة، ولم يبق لهم فيها حجر واحد..) ا. هـ من البداية والنهاية ابن كثير ١٣/٣١٩ ولكن ما انتهت حتى جعلت البلاد في حالة شديدة من الضعف، في جميع المجالات، مما دعانا أن نذكر آثارها في عصر ابن القيم.

المسلمين معارك معروفة مشهورة، يهزمون المسلمين مرة، وينتصر المسلمون عليهم أخرى، ولقد استولوا في بداية حروبهم على كثير من المدن والقرى على الساحل الغربي للبلاد، فعندما (نودي في دمشق الغزاة في سبيل الله إلى عكا. . . وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حتى الفقهاء والمدرسين والصلحاء، وتولى ساقها الأمير علم الدين الدويداري، وخرجت العساكر بين يدي نائب الشام، وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر، وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس، وركب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا، فتوافت الجيوش هناك، . . . وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس، ونصبت المناجق الإسلامية فوق أسوار البلد، فولّت الفرنج عند ذلك الأدبار، وركبوا هاربين في مراكب التجار، وقتل منهم عدد لايعلمه إلا الله تعالى، وغنموا من الأمتعة والرقيق والبضائع شيئاً كثيراً جداً. . وسلمت صور، وصيدا قيادتهما إلى الأشرف ، فاستوثق الساحل للمسلمين وتنظف من الكافرين «وقطع[1] ﴿دابر **الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾**)[2].

وأما التتار فقد أغاروا على دار الخلافة بغداد، وهدّموها وقتلوا الخليفة وأهله وذويه، وقتلوا خلقاً كثيراً بها، حيث داهموها بمئات الألوف من الجنود، يقول ابن كثير: (. . . وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها، وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل إلى بغداد. . . وصل بغداد بجنوده الكثيرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتيها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش كلهم، قد صرفوا عن قطاعاتهم، حتى

---

(١) هكذا بالواو. وهذا يسمى اقتباساً، لأنه (. . . يجوز أن يغير المقتبس في الآية أو في الحديث قليلاً، ومثال ذلك قول الحريري: «فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب») ا. هـ من معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. مجدي وهبة، وكامل المهندس. مكتبة لبنان. سنة ١٩٧٩ م. ص ٣٤. ونص الآية: **﴿فقطع دابر الذين ظلموا . .﴾** الآية.

(٢) البداية والنهاية. ابن كثير ١٣/ ٣٢٠، ٣٢١. سورة الأنعام / ٤٥.

استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد)[1].

هؤلاء التتر ما كان يقف في طريقهم شيء، استمر زحفهم حتى مشارف الشام، فأصبحت حال من الرعب والخوف، تسيطر على الناس، يصف حالة الخوف هذه ابن كثير، فيقول: (. . . واشهر بالبلد أن التتر يريدون دخول دمشق، فانزعج الناس لذلك، وخافوا خوفاً شديداً، وأرادوا الخروج منها والهرب على وجوههم، وأين الفرار **﴿ولات حين مناص﴾**[2].

ولقد كان للعلماء المخلصين والدعاة الصادقين أمثال ابن تيمية دور إيجابي وفعّال تجاه هذه الحال؛ إما بالمفاوضات، أو المشورة وإبداء الرأي وتوضيح الفتوى، أو خوض المعارك والجهاد في سبيل الله، يقول ابن كثير: (. . . خرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من أصحابه. . . إلى ملك التتر وعاد بعد يومين ولم يتفق اجتماعهم به. . .)[3]، وقال أيضاً: (. . . وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو؟ فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه. . .)[4] فتصدى لهذه المقالة ابن تيمية رحمه الله، فأزال الالتباس ودحض الشبهة فقال: (هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتر وقويت قلوبهم. .)[5]، وعندما حانت ساعة الصفر ونودي للجهاد كان ابن تيمية نموذجاً صادقاً للعلماء، يتقدم

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير ١٣/ ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) المرجع السابق ١٤/ ٨، سورة ص /٢.

(٣) المرجع السابق ١٤/ ٨.

(٤) المرجع السابق ١٤/ ٢٣، ٢٤.

(٥) المرجع السابق ١٤/ ٢٤.

الصفوف مجاهداً مناضلاً في وقعة شقحب(*): (وذلك أنه ندبه العسكر الشامي أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق، فسار إليه فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإيّاه جميعاً فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرض السلطان على القتال وبشره بالنصر... وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضاً... ثم نزل النصر على المسلمين... واستظهر المسلمون عليهم)[1].

وقد بشر الناس بهذا النصر و: (... دخل الشيخ تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من الجهاد ففرح الناس به، ودعوا له وهنأوه بما يسر الله على يديه من الخير)[2].

ولقد انتهت هذه الحروب الدامية وأخذ المسلمون منها دروساً في الصبر والتضحية والجهاد، ووحدة الكلمة والتئام الشمل، واغتنمها العلماء المخلصون والدعاة إلى الله، فنادوا بالعودة إلى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، ونبذ الخلاف، والابتعاد عن المعاصي والمنكرات، وأعادت للمسلمين الثقة بالله والاعتزاز بالدين، ثم الثقة بأنفسهم والجرأة في قول الحق والمناداة به.

الحالة الاجتماعية:

لقد رأينا كيف كانت تعيش البلاد من الناحية السياسية، ونريد هنا أن نعرف الحالة الاجتماعية للبلاد في عصر ابن القيم رحمه الله.

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/٢٥، ٢٦.

(٢) المرجع السابق ١٤/٢٥.

(*) المكان الذي اجتمعت فيه (الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصُّفَّر) ا. هـ من البداية والنهاية. ابن كثير ١٤/٢٥. ومرج الصفر: (موضع بين دمشق والجولان) ا. هـ من معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار بيروت للطباعة ونشر. بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ٣/٤١٣.

لقد كان المجتمع في عصر المماليك متميزاً بتفاوت طبقاته: (. . . كان ينقسم إلى طبقتين متميزتين، بينهما فوارق عدة، هما طبقة الحاكمين، وطبقة المحكومين، وظلت الطبقة الحاكمة حاكمة ولبثت الطبقة المحكومة محكومة. . . وبقيت الأولى مترفعة عن الامتزاج بالثانية. . . وتتألف. . . من ثلاثة عناصر هي:

١ ـ السلطان.

٢ ـ أمراء الجند ومنهم نواب المملكة.

٣ ـ الجنود السلطانية. . .

الطبقة الحاكمة كانت المستأثرة بالعزّ والسلطان والنعيم، دون الطبقة الأخرى التي كانت. . . تعاني الأمرين من فداحة الضرائب المقررة عليها)[1].

أما الطبقة الثانية، فكانت تتألف من ستة عناصر:

١ ـ أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية.

٢ ـ الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويقال لهم أصحاب الخبز ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السُّوقة.

٣ ـ وأهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف.

٤ ـ والفقراء وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم. . .

٥ ـ أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن.

٦ ـ ذوي الحاجة والمسكنة هم أهل السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم)[2].

ولقد كانت فئة الفقهاء وطلاب العلم ذات دور مؤثر في المجتمع، منهم

---

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، تأليف محمود رزق سليم. سنة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م. الناشر مكتبة الآداب بالجماميز. بالقاهرة. ٢٨٦/٦، ٢٨٧.

(٢) المرجع السابق، ٢٨٩/٦، ٢٩٠، ٢٩١.

من: (. . . يشتهرون بالفضل، ويعرفون بسعة العلم والأدب. . . ورؤساء هذه الطائفة أقرب عناصر الشعب إلى الحاكمين وأشبه بالأمراء، فاكتسبوا بذلك جاهاً ونفوذاً. . . واستطاع بعضهم أن يدرأ عن الشعب أحياناً كثيراً من السوء الذي يدبر له، ومن الظلم الذي يراد به)[1].

هذه هي البنية الاجتماعية لذلك المجتمع، وهذا المجتمع كثيراً ما يتعرض لموجة من الجفاف وقلة الأمطار. فيترتب على هذه الحال نقص في الغذاء وقلة في الماء وغلاء في الأسعار، يقول ابن كثير يصف بعض موجات الجفاف لذلك العصر: (. . . إذا سافر أحد يشق عليه تحصيل الماء لنفسه ولفرسه ودابته، لأن المياه التي في الدرب كلها نفدت. . .)[2]، ويقول عن حالة الغلاء: (. . . وسائر الأشياء غالية والزيت كل رطل بأربعة ونصف، ومثله الشيريج والصابون والأرز والعنبريس كل رطل بثلاثة، وسائر الأطعمات على هذا النحو)[3]، وهذا الوضع من الجفاف وقلة المطر حمل أصحاب القرى على جلب القمح الذي كانوا يصدرونه، للمؤونة والبذار، يقول ابن كثير يصف حالة أهالي القرى: (. . . غالب أهل حوران يردون من الأماكن البعيدة ويجلبون القمح للمؤونة والبذار من دمشق، وبيع عندهم القمح المغربل كل مدّ بأربعة دراهم وهم في جهد شديد)[4]، هذه الحال من الجفاف وقلة المطر وغلاء الأسعار أصابت الناس بمجاعة عارمة ودفعت الكثير منهم إلى أكل الحمير والكلاب حتى أفنيت، يقول ابن كثير في وصفه لهذه الحالة: (. . . أفنيت الحمر والخيل والبغال والكلاب من أكل الناس لها، ولم يبق شيء من هذه الحيوانات يلوح إلا أكلوه)[5]. ومع أكلهم لهذه الحيوانات وإفنائهم لها أصيبوا بظاهرة موت جماعي، يصف ابن كثير ظاهرة الموت هذه بقوله: (. . . وكانوا يحفرون الحفيرة فيدفنون بها الفئام من الناس. . . والموت عمال. . .

---

(١) عصر سلاطين المماليك. . محمود رزق سليم، ٦/٢٩١، ٢٩٢.

(٢) البداية والنهاية. ابن كثير. ١٤/٢٢٤.

(٣) المرجع السابق. ١٤/٢٢٤ .

(٤) المرجع السابق ١٤/ ٢٢٤.

(٥) المرجع السابق. ١٣/٣٤٣.

فمات بها (سنة خمس وتسعين وستمائة) في شهر صفر مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفاً. . .)[1]، وهذا المجتمع إذا فرج الله كربته، وأزال محنته، وأدر الخيرات عليه، وأنزل الأمطار كان الواجب عليه أن يلهج بالشكر لله والثناء على ما أنعم وتفضل، ولكن مع هذا كانت تشيع في هذا المجتمع بعض المنكرات، فلا تجد من السلطة المكافحة والردع، فمرة: (سقط اثنان سكارى من سطح بحارة اليهود أحدهما مسلم والآخر يهودي، فمات المسلم من ساعته وانقلعت عين اليهودي وانكسرت يده. .)[2]، فعندما رفع الأمر إلى نائب السلطان لم يتخذ أي إجراء إيجابي، يقول ابن كثير عن هذا اليهودي: (. . . حمل إلى نائب السلطنة فلم يحر جواباً)[3]، أما بالنسبة للغناء فقد كان يسمع لا في المنازل والدور فحسب بل في المساجد والأماكن المقدسة والأوقات الفاضلة، ويعمله من ينتسبون[4] إلى هذا الدين. يقول ابن القيم: (. . . ومن أعظم المنكرات تمكينهم من إقامة هذا الشعار الملعون هو وأهله في المسجد الأقصى، عشية عرفة، ويقيمونه أيضاً في مسجد الخيف أيام منى. .)[5] وما كانت هناك سلطة رادعة لهؤلاء وأمثالهم، لكن ابن القيم الداعية المربِّي كان له دور إيجابي في إزالة هذا المنكر باللسان واليد، يساعده في ذلك أناس من حزب الله، يقول رحمه الله عن الذين يقيمون الغناء في مسجد الخيف: (. . . وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفي مراراً، ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه والناس في الطواف، فاستدعيت حزب الله، وفرقنا شملهم، ورأيتهم يقيمونه بعرفات والناس في الدعاء والتضرع والابتهال والضجيج إلى الله، وهم في هذا السماع الملعون باليراع والدف والغناء)[6]،

---

(١) البداية النهاية. ابن كثير ١٣/٣٤٣.

(٢) المرجع السابق ١٤/٣٠١.

(٣) المرجع السابق ١٤/٣٠١.

(٤) الصوفية، يتحلقون حلقاً، يقومون فيها يرقصون ويتمايلون على أنغام الغناء والآلات ويتصايحون ويتراقصون بما يسمونه ذكراً. .) اهـ. من حاشية إغاثة اللهفان من مصايدالشيطان. ابن القيم. تحقيق وتصحيح وتعليق. محمد حامد الفقي، ١٠/٢٢٤.

(٥) (٦) إغاثة اللهفان. ابن القيم ١/٢٣١.

ومما كان له دور أيضاً في تمزيق البنية الاجتماعية الخلاف العقائدي والمذهبي يقول ابن كثير في سنة ست عشرة وسبعمائة: (وقعت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد وترافعوا إلى دمشق فحضروا بدار السعادة عند نائب السلطنة تنكز فأصلح بينهم، وانفصل الحال على خير من غير محاققة ولا تشويش على أحد من الفريقين)[1]، ويقول أيضاً في سنة ثمان عشرة وسبعمائة: (وفي يوم الخميس منتصف ربيع الأول اجتمع قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم بالشيخ الإمام العلامة تقي الدين بن تيمية وأشار عليه في ترك الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق فقبل الشيخ نصيحته وأجاب إلى ما أشار به، رعاية لخاطره وخواطر الجماعة المفتين، ثم ورد البريد في مستهل جمادى الأولى بكتاب من السلطان فيه منع الشيخ تقي الدين من الإفتاء في مسألة الحلف بالطلاق، وانعقد بذلك مجلس، وانفصل الحال على ما رسم به السلطان، ونودي به في البلد، وكان قبل قدوم المرسوم قد اجتمع بالقاضي ابن مسلم الحنبلي جماعة من المفتين الكبار، وقالوا له ن ينصح الشيخ في ترك الإفتاء في مسألة الطلاق، فعلم الشيخ نصيحته وأنه إنما قصد بذلك ترك ثوران فتنة وشر)[2]، وهذا الخلاف إذا كان بين أهل السنة فإنه سينتهي دون تشويش أو ضرر على أحد إلا في بعض الأحيان، لكن الخلاف الذي يترتب عليه الهلاك والدمار هو ما وقع بين الرافضة وأهل السنة، حيث خرج ابن العلقمي الرافضي إلى الأعداء محرضاً إيّاهم على النيل من المسلمين: (فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن يخرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو

(١) البداية والنهاية. ابن كثير. ١٤/٧٥، ٧٦.

(٢) المرجع السابق. ١٤/٨٦، ٨٧.

حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم)[1].

وهناك بعض الظواهر الاجتماعية التي شاعت في ذلك المجتمع، واستدعى أمرها قيام الغيورين من العلماء ودعوتهم إلى محاربة هذه الظواهر المنافية لمبادىء الإسلام. من هؤلاء العلماء ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله. فابن القيم يندد بعمل «المحللين» الذين أصبحت لهم حوانيت يتكسبون منها، لا دخل لهم غيرها، فيقول رحمه الله واصفاً هذه الحال محذراً منها مستهجناً لها: (. . . فلو شاهدت الحرائر المصونات على حوانيت المحللين متبذلات. . . حتى إذا تشارطا على ما يجلب اللعنة والمقت، نهضا واستتبعها خلفه للوقت، بلا زفاف، ولا إعلان، بالتخفي والكتمان. . .)[2].

الحالة العلمية:

بعد أن عرفنا الناحية السياسية للبلاد في عصر ابن القيم وما كانت تتسم به من الفوضى والاضطراب والخوف والرعب والكيد والمكر والأهوال المدمرة، وبعد أن عرفنا الأوضاع الاجتماعية التي كان طابعها تمزيق الشمل للبناء الاجتماعي، بتفاوت الطبقات فيه، وبما كان يسوده من ظواهر اجتماعية، استدعت بعض المصلحين إلى محاربتها والمناداة بالبعد عنها، بعد هذا كله نريد أن نعرف الحالة العلمية لهذا العصر الذي نؤرخ له.

بعد كل ما ذكرنا من سوء الحالة السياسية وضعف الحالة الاجتماعية ماذا نتوقع للحالة العلمية غير ركود في الانتاج العلمي، وفقدان لروح الابتكار والتجديد، وتحجر في الأفكار، وسيادة للتقليد، وتعصب لأقوال الرجال فكان ذلك مما حدا بالغيورين على هذا الدين، والمصلحين الدعاة في هذه الأمة أمثال ابن تيمية وابن القيم أن يجندوا أقلامهم ويقدحوا أفكارهم لمحاربة

---

(١) البداية والنهاية. ابن كثير. ١٣/٢٠١.

(٢) إغاثة اللهفان. ابن القيم. ١/٢٦٨.

التقليد ونبذ التعصب، والعودة إلى نصوص الكتاب والسنة، وفتح باب الاجتهاد فلنستمع إلى ابن القيم وهو يقول: (... والواجب اتباع الدليل أين كان ومع من كان، وهو الذي أوجب الله اتباعه وحرم مخالفته، وجعله الميزان الراجح بين العلماء، فمن كان من جانبه كان أسعد بالصواب قلّ موافقوه أو كثروا...)[1].

ولقد اقتصر أكثر نشاط العلماء في هذا العصر، على قراءة التراث، والاهتمام بالجمع والشروحات والموسّعات والمختصرات في التأليف، وبرز في هذه الميادين بعض هؤلاء العلماء، منهم من اهتم بالتفسير والحديث، ومنهم من اهتم بالفقه والأصول، ومنهم من اهتم باللغة والأدب، ومنهم من اهتم بالتاريخ، فألفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة، ودرسوا وشغلوا المناصب العلمية في الجوامع والمدارس، وكان لهم في هذا الجانب نشاط واضح ملموس وقد ذكرنا أسماء طائفة من العلماء لدى كلامنا على شيوخ ابن القيم، ونذكر هنا آخرين لتصوير الحالة العلمية في عصر ابن القيم، فمن هؤلاء العلماء:

١ ـ البيضاوي: ت ٦٨٥ هـ

عبدالله بن عمر بن محمد بن علي أبو الخير، كان إماماً علامة بالفقه والتفسير والأصلين[*] والعربية والمنطق، نظاراً، صالحاً، متعبداً، شافعياً.

صنف: مختصر الكشاف، المنهاج في الأصول، شرحه أيضاً، شرح مختصر ابن الحاجب في الأصول، شرح المنتخب في الأصول للإمام فخر الدين، شرح المطالع في المنطق، الإيضاح في أصول الدين، الغاية القصوى في الفقه، الطوالع في الكلام، شرح الكافية لابن الحاجب، مات سنة خمس وثمانين وستمائة بتبريز[2].

---

(١) الفروسية. ابن القيم ص ٨٢.

(*) أصول الفقه. وأصول الدين.

(٢) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. السيوطي. تحقيق / محمد أبو والفضل إبراهيم ط ٢ سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م دار الفكر ٢/ ٥٠، ٥١.

٢ ـ الصفي ألهندي: ٦٤٤ هـ ـ ٧١٥ هـ

انظر ترجمته في ص (٦٦) من هذه الرسالة.

٣ ـ ابن منظور: ٦٣٠ هـ ـ ٧١١ هـ

محمد بن مكرم بن علي ـ وقيل رضوان ـ بن أحمد بن أبي القاسم بن حقة، بن منظور الأنصاري، الإفريقي المصري، جمال الدين، أبو الفضل، صاحب لسان العرب في اللغة، الذي جمع فيه بين التهذيب والمحكم والصحاح وحواشيه والجمهرة والنهاية، ولد في المحرم سنة ثلاثين وستمائة، وسمع من ابن المقيّر وغيره، وجمع، وعُمِّر، وحدث، واختصر كثيراً من كتب الأدب المطولة كالأغاني، والعقد، والذخيرة، ومفردات ابن البيطار، ونقل أن مختصراته خمسمائة مجلد... وكان عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة. واختصر تاريخ دمشق في نحو ربعه... مات في شعبان سنة إحدى عشرة وسبعمائة..)[1].

٤ ـ أحمد بن علي بن عبد القادر: المقريزي ٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ

أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي، مؤرخ الديار المصرية... ولد ونشأ ومات في القاهرة... من تأليفه كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار...» ويعرف بخطط المقريزي، و«السلوك في معرفة دول الملوك...»... و«تاريخ الأقباط..» و«البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب...»... و«مختصر الكامل لعبد الله بن عدي..»)[2]، وله «إمتاع الأسماع» في السيرة النبوية طبع جزء منه بتحقيق محمود شاكر.

٥ ـ ابن كثير: ٧٠١ هـ ـ ٧٧٤ هـ.

(إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القيسي البصروي الشيخ عماد الدين، ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير، ومات أبوه سنة ثلاث

(١) بغية الوعاة.. السيوطي ٢٤٨/١.

(٢) الأعلام. الزركلي. ط ٥ سنة ١٩٨٠م، دار العلم للملايين ١٧٧/١.

وسبعمائة، ونشأ هو بدمشق، وسمع من ابن الشحنة، وابن الزراد وإسحاق الآمدي، وابن عساكر، والمزي، وابن الرضي، وطائفة وأجاز له من مصر الدبوسي، والواني، والختني، وغيرهم، واشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، فجمع التفسير، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وجمع التاريخ الذي سماه البداية والنهاية، وعمل طبقات الشافعية، وخرج أحاديث أدلة التنبيه وأحاديث مختصر ابن الحاجب الأصلي، وشرع في شرح البخاري، ولازم المزي، وقرأ عليه تهذيب الكمال، . . . مات في شعبان سنة سبعمائة وأربع وسبعين)[1]، ولقد صحب ابن القيم ولازمه، وكان من أحب الناس إليه[*].

ولقد وجد في هذا العصر كثير من العلماء غير هؤلاء، اكتفينا بذكر من سبق.

ولقد كان للعنصر النسائي في هذا العصر دور بارز، تَلَقَّيْنَ العلم، وتبحرن فيه وشاركن في الحركة العلمية لهذا العصر، منهن على سبيل المثال:

١ ـ فاطمة بنت إبراهيم[2].

٢ ـ صفية بنت أحمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، الصالحية أم محمد زوج البهاء بن العز عمر، ولدت سنة ٦٦٠ هـ. وسمعت من الكرماني منتقى من الأربعين الشحامية، ومن ابن عبد الدائم صحيح مسلم، وغيرهما، وحدثت بصحيح مسلم وغيره، وماتت في ثامن عشر ذي الحجة سنة سبعمائة وإحدى وأربعين)[3].

---

(١) الدرر الكامنة. . . ابن حجر. دار الجيل. بيروت ١/٣٧٣، ٣٧٤.

(*) انظر ص ٦٢ من هذه الرسالة، مبحث: خلقه وعبادته.

(٢) سبقت ترجمتها في ص ٦٧ من هذه الرسالة خلال الكلام على شيوخ ابن القيم.

(٣) الدرر الكامنة. . . ابن حجر ٢/٢٠٧.

ولقد اكتفينا بترجمة اثنتين من هؤلاء النساء، رغبة في الاختصار، مع أن كتب التراجم تذكر العديد منهن في هذا العصر وما قبله وما بعده.

هذا وقد وجد في هذا العصر الكثير من المؤسسات التعليمية التربوية التي كان لها نشاط في الحركة العلمية، كالجوامع والمدارس وغيرها، وسنكتفي بالحديث عن الجامع الأموي بدمشق، ونذكر بعض المدارس التي كانت تزاول العمل التعليمي.

الجامع الأموي:

لقد كان لهذا الجامع دور إيجابي وبناء في إشاعة العلم والمعرفة والثقافة لأنه كان بمثابة الجامعة العلمية بما اشتمل عليه من مدارس ملحقة به، وخزانات للكتب عامرة بصنوف المؤلفات، وبحلقات العلم النشطة. قال ابن شداد: (... ذكرنا فيه من المدارس: مدرسة شافعية بالكلاسة، المدرسة الغزالية، وتعرف بالشيخ نصر المقدسي، مدرسة ابن شيخ الإسلام، مدرسة الملك المظفر أسد الدين شافعية مدرسة للمالكية، مدرسة ابن منجا حنبلية انتهى. وأفاد أموراً وعدد في الجامع إحدى عشرة حلقة يصرف عليها من مال المصالح..)[1].

وكان بالجامع كما ذكرت خزانات للكتب قام بوقفها بعض أشخاص رغبة في الأجر وحباً في نشر العلم، مثل التي وقفها (يعقوب بن عبدالله نجيب الدين متولي الشيخ تاج الدين الكندي، وقد وقف إليه الكتب التي بالخزانة بالزاوية الشرقية الشمالية من جامع دمشق، وكانت سبعمائة وإحدى وستين مجلداً، ثم على ولده من بعده، ثم على العلماء...)[2]

هذا نموذج مما يتعلق بنشاط المساجد في الحركة العلمية، ولا تخلو مدينة من نشاط علمي في مساجدها.

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس. تأليف عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي. نشر وتحقيق جعفر الحسني. مطبعة الترقي. دمشق سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م - ١/٣٣٣.

(٢) البداية والنهاية. ابن كثير ١٣/١١٦.

أما المدارس فنشاطها لا يقل عن نشاط هذه الجوامع، ولقد وجدت مدارس عدة في هذا العصر، قام ببنائها أناس أثرياء، وقفوا عليها الأوقاف، وعينوا لمشيختها المدرسين وأكرموهم بالعطاء، وقد كان الحكام والأمراء يقيمون أيضاً بناء مثل هذه المدارس، ويرصدون لذلك الأموال، ويعهدون للعلماء بالقيام عليها والتدريس فيها، ويوصون في بعض هذه المدارس بتدريس أكثر من مذهب، والنظام في هذه المدارس نوعان: النوع الأول: المدارس ذات المدرس الواحد، يتولى مشيختها أستاذ جدير يدرسها حتى يحال من هذا المنصب بتنحيته عنه أو بموته، ثم يعقبه غيره وهكذا. والنوع الثاني: ما يشبه الجامعة العلمية حيث يدرس بها أكثر من مذهب، وتوضع لها الميزانيات وتخصص لها الأموال، وإنني سأذكر نموذجاً واحداً لكل من هذين النوعين، فسأذكر في النوع الأول مدرسة وقفها أحد الأثرياء، ومدرسة قام ببنائها أحد السلاطين، أما النوع الثاني فسأذكر المدرسة المستنصرية نموذجاً لهذا النوع من المدارس:

١ ـ المدرسة الرواحية بدمشق:

(... واقفها أبو القاسم هبة الله المعروف بابن رواحة، كان أحد لتجار، وفيّ الثروة والمقدار، ومن المعدلين بدمشق...، وقد ابتنى المدرسة الرواحية، داخل باب الفراديس، ووقفها على الشافعية، وفوض نظرها وتدريسها إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح الشهرزوري وله بحلب مدرسة أخرى مثلها..)[1].

٢ ـ المدرسة الظاهرية البرانية:

(خارج باب النصر بمحلة «المنيبع» شرقي الخاتونية الحنفية وغربي الخانقاه الحسامية، بين نهري القنوات وبانياس على الميدان بالشرق القبلي، بناها الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب... ودرس

(١) البداية والنهاية. ابن كثير. ١٣/١١٦.

بها العلاّمة شمس الدين محمد أبو عبدالله بن معين. . . ابن السلطان الشيباني الدمشقي، تفقه بحلب على ابن شداد، وحفظ كتاب الوسيط للغزالي، وسمع وحدث ودرس بالظاهرية البرانية هذه. . .)[1].

٣ ـ المدرسة المستنصرية:

قال ابن كثير في أحداث سنة إحدى وثلاثين وستمائة: (. . . فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، لم يبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة. . .)[2] وهذه وإن كانت في بغداد إلا أن المسلمين كانوا ينعمون بالوحدة، ولم يبتلوا بالتجزئة التي صاروا إليها في زمن الاستعمار.

وعن ميزانية المدرسة يبين ابن كثير عدد العاملين بها من العلماء والفقهاء وعدد الدارسين والمخصصات المالية، وملحقاتها البنائية للأيتام، فيقول: (. . . من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد. .)[3]، ولأهمية الكتب والمراجع في الدراسة والبحث العلمي، فإن هذا النوع من المدارس يشتمل على مكتبات عامرة بأمهات الكتب والمراجع، يقول ابن كثير: (ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها، وجودة الكتب الموقوفة بها)[4].

وبعد فهذا هو الجو العلمي الذي نشأ فيه المربِّي ابن القيم، وهذه صورة مختصرة للحياة العلمية التي كانت تسود عصره رحمه الله، فلا غرابة إذاً أن يمارس هذا المربِّي العمل التربوي، وأن يشارك في الحياة العلمية بتراثه

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس. النعيمي ١/٣٤٠، ٣٤٤، ٣٤٥.
(٢) البداية والنهاية. ابن كثير ١٣/١٣٩.
(٣) المرجع السابق. ١٣/١٣٩، ١٤٠.
(٤) البداية والنهاية. ابن كثير ١٣/١٤٠.

العلمي، ومؤلفاته في شتى العلوم والمعارف، التي أصبحت مفخرة من مفاخر العصر، ومشعل ضياء للأجيال اللاحقة، رحمه الله، وهيأ لتراثه من يزيل عنه غبار النسيان والضياع. إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه.



الباب الثاني

رأي ابن القيّم في الإنسان والتربية

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول: رأي ابن القيم في الإنسان الذي هو محور العملية التربوية

الفصل الثاني: مفهوم التربيـة وبعض متعلقاتها



رأي ابن القيم في الإنسان والتربية

بعد أن عرفنا أهم ملامح شخصية ابن القيم بوصفه عالماً ومربيّاً. وعرفنا أهم خصائص العصر الذي عاش فيه وتأثر فكره التربوي بما كان سائداً فيه من نظم اجتماعية وسياسية وتربوية.

بعد هذا نريد أن نتعرف على فلسفة التربية التي آمن بها ونادى إليها، مبتدئين بنظرته إلى الإنسان ومفهوم التربية عنده.

ففي هذا الباب نريد أن نسلط الأضواء على أهم خصائص هـذا الإنسان كما يراها ابن القيم وكما استقاها من مصـادر الإسلام كتـاب الله الكريم وسنـة النبي الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم السليم.

ثم نتعرف على هوية الإنسان الأمثـل الذي يـطالب التربيـة بإيجـاده كما نستطلع رأيه في مفهوم التربية. ونحدد غايتها وأهـدافها، ونـذكر أهم العـوائق لهذه التربية.

فمن الله نستمد العون ومنه نستلهم الرشد فهو حسبنا ونعم الوكيل.



الفصل الأول

رأي ابن القيم في الإنسان

- تمهيد
- رد ابن القيم على الماديين.
- أصل الإنسان:
  - تمهيد.
  - مكونات الطبيعة الإنسانية.
  - الإنسان كل لا يتجزأ.
  - البواعث والمستحثات.
  - الغاية من خلق الإنسان.
  - مفهوم العبادة.
  - مفهوم الفطرة.
  - الإنسان خيِّر بطبيعته.
  - ضبط الغرائز بالعقل والعلم.
  - الانسان مخلوق مكرم.
  - القدرة على التعلم.
  - الانسان مستخلف.
- الإنسان الأمثل:
  - الكمال الانساني.
  - تمهيد
  - أنواع السعادة
  - لا إفراط ولا تفريط.
  - حرمان السعادة.
  - العقل والعلم.
  - مراتب الكمال.
  - الأخلاق صفات كمال.
  - نقص كمال الإنسان.



رأي ابن القيم في الإنسان

تمهيد:

بالنظر فيما كتبه ابن القيم عن الطبيعة الإنسانية، يتضح لنا أن الإنسان الذي هو محور العملية التربوية يتكون من عناصر أساسية مترابطة لا يمكن فصل بعضها عن بعض.

فالتربية السليمة هي التي تراعي احتياجات كل عنصر من تلك العناصر؛ وهذه العناصر هي الروح والعقل والبدن، فتعطي الروح ما تحتاجه من رعاية وتربية وتوجيه، وفي نفس الوقت تعرف دور العقل وكيف يمكن تربيته، وبجانب هذا العطاء لكل من الروح والعقل لا تغفل احتياجات البدن ومتطلباته؛ لأنه الوعاء لتلك الروح وذلك العقل.

وإن في إبراز نظرة ابن القيم الشمولية للإنسان عوناً على بلورة بعض جوانب الفلسفة التربوية لديه. إن المذاهب التربوية في المجتمع البشري، في نظرتها إلى الإنسان مختلفة ومتباينة فكل مذهب ينظر إليه من منطلق الفلسفة التي يؤمن بها، فمنها(*) ما ينظر إليه على أنه مادة بلا روح، فيؤمن (بالجانب المحسوس من الإنسان والحياة... كل ما تدركه الحواس فهو حقيقة، وما لا تدركه فهو غير موجود، أو ساقط من الحساب، ومن ثم راحت هذه النظم تهتم بكل محسوس على الأرض... وتهتم بكل محسوس في الكيان البشري،

(*) (المذاهب «الواقعية» المنحرفة، المذاهب التي تؤمن بحيوانية الإنسان وماديته). منهج التربية الاسلامية. محمد قطب ١/٤٣.

فحاولت أن تيسر لـه مأكله وملبسـه ومسكنه، ويسـرت له قضـاء الشهوات، ثم أغفلت من كيانه جانب الروح، أهملت كل ما لا تدركه الحـواس، أهملت الله والعقيدة وما يشـع من العقيدة من مثـل وأخلاق)[1]، فـأصحاب هـذا المذهب أخذوا يشرعون لهذا الإنسان من النظم التربويـة ما يحقق رغـائب البدن ويلبي شهوتي الفرج والبطن.

ومنها ما يعتبره روحاً بلا جسد، فـآمنت بالجـانب الروحي لـه، وأنه هـو الجـوهر الحق (وكـل ما عـداه خداع لا يثبت على حقيقـة، زبد يـذهب جفاء وراحت تغذي الروح بما ترى أنه غذاؤها الحق، راحت تتعبد وتتنسـك وترفـع الانسان على ضرورات جسـده كلها، وتقهـر هذا الجسـد، لأنه دنس لا تنبغي إطاعته، ورجس لا ينبغي له أن يكون)[2]. فأصحاب[*] هـذا المذهب أخـذوا يشرعون لهذا الإنسان من الطقوس ما يظنون فيه أنه ينمي الروح ويسمو بها.

ومنها ما يعتبره فرداً من قطيع أو ترساً في آلة، فيشرع له ما يلبي حاجات المجتمع ولو ضحى بمصالحه الفـردية كمـا هو واقـع في النظم الشيـوعية التي تقـوم على الإعلاء من سلطان الـدولـة المـطلق، وتؤكـد أن الفـرد يجب أن لا يعيش إلا لخدمة الـدولة... فـ(.. في روسيـا نجد أن روح هـذا المبدأ هي أساس النظام البلشفي. وهنـاك تطورت هـذه الفكرة إلى حـد بعيد جـداً حتى أصبحت حياة الفرد مندمجة تمام الاندماج في حياة المجتمع، فليس هناك ثمة إنتاج فكري أو إنتاج فني فردي مستقل عن رأي الجماعة)[3] (فالعدالة في نظر

---

(١) منهج التربية الاسلامية محمـد قـطب.ط ٥، سنة ١٤٠١ هـ ـ١٩٨١ م، دار الشـروق، ١/ ١٩.

(٢) منهج التربية الإسلامية. محمد قطب ١/ ١٩، ٢٠.

(*) أمثال: «شبرانغر» الذي (.. ينـزع إلى تحقيق القيم الروحيـة في النفس التي ما تـزال في طور التكوين وإلى رفع الكائن الروحي فوق الكائن الحيواني، إن القيمة المثلى، أي الخير الأسمى ينبغي أن تغرس في روح الفرد، وأن تحرر الكائن الروحي من ربقة الغرائز المنحـطة). التربيـة العامة. رونيه أوبير ص ٢٧٢.

(٣) التربية. مادتها ومبـادئها الأوليـة. سير بـرسي نن. ترجمـة صالـح عبد العـزيز شحـاته، مـطبعة السعادة سنة ١٩٦١ م، ص ١٠، ١١.

الشيوعية مساواة في الأجور تمنع التفاوت)[1] ومنها ما يعتبره حراً في التصرفات طليقاً في الأفكار، دون حدود ولا ضوابط، فيشرع له من النظم التربوية ما يحقق رغباته الخاصة، وشهواته الجامحة، كالنظم التي تنادي بالحرية الفردية. وهذه الاتجاهات التربوية انحرفت بالإنسان، وسببت له فقدان التوازن. والاتجاه الذي يحقق التوازن في حياة الإنسان هو الاتجاه الذي يستمد من منهج الله عز وجل. وابن القيم في نظريته التربوية يرى أن الإنسان هو مجموع الروح والعقل والبدن ولكي نحدد معالم نظريته التربوية نبدأ ببيان نظريته عن الإنسان.

ردّ ابن القيم على الماديين:

قبل التحدث عن الإنسان يجدر بنا تحديد مصطلح الطبيعة كما يراها ابن القيم، لأن في هذا التحديد وضعاً للأمور في نصابها، فالطبيعة في نظر هذا المربي السلفي هي: (. . . القوة التي وكّلها الله سبحانه بتدبير البدن وحفظه وصحته وحراسته مدة حياته)[2] وفي نظرته هذه مخالفة للماديين الذين ينسبون إلى الطبيعة الخلق والإبداع والقدرة على ذلك، وابن القيم يرد عليهم فكرهم هذا برد قوي، حيث يذكر بعض مخلوقات الله العجيبة التي تظهر فيها دلائل قدرته وحكمته وإتقان صنعه، ثم بعد ذكر هذا يواجههم بالسخرية والاستهزاء، قائلاً (. . وكأني بك أيها المسكين تقول هذا كله من فعل الطبيعة، وفي الطبيعة عجائب وأسرار. . .)[3] ثم بعد ذلك يقرر تقريراً جازماً ويؤكد: (. . . أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه، وأنه يخلق ما يشاء)[4].

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام. سيد قطب ط ٥، سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، دار الشروق ص ٣٥.

(٢) الطب النبوي. ابن القيم ص ٧٢.

(٣) المفتاح. ابن القيم ١/٢٦١.

(٤) المرجع السابق ١/٢٦٧.

أصل الانسان

وهذا الإنسان الذي نبحث عن نوع التربية التي تعدّه وتهيئه للغاية التي خلق من أجلها، يطالعنا فكر ابن القيم بصورة واضحة متكاملة عنه، فالإنسان في نظره له خواص تميزه عن جميع المخلوقات منها:

١ ـ أن أصله الأول من طين، ونسله من ماء مهين: (... فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين، ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن..)[١] وما ذكره في هذه الخاصية مشتق مما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[٢].

٢ ـ أنه خلق (من قبضة قبضها الله من جميع الأرض، فيها الطيب والخبيث، والسهل والحزن، والكريم واللئيم)[٣]، وذلك عندما أرسل الله جبريل عليه السلام فقبض هذه القبضة: (... ثم خمرها حتى صارت طيناً، ثم صوره، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوره، فلما دخلت الروح فيه صار لحماً ودماً حياً ناطقاً)[٤]، وفي هذا دليل على فضل هذا المخلوق. يقول رحمه الله: (ويكفي في فضل المخلوق من الأرض أن الله تعالى خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء)[٥].

٣ ـ أنه كرم بالعقل والعلم والفهم والبيان والنطق وحسن الصورة واستقامة القد والفكر والتحلي بالأخلاق يقول رحمه الله: (... وهذا الإنسان

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٥.
(٢) سورة المؤمنون آية ١٢، ١٣.
(٣) المفتاح. ابن القيم. ١/٤.
(٤) الروح. ابن القيم ص ١٧٢.
(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. ابن القيم. اختصره الشيخ الفاضل محمد ابن الموصلي. مكتبة الرياض الحديثة الرياض. ص ١٥٥.

إنما تميز عن سائر الحيوانات بما خُصَّ به من العلم والعقل والفهم، فإذا عدم ذلك لم يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهي الحيوانية البهيمية)(١)، ويقول: (... فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقدّ المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد..)(٢).

٤ ـ أنه خص بخلق الحياء. يقول رحمه الله: (... ثم تأمل هذا الخُلُق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خلق الحياء، الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً، بل هو خاصية الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة)(٣).

٥ ـ تميزه بالبيانين، البيان النطقي والبيان الخطي، يقول رحمه الله: (... ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين، البيان النطقي، والبيان الخطي، وقد اعتدّ بهما سبحانه في جملة ما اعتدّ به من نعمه على العبد...)(٤).

٦ ـ قدرته على التعلم، بما أعطاه الله من الوسائل المعينة على ذلك، يقول رحمه الله: (... من أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخطُّ به، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعلم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد، فكم لله من آية نحن غافلون عنها)(٥).

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/١٦٧.
(٢) المرجع السابق ١/٢٦٣.
(٣) المرجع السابق ١/٢٧٧.
(٤) المرجع السابق ١/٢٧٨.
(٥) المرجع السابق ١/٢٧٩

٧ ـ تميزه بدوافع لها وظيفتها، يقول رحمه الله: (. . . فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزّه أزّاً إلى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصلحته)[١].

٨ ـ تميزه بالقوة والشهوة والإرادة، يقول رحمه الله: (. . . ثم إنه سبحانه ركّب فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائبة وسعيه في طلب ما يصلحه ودفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعينه تارة. . .)[٢].

٩ ـ أنه يتنقل في مراتب العمر يقول عنها رحمه الله (. . . فمرتبة الأيام إلى سبعة، فإذا انتهت فإن الطفل قابل للحياة وبعدها ينتقل إلى المرتبة الثانية وهي الشهور، فإذا استكملها انتقل إلى الثالثة وهي السنين)[٣].

ولا يكتفي ابن القيم بهذا الإجمال عن مراتب العمر بل يفصل القول في ذلك، فيذكر أن لعمر الإنسان سبع مراحل: (. . . أولها طفل إلى سبع، ثم صبي إلى أربع عشرة، ثم مراهق، ثم شاب، ثم كهل، ثم شيخ، ثم هرم، إلى منتهى العمر)[٤]، وقريب من هذا التقسيم ما ذكره ابن الجوزي قبله في رسالة بعنوان: (تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر) فقد جاء في هذه الرسالة أن مواسم العمر لهذا الإنسان خمسة: (الموسم الأول: من وقت الولادة إلى زمن البلوغ، والموسم الثاني: من زمن البلوغ إلى خمس وثلاثين سنة، وهو زمن الشباب، والموسم الثالث: من ذلك الزمن إلى تمام الخمسين سنة وذلك زمن الكهولة، وقد يقال كهل فيما قبل ذلك، والموسم الرابع: من بعد الخمسين إلى تمام السبعين وذلك زمن الشيخوخة، والموسم الخامس: من بعد السبعين إلى تمام العمر وهو زمن الهرم(*). . .)[٥] ولقد عقد ابن القيم

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٢٧٦.

(٢) المرجع السابق ١/٢٧٥.

(٣) تحفة المودود. ابن القيم ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٤) الطب النبوي. ابن القيم ص ٧٨.

(*) ولا يفوتنا أن ننبه على أن ابن الجوزي وابن القيم يؤسسان بتفصيلهما القول في هذه المراحل العلم الذي نتداوله اليوم باسم علم نفس النمو، أو مراحل النمو.

(٥) التحفة البهية والطرفة الشهية. مجموعة مختارة من عيون الأدب العربي تحقيق لجنة إحياء =

باباً في كتابه تحفة المودود بأحكام المولود: في أطوار ابن آدم من وقت كونه نطفة إلى استقراره في الجنة أو النار[١].

١٠ ـ أن أوامر الله سبحانه لا تنفك عنه منذ أن كان جنيناً إلى أن يلقى الله عز وجل، يقول رحمه الله: (. . . أمضى عليه أوامره القدرية في المرحلة الجنينية، وأوامره التكليفية بعد خروجه من بطن أمه، ففي مرحلة الطفولة علّقها بولي أمره، ومن هو مسؤول عن تربيته، ثم أناطها به بعد البلوغ)[٢].

١١ ـ أنه لم يخلق عبثاً ولم يترك سدى، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍ يُمْنَىٰ * ثم كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[٣].

يقول ابن القيم تعليقاً على هذه الآيات: (. . . فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلّب النطفة وصرّفها حتى صارت أكمل مما هي، وهي العلقة، ثم قلّب العلقة حتى صارت أكمل مما هي، حتى خلقها فسوّى خلقها، فدبّرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشراً سوياً، فكيف يتركه سدى لايسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له؟)[٤].

١٢ ـ أما تميز الإنسان في شكله وصورته فقد أطال ابن القيم الحديث فيه، ونادى بأخذ العبرة من خلق هذا الإنسان العجيب[٥]. . .

= التراث العربي. في دار الآفاق الجديدة. ط ١ سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ص ٥٧ ـ ٥٨.

(١) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود. ابن القيم ط ١، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م. مكتبة دار البيان ص ٣٤٥ ـ ٣١١.

(٢) تحفة المودود. ابن القيم ص ٥.

(٣) سورة القيامة / آية ٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٤) بدائع الفوائد. ابن القيم. عني بتصحيحه والتعليق عليه: إدارة الطباعة المنيرية ـ دار الكتاب العربي بيروت لبنان ٢/١٦٥.

(٥) فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه الرجوع إلى كتابه: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العل والإرادة» الجزء الأول ص ١٨٧ ـ ١٩٦ وص ٢٥٥ ـ ٣٠٥.

الإنسان كلّ لا يتجزأ:

إذا كان الإنسان في نظر ابن القيم هو مجموع الروح والعقل والجسم، وهذا ما عبر عنه بقوله: (... فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه)[1]، فلا يعني هذا أن كل عنصر من عناصر هذا المجموع يعمل بمفرده وبمعزل عن العنصرين الآخرين، لأنه (ليس جسماً وحده مستقلاً بذاته لا علاقة له بالروح أو العقل، وليس عقلاً منفصلاً مستقلاً بذاته لا يرتبط بجسم أو روح، وليس روحاً وحدها قائمة بلا رابط من عقل أو جسْم وإنما هو كيان واحد ممتزج مترابط الأجزاء)[2] وإن صح التعبير فهو التركيبة الإلّهية، التي قال الله فيها: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[3]، فالله سبحانه وتعالى: (سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه، بل سوى بدنه كالقالب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له)[4]، وهذا يدل على تماسك هذا البناء وتمازجه بحيث يؤثر كل جزء فيه على الكيان كله، فبعض العقد النفسية لها علاقة وارتباط ببعض صفات البدن وهيئته كما في المثل السائد: (كل ذي عاهة جبار).

والنظرة إلى الإنسان بهذا الشكل المترابط الأجزاء يفيد في وضع المنهج السليم لتربيته، فيراعي هذا المنهج احتياجات الروح، ومتطلبات البدن وضرورات العقل، فيعطي كل عنصر ما يحتاجه من التربية، لينمو هذا الإنسان نمواً متزناً، بعيداً عن الاضطراب والتشتت وبهذا يتحقق التوازن في حياته.

كما تفيد هذه النظرة الشاملة الكاملة إليه، في تقويم المناهج التربوية التي تهتم بعنصر واحد من عناصر تكوينه، فهذه المناهج التي تهتم بعنصر واحد

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/١٠٧.

(٢) منهج التربية الاسلامية، محمد قطب ١/٢١.

(٣) سورة الانفطار / آية ٧، ٨.

(٤) الروح. ابن القيم ص ٣٨.

على حساب العناصر الأخرى تسبب له القلق والحيرة والاضطراب والتخلخل.
ومما يدل على تماسك وترابط مكونات الإنسان في رأي ابن القيم هو ما يقوله عنه: (... إن العقل ملك، والبدن روحه وحواسه وحركاته كلها رعية له فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها)[1].

يقرر ابن القيم أن هذا الإنسان يعيش في دور ثلاث، لكل واحدة منها أحكامها الخاصة بها؛ هذه الدور هي دار الدنيا، ودار البرزخ، والدار الآخرة، فابن القيم يذكر أحكام كل من هذه الدور، ويبين أثر هذه الأحكام على كل من الروح والبدن، فيقول: (... إن الله سبحانه جعل الدور ثلاثاً، دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها، ولهذا أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفس خلافه، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذت براحتها وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم..)[2]، وعند قيام الساعة: (.. يعيد الله عزوجل الأرواح الى أجسادها ثانية، وهي الحياة الثانية، يحاسب الخلق فيها، فريق في الجنة وفريق في السعير..)[3].
فالنعيم والعذاب في هذه الدار للأرواح والأبدان جميعاً.

وترابط الروح بالبدن شديد جداً يقول ابن القيم في ذلك: (... **فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثيراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن، ولهذا يقال لها عند المفارقة اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث)**[4]، برز في هذا

---
(١) المفتاح. ابن القيم ١/١١٧.
(٢) الروح. ابن القيم ص ٦٣.
(٣) المرجع السابق ص ٣٢.
(٤) المرجع السابق ص ٣٨.

القول شيء من صفات الروح؛ فوصفت مرة بأنها طيبة، ووصفت أخرى بأنها خبيثة، كما أنها تخرج، وتنادي، كما برزت لها صفات أخرى في أقوال له مثل: (.. وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبد..)[1] فوصفت هنا بالفساد عند تعطل الشريعة، وقد يستفحل الأمر فتَهْلِك.

وهذا الترابط والتماسك والتناسب الذي ذكره ابن القيم سبق فيه أصحاب علم النفس الحديث فقد قال بعضهم: (لم يعد علم النفس الحديث يقبل الاثنينية أو الانفصال بين الجسد والنفس، إنهما في نظر هذا العلم كل موحد وهما العمودان الأساسيان اللذان تنهض عليهما الشخصية الفردية، إن علم النفس يقول اليوم بوحدة النفس والجسد وبتعاونهما ويؤكد أنه لا بد في دراسة النفس من دراسة الجسد، والتعرف على وظائفه وأفاعيله)[2]. ذلك لأن بعض العقد النفسية لها ارتباط ببعض هيئاته وصفاته. وكل ما يصدر من هذا الإنسان من حركات وتصرفات فمصدرها العقل الذي وصفه ابن القيم فيما مر معنا بأنه ملك وكل البدن وأجزائه رعية له، قال: (... فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها، إنما هي من أجناد القلب)[3]، على اعتبار أن القلب هو مصدر القوة العاقلة.

والعقل في نظر ابن القيم من ما هو غريزي، ومن أصل خلقة الإنسان بالوراثة، ومنه ما هو مكتسب يقول رحمه الله: (... والعقل عقلان: عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره، وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته)[4].

البواعث والمستحثات:

والمقصود بالبواعث والمستحثات تلك التي يسميها علماء النفس الدوافع

(١) المفتاح. ابن القيم ٢/٢.

(٢) علم النفس. د/ فاخر عاقل ط ٨، سنة ١٩٨٢ م، دار العلم للملايين. ص ٤١ ـ ٤٢.

(٣) المفتاح. ابن القيم ١/١٩٣.

(٤) المرجع السابق ١/١١٧.

الأولية، والتي هي: (عبارة عن استعدادات يولد الفرد مزوداً بها)[1].

وهذه الدوافع تفيد الإنسان في أن بعضها يعمل (للمحافظة على كيانه العضوي والدفاع عن فرديته البيولوجية، بينما يعمل بعضها الآخر للمحافظة على بقاء النوع)[2].

وقد يطلق على الدوافع حاجات، وهذه الحاجات منها ما له علاقة بالجسد، ومنها ما له علاقة بالنفس (أما الحاجات الجسدية فتشتمل على الحاجة إلى الهواء والماء والطعام والجنس وإخراج الفضلات وتجنب الأذى الجسدي وسواها، أما الحاجات النفسية فمنها الحاجة إلى التميز، والحاجة إلى الحب والعطف والحاجة إلى الاستقلال وغيرها من الحاجات الكثيرة)[3].

إنّ ما تحدث عنه علماء النفس مما يتعلق بالدوافع أو الحاجات وأنواعها، وأنها تدور حول طلب ما يصلح حال الإنسان أو دفع ما يضره، تكلم عليه ابن القيم، فقد جعلها من أعمال القلب فـ (للقلب قوتان: قوة الطلب وهي الرغبة، وقوة الهرب وهي الرهبة؛ وكان العبد طالباً لمصالحه هارباً من مضاره..)[4].

وما يتميز به ابن القيم في حديثه عن الحاجات ووظيفتها هو ربطه الحاجات بموجدها وهو الله سبحانه وتعالى اللطيف الخبير، فقد جعل الله في الإنسان (بواعث ومستحِثات تؤزّه أزّاً إلى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصلحته، وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه، فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محركاً من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه)[5].

---

(١) سيكولوجية التعلُّم. د/ مصطفى فهمي، ط ٢، سنة ١٩٥٣ م دار مصر للطباعة ص ١١٨.

(٢) المرجع السابق ص ١١٩.

(٣) أصول علم النفس وتطبيقاته. د / فاخر عاقل ط ٥، سنة ١٩٨١ م دار العلم للملايين ص ١٥٠.

(٤) الطب النبوي - ابن القيم ص ١٩١.

(٥) المفتاح. ابن القيم ١/٢٧٦.

ثم تحدث ابن القيم عن هذه الدوافع التي يسميها مستحِثات ويذكر منها الجوع والكرى والشبق فيبين أنها دوافع فطرية خلق عليها الإنسان لم يجلبها لنفسه بل هي من طبيعته، فيقول: (فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته رحمايته، والكرى يقتضي النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن والأعضاء وإجمام القوى وعودها إلى قوتها جديدة غير كالة، والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وقضاء الوطر وتمام اللذة، فتجد هذه الدواعي تستحث الإنسان لهذه الأمور وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة)[1].

ويرى أن تلبية هذه الحاجات تجلب اللذة للإنسان وتدفع عنه الآلام: (فإنك إذا فكرت في الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر ما يستلذ به رأيته يدفع بها ما قابله من الآلام والبليات، أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع، وبالشرب ألم العطش، وباللباس ألم الحر والبرد، وكذا سائرها، ومن هنا قال بعض العقلاء[*] إن لذاتها لنا هي دفع الآلام لا غير)[2].

كما يرى رحمه الله أن ألم فقدان هذه الحاجات هي من طبيعة الإنسان فلولا ذلك لأصبح ملكاً لا إنساناً، يقول: (فالسؤال عن حِكَم الحاجة إلى الأكل عند الجوع والحاجة إلى الشرب عند الظمأ وإلى النوم والراحة عند التعب، فإن هذه الآلام هي من لوازم النشأة الإنسانية التي لا ينفك عنها الإنسان ولا الحيوان، فلو تجرد عنها لم يكن إنساناً بل كان ملكاً أو خلقاً آخر. وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة)[3].

ثم قال: (. . . فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان. .)[4].

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٢٧٦.

(*) يشير ابن القيم هنا إلى ابن حزم.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٢٧٥.

(٣) المرجع السابق ١/٢٧٤.

(٤) المرجع السابق ١/٢٧٥.

وابن القيم يجعل الهوى من البواعث والمستحثات، فلا يَذُمُّ الهوى مطلقاً ولا يمدحه مطلقاً، فيقول: (... الهوى، ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح، ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحث لها لما يريده)[1]، فكأنه عبر عن الدوافع بالميل والهوى.

وابن القيم يبين وظيفة الغضب، فبه يدفع الإنسان عن نفسه كل ما يؤذيه، فيقول رحمه الله: (... إن الغضب دافع عنه ما يؤذيه)[2].

فالهوى والغضب في نظره لا يذمان مطلقاً ولا يمدحان مطلقاً، ولكن يذم الإفراط فيهما، فيقول: (فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً ولا مدحه مطلقاً، كما أن الغضب لا يذم مطلقاً ولايمدح مطلقاً، وإنما يذم المُفْرِط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار)[3].

وابن القيم يؤمن بأن الله سبحانه، ركب في الإنسان من قوى الشهوة والإرادة ما يكون دافعاً له ومحركاً لأفعاله، فيطلب ما يصلحه ويدفع عن نفسه ما يضره، إما بذاته أو بمن يعينه على ذلك، فيقول: (... ثم إنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائبة وسعيه في طلب ما يصلحه ودفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعينه تارة)[4].

وابن القيم يرى أن النفس البشرية هي المطية للإنسان التي تسيره إلى الجنّة أو إلى النّار، فإذا كانت قائدة له إلى الملذات والشهوات والرغائب المحرمة فإنها ستؤدي به إلى النار وهذه هي النفس الأمارة بالسوء. أما النفس التي يلجمها صاحبها بلجام الصبر فإنها ستصبح مطيعة لله متقية له سبحانه، تمارس حاجاتها في حدود ما أباحه الله، يقول رحمه الله: (والنفس مطية العبد

(١) روضة المحبين. ابن القيم ص ٤٦٩.
(٢) روضة المحبين. ابن القيم. ص ٤٦٩.
(٣) المرجع السابق. ص ٤٦٩.
(٤) المفتاح. ابن القيم، ١/ ٢٧٥.

التي يسير عليها إلى الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت في كل مذهب... والنفس فيها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه وقوة الإحجام إمساكاً عمّا يضره)[1].

كما يؤمن ابن القيم بأن الله ركب في الإنسان قوة الشهوة والغضب وأصبحتا بمنزلة صفاته الذاتية فبهما وقع له (الابتلاء وعُرِّض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الأعلى، أو الهبوط إلى أسفل سافلين، فهاتان القوتان لا يدعان العبد حتى ينيلانه منازل الأبرار أو يضعانه تحت أقدام الأشرار)[2].

فابن القيم بكلامه هذا يلفت النظر إلى صنفين من الناس حسب ما ركب الله فيهم من قوتي الشهوة والغضب، الصنف الأول من توصله هاتان القوتان إلى الدرجات العلى، وهذا الصنف هو الذي اكتنفته العصمة وضربت عليه سرادقات الحفظ وهم الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، والصنف الآخر مَن (... شهوته مصروفة في هواه وأمانيه العاجلة، وغضبه مقصور على حظه ولو انتهكت محارم الله وحدوده، وعطلت شرائعه وسننه)[3]، ثم قال: (فلن يجعل(*) الله هذين الصنفين في دار واحدة، فهذا صعد بشهوته وغضبه إلى أعلى عليين، وهذا هوى بهما إلى أسفلِ سافلين)[4].

الغاية من خلق الإنسان:

إن الإنسانَ هو محور العملية التربوية، فالتربية السليمة هي التي تجعله يحقق الغاية من خلقه، فما هي يا ترى هذه الغاية؟

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين. ابن القيم. بتصحيح الناشر زكريا علي يوسف. دار الكتب العلمية. بيروت ـ لبنان ص ١٠.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٢٩٧.

(٣) المرجع السابق ١/٢٩٧.

(*) في الأصل «يجعله الله» ولعله تصحيف، والصواب ما أثبتناه والله علم.

(٤) المفتاح. ابن القيم ١/٢٩٧.

يحدد ابن القيم الغاية من خلق الإنسان حسب ما فهم ذلك من الإسلام الذي جعل الغاية منه عبادة الله عز وجل، فيقول رحمه الله: (... فإن معرفة الله وتوحيده وعبوديته وحده والإنابة إليه والتوكل عليه وإخلاص العمل له ومحبته والرضا به والقيام في خدمته هو الغاية التي خلق لها الخلق وثبت لها الأمر، وذلك أمر مقصود لنفسه)[1].

وقال في معرض حديثه عن فضل العلم وأهله: (الوجه الرابع والعشرون، أنه سبحانه أخبر، أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فدل على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر)[2]، كما أورد حديثاً قدسياً جاء فيه: (.. «ابن آدم خلقتك لعبادتي، فلا تلعب..»)[3].

مما تقدم يتضح أن الغاية هي عبادة الله عز وجل، وتستلزم العبادة معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأمره ونهيه، وهذه العبادة لا تصل إلى الكمال إلا بكمال الحب له سبحانه مع كمال الخضوع والذل له، وهذا الكمال يقتضي امتثال الأمر والنهي والرضا والتسليم بالقضاء والقدر والإيمان بالثواب والعقاب، ومن كمال المحبة لله والمحبة لرسول الله ﷺ أن يكون حبهما مقدماً على حب غيرهما، بل يكون حب المرء كله لهما، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»[4] وابن القيم بعد أن حدد هذه الغاية أخذ يبين المفهوم الحقيقي لها، وأنها الغاية من إرسال الرسل وإنزال

---

(١) عدة الصابرين. ابن القيم ص ٢٨.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٥١، الطلاق /١٢.

(٣) الجواب الكافي. ابن القيم ص ١٤١.

(٤) والحديث صحيح رواه: (حم، ق، ن، هـ عن أنس) صحيح الجامع الصغير وزيادته. رقم ٧٤٥٩. ٦/٢٠٨.

الكتب فقال: (. . . والحق الذي خلق بـه ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته والخضوع والذل لـه، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وخلق الجنة والنار)[1]

ويقول ابن تيمية شيخ ابن القيم رحمهما الله: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[2].

مفهوم العبادة:

لقد عرفنا أن الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله عز وجل فابن القيم يرى: (. . . أن من كان مفطوراً مخلوقاً فحقيق بـه أن يعبد فاطره وخالقه ولا سيما إذا كان مرده إليه، فمبدأه منه ومصيره إليه وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته)[3]. ولكن ما هو المفهوم الصحيح للعبادة؟

إن العبادة في نظره تتطلب أصلين: (غاية الحب، بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول طريق معبد أي مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً)[4].

ثم يتحدث عن كمال العبودية فيقول: (وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله وانقياداً وطاعة، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل، فهو ذليل لعزه، وذليل لقهره، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه- فإن من أحسن إليك فقد استعبدك وصار قلبك معبداً له وذليلاً- تعبد له لحاجته إليه على مدى الأنفاس في جلب كل ماينفعه ودفع كل ما يضره)[5].

---

(١) روضة المحبين. ابن القيم ص ٥٩.

(٢) العبودية. ابن تيمية. ط ٥، ١٣٩٩ هـ المكتب الاسلامي. بيروت ص ٣٨.

(٣) المفتاح. ابن القيم ٢/٨.

(٤) مدارج السالكين. ابن القيم ١/٧٤.

(٥) المفتاح. ابن القيم ١/٢٨٩.

ثم يشرع في تقسيم الذل إلى قسمين: أحدهما ذل المحبة، والآخر ذل المعصية، فيقول: (وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد، لهما أثر عجيب يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز ما لا يقتضيه غيرهما، أحدهما ذل المحبة. . . وهو خاصة المحبة ولبها بل روحها وقوامها وحقيقتها وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن، وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب والتودد والتملق والإيثار والرضا والحمد والشكر والصبر والتندم وتحمل العظائم ما لا يستخرجه الخوف وحده ولا الرجاء وحده، كما قال بعض الصحابة إنه ليستخرج محبته من قلبي من طاعته ما لا يستخرجه خوفه، أو كما قال فهذا ذل المحبين، والثاني ذل المعصية. . . فتأمل الآن موقع الكسرة التي حصلت له بالمعصية. . . كيف جاءت فمحقت من نفسه الدعاوى والرعونات وأنواع الأماني الباطلة ثم أوجبت له الحياء والخجل من صالح ما عمل، ثم أوجبت له استكثار قليل ما يرد عليه من ربه، لعلمه بأن قدره أصغر من ذلك وأنه لا يستحقه واستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن(*) سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والماحيات إلى أعظم من هذا، فهو لا يزال محسناً وعند نفسه المسيء المذنب منكسراً ذليلاً خاضعاً لا يرتفع له رأس ولا ينقام له صدر، وإنما ساقه إلى هذا الذل والذي أورثه إياه مباشرة الذنب فأي شيء أنفع له من هذا الدواء)[1].

ويشير ابن القيم إلى أن العبودية لها مراتب ودرجات بعضها أعلى من بعض وهي موزعة على القلب واللسان والبدن فيقول: (. . . فرحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة من كمّلها كمل مراتب العبودية، وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه، والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه، ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح)[2].

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٢٨٩، ٢٩٠.

(*) هكذا. ولعل الصواب (فإن).

(٢) مدارج السالكين. ابن القيم ١/١٠٣.

ثم يؤكد أمر عبودية القلب ويبين أن قلوب أولياء الرحمن تنتقل في منازل متعددة من العبودية، ويرى أن ما وصل إليه العبد من هذه الأنواع محض منة منه سبحانه، فالله: (جعل قلوب أوليائه متنقلة في منازل عبوديته من الصبر والتوكل والإنابة والتفويض والمحبة والرجاء)[1] و (الخشية والخوف والإشفاق وتوابعها من المحبة والإنابة وابتغاء الوسيلة إليه وتوابعها)[2].

وهذه الأنواع من العبودية جعل الله لها وسائل وأسباباً تجلبها، فهو رحمه الله يرى أن الإشفاق من الذنب والوجل من عواقبه الوخيمة من أسباب الفرار إلى الله واللجوء إليه فيقول: (فربما ذنب قد هاج لصاحبه من الخوف والإشفاق والإنابة والمحبة والإيثار والفرار إلى الله ما لا يهيجه له كثير من الطاعات)[3] وهذا لا يعني أنه يدعو إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي حاشاه من ذلك ولكنه أراد أن يبين حالة الإنسان وأنه يعيش بين نعمة تتطلب منه الشكر لله، وذنب يحتاج معه إلى عفو الله ومغفرته، بالتوبة النصوح والإنابة الصالحة ورأيه هذا يبين فائدة التوبة والاستغفار من الذنب قال رحمه الله: (قال بكر بن عبدالله: قلت لأخ لي: أوصني فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لايفتر من الحمد والاستغفار فإن ابن آدم بين نعمة وذنب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار)[4]، والصبر والشكر من الأخلاق الفاضلة التي يحتاجها العبد في جميع أحواله، لأنه معرض للابتلاء بالخير والشر، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[5].

فلله عليه كما يقول ابن القيم: (عبودية في عافيته وفي بلائه فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر وصحبة البلاء بالصبر)[6].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين. ابن القيم. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان ص ٢.
(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٢٩٣.
(٣) المرجع السابق ١/٢٩٣.
(٤) عدة الصابرين. ابن القيم ص ١١٤.
(٥) سورة الأنبياء / ٣٥.
(٦) عدة الصابرين. ابن القيم ص ٩.

فابن القيم يريد بيان قيمة الصبر والشكر، وحاجة العباد إليهما لأنهم تحت أمر الله سائرون، ولنهيه مجتنبون، ولقضائه وقدره مستسلمون، فلا غنى لهم عن الصبر والشكر طرفة عين ولا أدنى من ذلك؛ يقول رحمه الله: فالله سبحانه (يبتلي بنعمه وينعم ببلائه، غير أن الصبر والشكر حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه، وقضائه وقدره، لا يستغني عنهما طرفة عين)[1]. ثم يفصّل ذلك ويبيّن الحالة النفسية للإنسان أمام هذين الخلقين، لأنه بين داعيين، فيقول: (داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداع يدعوه إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم، فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر)[2].

وابن القيم يرى أن هذه الأنواع من العبودية لا يستطيع الإتيان بها إلا مَنْ وفقه الله وهداه فهو سبحانه ـ كما يقول ابن القيم ـ: (. . . يزكي من يشاء من النفوس فتزكو وتأتي بأنواع الخير والبر، ويترك تزكية من يشاء منها فتأتي بأنواع الشر والخبث)[3]، وكل ذلك بمحض عدله وفضله ورحمته وبره سبحانه وتعالى.

وابن القيم يرى أن العبد لا ينفكّ عن العبودية في السراء والضراء والمنشط والمكره. فيقول: (لله تعالى على العبد عبودية في الضراء كما له عبودية في السراء وله عبودية عليه فيما يكره كما له عبودية فيما يحب)[4]، وهذا يذكرنا بقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[5].

---

(١) عدة الصابرين. ابن القيم ص ١٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ٩٠.

(٣) المفتاح. ابن القيم ١/ ٢٩٠.

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب. ابن القيم ط ٥ سنة ١٤٠٠ هـ المطبعة السلفية ص ٣.

(٥) صحيح رواه (حم، م ـ عن صهيب) من صحيح الجامع الصغير وزيادته. محمد ناصر الدين الألباني ٤/ ٢٦، رقم الحديث ٣٨٧٥.

ثم يصنف الناس حسب عبوديتهم لله إلى صنفين: فصنف يعبد الله في حال الرخاء دون الشدة، وبعضهم كما يقول: (يعطون العبودية فيما يحبون والشأن في إعطاء العبودية في المكاره)[1]، وصنف آخر يعبد الله في الرخاء والشدة وعند المكاره والمحاب وهؤلاء أكمل الناس عبودية.

فالعبد الذي يكون في كمال الذل والخضوع لله وكمال المحبة والإيثار له على سواه ويتحلى بخلقي الصبر والشكر، فإن عدوه لا يظفر به، وإذا مسّه طائف من الشيطان استغفر الله وتاب من ذنبه وأناب إلى ربه، فعدوه لا يظفر به ـ كما يقول ابن القيم ـ: (إلا على غرة وغيلة، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته)[2].

وابن القيم يرى أن العبودية عبوديتان: عبودية عامة يشترك فيها جميع العباد، وأخرى خاصة يمليها حال العبد وطبيعة حياته ونوعية مسؤوليته، فكل ما مضى هو من باب العبودية العامة، أما العبودية الخاصة فيقول عنها رحمه الله: (فعلى العالم من عبودية نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتي، وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير)[3].

ويرى ابن القيم أن خطر الغفلة على العبد عظيم جداً، فالقلب الغافل مأوى للشيطان، وبعيد عن ذكر الله وعبادته وشكره يقول رحمه الله محذراً من غفلة القلوب: (سئل بعض العارفين عن عشق الصور فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره، فالقلب الغافل مأوى الشيطان)[4]، وهذا

---

(١) الوابل الصيّب من الكلم الطيب. ابن القيم ص ٣.

(٢) الوبل الصيّب من الكلم الطيب. ابن القيم ص ٣.

(٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين. ابن القيم. راجعه وقدم له وعلق عليه / طه عبد الرؤوف سعد. دار الجيل بيروت ٢ / ١٧٦.

(٤) المفتاح. ابن القيم ١/١١٢، ١١٣.

يدل أن الإنسان لا بد أن يكون عابداً، إما أن يعبد الله، وإما أن يعبد سواه من النفس والهوى والشيطان، والذي يحرر الإنسان من جميع العبوديات لغير الله هو عبادة الله وحده والخضوع والذل لـه والصبر على أقـداره والشكر على آلائـه، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المراتب فإنه سيشعر بالسعادة التامة فـ (العبودية لله تحررنا من العبوديات كلها، وهذا نهاية السمو والسعادة)[1].

مفهوم الفطرة:

وإذا كـانت العبوديـة لله تحرر الإنسـان من أن يستعبد لغيـره وتسمـو بـه فيشعرُ بالسعادة، فإن هذا يدل على أن الفطرة السويـة تتجه إلى خـالقها فتشعـرُ بـالأنس والأمن في جنابـه، وفي ساحـة عبادتـه، وفي هذا المبحث سنتعـرض لتعريف الفطرة، ومـعنى قـوله ﷺ: «كـل مـولود يـولد على الفطرة..»[2]، ونبين أن الإنسان لا يصل إلى معـرفة الـدين بمجرد خـروجه من بـطن أمه بـل كمال فطرته ومقتضاها يحصل له شيئاً فشيئاً، ثم نبين دور البيئة الفاسدة عامة، وشيـاطين الإنس والجن على وجـه الخصوص في انحـراف الفطرة وفسـادهـا، ونذكر دور الرسل في المحافظة على الفطرة وإصلاح مـا اعوج منهـا وهدايتهـا إلى السبيل الأقوم كل ذلك نذكره إن شاء الله كما ورد في فكر ابن القيم.

جـاءت الفطرة بمعنى: الخلقـة[3]. قـال تعـالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[4] وقـال ﷺ: «كل مـولود يـولـد على الفـطرة حتى يعـرب عنـه لسـانـه فـأبـواه يهـودانـه أو ينصـرانـه أو يمجسانه»[5]، وابن القيم يرى أن الطفـل يولـد على الفطرة إلا أنـه يرى عـدم

(١) مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام. عبد الرحمن الباني، المكتب الاسلامي ص ٧٠.

(٢) صحيح رواه (ع، طب ـ عن الأسود بن سريع) من صحيح الجامع الصغير وزيادته. محمد ناصر الدين الالباني ٤/١٨١ رقم ٤٤٣٥.

(٣) مختار الصحاح. الرازي. مادة فطر.

(٤) الروم / ٣٠.

(٥) صحيح رواه (ع، طب ـ عن الأسود بن سريع) من صحيح الجامع الصغير وزيادته الألباني ٤/١٨١ رقم ٤٤٣٥.

معرفته لتفاصيل الدين، فيقول: (ومما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل إنه ولد على الفطرة أو على الإسلام أو على هذه الملة أو خلق حنيفاً فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده، فإن الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام لقربه ومحبته(*)، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئاً بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض»[1] وهذا يعني أن فطرة الإنسان السوية فيها الخير وتتقبل ما تقدمه لها التربية من مبادىء وقيم وأخلاق وهذا يدل على صفاء الفطرة ونقائها، فالتربية السوية هي التي تنقش على صفحتها معاني الخير والفلاح، وترعاها وتحافظ عليها من الزيغ والانحراف.

وابن القيم يشير إلى أن كل مولود: (يولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته وإذعانه له بالعبودية، فلو خلّي وعَدِمَ المعارضَ لم يَعْدِلْ عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة، فيشتهي اللبن الذي يناسبه ويغذيه، وهذا من قوله تعالى: ﴿... رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، فهو سبحانه خلق الحيوان مهتدياً إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضرّه، ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئاً فشيئاً بحسب حاجته، ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يفسدُ ما وُلد عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة، فهكذا ما ولد عليه من الفطرة)[2] فالفطرة نقية في أصل خلقتها سليمة من كل زيغ، وانحرافها مرض وانتكاس طارىء عليها، كما أن الأبدان في أصل خلقتها سليمة من الأمراض، والأمراض والعلل طارئة عليها، وابن القيم يرى أن الله سبحانه: (خلق عباده حنفاء وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، فلو خُلُّوا

(*) زيادة من ط ١ سنة ١٣٢٣ هـ القاهرة، تصوير مكتبة الرياض الحديثة.

(١) شفاء العليل. ابن القيم ص ٦٠٣. سورة النحل / ٧٨.

(٢) المرجع السابق ص ٦٠٤، سورة طه / ٥٠، سورة الأعلى

وفطرهم لما نشأوا إلا على التوحيد، ولكن عرض لأكثر الفطر ما غيّرها)[1].

وابن القيم رحمه الله يبين أن للبيئة الفاسدة والخلطة السيئة تأثيراً على الفطرة، فإنها تؤثر على استقامتها، وتحرفها عن مسارها الصحيح فيقول: (... ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم، واجتالتهم عنها)[2].

كما يرى رحمه الله أن لطف العلي الحكيم استوجب بعث الرسل وإنزال الكتب لهداية الناس والمحافظة على فطرهم من الانحراف والزيغ وتعديل ما أعوج منها، فـ (من سبقت لهم من الله الحسنى وجدوا ما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نوراً على نور)[3].

ويشير ابن القيم إلى أن الفطرة السوية والعقل السليم يستحسنان الحسن ويستقبحان القبيح، وهما في ذلك لا يختلفان مع الشرع المنزل فيقول: (قد شهدت الفطرة والعقول بأن للعالم رباً قادراً حليماً عليماً رحيماً كاملاً في ذاته وصفاته، لا يكون إلا مريداً للخير لعباده، مجرياً لهم على الشريعة والسنة الفاضلة، العائدة باستصلاحهم، الموافقة لما رَكَّبَ في عقولهم من استحسان الحسن واستقباح القبيح، وما جبل طباعهم عليه من إيثار النافع لهم المصلح لشأنهم، وترك الضارّ المفسد لهم)[4].

وابن القيم يرى أن الإنسان السوي صاحبَ الفطرة السليمة يعرف حق المعرفة أنه مخلوق مربوب، وأن لخالقه وربه عليه واجب العبادة والشكر، ذكر ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[5] فيقول: (فتأمل هذا الخطاب كيف تجد تحته أشرف معنى

---

(١) حادي الأرواح. ابن القيم ص ٢٦٤.

(٢) الجواب الكافي. ابن القيم ص ٩٥، وحادي الأرواح. ابن القيم ص ٢٦٦.

(٣) انظر الجواب الكافي. ابن القيم ص ٩٥.

(٤) المفتاح. ابن القيم ٣٠٤/١.

(٥) سورة يس ٢٢.

وأجلّه وهو أن كونه سبحانه فاطراً لعباده يقتضي عبادتهم له، وأن من كان مفطوراً مخلوقاً فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه، ولا سيما إذا كان مردّه إليه، فمبدأُه منه ومصيره إليه، وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته)[1].

الإنسان خيّر بطبيعته:

إن الحديث عن الإنسان الذي هو محور العملية التربوية يدعونا أن نكشف النقاب عمّا تحويه النفس البشرية، لأن في هذا عوناً على تحديد ماهية التربية التي تقدم لهذا الإنسان، فهل الإنسان خير محض؟ أو شر صرف؟ أو أن فيه هذا وهذا؟

ولقد ذهب الفلاسفة والمربّون في هذا الموضوع مذاهب شتى فمنهم من: (يرى أن الطبيعة الإنسانية طبيعة خيرة في أصل الخلقة... ومنهم من يرى أن الإنسان شرير في طبيعته... ومنهم من يرى أن بعض الناس أخيار، وبعضهم أشرار بالطبع... ومنهم من يرى أن في طبيعة الإنسان جانباً خيراً وآخر شريراً.. ومنهم من يرى أن الطبيعة الإنسانية محايدة ليست خيرة ولا شريرة في ذاتها وفي أصلها الخلقي، وفيها استعداد لأن تكون خيرة أو شريرة على حسب التربية وظروف البيئة)[2]. وهذه الاتجاهات وهذه المذاهب عدا الأول لا تتفق مع وجهة نظر الإسلام حول طبيعة الإنسان من الخير والشر، فالإسلام يرى أن الإنسان مجبول على الخير ومفطور عليه، قال تعالى في حديث قدسي «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[3]، وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة..»[4] فالشر

---

(١) المفتاح، ابن القيم ٢/٨.

(٢) التربية الأخلاقية في الإسلام. د / مقداد يالجن ط ١ سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م - مكتبة الخانجي بمصر ص ٢٨٣ إلى ٢٨٨.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، دار المعرفة - بيروت - لبنان ٨/١٥٩.

(٤) صحيح رواه (ع، طب - عن الأسود بن سريع) من صحيح الجامع الصغير وزيادته. محمد ناصر الدين الالباني ٤/١٨١ رقم الحديث ٤٤٣٥.

يحدث للإنسان من سوء التربية والتوجيه ومن اتباع الهوى وطاعة النفس الأمارة بالسوء، والسير مع الشيطان في طريق الغواية والضلال.

ورأي ابن القيم في هذا باختصار شديد هو أن الشر حادث على النفس البشرية، وليس من أصل خلقتها، ويقسمه إلى نوعين عدم ووجود، وهو يرى أن صلاح النفس في العلم النافع والعمل الصالح، وأنه لا توجد نفوس هي شرّ محض وإذا وجد في بعض النفوس نوع من الشر فإنه قد يزول منها وتتخلص منه بأنواع المحن والبلايا.

وفيما يحصل من الشر لهذه النفوس يقول: إنّه (نوعان: عدم ووجود، فالأول كعدم العلم والإيمان والصبر وإرادة الخيرات وعدم العمل بها.. و.. الثاني وهو الشر الوجودي كالعقائد الباطلة، والإرادات الفاسدة فهو من لوازم ذلك العدم، فإنه متى عدم ذلك العلم النافع والعمل الصالح من النفس لزم أن يخلفه الشر والجهل وموجبهما ولا بد لأن النفس لا بدّ لها من أحد الضدين، فإذا لم تشتغل بالمفيد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد)[1].

وهذا يدل على مفهوم التربية والتعليم وأهميتهما وفضل العلم عند هذا المربّي.

ضبط الغرائز بالعقل والعلم:

واجب التربية معرفة أحوال النفس البشرية وما جبلت عليه من غرائز، ومعرفة دور العقل والعلم في ضبط هذه الغرائز وتوجيهها، فابن القيم يرسم الصورة الحقيقية للإنسان على هيئته التي خلقه الله عليها، حيث يتجاذبه داعيان: داعي الشهوة والفتنة وداعي العقل والعلم، فإنه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما(*) ليتم مراده ويظهر لعباده عزته

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

(*) كذا في الاصل، ونرجح أن الصواب: «لمقتضياتهما». والله أعلم.

في حكمته وجبروته ورحمته وبره، ولطفه في سلطانه وملكه)[1].

فالله سبحانه خلق الإنسان على هذه الهيئة ليكون متميزاً عن الملائكة الذين هم عقول بلا شهوات، وليكون متميزاً عن الشياطين الذين هم مَعْدن كل شر.

فأعطى الله الإنسان الصبر ليقابل به داعي الهوى والشهوة. ومنحه الشكر تجاه ما حباه من نعمة العقل والعلم، لتتم بهذا حكمته من خلق هذا الإنسان.

وهذه الصورة التي يرسمها ابن القيم للإنسان تساعد في وضع مناهج التربية وخططها ووسائلها وطرقها المناسبة والتي تعين في تربية هذا الإنسان حتى يحقق الغاية التي من أجلها خلق ويؤدي المهمة التي وكلها الله إليه.

الإنسان مخلوق مكرم:

إن ابن القيم يشير إلى تكريم الله للإنسان بما منحه من نعمة العقل والمقدرة على كسب العلم، وملكة البيان والنطق وحسن الصورة والشكل، واعتدال القدّ، وبما ميزه به من القدرة على اكتساب العلوم والمعارف، والمقدرة على التفكير، والتحلّي بالأخلاق الفاضلة الشريفة، فيقول: (فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد)[2].

ويذكر ابن القيم أن من تكريم الله للإنسان أن جعله خليفة في هذه الأرض، وحباه من علمه ما يستطيع به تسخير ما في الكون لعمارة الأرض، ذكر ذلك رحمه الله في بيان شرف العلم وفضله حيث قال: (الوجه التاسع والعشرون: أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٦.
(٢) المرجع السابق ١/٢٦٣.

ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ . .)[1]

كما يذكر ابن القيم أن الله أسجد ملائكته لهذا المخلوق المكرم فيقول: (وأمر الملائكة بالسجود لآدم، فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء)[2].

ويبين أيضاً أن من كرم الله على جنس الإنسان أن أخرج منهم رسله وأنبياءه وجعل منهم عبّاداً، وصالحين وشهداء وصدّيقين وعلماء، وجعل فضل هؤلاء خيراً من الملائكة المقربين فقال رحمه الله: (. . . فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحي عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة)[3].

ويرى ابن القيم أن المقدرة على التعلم ظاهرة تميز بها الإنسان واستحق بها التكريم، فالله سبحانه أظهر لملائكته: (. . . فضل آدم بما خصّه به من العلم فقال: **﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم﴾** أقروا له بالفضل)[4].

ويذكر ابن القيم أن في هذا الإنسان من صفات الكمال ما لا يتوفر في غيره من المخلوقات، فيقول: (. . . أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات)[5].

القدرة على التعلم:

يرى ابن القيم أن الله أعطى الإنسان القدرة على كسب العلم وهيأ له وسائل ذلك من السمع والبصر والفؤاد، فقال رحمه الله: فـ (. . . الله تعالى

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٥٢، سورة البقرة / ٣٠ ـ ٣٢.
(٢) المرجع السابق ١/٥٢.
(٣) المرجع السابق ١/٥٢.
(٤) المرجع السابق ١/٥٢. سورة البقرة /٣٣.
(٥) المرجع السابق ١/٥٢، ٥٣.

أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً)[1] وقال أيضاً واصفاً حال الإنسان عند خروجه من بطن أمه: (. . . فهذه الحال التي أخرجنا عليها هي حالنا الأصلية، والعلم والعقل والقوة طارىء علينا حادث فينا، بعد أن لم يكن، ولم نكن نعلم شيئاً البتة إذ لم يكن لنا وجود نعلم ونعقل به)[2].

وابن القيم يشير إلى وجوب شكر الله بما أنعم من وسائل كسب العلم، فيقول: إنها أي: [. . . الأسماع والأبصار والأفئدة التي نالوا بها من العلم ما نالوه] هي من الله (وأنه فعل بهم ذلك ليشكروه)[3].

وابن القيم كما أنه يعرف قيمة الوسائل التي منحها الله الإنسان ليكتسب بها العلم من السمع والبصر والفؤاد، فهو يعرف تماماً أن من يعطل هذه الوسائل ولا يستعملها فيما خلقها الله من أجله فإنه يكون بمنزلة الحيوان الأعجم فيقول بشأن هذا الصنف من الإنسان: (لم يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات، وهي الحيوانية البهيمية)[4].

ويشخص رحمه الله حال الإنسان الذي يصل وينحط إلى هذه الدركة. فيقول عنه بأنه: (لا يستحيي منه الناس ولا يمتنعون بحضرته وشهوده مما يستحيا منه من أولي الفضل والعلم)[5] ويزيد في الصورة بشاعة وتنفيراً بوصفه حال الإنسان عندما يكون: (غافلاً عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة)[6] فإنه يصبح واحداً (من الهمج الرعاع الذين يكدرون الماء ويغلون الأسعار، إن عاش عاش غير حميد، وإن مات مات غير فقيد)[7].

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/١٥٦.
(٢) الروح. ابن القيم. ص ١٧٤.
(٣) المفتاح. ابن القيم ١/١٠٦.
(٤) المرجع السابق ١/١٦٧.
(٥) المرجع السابق ١/١٦٧.
(٦) المرجع السابق ١/١١٠.
(٧) المرجع السابق ١/١١٠.

ويذكرنا ابن القيم أن فائدة التعليم، وقدرة الإنسان عليه تفيد في معرفة الإنسان: (ما يضره ليجتنبه، وما ينفعه ليحرص عليه ويفعله)[1].

ويذكر أيضاً من الوسائل التي توفرت في الإنسان من العينين واللسان والشفتين ما يستطيع به كسب العلم والمعرفة فيقول في تفسير قول الله عز وجل (﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ فذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر. .)[2] ثم يستطرد في توضيح ذلك فيقول: (والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزوماً وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم. .)[3].

ويذكر أيضاً من الوسائل التي زود بها الإنسان ومنحه الله إيّاها فجعلته قابلاً للتعلم، الذهن وقدرته على التفكير، والبنان الذي يستطيع به التحكم في آلة الكتابة والعلم، فيقول رحمه الله مذكراً بهذه النعم: (. . فمن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه ومن الذي دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد فكم لله من آية نحن غافلون عنها. .)[4].

ويورد قولاً في ذكر الحواس الخمس في مقابلة المحسوسات الخمس فيقول عنها: (جعل الحواس خمساً في مقابلة المحسوسات الخمس ليلقي خمساً بخمس كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة)[5].

ويشير أيضاً إلى أن ملكة الحفظ والقدرة على الذاكرة وظاهرة النسيان

(١) إغاثة اللهفان. ابن القيم ٢/١٣٨.
(٢) المفتاح. ابن القيم ١/١٠٧. سورة البلد / ٨، ٩، ١٠.
(٣) المرجع السابق ١/١٠٧.
(٤) المرجع السابق ١/٢٧٩.
(٥) المرجع السابق ١/٢٦٤.

مما خصّ به الإنسان وفي كل فائدة فيقول: (فلكل من الحفظ والنسيان فائدة ومصلحة)[1].

ويذكر ابن القيم بأن وسائل كسب العلم التي تميز بها الإنسان محض منة من الله وفضل فيقول عن ذلك: إنها (.. عطية وهبها الله منه[*] وفضل أعطاه الله إيّاه، وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علّمه فتعلم، كما أنه علّمه الكلام فتكلم)[2].

وابن القيم يذكر أن للعبد قوتين هما: (... قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام، وقوة الإرادة والحب وما يتبعها من النية والعزم والعمل)[3].

وقد بنى كتابه «المفتاح» على (العلم) و (الإرادة) منوِّهاً بفضلهما منبهاً على ضرورة اجتماعهما في الشخصية الإنسانية لتحصيل الكمال والسعادة.

الإنسان مستخلف:

درج كثير من الكتاب المسلمين اليوم على أن يطلقوا على الإنسان أنه خليفة الله في أرضه، ولقد كنت أذكر ذلك في دروسي لطلابي حسب ما اطلعت عليه في بحوث أولئك الكتاب، إلا أنني عثرت أخيراً على كلام لابن القيم حول هذا الموضوع، فوجدته لا يرى صحة إطلاق هذا اللفظ على الإنسان، لكنه يقول إن الإنسان قد استخلفه الله في الأرض عن غيره من الخلائق، أو أن جنس الإنسان وأجياله المتعاقبة يخلف بعضها بعضاً، ولقد أورد ابن القيم هذا في معرض شرحه للأثر الذي رواه أبو نعيم في الحلية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والذي جاء فيه: «...

(١) انظر المفتاح. ابن القيم ١/ ٢٧٧.

(*) هكذا. ولعله تصحيف والصواب: له. والله أعلم.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/ ٢٧٩.

(٣) المرجع السابق ١/ ٢٧٩.

أولئك خلفاء الله في أرضه ورعاته على دينه»، قال رحمه الله: (... هذا حجة أحد القولين في أنه يجوز أن يقال: فلان خليفة الله في أرضه)[1]، ثم قال: (واحتج أصحابه أيضاً بقوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[2] واحتجوا بقوله: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾[3]، وهذا خطاب لنوع الإنسان، وبقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[4]، وبقول موسى لقومه ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[5] وبقول النبي ﷺ: «إن الله ممكن لكم في الأرض ومستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[6]، واحتجوا بقول الراعي يخاطب أبا بكر رضي الله عنه:

أخليفة الرحمن إنا معشر ... حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله في أموالنا ... حق الزكاة منزلاً تنزيلا[7]

ثم بعد ذكر هذه الأدلة للطائفة التي تجيز إطلاق هذا الوصف على الإنسان قال رحمه الله: (... ومنعت طائفة هذا الإطلاق، وقالت: لا يقال لأحد أنه خليفة الله، فإن الخليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره، والله تعالى شاهد غير غائب قريب غير بعيد، راء وسامع فمحال أن يخلفه غيره، بل هو سبحانه الذي يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته)[8]، فنلاحظ أن هذا دليل عقلي لغوي، اردفه بأدلة نقلية فقال: (كما قال النبي ﷺ في حديث الدجال: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/١٥١.
(٢) سورة البقرة /٣٠.
(٣) سورة الأنعام / ١٦٥.
(٤) سورة النمل /٦٢.
(٥) سورة الأعراف /١٢٩.
(٦) حديث رواه ابن ماجه بلفظ: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها...» كتاب الفتن ١٩٠، ٢/١٣٢٥.
(٧) المفتاح. ابن القيم ١/١٥١ ـ ١٥٢.
(٨) المرجع السابق ١/١٥٢.

فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مؤمن»[1]، وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ، كان يقول إذا سافر: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والحضر... »الحديث[2]، وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في أهله»[3]، فالله تعالى هو خليفة العبد، لأن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه في أهله، قالوا: ولهذا أنكر الصديق رضي الله عنه على من قال له: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله وحسبي ذلك»)[4]، ثم ذكر رحمه الله رد هذه الطائفة على أدلة الطائفة الأولى فقال: (... قالوا: وأما قوله تعالى ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[5]، فلا خلاف أن المراد به آدم وذريته، وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله في الأرض، قيل عن الجن الذين كانوا سكانها، وقيل عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن، وقصتهم مذكورة في التفاسير، وأما قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُم خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ**﴾[6] فليس المراد به خلائف عن الله وإنما المراد به أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضاً، فكلما هلك قرن خلفه قرن إلى آخر الدهر، ثم قيل: إن هذا خطاب لأمة محمد ﷺ خاصة أي جعلكم خلائف عن الأمم الماضية، فهلكوا وورثتم أنتم الأرض من بعدهم، ولا ريب أن هذا الخطاب للأمة والمراد نوع الإنسان الذي جعل الله أباهم خليفة عمن قبله، وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضاً إلى قيام الساعة، ولهذا جعل هذا آية من آياته، كقوله تعالى: ﴿**أَمْ مَنْ يُجِيبُ**

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم. في كتاب الفتن. باب ذكر الدجال وصفته وما معه ١٩٧/٨.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم. في كتاب الحج. باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ١٠٤/٤، دون كلمة «والحضر».

(٣) حديث صحيح رواه مسلم. في كتاب الجنائز. باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر ٣٨/٣.

(٤) المفتاح. ابن القيم ١٥٢/١.

(٥) سورة البقرة / ٣٠.

(٦) سورة الأنعام / ١٦٥.

ٱلْمُضْطَر إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وأما قول موسى لقومه: ﴿... وَيَسْتَخْلِفكم فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2]، فليس ذلك استخلافاً عنه، وإنما هو استخلاف عن فرعون وقومه. أهلكهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم، وكذا قول النبي ﷺ إن الله مستخلفكم في الأرض، أي عن الأمم التي تهلك وتكونون أنتم خلفاء من بعدهم، قالوا: وأما قول الراعي فقول شاعر قال قصيدة في غيبة الصديق لا يدري أبلغت أبا بكر أم لا ولو بلغته فلا يعلم أنه أقره على هذه اللفظة أم لا)[3] ثم يبين ابن القيم بعد عرض أدلة كل طائفة رأيه الحاسم في القضية والحكم الذي يرتضيه فيها فيقول: (... قلت إن أريد بالإضافة إلى الله أنه خليفة عنه، فالصواب قول الطائفة المانعة منها، وإن أريد بالإضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله، فهذا لا تمنع فيه الإضافة، حقيقتها خليفة الله الذي جعله الله خلفاً عن غيره، وبهذا يخرّج الجواب عن قول أمير المؤمنين أولئك خلفاء الله في أرضه)[4].

وهذا الإنسان المستخلف، مهمته عمارة الأرض على ضوء منهج الله عز وجل الذي استخلفه، والتربية السليمة هي التي تعده لهذه المهمة.

الإنسان الأمثل

الكمال الإنساني:

تمهيد: إن الكمال الإنساني هدف تسعى التربية إلى تحقيقه، فالكمال الحقيقي يكمن في اتصاف الإنسان بصفة العبودية لله تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿... وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيم﴾[5].

---

(١) سورة النمل / ٦٢.

(٢) سورة الأعراف / ١٢٩.

(٣) المفتاح. ابن القيم ١/١٥٢.

(٤) المرجع السابق ١/٥٢.

(٥) سورة يس / ٦١.

ومتى اتصف الإنسان بهذه الصفة فإن الشيطان لا طريق له عليه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَان﴾[1].

كما أنه يشعر بالسعادة والأمن لقرب الملائكة منه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِين قَالُوا رَبُّنَا ٱللّه ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم ٱلْمَلاَئِكَةُ أَنْ لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُم تُوعَدُون نَحْنُ أَوْلِيَاؤكُم فِي ٱلْحَيَاة ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَة.. ﴾[2].

(والعبودية لله تحررنا من العبوديات كلها، وهذا نهاية السمو والسعادة، فبناء الشخصية على أساس الإيمان بالله والعبودية له يقيم جوانب النفس الإنسانية كلها في اتجاه واحد سليم، ويقضي على تشتت الشخصية وتمزقها، ويورث الطمأنينة والراحة كما يؤدي إلى الاستقامة في حياة الفرد والجماعة، والسمو بالإنسان إلى مستواه اللائق به من حيث هو مخلوق مكرم)[3].

ومن هذا يتضح أن الانسان الكامل هو الذي يتحرر من عبادة غير الله، ويتصف بصفة العبودية لله وحده، ويؤمن به ويستقيم على هداه ويشعر بأنه إنسان مكرم، ويتذكر دوماً قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَم وَحَمَلْنَاهُم فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[4].

وليكن واضحاً في الذهن أن مهمة التربية لا تقتصر على تكميل الإنسان في جانبه الديني، الذي ذكر شيء منه فيما مضى، لأن العبودية بمفهومها الشامل تتناول كل نشاط الإنسان، فالتربية تسعى لتحقيق: (... غايتين أولاهما وأهمهما الإعداد للحياة الآخرة، وثانيتهما تمكن الفرد من معرفة طائفة

---

(١) سورة الحجر / ٤٢.

(٢) سورة فصلت / ٣٠.

(٣) مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام. عبد الرحمن الباني ص ٧٠.

(٤) سورة الإسراء / ٧٠.

من العلوم والمهارات، التي تساعد على النجاح في الحياة الدنيا)[1] حتى يتمكن الإنسان من تسخير قدراته وتوجيه مهاراته في استثمار ما أودعه الله في هذا الكون، تحقيقاً لمعنى الاستخلاف المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2].

فـ (الإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بالله ليصلح حاله على الأرض وينظم حياته، فيسير بجسمه على الأرض وهو متجه بروحه إلى السماء)[3].

فالتربية تعلم الإنسان الآداب التي يعيش بها في الدنيا، والتي تنفعه في الآخرة فـ (الغرض من التربية الدينية هو إعداد الفرد لأن يعيش ويحيا حياة كاملة، بحيث يتعلم آداب الدنيا ليحيا فيها، وآداب الدين ليكون متصلاً بالله في كل حين ويخاف الله في السر والعلانية)[4].

فمن صفات الإنسان الكامل إضافة إلى ما ذكر قبل هذه السطور شعوره بأنه مستخلف من قبل الله في هذه الأرض ومعرفته الواعية عن الإسلام الذي يوضح له الآداب في الدنيا والدين، وإلمامه ببعض العلوم والمعارف، وإدراكه لبعض المهارات بجانب تحصيله العلم الديني.

بعد هذه اللمحة السريعة لصفات الإنسان الكامل عند بعض الكتاب في التربية الإسلامية المعاصرين نريد أن نستعرض فكر ابن القيم في ذلك.

فالغاية السامية التي تحرص عليها التربية كما يراها ابن القيم هي تحقيق العبودية لله عز وجل: (والتي يحصل بها كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم)[5]

---

(١) الفكر التربوي عند الغزالي. د / عبد الغني عبود. ط ١ سنة ١٩٨٢ م، دار الفكر العربي ص ١٤٣.
(٢) سورة البقرة / ٣٠.
(٣) منهج التربية الاسلامية. محمد قطب. ط ٥ سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م، دار الشروق جـ ١ ص ١٧.
(٤) التربية الاسلامية وفلاسفتها. محمد عطية الإبراشي ط ٣ سنة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ص ٤٧.
(٥) المفتاح. ابن القيم ٢ / ١٢٠.

وهذه العبادة يبينها ويحدد معالمها بقوله: (. . . هي معرفة الله ومحبته وعبادته وحده لا شريك له، وهي حقيقة قول العبد لا إله إلا الله، وبها بعث الرسل ونزلت جميع الكتب، ولا تصلح النفس ولا تزكو ولا تكمل إلا بذلك)[1].

ثم يوضح أن في هذه العبادة بهذا المفهوم زكاة للنفوس وصلاحاً لها فيقول: (. . إن النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون الله وحده محبوبها ومعبودها لا أحب إليها منه ولا آثر عندها من مرضاته والتقرب إليه)[2].

يتضح من هذا أن السعادةلا تحصل للإنسان إلا إذا وصل إلى كماله اللائق به، وكماله هذا في أن يكون عابداً لله، مدركاً للغاية من خلقه، عارفاً بمسؤوليته في الوجود، فالسعادة: (ليست في المال، وليست في مظهر النفس، ولا في زينة من زينة الحياة، ولا في زخرف من زخارفها)[3]، بل هي في العبادة لله كما ذكرنا والاطمئنان إلى رحاب الله، وسلامة النفس وصحتها: فـ (الصحة النفسية بمعناها الكامل تشمل السعادة في الدنيا والدين)[4].

فإذا كان كمال الإنسان سبباً في سعادته في الدنيا والآخرة فهذا الكمال في نظر ابن القيم كمالان: أحدهما يتعلق بالعلم والوصول فيه إلى درجة عالية، والثاني يتعلق بالإرادة والعزيمة المستوجبة للعمل وذلك لأن له قوتين إحداهما العالمة والأخرى العاملة، فيقول في ذلك: (فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ، إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أقسم

---

(١) المفتاح. ابن القيم ٢/ ١٢٠.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٢٠.

(٣) نظرات في إصلاح النفس والمجتمع. للإمام الشهيد حسن البنا إعداد أحمد عيسى عاشور. ط ١ سنة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م. مكتبة الاعتصام. ص/ ٥.

(٤) التوجيه والإرشاد النفسي. د/ حامد زهران ط ٢. سنة ١٩٨٠ م عالم الكتب ص ٣٢٠.

سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمّان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما)[1].

وبكلامه الأخير هذا يحدد فلسفة التربية التي ينادي بها، فهو يجعل اقتران العلم بالعمل أمراً هاماً وأساسياً في التربية والتعليم وهذا هو الاتجاه الذي تبناه قبله شيخه ابن تيمية رحمهما الله فقد أورد أن (.. كمال الإنسان أن يعبد الله علماً، وعملاً. كما أمره ربه وهؤلاء هم عباد الله، وهم المؤمنون والمسلمون وهم أولياء الله المتقون، وحزب الله المفلحون وجند الله الغالبون، وهم أهل العلم النافع، والعمل الصالح، وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها؛ كملوا القوة النظرية العلمية، والقوة الإرادية العملية)[2]، وهذا يدل على مدى تأثر هذا المربي الجليل بأفكار شيخه وفكره التربوي.

وإذا كان كمال الإنسان في العلم والعمل مطلباً من مطالب التربية عند ابن القيم، فإن مصدر هذا العلم كما يقول: (... بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد)[3]، هذا بالنسبة للعلم ومصدره الأساسي، أما العمل الصالح فهو الذي يتوافر فيه شرطان: أن يكون خالصاً، وأن يكون صواباً يقول ابن القيم: (فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة)[4] ويزيد الأمر وضوحاً بقوله: (إن كمال العبد هو بأن يكون عارفاً بالنعيم الذي يطلبه والعمل الذي يوصل إليه، وأن يكون مع ذلك فيه إرادة جازمة لذلك العمل ومحبة صادقة لذلك النعيم)[5].

---

(١) مدارج السالكين. ابن القيم ١/١٦، سورة العصر.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية جمع وترتيب / عبد الرحمن محمد بن قاسم. مكتبة المعارف ـ الرباط ـ المغرب ٢/٩٦، ٩٧.

(٣) مدارج السالكين. ابن القيم ١/٦.

(٤) الجواب الكافي. ابن القيم ص ٩١.

(٥) إغاثة اللهفان. ابن القيم، ٢/١٧٩.

أنواع السعادة:

إذا كان كمال الإنسان في تحرره من عبادة غير الله وفي اتصافه بالإيمان الصادق والعبودية له وحده دون سواه، وشعوره بأنه إنسان مكرم مستخلف من قبل الله في أرضه، وفي تكميل علمه بالإيمان وقوته العملية بالعمل الصالح، وتعرفه على آداب الدنيا والدين فإن هذا الكمال يجلب له السعادة والأمن والطمأنينة. والاتجاهات في تحديد السعادة وأنواعها مختلفة ومتباينة، فمنها من يرى أن السعادة في كمال العلم والعمل: (فإذا كمل الإنسان بالجزء العملي والجزء النظري فقد سعد السعادة التامة)[1]، وهناك اتجاه يرى أن السعادة (.. في اللذات الحسية وأنها هي الخير المطلوب والسعادة القصوى)[2] أما السعادة في رأي أرسطوطاليس كما ذكره ابن مسكويه فهي خمسة أقسام: (أحدها: في صحة البدن ولطف الحواس.. والثاني: في الثروة والأعوان... والثالث: أن تحسن أحدوثته في الناس، وينشر ذكره بين أهل الفضل.. والرابع: أن يكون منجحاً في الأمور... والخامس: أن يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقاد في دينه وغير دينه بريئاً من الخطأ والزلل جيد المشورة في الآراء، فمن اجتمعت له هذه الأقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل)[3].

(أما الحكماء قبل هذا الرجل فإنهم أجمعوا على أن الفضائل والسعادة كلها في النفس وحدها، ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس... والتي منها الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة وأجمعوا على أن هذه الفضائل هي كافية في السعادة)[4].

---

(١) تهذيب الأخلاق في التربية(*). ابن مسكويه ط ١. سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م. دار الكتب العلمية. بيروت ـ لبنان، ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥.

(٣) المرجع السابق ص ٦٦، ٦٧.

(٤) المرجع السابق ص ٦٧.

(*) كذا سماه الناشر ولا نعلم له وجهاً، والمعروف أن اسم الكتاب (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق).

ومن الاتجاهات من يرى أن (السعادة التي في النفس غير كاملة إذا لم تقترن بها سعادة البدن وما هو خارج البدن أيضاً)[1]، ومنها من يحصر سعادة الإنسان في الآخرة فيقول أصحاب هذا الاتجاه: (إن الإنسان لا يسعد السعادة التامة إلا في الآخرة بعد موته..)[2]، والسعادة عند آخرين لا تحصل إلا بالتعب وجدية الطلب في تحصينها فيقول أصحاب هذا الرأي: (أن السعادة الإنسانية تحصل للإنسان في الدنيا إذا سعى لها وتعب بها حتى يصير إلى أقصاها)[3]، ومن هذه الاتجاهات من يرى: (أن سعادة كل شخص بحسب حاله إن كان فقيراً فبالغنى، وإن كان مريضاً فبالصحة، وإن كان ذليلاً فبالعز، وإن كان شهوانياً فباللذة وإن كان عاشقاً فبالوصل، إلى غير ذلك)[4].

ومن الاتجاهات مذهب من يرى السعادة في (إحدى مرتبتين إما في مرتبة الأشياء الجسمانية [التي يكون الإنسان][*] متعلقاً بأحوالها السفلى سعيداً بها وهو مع ذلك يطالع الأمور الشريفة باحثاً عنها مشتاقاً إليها متحركاً نحوها مغتبطاً بها، وإما أن يكون في مرتبة الأشياء الروحانية متعلقاً بأحوالها العليا سعيداً بها وهو مع ذلك يطالع الأمور البدنية معتبراً بها ناظراً في علامات القدرة الإلّهية، ودلائل الحكمة البالغة ومقتدياً بها ناظماً لها مفيضاً للخيرات عليها سابقاً لها نحو الأفضل)[5].

وإننا بعد هذا الاستعراض للاتجاهات المختلفة في تحديد السعادة وأنواعها يجدر بنا أن نستمع الآن إلى شيخنا المربِّي الإمام ابن القيم رحمه الله وهو يحدثنا عن سعادة الإنسان فيقول: (هي في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل واستفراغ الوسع.. وكماله كله في مجموع

---

(١) تهذيب الأخلاق في التربية ـ ابن مسكويه. ص ٦٧.
(٢) المرجع السابق ص ٦٨.
(٣) المرجع السابق ص ٦٨.
(٤) المرجع السابق ص ٦٩.
(٥) المرجع السابق، ص ٧٠.
(*) زيادة للإيضاح.

هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به)[1].

وابن القيم يشير إلى أن سعادة الأمة في الإيمان بالمقدور والتسليم له والرضا به، والأخذ بالأسباب والتوكل على الله فيقول: (فالنبي ﷺ أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة، الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره وذلك نظام الشرع)[2].

ثم يفصل القول في أنواع السعادة التي ترغبها النفوس وتحرص عليها فيقول: (إن أنواع السعادة التي تؤثرها النفوس ثلاثة: سعادة خارجية عن ذات الإنسان، بل هي مستعارة له من غيره، تزول باسترداد العارية، وهي سعادة المال والحياة[*]. . ، والسعادة الثانية: سعادة في جسمه وبدنه كصحته واعتدال مزاجه وتناسب أعضائه وحسن تركيبه، وصفاء لونه، وقوة أعضائه، فهذه ألصق به من الأولى، ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته، فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه. . السعادة الثالثة: هي السعادة الحقيقية وهي سعادة نفسانية روحية قلبية وهي سعادة العلم النافع ثمرته[3] فإنها هي الباقية على تقلب الأحوال والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره، وفي دوره الثلاث[4]، أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار)[5].

من هذا يتضح أن للتربية في فكر هذا المربي الجليل هدفاً سامياً ألا وهو إيجاد الإنسان الكامل الذي يشعر بالسعادة بما حباه الله من علم نافع وعمل صالح، ثم لا يكتفي بما معه من علم وبما يقوم به من عمل، بل

---

(١) شفاء العليل. . . ابن القيم، ص ٤٠.

(٢) المرجع السابق ص ٥٧.

(*) هكذا. ولعله تصحيف والصواب: الجاه. والله أعلم.

(٣) هكذا. ولعل فيه سقط. والصواب: «العلم النافع وثمرته العمل الصالح». والله أعلم.

(٤) في المطبوع الثلاثة والصحيح، الثلاث.

(٥) المفتاح. ابن القيم ١/١٠٧ ـ ١٠٨.

يحرص كل الحرص على تبليغ علمه للناس، ويصبر على هذا التبليغ. ومن تتوفر فيه هذه الخصال، فهو مفضّل على جميع البشر حتى العبّاد منهم، يقول ابن القيم في ذلك: (فُضِّل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حُضْر(*) الفرس سبعين عاماً وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها)(١).

فهذا يؤكد فضل العالم وما وصل إليه من منزلة رفيعة عظيمة القدر بما حباه الله من علم أصبح به سعيداً يسعى إلى الخير ويحمل نفسه وأمته عليه، فابن القيم يرى أن صلاح الناس بوجود العلماء يقول: (فصلاح الوجود بالعلماء ولولاهم كان الناس كالبهائم بل أسوأ حالاً)(٢)، فهم كما يقول ابن القيم: (الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك)(٣)، فموت العالم كسر لا يجبر وثلمة لا تسدّ، فإن الله لا ينزع العلم انتزاعاً ولكن ينزعه بموت العلماء، إلا أنه من رحمته بعباده أن: (يغرس في هذا الدين منهم خالفاً عن سالف يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده)(٤).

وهذه المنزلة للعلم، وهذه المكانة للعالم تدفع الإنسان أن يستعمل ما أعطاه الله من وسائل في تحصيل العلم وكسبه، وهو ينـدرج في الكمال حسب تدرجه وترقيه في العلم، فإذا وصل إلى درجة علمية عالية وقرن علمه هذا بالعمل الصالح وصل إلى كماله اللائق به ومتى وصل إلى هذه الدرجة فإنه سيشعر بالسعادة.

وإن لم يستفد من وسائل العلم، بل (... كان معطلاً لها مفسداً

(*) حُضّر بالضم ارتفاع الفرس في عدوه.. انظر القاموس المحيط جـ ٢ الفيروزأبادي مادة «حضر». الحضر: عدو ذو وثب. ا. هـ عن المعجم الوسيط. مجمع اللغة. ط ٢ سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م.

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٦٩.

(٢) المرجع السابق ١/٦٨.

(٣) المرجع السابق ١/٦٨.

(٤) المرجع السابق ١/٦٨.

لصحته فينال بذلك الشقاوة والتعس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾[1]، فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يسأل الله العباد فيما استعلموا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد، والله تعالى أعطى العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده والقلب ليعقلها ويفقهها والبصر ليرى آياته ويستدل بها على وحدانيته وربوبيته، فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلمُ وثمرته ومقتضاه)[2].

والإنسان وهو يعيش في هذه الحياة يتقلب بين أقدار الله ويسير وفق أوامر الله، مجتنباً نواهيه، وتكتنفه نعمه وآلاؤه، وعدوه رابض له على الطريق يتربص به الدوائر، فالمطلوب من هذا الإنسان الشكر على النعم والصبر على البلاء والاستغفار من الذنب، وابن القيم، يرى أن اجتماع هذه الثلاثة عنوان السعادة ذكر ذلك في دعائه الذي يقول فيه: (. . . وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر)[3]. . . ثم يذكر أن اجتماع هذه الثلاثة عنوان السعادة فيقول: (. . . فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد)[4].

وابن القيم يضع بعض المواصفات للإنسان السعيد، منها إذا عمل حسنة جعلها خلف ظهره ولم يذكرها ولم يركن إليها ويسأل الله القبول فيها، وإن عمل سيئة نصبها تجاه وجهه وعلى مرأى من عينيه فيقول: (فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه، وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره)[5].

---

(١) سورة الإسراء / ٣٦.
(٢) المفتاح. ابن القيم ١/١٠٧.
(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب. ابن القيم ص ٣.
(٤) المرجع السابق. ص ٣.
(٥) المفتاح. ابن القيم ١/٢٩٨.

لا إفراط ولا تفريط:

إن الإفراط في الشيء هو المغالاة فيه والإفـراط لا يصح ولا يجـوز كما أن التفريط والتهاون واللامبالاة منهيّ عنهـا أيضاً، ولـذلك حث الإسـلام على التوسط في كل شيء، فأكمل النّاس هم الذين يكونون وسطاً في جميع الأمور فالتوسط في الأمر امتدحه الله في حال النفقـة بقولـه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[1] كمـا امتدح المؤمنين بقـوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً﴾[2].

ولقد أورد ابن القيم بعض الآثار التي تدل على أن خير النّاس هم الذين يكونون وسطاً في جميع تصرفاتهم فقـال: (وقد قـال علي بن أبي طالب رضي الله عنـه: خير النـاس النّمط الأوسط الـذين يـرجـع إليهم الغـالي ويلحق بهم التالي، ذكره ابن المبارك عن محمد بن طلحة عن علي، وقال ابن عائشة: مـا أمر الله عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى غلو وإما إلى تقصير، وقال بعض السلف: دين الله بين الغـالي فيـه والجـافي عنـه، وقـد مـدح الله أهـل التوسط بين الطرفين المنحرفين في غير موضع من كتابه)[3].

في هذا معلم من معالم فلسفة التربيـة عند هـذا المربّي بحيث نحـرص في التربية على إبعاد المربَّي عن كل من الإفراط والتفريط في جميع أموره، ما يتعلق منها بالجوانب الثقافية أو الفكرية أو التعبدية أو الاقتصادية أو غير ذلك.

حرمان السعادة:

لقد مر بنا أن العبد لا يكون سعيداً إلا إذا كـان موصـولاً بالله عن طـريق العبـادة بمفهومهـا الشامـل، وهذه العبـادة لا يمكن أداؤهـا إلا بـالعلم النـافـع والإرادة الصادقة التي يتمخض عنها العمل الصـالح بجـانب الحذر من الغفلة

---

(١) سورة الإسراء / ٢٩.

(٢) سورة الفرقان / ٦٧.

(٣) كتاب الصلاة وحكم تاركها وسيـاق صلاة النبي ﷺ من حين كـان يكبر إلى أن يفـرغ منها. ابن القيم. ط ٦ سنة ١٤٠١ هـ المطبعة السلفية القاهرة ص ١١٠.

المضادة للعلم والكسل المضـاد للإرادة، وابن القيم يحـذر من الغفلة والكسل لتصفـو للعبد السعـادة ويشعر بـالنعيم في الدنيـا والدين فهـو يقول: (. . . إن أعظم الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين ويـدخل عليـه عدوه منهـا هو الغفلة المضـادة للعلم والكسل المضـاد لـلإرادة والعزيمة، هذان أصل بـلاء العبد وحـرمانـه منازل السعـداء. .)[1]، وفي هذا بيـان لأهم معالم الفلسفـة التربـوية التي ينـادي بها من العلم النـافـع والعمـل الصالح، وبيان للآفات التي تعترض التربية وتحـول بينها وبين النتـائج الـطيبة المبـاركـة ومن هـذه الآفـات الغفلة التي تفسـد العلم والكسـل الـذي يبـطل العزيمة.

العقل والعلم:

إن الإنسان الذي يعبد الله ويتعلم العلم لوجه الله ليعمل بـه ويدعـو إليه ويصبر على الأذى في سبيله، لا شك أنه إنسان صالح، فـالتربيـة في نظر ابن القيم تسعى إلى إيجـاد هذا الإنسـان. ويصف لنـا ابن القيم التـركيب العقلي والفكري له حتى توجه قدراته العقلية والفكرية وجهة صالحة فيقـول: (والعقل عقلان: عقل غريزة وهو أب العلم ومربيهِ ومثمّره، وعقل مكتسب مستفاد وهـو ولد العلم وثمرته ونتيجته)[2].

ثم يؤكد ما ذكر سابقاً من أن السعادة في العلم النافع والعمل الصالـح: (فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء واستقـام له أمـره وأقبلت عليه جيوش السعادة، من كل جانب، وإذا فقد أحدها فـالحيوان البهيم أحسن حالاً منه، وإذا انفرد(*) انتقص الرجل بنقصان أحدهما)[3].

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١١٢/١.

(٢) المرجع السابق ١١٧/١.

(*) هكذا. ولعله تصحيف. والصواب: «وإذا انفردا نقص» والله أعلم.

(٣) المفتاح. ابن القيم ١١٧/١.

مراتب الكمال:

إن الكمال الإنساني مراتب بعضها أعلى من بعض فأعلى مرتبة في ذلك هي مرتبة الذين أحاطهم الله بالعصمة، وحماهم من الزلـل وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الـذين اختارهم الله لرسـالته فكانوا سفراءه إلى خلقـه، بهم اهتدى الناس وعلى آثـارهم ساروا إلى صـراط الله المستقيم، ثم يأتي بعـدهم في المرتبة خلفاؤهم في هذه المسؤولية الذين يقتفون أثرهم ويطبقون منهجهم في تربية الناس وتعليمهم وهم أولو العلم والفضل؛ ويصفهم ابن القيم بقوله: (. . . أفضـل الخلق عند الله من جعلهم وسـائط بينـه وبين عبـاده في تبليـغ رسالاته وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيـه، ومساخـطه وثوابـه وعقـابه وخصهم بـوحيه واختصهم بتفضيله وارتضـاهم لرسـالتـه إلى عبـاده. . وجعل أشرف مـراتب الناس بعـدهم مرتبـة خلافتهم ونيـابتهم في أممهم فإنهم يخلفـونهم على منهـاجهم وطـريقهم. .)[1]، ثم تحـدث بعـد هـذا عن أتبـاع رسول الله ﷺ فقال عنهم: (. . هم أولو العلم الذين قاموا بـمـا جاء بـه علماً وعملاً، وهداية وإرشاداً وصبراً وجهاداً)[2].

وهو بالعبارة الأخيرة يحدد عمل المـربِّي، حيث يكون قـدوة في الخير، يقوم بعملية التوجيه والإرشاد، ويهدي الناس إلى الطريق السوي، ويصبر على هذا ويجاهد نفسه من أجله، كما بيّن في صدر كـلامه أن المـربين الحقيقيين هم الأنبياء المبلّغون عن الله منهجه، والمنفذون لمراده سبحانه، ولقد تحـلّـوا بالصبر واليقين، فنالوا الإمـامة في الـدين، وهذه المـرتبة يقـول عنها ابن القيم إنها: (. . . منوطة بالصبـر واليقين فقال تعـالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِـمـةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمّا صَبَرُوا وَكَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُون﴾)[3]، وقوله تعـالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُـولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا للمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[4].

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/ ٧٨.

(٢) المرجع السابق ١/ ٧٨.

(٣) عدة الصابرين. ابن القيم ص٢، سورة السجدة / ٢٤.

(٤) سورة الفرقان / ٧٤.

فإذا كان الكمال الإنساني يؤدي إلى السعادة التامة، وإذا كان البشر متفاوتين في شعورهم بالسعادة، فإن أعلاهم في ذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم الصديقون فالشهداء والصالحون، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ذَلِكَ ٱلْفَضلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَى بِٱللَّهِ عَلِيماً﴾[1]، يقول ابن القيم شارحاً لهذه الآية: (. . . فذكر مراتب السعداء وهم أربعة وبدأ بأعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة)[2]. وطاعة الله عز وجل هي التي توصل الإنسان إلى هذه المراتب، وهي تحتاج إلى الصبر، والصبر أنواع، فابن القيم يرى أن النّاس متفاوتون في ذلك؛ فمنهم (. . . من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عمّا يضره فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعي هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه، ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك، وأفضل النّاس أصبرهم على النوعين)[3].

وابن القيم يرى أن بإمكان الإنسان أن: (يترقى في درجات الكمال درجة بعد درجة حتى يبلغ ما يناله أمثاله)[4] ففي هذا إشارة إلى ما تقوم به التربية من التدرج بالمربّى حتى يصل إلى غاية كماله.

وابن القيم رحمه الله الذي يرى أن السعادة منوطة بالعلم النافع والعمل الصالح والذي يقول بأن: (الإرادة باب الوصول إلى الله والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه)[5]، فهو يجعل كمال الإنسان في قوة إرادته ومضاء

---

(١) سورة النساء /٦٩.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٧٨.

(٣) عدة الصابرين. ابن القيم ص ١٠.

(٤) المفتاح. ابن القيم، ١/١٠٩ ـ ١١٠.

(٥) المرجع السابق، ١/٤٦.

عـزيمته، وفي العلم الـذي يُبَصِّرُه ويهـديـه لأمـاكن الفعـل والتـرك، فيقـول: (وكمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين همة ترقّيـه وعلم يبصّره ويهـديه)[1] ويؤكـد ذلك بقـوله في مكـان آخر: (الكمـال كله إلى العلم والعـزيمـة)[2] ثم يصنف النّاس حسب حـظهم من العلم والعــزيمـة أربعــة أصنـاف فيقــول: (فالضرب الأول من رزق علماً وأعين على ذلك بقوة العزيمـة على العمل. . ، والضرب الثاني من حرم هذا وهذا وهم الموصوفون بقـوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3] والضرب الثالث من فتـح له بـاب العلم وأغلق عنـه باب العزم والعمل فهـذا في رتبة الجـاهل أو شـر منـه، وفي الحـديث المـرفـوع: «أشـد النـاس عـذابـاً يـوم القيـامـة عــالم لم ينفعـه الله بعلمـه»[4]. . . والضرب الـرابع من رزق حـظاً من العزيمـة والإرادة ولكن قلّ نصيبه من العلم والمعرفة فهذا إذا وفِّق له الاقتداء[*] بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم: ﴿ومن يطع الله ورسوله فـأولئك مـع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهداء والصـالحين وحسن أولئـك رفيقـاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً﴾)[5].

إن عطاء الله للإنسان لا نهاية له ولا حدّ، قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[6]، فالمال نعمـة من الله، والعلم نعمة منه عـز وجل، وابن القيم أورد حديثاً في الوجه الثاني والخمسين بعد المائة في فضـل العلم (رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ «إنما الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالاً وعلمـاً فهو يتقي في مـاله ربـه ويصل

(١) المفتاح . ابن القيم ١/ ٤٦.

(٢) المرجع السابق، ١/ ١١٤.

(٣) سورة الأنفال / ٢٢.

(٤) الحـديث ضعيف جداً رواه (طص، عـد، هب) عن أبي هريـرة ضعيف الجـامـع الألبانـي رقم ١٩٦٨/ ٢٨٠.

(*) هكذا: «وفق له الاقتداء. . .» ولعله تصحيف والصواب: «وفق للاقتداء. .» والله أعلم.

(٥) المفتاح. ابن القيم ١/ ١١٤، سورة النساء / ٦٩.

(٦) سورة إبراهيم / ٣٤.

فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأحسن المنازل عند الله، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول لـو أن لي مالاً لعملت بعمـل فلان فهـو بنيته وهمـا في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علمـاً فهو يخبط في مـاله، ولا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بـأسوأ المنـازل عند الله، ورجل لم يؤته الله مـالاً ولا علماً فهـو يقول لـو أن لي مالاً لعملت بعمـل فلان فهـو بنيته وهمـا في الوزر سـواء» حديث صحيـح صححه التـرمـذي والحـاكم وغيرهما)[1].

ثم قال رحمه الله بعد ذكره للحديث: (. . . فقسم النبي ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام. . خيرهم من أوتي علماً ومالاً، فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله. . ويليه في المرتبة من أوتي علماً ولم يؤت مالاً، وإن كان أجرهما سـواء فذلـك إنما كـان بالنيـة وإلا فـالمنفق المتصـدق فـوقـه بـدرجـة الإنفـاق والصدقة، والعالم الذي لا مال له إنما ساواه في الأجر بالنية الجازمـة المقترن بهـا مقدورهـا وهو القـول المجرد. الثـالـث من أوتي مالاً ولم يؤت علمـاً فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله لأن مالـه طريق إلى هلاكه فلو عدمه لكان خيراً لـه، فإنه أعطي ما يتزود به إلى الجنة فجعله زاداً له إلى النّـار. الرابـع من لم يؤت مالاً ولا علماً ومن نيته أنه لو كان لـه مال لعمل فيـه بمعصية الله فهـذا يلي الغني الجاهل في المرتبة ويساويه في الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقـدورها وهـو القول الذي لم يقـدر على غيره، فقسم السعـداء قسمين وجعل العلم والعمـل بموجبه سبب سعادتهما، وقسم الأشقياء قسمين وجعل الجهل وما يتـرتب عليه سبب شقاوتهما، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه، والشقاوة بجملتهـا إلى الجهل وثمرته)[2].

الأخلاق صفات كمال:

هناك ارتباط قوي بين السعادة والأخلاق، فإذا كـان الإنسان على جـانب

---

(١) المفتاح. ابن القيم، ١/ ١٧٩.

(٢) المرجع السابق ١/ ١٧٩ ـ ١٨٠.

من الأخلاق الحميدة فإنه يشعر بالسعادة، والإسلام جاء: (لمصلحة الإنسان وتحقيق السعادة له، لا في هذه الحياة فقط بل في الحياة الآخرة أيضاً، . . إن حقيقة السعادة في هذه الحياة هي الشعور والإحساس الدائم للمرء بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير)[1]، وخيرية الذات لا تحصل إلا بالأخلاق الفاضلة: (. . . من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والمروءة وغيرها)[2]، وهذه الأخلاق لا تنفع ولا تثمر إلا إذا ارتبطت بالجانب الإيماني بحيث يمارسها الإنسان بدافع القربة إلى الله وطلب مرضاته، وأن تتصف بالثبات فلا تتغير من حال إلى حال، ومن مكان إلى مكان، والعبد السعيد هو الذي يكون مطيعاً لله في كل وقت متحلياً بالأخلاق الفاضلة. إن للإنسان أعداء كثراً من النفس والهوى والشيطان، لذا فهو بحاجة دوماً إلى عون الله ومعيته حتى لا ينفرد به أعداؤه، وإذا أعانه الله وكان معه فإنه سيوفقه لخلق الصبر، لأن الصبر من صفات النفس وأخلاقها. وابن القيم رحمه الله يصنف الإنسان حسب صبره أو عدمه إلى ثلاثة أصناف، فـ (إذا غلب صبره باعث الهوى والشهوة التحق بالملائكة، وإذا غلب باعث الهوى والشهوة صبره التحق بالشياطين، وإذا غلب باعث الطبع من المأكل والمشرب وغيره صبره عند ذلك التحق بالبهائم)[3].

وإذا ذكر الصبر عادة اتجه الفكر إلى تلك الفضيلة العظيمة الممدوحة. ولكن ابن القيم بتأمله واستقصائه يلفت النظر إلى نوع مذموم من الصبر وهو: (الصبر عن الله وإرادته ومحبته وسير القلب إليه، فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ما خلق له. .)[4]، فهو يرى أن للعبد كمالاً وأن هذا الكمال في محبة الله وسير القلب إليه وإرادته وعدم الصبر عنه. وهذا

---

(١) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام. د / مقداد يالجن ط ١. سنة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣ م. مكتبة الخانجي. بمصر ص ٦٣.

(٢) روضة المحبين. ابن القيم ص ١٦٥.

(٣) انظر عدة الصابرين. ابن القيم ص ١٤.

(٤) المرجع السابق ص ٣٣.

يتصل بما سبق أن أشرنا إليه من أن كمال الإنسان في عبوديته لله، وهي كمال الحب له سبحانه، مع كمال الخضوع والذل له.

وبهذا يتضح أن الصبر عن الله يناقض «العبودية» وهو نقص في الكمال والسعادة جميعاً..

نقص كمال الإنسان:

لقد خلق الله الإنسان وركبه من أعضاء، وجعل لكل عضو وظيفة يؤديها فإذا أدى كل عضو مهمته وفق منهج الله فإن هذا الإنسان يكون سوياً يشعر بالأمن والصحة النفسية، وإذا قصرت هذه الأعضاء أو بعضها عن أداء مسؤوليتها، فإن حياة الإنسان تتعرض للخلل والاضطراب ويشعر بالقلق والحيرة، ولقد وصف رسول الله ﷺ المجتمع المسلم في حال تماسكه وقوة ترابطه ودقة بنائه بالجسد المترابط الأعضاء، فقال: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1]. وإذا كان كمال الإنسان في عبادة الله وتحصيل العلم النافع المقرون بالعمل الصالح فإن نقصه بالتقصير في العبادة والتكاسل في طلب العلم والغفلة عن الله. والله سبحانه هو الذي خلق الإنسان وهو أعلم بضعفه وفقره وحاجته إلى عفوه ومغفرته لذا شرع له التوبة عند ارتكاب الذنب لكي يؤوب إلى رشده ويرجع إلى طاعة ربه.

فابن القيم يرى أن التوبة صفة كمال للعبد، وعدم التوبة صفة نقص فيه وكذلك الإصرار على الذنب من صفات النقص، يقول رحمه الله: (... فالتوبة هي غاية كمال كل آدمي وإنما كان كمال أبيهم بها.. فجعل سبحانه كمال الآدمي في هذه الدار بالتوبة النصوح، وفي الآخرة بالنجاة من النّار ودخول الجنّة، وهذا الكمال مرتب على كماله الأول)[2].

---

(١) رواه (حم، م ـ عن النعمان بن بشير). صحيح الجامع. مرجع سابق. ٥/٢٠١، رقم ٥٧٢٥.
(٢) انظر المفتاح. ابن القيم ١/٢٨٦ ـ ٢٨٧.

فالتربية الناجحة هي التي تسير مع المربَّى في حين سلامته من الذنب فتضع له المعالم الواضحة للعمل الصالح، وتبين له أعداءه ليحذرهم ويسلم من كيدهم، وإن ضعفت نفسه أمام أعدائه وارتكب ذنباً ومعصية توضح له الطريق إلى التوبة وتبين له كيفية الاستغفار، حتى يثوب إلى الله ويرجع إليه، وفي هذا بناء للإيمان، ووقاية له، وعلاج له من أمراضه.

وابن القيم يرى أن الرجل يكون كاملاً إذا اتصف بإصابة الرأي وشجاعة القلب، وإذا توفرت فيه خصلة من هاتين الخصلتين وفقد الأخرى نقص من كماله بقدر هذا النقص، فيقول في ذلك: (... ونصف الرجل من انفرد بأحد الوصفين دون الآخر)[1]، ومفهوم هذا أن من فقد الوصفين معاً فهو الذي لا خير فيه لنفسه، ولا خير فيه لمجتمعه، فالمربِّي المسلم ينبغي أن يكون رأيه صائباً، ليفيد طلابه ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم وينبغي أن يكون شجاعاً يقول الحق ولو كان مراً، ليعلم أصحابه وتلاميذه قول الحق والجهر به والدفاع عنه. لأنه قد ورد «أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[2].

(١) الفروسية. ابن القيم ص ١٧٨.

(٢) سنن النسائي. المكتبة العلمية. بيروت. لبنان - كتاب البيعة باب من تكلم بالحق عند إمام جائر، ١٦١/٧.



الفصل الثاني

مفهوم التربية وبعض متعلقاتها عند ابن القيّم

تمهيد .

مفهوم التربية .

مسؤولية التربية

غاية التربية وأهدافها .

توجيهات ووصايا تربوية .

العبادات وآثارها التربوية

الله هو المربِّي والمعلم الحق .

عوائق التربية .



تمهيد:

بعد أن اتضحت نظرة ابن القيم إلى الإنسان من حيث أصله الذي خلقه الله عليه، ومن حيث رسم الصورة المثلى له، يقتضي البحث التحدث عن نوع التربية التي تصوغ هذا الإنسان، وترعاه وتنميه، ليصبح إنساناً صالحاً، يقوم بمسؤولية الخلافة في الأرض، ويؤدي ما فرض الله عليه من العبادة، ينطلق في الكون ليستعمل ما سخره الله له فيه لعمارة الأرض، ثم يؤدي مهمته - بعد أن اكتملت تربيته - في تربية أفراد مجتمعه على ضوء المنهج الذي تربى عليه من قبل؛ لأن التربية أخذ وعطاء.

إن ابن القيّم رجل مربٍّ خاض غمار العمل التربوي، بعد أن نهل من معين التربية السليمة ما جعله في مصافّ المربين من أولياء الله عز وجل؛ فأفكاره التربوية لم تكن مجرد دروس نظرية بعيدة عن الواقع العملي، بل خاض غمار العمل التربوي فعلاً. فألف الكتب ووصف بأنه (موسوعة علمية هائلة، وحافظ مدهش، وباحث متعمق، ومؤلف مكثر، وشحن المكتبة الإسلامية بالكثير من مؤلفاته في عامة علوم الشريعة)[1] وكان إمام المدرسة الجوزية، ولم تكن المدارس في ذلك العصر كمدارس التعليم العام اليوم، بل (.. كانت الدراسة بهذه المدارس أشبه ما تكون بالدراسة الجامعية... من حيث طريقة التدريس، ومستوى الدراسة، ونظم التلقّي)[2] كما أنه كان

---

(١) التقريب لفقه ابن قيم الجوزية. بكر بن عبدالله أبو زيد. القسم الأول ص ٩.

(٢) ابن قيم الجوزية. د / طاهر سليمان حموده. دار الجامعات المصرية ص ٢٠.

إذا مرّ بموقف يتطلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ولرسوله، يقوم بهذا خير قيام، دون كسل أو تردّد أو محاباة أو مجاملة، لأنه يعلم أن «الدين النصيحة»[1]، فقد لام مرة شخصاً تاركاً للصلاة على كلام صدر منه بعد أن أمره بأداء الصلاة، ونقل هذا إلى طلابه وقراء كتبه، فقال: (ولقد لمت شخصاً مرة على ترك الصلاة، فقال لي: إني لا أرى نفسي أهلاً أن أدخل بيته، فانظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء)[2].

وإذا دعاه الحال أن يقعِّد أصول علم من العلوم أو فن من الفنون، أو أراد الكتابة والتأليف عن فكرة أو موضوع أو قضية معضلة أو مشكلة تحتاج إلى بيان وتوضيح، فإنه يقوم بذلك خير قيام، ودليل ذلك ما خلفه لنا من ثروة علمية ضخمة في طائفة كبيرة من العلوم، بسط حقائقها بسطاً وأوضح غوامضها، وهذا مما يدل على غزارة علمه وعمق تفكيره، فمثلاً عند ذكره للطبيب الماهر يطالعنا بقوله: (... والطبيب الحاذق الذي يراعي في علاجه عشرين أمراً)[3]، ثم يذكرها بالتفصيل، كما يضع الضوابط الدقيقة لمهنة الطب وشروط النجاح فيها خلال كتابه «الطب النبوي»، ويرى المتأمل في تراثه أنه يجمع بين بسطة العلم، وحكمة التعنيم. وهذا شأن المعلم الناجح يجمع بين (العلم) الغزير، و(الطريقة) الصحيحة.

ولقد أثمرت جهود هذا المربِّي الفذ، وتخرج على يده عدد من كبار العلماء الذين خاضوا غمار العمل التربوي على المنهج الذي رباهم عليه، فألفوا الكتب، ونشروا العلم، وربَّوا النَّاس على منهج الله، رحمهم الله وأجزل لهم المثوبة[4].

فلا عجب إذاً أن يطالعنا بأفكاره التربوية النيرة التي نفيد منها في مجال

(١) صحيح رواه (تخ) عن ثوبان. (البزار) عن ابن عمر. من صحيح الجامع الصغير وزيادته. الألباني، ٣/١٥٢، رقم ٣٤١١.

(٢) روضة المحبين. ابن القيم ص ٣٠٨.

(٣) الطب النبوي. ابن القيم ص ١١٢.

(٤) انظر في الفصل الأول من هذه الرسالة مبحث «تلامذته».

التربية؛ لأنه خبير بذلك، ذو ممارسة عملية، فتجاربه التربوية التي ضمنها الكثير من كتبه، والتي نحمل اليوم على اقتناصها من مظانّها تفيد كل من يعمل في الحقل التربوي؛ لأنها من إنسان يعرف بالعلم وبالخبرة ماهية التربية وغايتها، ووسائلها، وثمارها، وعوائقها.

ومهمتنا في هذا الفصل أن نبرز المعالم لهذه التربية، عسى أن نفيد منها في مؤسساتنا التربوية. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

مفهوم التربية:

قبل الحديث عن مفهوم التربية في نظر ابن القيم يجدر بنا تعريف التربية في اللغة والاصطلاح.

ففي اللغة: (رَبَّ) الولدَ.. وليه وتعهَّده بما يغذِّيه وينميه ويؤدِّبه... (ورَبَّ القومَ): ترأسهم وساسهم، وفي حديث ابن عباس مع ابن الزبير: «لأن يربّني بنو عمي أحبُّ إليَّ من أن يربني غيرهم». (ورَبَّ) الشيء ملكه (ورَبَّ الشيء) جمعه. و(رَبَّ) النعمة ربًّا، وربَاباً، ورَبَابَةً: حفظها ونمّاها (ورَبَّ) الشيء: أصلحه ومتّنه ويقال: رَبَّ الأمر[1].

و(الرَبُّ): المالك. والسيد. والمُربي. والقيم. والمنعم. والمدبر. والمصلح[2].

ورَبَّ ولده والصبي يربه رباً وربيه تربيباً وتَرِبَّة عن اللحياني بمعنى ربَّاه.. وفي حديث ابن ذي يَزن:

* أسْدٌ تُرَبِّبُ في الغَيْضَاتِ أشبالاً *

أي تُرَبِّي وهو أبلغ منه ومن تَرُبُّ بالتكرير الذي فيه وتَرَبَّبَه وارتَبَّه وربَّاه تَرْبيةً ـ على تحويل التضعيف ـ، وتربَّاه ـ على تحويل التضعيف أيضاً ـ أحسن

(١) المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. مادة رَبَّ.

(٢) انظر المرجع السابق. مادة رَبَّ.

القيام عليه ووليه حتى يفارق الطفولية، كان ابنَه أو لم يكن . .) [١].

والصبي مربوب، وربيب وكذلك الفرس والمربوب المربَّى) [٢].

الربَّاني العالم المعلّم الذي يغذو النّاس بصغار العلم قبل كبارها [*][٣]، (والمراد بصغار العلم مـا وضح من مسائله وبكباره ما دقّ منها) [٤].

من هذه التعريفات يتضح أن التربية تعني: الإشراف على أمر الطفل وحسن القيام عليه وتعهده ورعايته بالغذاء وتوجيهه حتى يفارق الطفولة، كما تعني تعهد الناس وتوجيههم والتدرج معهم في التعليم والإشراف على أمورهم وسياستهم بما فيه مصلحتهم، وكذلك الاهتمام بالعلم وملاحظة شأنه وتنميته حتى يصل الإنسان فيه إلى شيء من الكمال الذي يستطيع به تعليم الناس والتدرج بهم من صغاره إلى كباره، ويستفاد أيضاً من هذه التعريفات أن التربية هي مسؤولية المربِّي والقيّم والمدبّر لأمر النّاس.

ونودّ أن نزداد علماً بالمعنى اللغوي لكلمة التربية بالرجوع إلى كتب التفسير. وقد جاء في بعض منها: (الرَبّ في الأصل مصدر بمعنى التربية؛ وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً . .) [٥] والـ (رَبّ له أربعة معان: الإلّه، والسيد، والمالك للشيء، والمصلح للأمر) [٦].

وجاء في تفسير (الرَبَّاني) ما يأتي: («ربانيين» جمع رَبَّاني وهو العالم،

---

(١) لسان العرب. ابن منظور. مادة ربب. بشيء من التصرف.

(٢) لسان العرب. ابن منظور. مادة ربب.

(*) هكذا. ولعله تصحيف، والصواب: «كباره».

(٣) لسان العرب. ابن منظور. مادة ربب.

(٤) فتح الباري. ابن حجر. رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه. محمد فؤاد عبد الباقي. وقام بإخراجه وأشرف على طبعه. محب الدين الخطيب. المكتبة السلفية ١/١٦١، ١٦٢.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل. البيضاوي. مكتبة الجمهورية المصرية ص ٣.

(٦) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي. ط ٢ سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م. دار الكتاب العربي - بيروت ١/٢٠.

وقيل الرَبّاني الذي يُرَبّي النّاس بصغار العلم قبل كباره)[1].

وهذا يعني أن التربية تهتم بشؤونِ الناشى، والتدرج معه شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى كماله اللائق به، أما التربية عند بعض الكتاب المحدَثين فلا تخرج عن المعنى اللغوي لها، فهي العنايةبتنمية المربَّى وتنشئته وتولي أمره ورعايته حتى ينمو ويترعرع ويبلغ كماله الذي يبلغه أمثاله في جميع الجوانب: الجسمية والروحية والفكرية والإرادية وغير ذلك... (... هي جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنساني في كائن إنساني آخر، وفي الغالب راشد في صغير، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن نكون لدى الكائن الصغير استعدادات منوعة تقابل الغايات التي يعدّ لها حين يبلغ طور النضج)[2]، و (تحرص على المحافظة على فطرة الناشيء ورعايتها وتنمية مواهبه واستعداداته كلها)[3].

بعد هذا التعريف للتربية يأتي دور عرض فكر ابن القيم التربوي لنرى إلى أي مدى يتطابق تعريفه للتربية مع ما ذكر أو يخالفه.

ولقد أشار رحمه الله في معرض ذكره تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لمعنى كلمة (الرَبّاني) إلى معنى التربية، فقال: (... أخذه من التربية أي يربي الناس بالعلم؛ ويربيهم به كما يربي الطفل أبوه..)[4]، ثم أورد قول المبرد: (... الرباني الذي يربي العلم، ويربي الناس به، أي يعلمهم ويصلحهم)[5]. ثم علق عليه بقوله: (... الرباني من ربَّ يربُّ رباً أي يربيه، فهو منسوب إلى التربية، يربي علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعهده

---

(١) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي. ط ٢. سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م. دار الكتاب العربي. بيروت ١/١١١.

(٢) التربية العامة. رونيه أوبير. ترجمة عبدالله عبد الدائم ط ٤ سنة ١٩٧٩ م دار العلم للملايين بيروت ص ٢٧.

(٣) مدخل الى التربية في ضوء الاسلام. عبد الرحمن الباني، ص ١٢، ١٣.

(٤) المفتاح. ابن القيم ١/١٢٥.

(٥) المرجع السابق. ١/١٢٦.

إيّاه، كما يـربي صاحب المـال مالـه، ويربي النّاس به كمـا يربي الأطفـالَ، أولياؤهم)[1].

نـلاحظ من تعـريف ابن القيم للتـربيـة أنـه لم يخـرج بـه عن التعـريف اللغوي، والتعريف الاصـطلاحي عند بعض التـربويين، كيف لا وهـو المربِّي الذي يعرف ما التربية، وكيف تمارس؟

والتربية عنده تشمل تربية القلب، وتـربية البـدن معاً ثم بين كيف يـربى كل من القلب والبدن فقـال رحمه الله: (... وكـل من القلب والبدن محتـاج إلى أن يتربى، فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح. فكما أن البـدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له. والحمية عمـا يضره، فـلا ينمو إلّا بـإعطائـه ما ينفعـه ومنع مـا يضره. فكـذلك القلب لا يـزكو ولا ينمـو ولا يتم صـلاحـه إلا بـذلك، ولا سبيـل له إلى الـوصول إلى ذلـك إلّا من القرآن. وإن وصـل إلى شيء منه من غيره فهو شيء يسير، لا يحصل له به تمام المقصود)[2].

ونستفيـد من تعريفـه للتربيـة أنها تتنـاول معنيين: أحـدهمـا يتعلق بعلم المـربِّي حيث يشرف على علمـه فيكمّله وينّميه ويصـونه ويتعهـده، كما يـربّي صاحب المال ماله. والثانـي تربيـة الناس بهـذا العلم والتدرج بهم كمـا يربي الأطفال أولياؤهم.

أما المعنى الأول: فيزيده وضوحاً بذكر مراتب العلم؛ فـأول مراتب العلم عنـده سماعـه، وثانيهـا عقله وفهمه، وثـالثهـا تعـاهـده وحفـظه حتى لا يُنسى فيذهب، ورابعها تبليغه وبثه ونشره بين الناس، يقول رحمه الله موضِّحاً ذلك: (... فإن النبي ﷺ دعا[3] لمن سمع كلامه ووعاه وحفـظه وبلَّغه، وهـذه هي

---

(1) المفتاح. ابن القيم ١٢٦/١.

(2) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان. ابن القيم ٤٦/١.

(3) يشير إلى الحديث الذي جاء فيه: «نضّر الله أمرأ سمع مقالتي فوعاها، وحفظها، ثم أداهـا إلى من لم يسمعها». وهو حديث صحيح رواه (حم، هـ، ك) عن جبيـر بن مطعم. (د، هـ) عن زيد بن ثابت. (ت، هـ) عن ابن مسعود، من صحيح الجامع، مرجع سابق، ٣٠/٦، رقم الحـديث ٦٦٤٢.

مراتب العلم، أولها وثانيها سماعه وعقله، فإذا سمعه وعاه بقلبه، أي عقله واستقر في قلبه، كما يستقر الشيء الذي يُوعَى في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدّابّة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب. . . المرتبة الثالثة تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب، والمرتبة الرابعة تبليغه وبثه في الأمة، ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثه في الأمة. .)[1](*).

وابن القيم يؤكد أمر نشر العلم، ويرى أن نشره وبثّه بين الناس عامل قوي في زيادته وحفظه وصونه وعدم ذهابه، وأن كتمانه أقوى عامل في ضياعه، لذا فهو يشبهه بالكنز المدفون، فيقول: (. . . فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا ينفق منه، وهو معرض لذهابه؛ فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلّم فإنه يوشك أن يذهب، فإن أُنفق منه نما وزكا على الإنفاق)[2].

وابن القيم لشدة تحذيره من ضياع العلم وذهابه يبين الوجوه التي يُحرم بها الرجل العلم. فيقول: (. . . والمقصود بيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة: أحدها. ترك السؤال. الثاني: سوء الإنصات، وعدم إلقاء السمع. الثالث: سوء الفهم. الرابع: عدم الحفظ. الخامس: عدم نشره وتعليمه فإن من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه، جزاء من جنس عمله وهذا يشهد به الحس والوجود. السادس: عدم العمل به؛ فإن العمل يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه، فإذا أهمل العمل به نسيه. قال بعض السلف: كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به. وقال بعض

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٧١، ٧٢.

(*) وهذا التصنيف لمراتب العلم سبق من ابن القيم رحمه الله سبق به العلماء المعاصرين الذين ألفوا في تصنيف الأهداف التعليمية كتصنيف (بلوم) (Bloom)، الذي جعل مستويات المعرفة هي: تذكر المعلومات. الفهم، التطبيق، التحليل، التركيب، التقويم، انظر كتاب: الأهداف التعليمية تحديدها السلوكي وتطبيقاته تأليف نورمان جرونلند، ترجمة الدكتور أحمد خيري كاظم، دار النهضة العربية، القاهرة ص ٤٥.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٧٢.

السلف أيضاً: العلم يهتف بالعمل فإن أجابة حل وإلاّ ارتحل. فالعمل بـه من أعظم أسباب حفظه وثباته، وترك العمل به إضاعة لـه. فما استـدر العلم، ولا استجلب بمثل العمل..)[1].

وابن القيم يـرشد إلى الـطريقة المثلى في زيـادة العلم وحفظه وصـونـه ونمائه، ويحث العالم على بذل علمه للناس فيقـول: (... العالم كلمـا بذل علمـه للناس وأنفق منـه تفجرت ينـابيعه فـازداد كثرة وقـوة وظهـوراً. فيكتسب بتعليمـه حفظ ما علمـه، ويحصل لـه به علم مـا لم يكن عنده، وربمـا تكـون المسألة في نفسـه غير مكشـوفة ولا خـارجة من حيـز الإشكال، فـإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضاءت وانفتح له منها علوم أخر)[2].

والعـالم يخـرج النـاس بعلمـه من جهـالتهم إلى نـور العلم والمعــرفـة والهـدى، لذا جـازاه الله من جنس عمله كمـا يقـول ابن القيم بـأن علمـه من جهالته: (... فـإن الجزاء من جنس العمـل، فكما علم الخلق من جهـالتهم جازاه الله بأن علمه من جهالته. كما في صحيـح مسلم من حديث عيـاض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قـال في حديث طـويل: «وإن الله قـال لي: أنفق أنفق عليك» وهذا يتناول نفقة العلم إما بلفظه وإما بتنبيهه وإشارته وفحواه)[3].

ولقد أوضح رحمه الله الطرق التي يكون بها زكاء العلم ونماؤه، فقـال: (... ولزكاء العلم ونحوه طريقان: أحدهما تعليمه. والثاني: العمل بـه، فإن العمل به أيضاً ينميه ويكثّره، ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه)[4].

ويشبـه ابن القيم العلم بـالعين التي إذا أُخـذ منهـا قـوي نبعهـا وجـاش معينها. يقول رحمه الله: (.. يزيد العلم بالاقتباس منه فهو كالعين التي كلمـا أخذ منها قوي ينبوعها وجاش معينها)[5].

---

(١) المفتاح، ابن القيم، ١/١٧٢.

(٢) المرجع السابق ١/١٢٨.

(٣) المرجع السابق ١/١٢٨.

(٤) المرجع السابق ١/١٢٨.

(٥) المرجع السابق ١/١٢٩.

ووصل الأمر بابن القيم إلى أن عدَّ تعلم العلم وتعليمه جهاداً في سبيل الله، فقال: (... فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل)[1]، وهو لا يكتفي بذكر ما سبق في تعلم العلم والمحافظة عليه بل يبين الطريقة المثلى في التعلم والتعليم، ويذكر أهمية تعلم اللفظ لتعلم المعنى، لأن المعنى في نظره هو الغاية وتعلم اللفظ هو الوسيلة لهذه الغاية، وفرق بين الغايات والوسائل، ذكر هذا في معرض حديثه عن تعلم القرآن وتعليمه، فقال رحمه الله: (وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها، وتعلم معانيه وتعليمها وهو أشرف قسمي علمه وتعليمه، فإن المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فتعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعلميها، وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها، وبينهما كما بين الغايات والوسائل)[2].

أما المعنى الثاني: وهو تربية الناس بهذا العلم فيزيده وضوحاً؛ بكونه يرى أن من حق الأمة على أهل العلم تربيتهم وتعليمهم؛ وذلك بالتدرج بهم من صغار العلم إلى كباره، ومراعاة ما بينهم من فروق فردية، وعدم تحميلهم من العلم ما لا تدركه عقولهم ولا تستطيع استيعابه، ذكر هذا في معرض شرحه لحديث: «العلماء ورثة الأنبياء»[3]، فقال: (... وفيه [يعني في الحديث من الفوائد والتوجيه][4] أيضاً تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربّي الوالد ولده، فيربونهم بالتدرج والترقي من صغار العلم إلى كباره، وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل في إيصال الغذاء إليه)[5]، وهذا المفهوم الدقيق لمعنى التربية لدى هذا المربِّي سبق له في مجال التربية يقدَّر له ويشكر عليه.

---

(١) المفتاح، ابن القيم، ٧١/١.

(٢) المرجع السابق، ٧٤/١.

(٣) رواه ابن ماجه، في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢٣، ١٨١/١.

(٤) زيادة للايضاح.

(٥) المفتاح. ابن القيم ٦٦/١.

مسـؤولية التربية:

يـرى ابن القيم أن مسؤوليـة التـربيـة تقـع على الآبـاء والمـربّين لا سيما إذا كان الناشىء في أول مراحل نموه، فإنه في أمسّ الحـاجة إلى تقـويم أخلاقه وتوجيه سلوكه، وهو بمفرده لا يستطيع القيام بـذلك، فـالمسؤولية على ولي أمـره، يقول رحمـه الله: (. . . ومما يحتـاج إليه الـطفل غـايـة الاحتيـاج الاعتنـاء بأمـر خلقه، فـإنـه ينشـأ على مـا عـوّده المـربِّي في صغـره من حـرد وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك. وتـصير هذه الأخلاق صفـات وهيئات راسخـة، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته ولا بدّ يوماً ما، ولهذا تجد أكثـر الناس منحـرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التي نشأ(*) عليها)[1].

فـابن القيم يبين أن للتـربيـة أهميـة قصـوى في تهـذيب الخلق وتقـويم السلوك، كما يوضح أن التربية السليمة هي التي تجعل للتدريب والتعويد شأناً في رسوخ الصفات الطيبة.

وفي هذا القول أيضاً يحمّل ابن القيم التربية مسؤولية انحراف الأخـلاق والسلوك.

والسعـادة في نظر ابن القيم لا تكـون إلا بالتـربية الخلقيـة الفاضلة لـذا يحـذر ولي أمره من تمكينـه من الأخلاق السيئـة ويحثـه على أن: (. . يجنبـه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السمّ الناقع)[2] ويزيد الأمـر وضوحـاً بقولـه: (. . فإنه متى سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعـادة الدنيـا والآخرة وحرمه كل خير)[3].

ومن توجيهاته التربوية للآباء ما أوصى به ولي أمر الطفـل بقولـه: (. . .

(*) هكذا. ولعله تصحيف، والصواب «نشؤوا» والله أعلم.

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤١.

أن يجنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والباطل والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر وعزّ على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور يحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية. والخروج عن حكم الطبيعة عسر جداً)[1].

والقدوة في نظر ابن القيم وسيلة مهمة من وسائل التربية لذا فهو يحذر الآباء من التفريط في حقوق الله وإضاعتها والتهاون بها؛ لأن ضرر ذلك يظهر على الناشئة ويحرمهم كل خير كما يحذر الآباء والمربين من التهاون والتغافل عن ملاحظة الناشئة وتربيتهم، فهو يقول: (.. فما أفسد الأبناء مثل تغفل الآباء وإهمالهم واستسهالهم شرر النّار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمد العدو شديد العداوة مع عدوه وهم لا يشعرون فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرّضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها، وإعراضهم عمّا أوجب الله عليهم من العلم النافع والعمل الصالح مما حرمهم الانتفاع بأولادهم. وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم)[2]. فابن القيم يرى أن مسؤولية التربية تقع على الأب وولي الأمر والقيّم على أمر الطفل والمدبّر لشؤونه، هذا فيما يتعلق بالتربية الفردية..

أما بالنسب لتربية الأمة عامة فالمسؤولية على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فهم المربّون الحقيقيون في نظر ابن القيم، يقول رحمه الله: (.. فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم بل دون هذه النسبة بكثير..)[3] بل إن ابن القيّم يرى أن الروح التي لا يربيها هؤلاء المربون لا خير ولا صلاح فيها. يقول رحمه الله: (... كل روح لم تربّها الرسل، لم تفلح. ولم تصلح لصالحة)[4]. والورثة الذين يقومون بهذه

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) المفتاح. ابن القيم ١/٦٦.

(٤) المرجع السابق ١/٦٦.

المسؤولية بعد الأنبياء والرسل. هم العلماء وأهل العلم، ذكر ابن القيم حديث «العلماء ورثة الأنبياء» وعلق عليه بقوله: (. . . وفيه أيضاً تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربي الوالد ولده)[1].

غاية التربية وأهدافها:

غاية التربية عند ابن القيم المحافظة على الفطرة وحمايتها من الانحراف، وتحقيق معنى العبودية لله عزوجل، لأن الله سبحانه وتعالى كما يقول ابن القيم: (. . خلق الخلق لعبادته وهي الغاية منهم)[2]، وفي هذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[3]، وهذه الغاية محبوبة لله سبحانه وتعالى لذلك أمر بها وجعلها الغاية من خلقه للجنّ والإنس، يقول رحمه الله: (. . . إنما خلق الخلق لأجل محبوبه ومأموره وهو عبادته وحده)[4]، وإن كل ما سنذكره من أقواله بعد هذا من أهداف التربية ووسائلها وجوانبها هو لخدمة هذه الغاية الشريفة، وتعبيد هذا الإنسان لخالقه الحق سبحانه وتعالى.

ومن أهداف التربية عند هذا المربِّي غرس الأخلاق الفاضلة، ومحاربة الأخلاق السيئة، وتحقيق السعادة للنلشىء، وملاحظته أثناء الكلام وعند النوم، ومخالطة الناس وتوجيهه في ذلك، وملاحظة لباسه وعدم تمكينه من لبس ما يحرم، وتنمية مواهبه وتوجيهها، والاهتمام بالتربية الدينية واعتبارها تربية أساسية لا يعفى منها أيّ مسلم، فهو يرى أنها تسير،جنباً إلى جنب مع التربية المهنية، ذكر ذلك في معرض حديثه عن التوجيه المسلكي للطفل، فقال مخاطباً وليه ومربيه: (. . . وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع مستعداً لها، قابلاً لها وهي صنعة

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٦٦.

(٢) المرجع السابق ١/٥.

(٣) سورة الذاريات/٥٦.

(٤) عدة الصابرين. ابن القيم ص ٥

مباحة نافعة للناس، فليمكنه منهـا، هذا كله بعـد تعليمه لـه ما يحتـاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسر على كل أحد، لتقوم حجة الله على العبـد، فإن لـه على عباده الحجةَ البالغةَ كما له عليهم النعمة السابغةُ)[1].

وبالإمكان تصنيف الأهداف التربوية إلى:

١ ـ أهداف جسمية:

للحفاظ على صحة الطفل يوصي ابن القيم أن يكون رضاع المولـود في الأيـام الأُول من الولادة من غيـر أمه، لأن اللبن في اليـومين الأولين أو الثلاثـة الأيام الأُول به من الغلظ والأخلاط ما فيه مضرة عليه، يقول رحمـه الله: (.. ينبغي أن يكـون رضاع المـولود من غيـر أمه بعـد وضعه يـومين أو ثلاثـة وهـو الأجـود لما في لبنهـا ذلك الـوقت من الغِلَظِ والأخـلاط، بخـلاف لبن من قـد استقلت عن الـرضاع)[2]، إن هـذا الـرأي فيـه نـظر؛ لأن لبن الأم في الأيـام الأُول ضروري للطفل وهو ما يسمى باللبأ، ولا غنى له عنه ولا بـديل لـه، بل يكون على الأمّ وجوب إرضـاعه في هـذه الفترة حتى مـع وجود الخـلاف بينها وبين أبيه، هذا ما نص عليه المـذهب الشافعي، فقـد ورد فيه أن الأمّ: (... إذا ولـدت ولـداً وجب عليهـا أن تسقيـه اللبـأ حتى يـروى؛ لأنـه لا يعيش إلا بذلك)[3].

ويوصي ابن القيم رحمه الله بعـدم حمل الأطفـال، والسير والـطواف بهم قبـل ثلاثـة أشهـر لأن أجسـامهم ضعيفـة في هـذه الفتـرة، يقـول رحمـه الله: (وينبغي أن يمنع حملهم والطواف بهم حتى يـأتي عليهم ثلاثـة أشهر فصـاعداً لقـرب عهدهم ببـطون الأمهات، وضعف أبـدانهم)[4]، ولا زالت التوجيهـات التربوية تترى من هذا المربِّي فيما يتعلق بتربية البدن والاهتمام بغذائـه، ففيما

(١) تحفة المودود، ابن القيم، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(٣) تكملة المجموع شرح المهذب. محمد نجيب المطيعي. المكتبة السلفية ٣١٢/١٨.

(٤) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٣٠.

يتعلق بتغذية الأطفال يوصي رحمه الله بقصر غذائهم على اللبن حتى نبات الأسنان، يقول: (... وينبغي أن يقتصر بهم على اللبن وحده إلى نبات أسنانهم لضعف معدتهم وقوتهم الهاضمة عن الطعام)[1]، وبعد نبات الأسنان يوصي رحمه الله في تدبير أمر غذائهم أن يطعموا الغذاء اللين فيقول: (... وينبغي تدريجهم في الغذاء فأول ما يطعمونهم الغذاء اللين... ثم بعد ذلك الطبيخ، والأمراق الخالية من اللحم، ثم بعد ذلك ما لطف جداً من اللحم بعد إحكام مضغه، أو رضّه رضّاً ناعماً)[2].

ويوصي أيضاً أن لا يهمل أمر قماطه[3] ويبيّن الفوائد التي تعود على جسم الطفل فيقول: (... وينبغي أن لا يهمل أمر قماطه ورباطه ولو شقّ عليه إلى أن يصلب بدنه وتقوى أعضاؤه ويجلس على الأرض فحينئذ يمرّن ويدرّب على الحركة والقيام قليلاً قليلاً إلى أن يصير له ملكة وقوة يفعل ذلك بنفسه)[4].

ومن أهداف التربية الجسمية رعاية الطفل بملاحظته أثناء الأكل والشرب فيوصي ابن القيم بعدم تمكين الأطفال من الإكثار من الطعام والشراب، ويوصي: (... أن يعطوا دون شبعهم ليجود هضمهم وتعتدل أخلاطهم، وتقل الفضول في أبدانهم وتصح أجسادهم وتقل أمراضهم لقلة الفضلات في المواد الغذائية)[5] إلى غير ذلك من أهداف التربية الجسمية عند إبن القيم رحمه الله.

٢ ـ أهداف أخلاقية:

يرى ابن القيم أن السعادة تكون في الاتصاف بالأخلاق الفاضلة والبعد

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٣٠.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣١.
(٣) القماط بالكسر حبل يشد به قواء الشاه عند الذبح، وكذا ما يشد به الصبي في المهد. مختار الصحاح. الرازي. مادة قمط.
(٤) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٣٢.
(٥) المرجع السابق ص ٢٣٦.

عن الأخلاق السيئة، فهو يحذر من تمكين المربِّي من الخيانة والكذب، لأن ذلك يفسد عليه السعادة، فيقول مخاطباً ولي أمره ومربيه: (. . . فإنه متى سهّل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة وحرمه كل خير)[1]، وهو يرى رحمه الله شدة حاجة المربَّى إلى الأخلاق الفاضلة ويطالب المسؤولين عن التربية بالاعتناء بأمر الخلق عند الناشىء. فيقول: (. . . ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه)[2]، ومن اهتمام ابن القيم بأمر الأخلاق تحذيره المربِّي من تمكين الطفل من مخالطة من لا يعلم حاله من الناس، وردعه عن الثرثرة في الكلام والشره في الأكل والطعام فيقول رحمه الله:) (. . . ويجنبه فضول الطعام والكلام والمنام ومخالطة الأنام؛ فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوت عليه خير دنياه وآخرته)[3].

ويوصي رحمه الله بإبعاد الطفل عن ميوعة الطبع وانحلال الخلق والتشبه بالنساء، فيقول رحمه الله مصدراً توجيهاته التربوية للآباء والمربين: (. . . ويجنبه لبس الحرير، فإنه مفسد له ومخنث لطبيعته، كما يجنبه اللواط وشرب الخمر والسرقة والكذب)[4].

٣ ـ أهداف فكرية:

وتهدف التربية عند ابن القيم إلى المحافظة على فكر المربَّى وعقله، فهو يحذر رحمه الله المربِّي من تمكين الطفل مما يضر بنعمة العقل فيقول: (. . . والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، أو عشرة من يخشى فساده أو كلامه أو الأخذ في يده فإن ذلك الهلاك كله، ومتى سهل عليه ذلك فقد استسهل الدياثة، ولا يدخل الجنة ديّوث)[5].

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم، ص ٢٤١.
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠.
(٣) المرجع السابق ص ٢٤١، ٢٤٢.
(٤) المرجع السابق ص ٢٤٣.
(٥) المرجع السابق ص ٢٤٢.

٤ ـ أهداف مسلكية:

تهدف التربية عند هذا المربِّي إلى كشف القدرات والمهارات لدى المربَّى وتوجيهها الوجهة الصحيحة التي تحقق مصلحته ومصلحة الأمة؛ فهو رحمه الله يقول مخاطباً الآباء والمربين: (... ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعدّ له من الأعمال ومهيّأ له منها..، فإذا رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعياً فهذه من علامات قبوله وتهيئه للعلم، لينقش في لوح قلبه ما دام خالياً، فإنه يتمكن فيه، ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كلّ وجه وهو مستعدّ للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح وأنه لانفاذ له في العلم ولم يخلق له مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وأن رآه بخلاف ذلك وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع مستعداً لها، قابلاً لها، وهي صنعة مباحة نافعة للنّاس فليمكنه منها، هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسر على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة)[1]، هذا أصل من الأصول الهامة في التوجيه المسلكي الذي أصبح فرعاً قائماً بذاته أو تخصصاً مستقلاً له أسسه وأساليبه ومقاييسه واختباراته؛ ولابن القيم فضل الاهتمام والسبق في هذا الاتجاه.

توجيهات ووصايا تربوية:

لابن القيم رحمه الله توجيهات ووصايا هامة يوجهها إلى كل من المربِّي وطالب العلم منها:

١ ـ وصيته لطالب العلم ببذل الوسع والاستمرار في الطلب والتحصيل مدى الحياة، فيستشهد على ذلك بأقوال مأثورة لبعض السلف منها ما قاله بعضهم: (إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا بورك لي في

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٣، ٢٤٤.

شمس ذلك اليوم[1]. . . وفي مثله قال القائل:

إذا مـر يـوم ولـم استـفـد هـدىً ولم أكتسب علماً فما ذلك[2] من عمري

ومنها ما رواه عبدالله بن المبارك عندما سئل فقيل له: (إلى متى تسمع الحديث؟ قال: إلى الموت)، وقال أحمد رحمه الله عن نفسه: (إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر)، وما قاله عبدالله بن بشر الطالقاني: (أرجو أن يأتيني أمر اي[3] والمحبرة بين يدي، ولم يفارقني العلم والمحبرة)، ومنها قول بعض العلماء وقد سئل: (. . متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟) قال: (ما حسنت به الحياة)[4].

٢ ـ حثه على النهم الشديد في طلب العلم، وعدم الشبع منه، وقد جعل هذا من علامات الإيمان واستشهد بحديث جاء فيه: «لن يشبعَ المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة»[5]، ثم شرحه بقوله: (. . . النهمة في العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان، وأوصاف المؤمنين. . .)[6]، ثم علق عليه بقوله: (. . . وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنّة)[7].

٣ ـ أن يكون دائم الحرص على الاستفادة من غيره ساعياً في طلب

---

(١) يقول ابن القيم: (وقد رفع هذا إلى رسول الله ﷺ، ورفعه إليه باطل، وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين. ويقول عنه الشيخ الألباني: (ورد هذا النص مرفوعاً في المعجم الأوسط للطبراني، وفي الكامل لابن عدي، والحلية لأبي نعيم وهو موضوع، ضعيف الجامع الصغير وزيادته. . رقم ٢٨٥، ١/١٢٥.

(٢) هكذا ولعله تصحيف. والصواب: «ذاك» والله أعلم.

(٣) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب: «ربي» والله أعلم.

(٤) انظر المفتاح. ابن القيم ١/٧٤.

(٥) ضعيف. رواه (ت، حب) عن أبي سعيد، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، الألباني، رقم الحديث ٤٧٨٦/٥/٣٧.

(٦) المفتاح، ابن القيم، ١/٧٤.

(٧) المرجع السابق، ١/٧٤.

العلم وتحصيله؛ لأنه يرى أن الرجل يكون عالماً ما طلب العلم فإذا قال: أنا عالم فقد جهل، وذكر في هذا ما نقله عن الإمام أحمد رحمه الله عن لقمان، فقد سأله رجل: (... أي النّاس أعلم؟ قال: الذي يأخذ من علم الناس إلى علمه)[1].

٤ ـ يوصي طالب العلم الذي يرجو أن ينال شيئاً منه، بحبه للعلم، وخوفه من فواته، وسعيه في تحصيله، فقال: (... ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور، أحدها محبة ما يرجوه، والثاني خوفه من فواته، والثالث سعيه في تحصيله بحسب الإمكان، وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر...)[2]، وإن كان هذا توجيهاً عاماً إلا أنه يفيد طالب العلم؛ لأنه من أحب العلم فخاف أن ينصرم العمر ويفني الشباب ولا يتحصل شيء منه، وسعى في الطلب وبذل الوسع في التحصيل، وصل إلى ما يرجو من كسب العلم بإذن الله وتوفيقه، أما من اقتصر على الأماني الكاذبة ومخادعه النفس فإنه لن يصل فيه إلى شيء.

٥ ـ كما يوصي المربِّي أن يكون قدوة صالحة، يربي بلسان حاله قبل لسان مقاله، ويحذر من التفريط في حقوق الله يقول رحمه الله: (فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء بحقوق الله، وإضاعتهم لها، وإعراضهم عما أوجب الله عليهم)[3].

٦ ـ يوصي بتعويد المربَّى على ممارسة بعض أنواع العبادة كقيام الليل، فيقول: (... ويعوده الانتباه آخر الليل، فإنه وقت قسم الغنائم)[4]، ويوصي

---

(١) المفتاح. ابن القيم، ١/١٢٥.

(٢) الجواب الكافي. ابن القيم ص ٢٤.

(٣) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٢.

(٤) المرجع السابق ص ٢٤١.

أيضاً في تربية الناشىء تربية خلقية بتعويده على الأخلاق الفاضلة(فإنه ينشأ على ما عوده المربِّي في صغره)[1]، كما يحذر من تعويده على الأخلاق السيئة فيقول: (وينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب، فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة)[2]، وفي مقابل ذلك يحث على تكوين خلق البذل والعطاء، فينصح المربِّي أن يضع الصدقة أو الهبة في يد المربَّى ليتولى الطفل دفعها للفقير، تعويداً له على البذل فيقول: (. . . ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئاً أعطاه إيّاه على يده ليذوق حلاوة الإعطاء)[3].

٧ ـ يوصي المربِّي بأن يقي الناشىء من الأخلاق الذميمة كالكذب والخيانة، فيقول: (. . . ويجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السمّ الناقع)[4]، ويوصي أيضاً بحماية الناشىء من البطالة والكسل، وأخذه بعزائم الأمور فيقول: (. . . ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذه بأضدادها)[5].

٨ ـ ومن وصاياه أيضاً حماية فطرة الناشىء من كل ما يسيء إليها أو ينحرف بها عن الطريق السوي، وذلك: (. . . أن يجتنب الصبي، إذا عقل مجالس اللهو والباطل والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر)[6].

٩ ـ ومن وصاياه الملاحظة المستمرة والتوجيه الدائم للناشىء في مأكله ومشربه ونومه ولباسه، فـ (. . . يجنبه فضول الطعام والكلام. . . ويجنبه لبس الحرير، فإنه مفسد له ومخنث لطبيعته)[7].

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٠.
(٢) المرجع السابق ص ٢٤١.
(٣) المرجع السابق ص ٢٤١.
(٤) المرجع السابق ص ٢٤١.
(٥) المرجع السابق ص ٢٤١.
(٦) المرجع السابق ص ٢٤٠.
(٧) المرجع السابق ص ٢٤١ إلى ٢٤٣.

١٠ - ويوصي بعدم تمكين الناشىء من تعاطي ما يضر بصحته الجسمية والعقلية، وعدم السماح له بمعاشرة قرناء الشر والفتنة، يقول رحمه الله: (... والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره، أو عشرة من يخشى فساده أو كلامه له أو الأخذ في يده فإن ذلك الهلاك كله)[١].

العبادات وآثارها التربوية:

لقد مر بنا أن العبودية لله هي الغاية السامية التي تسعى التربية إلى تحقيقها؛ والمقصود بالعبودية هنا كل نشاط يقوم به الإنسان قربة إلى الله، وفي مقدمة ذلك الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وغير ذلك، فـ (ليست العبادة مجرد انزواء عن الحياة وعكوف على المساجد، وإنما شرعت العبادة في الإسلام لتكون محققة للعقيدة وثمرة سلوكية عملية لها، ولما كانت العقيدة الإسلامية تشمل الكون والحياة والإنسان، فإن العبادة تشمل كل جوانب الحياة)[٢].

وإننا في هذا المبحث سنبين الآثار التربوية للشعائر التعبدية، فدراسة الشعائر التعبدية تكون في أحد جانبين:

الجانب الأول: دراستها من الجانب الفقهي؛ بمعرفة واجباتها وأركانها وسننها وشروطها ومبطلاتها وما إلى ذلك، بغض النظر عن آثارها التربوية. وهذه الدراسة بهذه الكيفية، ذات أهمية لا شك، ولكن لا يقل أهمية عن ذلك دراسة آثارها في السلوك الإنساني وما تتركه من إصلاح للأنفس والأرواح والعقول والأبدان وهذا ما سنبينه فيما يأتي.

الجانب الثاني: هو الجانب التربوي لهذه الشعائر؛ إن هذه الشعائر إذا أُديت على الوجه المطلوب فإنها تثمر ثمرات، منها طمأنينة النفس وسلامة الروح

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٢.

(٢) التربية الاسلامية والمشكلات المعاصرة. عبد الرحمن النحلاوي. المكتب الإسلامي بيروت ط ١، سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ص ٤٢.

واستقـرار القلب، وهذا مـا يجعل العبـد يشعـر بـالسعـادة القصـوى، ويجعـل المجتمع يعيش حياة الاستقـرار والأمن: (والحق أن دروس العبادات يجب أن تكون الغايـة منها غـاية تـربويـة قبل كـل شيء)[1] وعلى المربي معـرفة قيمـة العبادة وأنها: (ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشىء عن استشعار القلب عظمة المعبود. . .).

وأنها (. . . الناحيـة العملية للعقيـدة، فإذا كـانت العقيدة قـوية راسخـة كانت العبادة صادرة عن قلب مخلص، وعقل واع وإيمـان عميق. . وإذا زكت النفس وسمت وتعمق الإيمان فيها واقتربت من الفضيلة فاضت بالخير على من حولها. .) وعلى المربي أيضاً أن يعي: (. . . أن كل عبادة شـرعها الله إن لم تؤد إلى نتائج عملية وثمرات اجتماعية واهتمـام بخدمـة الأمة التي يعيش فيهـا الفـرد. . . فهي عبادة بتـراء لم تفهم على وجههـا الصحيـح)[2]، فمـا أحـوج المسلم إلى عبـادة تحقق مقتضاهـا فتغرس في نفســه بذور الخيـر وتحيي قلبـه بذكر الله وتنمي فكـره بالنـظر في ملكوتـه سبحانـه وتعالى وتجعـل لسانـه رطباً بذكره، لذا اقتضت حكمة الله ورحمته تشريع أنواع من العبـادات لتحقيق هذه المعاني الفاضلة وبناء الأخلاق على دعـامة قـوية من الإيمـان، فمـن الحـكم التي شـرعت لها العبـادات التأكيـد على بعض الأخلاق مثـل: (. . . المروءة والنجدة والبذل والتضحية والاهتمام بالأمة والجهـاد في سبيلها)[3]، وإذا كـان الإنسان هو مجموع الروح والعقل والبدن كمـا ذكر ابن القيم فيمـا مضى، فهو بحـاجة إلى نـوع من التربيـة يلبي احتياجـات كل عنصـر من عنـاصـر تكـوين شخصيته حتى يتحقق التوازن في حياته ويعيش متكـامل الشخصية. فالعبـادات تحقق هذه الغاية وتعطي كل عنصر من هذه العناصر ما يحتاجه من تربيـة وبناء وتكامل، فـالصلاة مثـلاً تنمي الجانب الـروحي لهذا الإنسـان لأنه في صـلاته

(١) لمحات في وسائل التربية الإسلاميـة وغايتهـا د / محمد أمين المصـري ط ٣ سنة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م. دار الفكر - بيروت ص ٢٣١.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٥،

يناجي ربه ويدعوه ويتضرع إليه ويشعر أنه ماثل بين يديه. وما فيها من حركات وقيام وركوع وسجود يمد جسمه بالتدريبات الرياضية اللازمة. وما فيها من تفكير وتدبر يغذي انعقل وينمي الفكر لهذا الإسان، وما قيل عن الصلاة يقال عن الزكاة والصوم والحج وغير ذلك، إن العبادات التي يمارسها الإنسان تقوم بتنظيم حياته (. . . اليومية «بالصلاة»، وحياته الغذائية السنوية «بالصوم»، وحياة المجتمع الاقتصادية المتكافلة «بالزكاة»، كما تقوم بتنظيم وإحياء وحدة المجتمع الإسلامي الكبير والروابط والمشاعر الاجتماعية للأمة الإسلامية كلها في شتى أصقاع الأرض «بالحج»)[1].

(كما تعين العبد على الوعي الفكري الدائم، وربطه بالجماعة المسلمة وتربيته على العزة والكرامة، فهم يخضعون لرب واحد، ويناجونه وحده سبحانه وتربي فيه مبدأ الشورى والتعاون والمساواة، وتربي فيه قدراً من الفضائل الثابتة التي لا تتغير بتغير الأحوال والظروف، وتزوده بشحنات متتالية من القوة المستمدة من قوة الله عز وجل)[2].

إن ما أوضحه الباحثون التربويون من المسلمين بشأن العبادات وآثارها التربوية الهامة ذكره ابن القيم عند تعرضه لمحاسن الشريعة الإسلامية.

١ ـ فقال عن الوضوء الذي يعتبر شرطاً من شروط الصلاة: (. . . فتأمل محاسن الوضوء بين يدي الصلاة وما تضمنه من النظافة والنزاهة، ومجانبة الأوساخ والمستقذرات، وتأمل كيف وضع على الأعضاء الأربعة التي هي آلة البطش والمشي ومجمع الحواس التي تعلق أكثر الذنوب والخطايا بها، ولهذا خصها النبي ﷺ بالذكر في قوله: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فالعين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها الاستماع واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع. عبد الرحمن النحلاوي. ط ١ سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م دار الفكر دمشق ص ٥٠.

(٢) انظر أصول التربية الإسلامية. عبد الرحمن النحلاوي. ص ٥١ ـ ٥٥.

يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»(*) فلما كانت هذه الأعضاء هي أكثر الأعضاء مباشرة للمعاصي، كان وسخ الذنوب ألصق بها وأعلق من غيرها فشرع أحكم الحاكمين الوضوء عليها ليتضمن نظافتها وطهارتها من الأوساخ الحسية وأوساخ الذنوب والمعاصي)[1]، فما أحوج الإنسان إلى نظافة بدنه من الأدران والأوساخ والقاذورات لتبقى له صحته ويتمتع بالقوة، وما أحوجه إلى الطهارة المعنوية التي تجعله طاهر القلب نقي الروح، وبتحقق الطهارة الحسية والمعنوية تتحقق السعادة لهذا الإنسان.

٢ ـ وقال بشأن الصلاة: (. . . ولا ريب أن الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن وإذابة أخلاطه وفضلاته ما هو من أنفع شيء له سوى ما فيها من حفظ صحة الإيمان، وسعادة الدنيا والآخرة)[2]، ولا يكتفي بهذا الإجمال بل يلجأ إلى التفصيل والإيضاح، فيبين أن الصلاة لها آثار تربوية هامة، يفيد منها القلب والروح والبدن، فيقول: (. . . وأما الصلاة فشأنها في تفريح القلب وتقويته وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله وقربه والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها واشتغاله عن التعلق بالمخلوق. . . ما صارت به من أكبر الأدوية. . والأغذية. .)[3]، وهو بهذا يبين أن للصلاة أثراً بالغاً في تقوية الإيمان وربط القلب والروح بالله، وأنها تعطي كل عضو من الأعضاء حظاً وافراً من الخضوع والذل لخالقه سبحانه وتعالى، وهناك علاقة قوية بين مشاعر الروح وأحاسيس القلب وبين حركة الأعضاء في العبادة، ولا يكتفي بذلك بل يستقصي ما في الصلاة من

(*) والحديث صحيح أخرجه: (ق. د. ن) عن أبي هريرة بنحوه. من صحيح الجامع الصغير وزيادته. ط ٢ سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م. المكتب الإسلامي ـ دمشق، بيروت، ٢/١٢٢ رقم ١٧٩٣.

(١) المفتاح. ابن القيم ٢/٢٣.

(٢) الطب النبوي. ابن القيم ص ١٩٣.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٣.

فوائد تربوية فيقول: (. . . فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومَطْرَدَةٌ للداء عن الجسد، ومنورة لنقلب، ومبيضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة، ونافعة من كثير من أوجاع البطن)[1]، وما ذكره ابن القيم هنا يذكرنا بما كان يلقاه رسول الله ﷺ من راحة وطمأنينة في الصلاة وكأننا نسمعه يقول لبلال: «يا بلال: أقم الصلاة، أرحنا بها»[2] وقد كان ﷺ يشعر وهو في صلاته بالطمأنينة والأمن والسعادة التامة، فقد كانت غذاء لروحه وبرداً وسلاماً على قلبه وقرة عين له، قال ﷺ: «. . وجعلت قرة عيني في الصلاة»[3]، وإذا رأى أن الخطوب قد ادلهمت والأمور قد اشتدت والمواقف قد صعبت، هرع إلى الصلاة[*]، لأنها صلة بينه وبين الخالق، ومما قاله ابن القيم بشأن الصلاة وآثارها: (. . . قد وضعت الصلاة على أكمل الوجوه وأحسنها، التي تعبد بها الخالق تبارك وتعالى عباده: من تضمنها للتعظيم له بأنواع الجوارح من نطق اللسان، وعمل اليدين والرجلين، والرأس وحواسه، وسائر أجزاء البدن، كل يأخذ حظه من الحكمة في هذه العبادة العظيمة المقدار مع أخذ الحواس الباطنة بحظها منها، وقيام القلب بواجب عبوديته فيها، فهي مشتملة على الثناء والحمد والتمجيد والتسبيح والتكبير وشهادة الحق والقيام بين يدي الرب مقام العبد الذليل الخاضع. . . ثم التذلل له في هذا المقام والتضرع والتقرب إليه بكلامه، ثم انحناء الظهر ذلاً له وخشوعاً واستكانة، ثم استواؤه قائماً ليستعد

---

(١) الطب النبوي. ابن القيم ص ١٦٣.

(٢) صحيح رواه (حم، د ـ عن رجل) من صحيح الجامع الصغير وزيادته محمد ناصر الدين الألباني ٦/٢٨٤، رقم ٣٤٥٧.

(٣) صحيح رواه (حم، ن، ك، هق) عن أنس. من صحيح الجامع الصغير وزيادته. الألباني ٣/٨٧ رقم ٣١١٩.

(*) مأخوذ من حديث: «كان إذا حزبه أمر صلى». صحيح الجامع مرجع سابق ٤/٢١٥ رقم ٤٥٧٩.

لخضوع أكمل له من الخضوع الأول وهو السجود من قيام، فيضع أشرف شيء فيه وهو وجهه على التراب خشوعاً لربه واستكانة وخضوعاً . .)[1].

٣ ـ وقال عن قيام الليل: (. . . فقيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة ومن أنفع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب. . .)[2].

من هذا يتضح أن ابن القيم ينظر إلى الصلاة نظرة تربوية شمولية واعية تبين آثارها في تربية الروح والقلب والفكر والبدن، جميعاً بجانب إيمانه أنها فريضة هامة من فرائض الإسلام وركن من أركانه. ومما يدل على شعوره بأهميتها ومكانتها أنه خصها بكتاب مستقل أسماه (الصلاة) كما ذكرنا في بيان مؤلفاته[3].

٤ ـ ويقول ابن القيم بشأن الزكاة ـ التي تعتبر الركن الثالث من أركان الإسلام ـ قولاً يوضح أثرها في تربية الروح ومعالجة أمراضها التي قد تتعرض لها: مثل الشح، والبخل، والحرص، والأثرة، والحقد، والكراهية، وهو يبين أنها تكسب الروح المقدرة على الاتصاف بالرحمة والشفقة والمحبة والمواساة والإيثار، وتحقق مبدأ التكافل الاجتماعي بين الأفراد في المجتمع، يقول رحمه الله: (. . . وما أحسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوي الحاجات والمسكنة والخلة من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم ويخاف عليهم التلف إذا أخلاهم الأغنياء وأنفسهم.

وما فيها من الرحمة والإحسان والبر والطهر وإيثار أهل الإيثار والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل، والخروج من سمات أهل الشح والبخل والدناءة فأمر لا يستريب عاقل في حسنه ومصلحته،وأن الأمر به من أحكم الحاكمين[4].

---

(١) المفتاح. ابن القيم ٢/٢.

(٢) الطب النبوي. ابن القيم ص ١٩٣.

(٣) انظر ص ٤٦ من هذه الرسالة.

(٤) المفتاح. ابن القيم ٢/٣.

إن هذا القول يدل على أن ابن القيم مربٍّ خبير، يعرف ما التربيـة، وما الغاية التي تسعى إليها، وما وسـائلها لتحقيق هـذه الغايـة. فما أجـدر المربين اليوم من الآباء والمعلمين أن يفيدوا في مجال عملهم من أفكـاره هذه ومبـادئه التـربويـة التي استمدهـا من مصادر الإسـلام الأساسيـة: الكتاب والسنـة حتى يجعلوا التربية في مؤسساتنا التربوية سليمة وناجحة.

٥ ـ وقـال عن الصوم وأثـره التربـوي: (... وفي الصـوم الشـرعي من أسبـاب حفظ الصحة وريـاضة البـدن والنفس ما لا يـدفعه صحيـح الفطرة)[١] وهـذا الإجمال فصله بقـوله: (... وأمـا الصوم فنـاهيـك بـه من عبـادة تكف النفس عن شهواتها، وتخرجها عن شبـه البهائم إلى شبـه الملائكـة المقربين، فـإن النفس إذا خليت ودواعي شهـواتهـا التحقت بعـالم البهـائم، فـإذا كفت شهـواتهـا لله ضيقت مجـاري الشيـطان وصـارت قـريبـة من الله بتـرك عـاداتهـا وشهواتها محبة له، وإيثاراً لمرضاته وتقرباً إليه فيدع الصائم أحب الأشياء إليـه وأعظمها لصوقاً بنفسه من الطعام والشراب والجماع من أجل ربـه، فهو عبـادة لا تتصور حقيقتها إلا بترك الشهوة لله، فالصائم يدع طعامه وشرابه وشهواته من أجل ربه، وهـذا معنى كون الصـوم له تبـارك وتعالى)[٢] فهـو بهذا يبين الأثـر التربوي الذي يتركه الصوم في النفس.

ويتابع حديثه في بيـان وظيفة الصـوم التربـوية ومـا في الصوم من حسن وجمـال. فيقول: (... وأي حسن يـزيد على حسن هـذه العبادة التي تكسـر الشهـوة وتقمع النفس، وتحمي القلب وتفـرحه، وتـزهد في الـدنيا وشهـواتهـا وتـرغب فيما عنـد الله، وتذكـر الأغنياء بشـأن المساكين وأحـوالهم، وأنهم قد أخـذوا بنصيب من عيشهم، فتعطف قلوبهم عليهم، ويعلمـون ما هم فيـه من نعم الله، فيـزدادوا(*) له شكـراً، وبالجملة فعـون الصـوم على تقـوى الله أمـر

---

(١) الطب النبوي ص ١٩٣.

(٢) المفتاح ابن القيم ٢/٣.

(*) هكذا. ولعله تصحيف، والصواب: «فيزدادون» والله أعلم.

مشهور(*)، فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم)[1]، فالصوم إن صح التعبير هو مدرسة الثلاثين يوماً يتلقى المسلم فيه دورة تربوية، يتعلم فيها كيف تكون تربية الروح، وما هو العطف، وكيف يعطف على الفقراء والمساكين وما هو الصبر وكيف يتعود عليه، وما هي فائدة الإرادة القوية وكيف يكون العزم والتصميم؟ وفي هذه المدرسة تقوى الروابط الاجتماعية بين الأفراد والأسر في المجتمع، ويتحقق مبدأ التكافل الاجتماعي بينهم.

٦ ـ أما الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، والذي يعتبر المؤتمر العالمي للمسلمين، فيعتبر في نظر ابن القيم من الوسائل التربوية الهامة حيث يظهر أثره وفوائده على المجتمع الاسلامي الكبير، ففي هذا اللقاء يتفقد المسلمون شؤونهم وأحوالهم ويصححون أخطاءهم، ويستفيدون من علومهم وتجاربهم وهو مجال للربح والتجارة، بجانب أنه وسيلة للتربية الإيمانية، وترسيخ لمعنى ومقتضى كلمة الإخلاص التي هي عماد المحبة الخالصة لله والإجابة لدعوته بقول الحاج، «لبيك اللهم لبيك»، فالحج في نظر ابن القيم: (. . . هو خاصة الحنيفية ومعونة الصلاة وسر قول العبد لا إله إلا الله؛ فإنه مؤسس على التوحيد المحض، والمحبة الخالصة، وهو استزارة المحبوب لأحبابه، ودعوتهم إلى بيته ومحل كرامته، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم «لبيك اللهم لبيك» إجابة محب لدعوة حبيبه، ولهذا كان للتلبية موقع عند الله، وكلما أكثر العبد منها كان أحب إلى ربه وأحظى)[2].

٧ ـ وقال رحمه الله عن الأيمان والنذور: (وأما الأيمان والنذور فعقود يعقدها العبد على نفسه يؤكد بها ما ألزم به نفسه من الأمور بالله ولله فهي

(*) هكذا، ولعله تصحيف والصواب «مشهود» والله أعلم.

(١) المفتاح. ابن القيم ٢/٣، ٤.

(٢) المرجع السابق ٢/٤.

تعظيم للخالق ولأسمائه ولحقه، وأن تكون العقود به وله، وهذا غاية التعظيم فلا يعقد بغير اسمه ولا لغير التقرب إليه بل إن حلف فباسمه تعظيماً وتبجيلاً، وتوحيداً وإجلالاً، وإن نذر فله توحيداً وطاعة ومحبة وعبودية، فيكون هو المعبود وحده والمستعان به وحده)[1]، فهو بهذا يشير إلى أن الأيمان والنذور لها آثار تربوية في بناء الإيمان، وتعميق عاطفة الحب والخضوع والذل لله.

٨ ـ وقال بشأن الضحايا والهدايا: (وأما الضحايا والهدايا فقربان إلى الخالق سبحانه تقوم مقام الفدية عن النفس المستحقة للتلف فدية وعوضاً، وقرباناً إلى الله وتشبهاً بإمام الحنفاء وإحياء لسنته، أن فدى الله ولده بالقربان فجعل ذلك في ذريته باقياً أبداً)[2]، فهو يبين أن الضحايا والهدايا لها آثارها في تقوية الإيمان، لأنها امتثال لأمره حباً وإيثاراً وتضحية وفداء وفي هذا تربية للعاطفة الدينية.

٩ ـ وابن القيم يرى أن جميع أنواع العبادات دون استثناء لها آثار تربوية، فمثلاً المسابقة على الخيل، والمشي في الحوائج، وزيارة الإخوان، وقضاء حوائجهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، والمشي إلى المساجد للجمعات والجماعات، وحركة الوضوء والاغتسال[3] جميع ذلك يترك آثاراً تربوية هامة على كل من البدن والروح والقلب، ويترك آثاراً تربوية في تقوية العلاقات الاجتماعية.

من هذا العرض المفصل لآثار العبادات التربوية يتضح أن لابن القيم فكراً تربوياً أصيلاً يستمده من منهج الله عز وجل؛ الذي حدد الغاية من خلق الإنسان، وحدد بذلك الغاية من تربيته وشرع له من العبادات ما يحقق هذه الغاية.

---

(١) المفتاح. ابن القيم، ٢/٥.

(٢) المرجع السابق، ٢/٥.

(٣) انظر الطب النبوي، ابن القيم، ص ١٩٣.

الله هو المربِّي والمعلِّم الحق:

هذه حقيقة كثيراً ما يغفل عنها المربّون؛ وابن القيم يقرر هذه الحقيقة ويجليها لنا ويؤكدها؛ ذلك أن الله هو الخالق وهو الذي علمنا، وأعاننا بفضله على التعلم، يقول ابن القيم: (فهو [سبحانه][1] الخالق المعلم، وكل شيء في الخارج فبخلقه وجد، وكل علم في الذهن فبتعليمه حصل، وكل لفظ باللسان أو خط بالبنان فبأقداره وخلقه وتعليمه وهذا من آيات قدرته، وبراهين حكمته، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)[2].

وابن القيم في وصفه للذات البشرية يعزو صفات كمالها التي منها قدرتها على التعلم إلى الله خالق هذه الذات فيقول عنها: (... إنما يأتيها العلم والقدرة والغنى من الله بفضله ورحمته، فما حصل لها من كمال وخير فمن الله..)[3].

كما يشير إلى أن مراتب الوجود أربعة، وأن الله هو معطيها، فهو يوضح كيفية هذه المراتب ومدى تنظيمها لكسب العلم والمعرفة. فيقول: (... فإن الوجود له مراتب أربعة، إحداها: مرتبته الخارجية المدلول عليها بقوله: ﴿خلق﴾ من قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾. المرتبة الثانية: الذهنية المدلول عليها بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، المرتبة الثالثة والرابعة، اللفظية والخطية، فالخطية مصرح بها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ واللفظية من لوازم التعليم بالقلم)[4]، ولا يكتفي بذلك بل يبين العلاقة الرابطة بين التصور والنطق والكتابة، فيقول: (... فإن الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور)[5] وهذه المراتب كلها هبة من الله وعطاء منه،

---

(١) زيادة للإيضاح.

(٢) المفتاح، ابن القيم، ١/٥٨.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين. ابن القيم ص ١٢٥.

(٤) المفتاح، ابن القيم ١/٥٨، سورة العلق، ٤، ٥.

(٥) المرجع السابق ١/٥٨.

وهـذا يعني أنه المـربِّي والمعلّم لعباده، هيـأ لهم سبيل التعلم، وأعـطاهم من وسائل العلم ما مكنهم من ذلك، ورباهم بنعمه وآلائه فهو ﴿رب العالمين﴾[1]، وهو الذي: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ ٱلْبَيَان﴾[2].

عوائق التربية:

إذا كـان للتربيـة في رأي ابن القيم أهداف ووسـائل، فـإن في طـريقهـا عقبات ومشكلات، من هذه العقبات والعوائق في نظر ابن القيم:

١ ـ الكسل والبطالة وما يترتب عليهما من عـواقب سيئة يقـول رحمه الله في توجيهاته لولي أمر الطفل ومربيـه: (. . . ويجنبه الكسـل والبطالـة والدعـة والراحة. . . فإن للكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم. .)[3].

٢ ـ فقدان القدوة الصالحة: فإذا كان المربِّي منحرفاً في سلوكه سيئاً في أخلاقه، مضيعـاً لحقوق الله عـز وجل، فـإنه سيشكـل ضرراً بـالغاً في طـريق التربية السليمة؛ لأن الناشئة منعقدة عيونهم بفعله، فالحسن عنـدهم ما يفعله، والقبيح ما يتركه، يقول ابن القيم: (. . . فكم من والد حرم ولده خيـر الدنيـا والآخرة، وعرضـه لهلاك الـدنيا والآخـرة، وكل هـذا عواقب تفـريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها وإعراضهم عما أوجب الله عليهم. .)[4].

٣ ـ إهمال المربَّى وترك تأديبه، يقول رحمه الله: (. . . فما أفسد الأبناء مثـل تغفـل الآبـاء وإهمـالهم. . .)[5]، ويقـول في مكـان آخـر: (. . . وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء)[6].

٤ ـ الخلطة السيئـة وقرنـاء السوء، فمخـالطة هؤلاء تفسـد المربَّى غـاية

---

(١) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٢) سورة الرحمن، آية: ٣، ٤.

(٣) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤١.

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٢.

(٥) المرجع السابق ص ٢٤٢.

(٦) المرجع السابق ص ٢٤٢.

الفساد؛ فهو رحمه الله يحذر وليه والمسؤول عن تربيته من السماح له في (. . . عشرة من يخشى فساده أو كلامه له. . .)[1].

٥ ـ إذا ساعد المربِّي الناشىء على الاستجابة لشهواته فهذا عائق دون التربية بل هو فساد في التربية، يقول رحمه الله موجهاً الخطاب لولي أمر الطفل: (. . . ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب، فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها يفسده فساداً يعز عليه بعده صلاح، وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه، وإعانته له على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة)[2].

٦ ـ فقدان التوجيه المسلكي، وإهمال اكتشاف المواهب، والغفلة عن توجيهها الوجهة الصالحة، وحمل المربَّى قسراً وجبراً على تخصص غير مهيأ له يقول رحمه الله: (. . . ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره ـ ما كان مأذوناً فيه شرعاً ـ، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ما هو مهيأ له)[3].

---

(١) تحفة المودود ابن القيم ص ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٢.

(٣): المرجع السابق ص ٢٤٤.

الباب الثالث

جوانب التربية عند ابن القيم

ويشتمل على تسعة فصول:

الفصل الأول: التربية الإيمانية

الفصل الثاني: التربية الروحية

الفصل الثالث: التربية الفكرية

الفصل الرابع: التربية العاطفية

الفصل الخامس: التربية الخلقيّة

الفصل السّادس: التربية الاجتماعيّة

الفصل السابع: التربية الإرادية

الفصل الثامن: التربية البدنيّة

الفصل التاسع: التربية الجنسيّة.



تمهيد:

إننا في هذا الباب سنبين بإذن الله تعالى رأي ابن القيم في جوانب التربية، بعد أن عرفنا رأيه في طبيعة الإنسان، الذي هو محور العملية التربوية، والإنسان الأمثل الذي يُطالب التربية بإيجاده، ورأيه في غاية التربية، وأهدافها ووسائلها، والعوائق التي تعترض طريقها.

وجوانب التربية لدى هذا المربِّي كثيرة ومتعددة، فهي عنده: تشمل التربية الإيمانية، والتربية الروحية، والتربية الفكرية، والتربية العاطفية، والتربية الخلقية، والتربية الاجتماعية والتربية الإرادية، والتربية البدنية، والتربية الجنسية.

وإننا سنفرد لكل جانب من هذه الجوانب فصلاً مستقلاً في هذا الباب فمن الله نستمد العون ومنه نستلهم الرشد فهو حسبنا ونعم الوكيل.



الفصل الأول

التربية الإيمانية

تمهيد.

تعريف الإيمان

مفهوم التربية الإيمانية.

الغاية من التربية الإيمانية.

وسائل التربية الإيمانية.

* الوسائل البنائية:

أ ـ دلائل القدرة الإلٓهية.

ب ـ ظاهرة الموت.

جـ ـ العبادة من حيث هي وسيلة من وسائل التربية الإيمانية البنائية.

* الوسائل الوقائية في التربية الإيمانية.

* الوسائل العلاجة في التربية الإيمانية.

ثمار التربية الإيمانية.



التربية الإيمانية

تمهيد:

سنتحدث في هذا الفصل عن تعريف الإيمان في اللغة والاصطلاح، ومفهوم التربية الإيمانية، والغاية التي تسعى إليها، ووسائل تحقيق هذه الغاية في الجانب البنائي للإيمان، والجانب الوقائي، والجانب العلاجي، ثم نذكر نتائج الإيمان بالله في الدنيا والآخرة.

ويلاحظ أننا في هذا الباب أفردنا فصلاً في التربية الإيمانية، وفصلاً آخر في التربية الروحية[1]؛ وذلك لأن التربية الإيمانية أعم وأشمل من التربية الروحية، فالإيمان قول وعمل واعتقاد، فاشترك في حقيقة الإيمان اعتقاد القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، أما التربية الروحية فعلاقتها بتهذيب الروح وتزكيتها، وإن كانت آثار هذه التربية تظهر على الأقوال والأفعال، إلا أن دقة البحث تلزمنا بالتفريق بينهما ولو مؤقتاً.

إن المتتبع لسيرة رسول الله ﷺ في تربيته لأصحابه رضوان الله عليهم في الفترة المكية وما بعدها يجد أن اهتمامه عليه الصلاة والسلام كان منصباً على التربية الإيمانية، وبناء العقيدة في نفوسهم.

---

(١) لا يحبذ بعض الباحثين ذكر كلمة روحية، ويرى استبدالها بكلمة التعبدية لأنها كلمة مستوردة من المسيحية، لكن أرى أن الروح عنصر هام في تكوين الإنسان الذي تعالج أمره التربية قال تعالى: **﴿إني خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾** سورة ص /٧١، ٧٢. والتربية التعبدية عامة شاملة لكل ما في الإسلام، أما التربية الروحية فتتناول عنصراً واحداً من عناصر تكوين الإنسان، لأن الإنسان هو مجموع الروح والعقل والبدن.

ولقد كان الوحي ينزل عليه يتحدث عن قضية هامة، قضية الإيمان بالله، ويسلك في ذلك وسائل متعددة، من التذكير بقدرة الله العظيمة في الأنفس والآفاق ومن التذكير باليوم الآخر والبعث والنشور، وبذكر قصص الأمم السابقة، وما حصل لهم بتكذيب أنبيائهم من هلاك وتدمير، وبالتذكير بظاهرة الموت والحياة، كل ذلك ليقوي إيمانهم بالله، وبالتالي يكون كل واحد منهم رقيباً على نفسه محاسباً لها، لأنه يستشعر رؤية الله له على كل أحواله، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُم وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَر إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنما كَانُوا...﴾[1] الآية، ﴿يَعْلَم خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورِ﴾[2]، وهذه القضية الهامة والخطيرة مكث الوحي طوال الفترة المكية يتحدث عنها وحدها، ثم في الفترة المدنية لم يغفلها الوحي، ولم يقلل من شأنها بل إنها كانت أساس جميع الأحكام والتشريعات؛ فمثلاً عند فرضية الصوم نستمع لقول الحق سبحانه وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾[3]، فخاطب المكلفين بهذه الفريضة منادياً لهم بوصف الإيمان، كما نستمع إليه سبحانه عند تشريع القصاص، وهو يقول: ﴿وَلَكُم فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾[4]. والتقوى من الإيمان.

فعند ذكر حكم من الأحكام، أو فرضية فرض من الفروض، أو معالجة قضية من القضايا يطالعنا الوحي بقضية الإيمان والعقيدة، وهذا يدل على أهمية بناء هذا الجانب في الشخصية المسلمة؛ لأن الإسلام يسعى لإيجاد الرقابة داخل النفس البشرية ويوجد الضمير الحي، والوجدان المتيقظ الذي يجعل مخافة الله والخشية منه نصب العين، ومتى تكونت هذه الشخصية بهذه المواصفات، فإنها ستكون مؤهلة لتحمّل الإسلام عقيدة وعملاً في ذات

---

(١) سور المجادلة /٧.

(٢) سورة غافر /١٩.

(٣) سورة البقرة /١٨٣.

(٤) سورة البقرة /١٧٩.

نفسها، وتدعو الناس إليه، وتصبر على الأذى في سبيله.

تعريف الإيمان:

الإيمان لغة: التصديق[1]، وآمن به: صدقه[2]، وآمن به: وثق وصدقه[3] والإيمان: الثقة وقبول الشريعة[4].

والإيمان في الاصطلاح: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، وابن القيم رحمه الله يرى: (أن الإيمان اسم القول والعمل والنية)[5].

وفي مكان آخر يذكر أن القلب يشترك مع اللسان في جانب، ومع الجوارح في جانب آخر، فيقول رحمه الله: (إن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح..)[6]، ويلاحظ أنه بين اشتراك القلب وهو العضو الهام في تكوين الإنسان، مع اللسان في أعماله، ومع الجوارح في وظائفها وهذا يدل على أهمية القلب الذي قال عنه النبي ﷺ: «... ألا وإن في الإنسان مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[7].

وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن الإنسان بما ركب الله سبحانه وتعالى فيه من أعضاء... يعمل كلًا لا يتجزأ، وهو ما يراه ابن القيم.

وابن القيم لا يرى استكمال الإيمان إلا بأمور أربعة: وهي الحب

---

(١) مختار الصحاح. الرازي، مادة: أمن.

(٢) مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، مادة: أمن.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جـ ١ مادة: آمن.

(٤) مختار القاموس، الزاوي، مادة: أمن.

(٥) عدة الصابرين، ابن القيم، ص ٨٨.

(٦) المرجع السابق ص ٨٩.

(٧) الحديث صحيح. رواه (ق، ع) عن النعمان بن بشير من صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني - رقم ٣١٨٨، ٣/١٠٢.

والبغض والعطاء والمنع فإذا كانت لله وفي الله فإن الإيمان في درجة عالية من الكمال وإذا نقص شيء منها ـ بأن صرف لغير الله ـ فإن الإيمان ينقص بنقصها. يقول رحمه الله: (الإيمان علم وعمل، والعمل ثمرة العلم، وهو نوعان: عمل القلب حباً وبغضاً، ويترتب عليهما عمل الجوارح فعلاً وتركاً، وهما العطاء والمنع، فإذا كانت هذه الأربعة لله تعالى، كان صاحبها مستكمل الإيمان، وما نقص منها فكان لغير الله نقص من إيمانه بحسبه)[1]، فهو بهذا القول يصف أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فالحب والبغض من أعمال القلوب، وسنتحدث عن هذا بالتفصيل في التربية العاطفية إن شاء الله، والفعل والترك من أعمال الجوارح، لأن الإسلام جاء بأوامر ونواهٍ، فمطلوب فعل الأوامر وترك النواهي.

وفي قول ابن القيم هذا بيان لأهمية العلم، وأنه مقدم على العمل وإمام له، والعمل تابع له ومقتدٍ به، ولقد ترجم الإمام البخاري في الجامع الصحيح باباً بعنوان: (باب العلم قبل القول والعمل)[2].

وعمل القلب مهم جداً بالنسبة للبناء الإيماني، فإذا زال تصديق القلب لم تنفع الأعمال والأقوال، بل قد يترتب عليها هلاك الإنسان وشقاؤه، ودليل ذلك أن المنافقين في الدّرك الأسفل من النار مع نطقهم بالشهادتين وعملهم لأنواع من العبادات، ويؤكد ابن القيم اقتران كل من القول والعمل باعتقاد القلب وإخلاصه، فيقول: (. . . إن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام، والعمل قسمان: عمل القلب وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها(*) وكونها نافعة)[3]، فهو يضع

---

(١) إغاثة اللهفان. ابن القيم، ٢/١٢٤.

(٢) الجامع الصحيح، للإمام البخاري، ١/٢٣.

(*) هكذا في الأصل، ولعله تصحيف، والصواب: اعتمادها. والله أعلم.

(٣) كتاب الصلاة، ابن القيم، ص ٢٤.

نظرية في البناء الإيماني، توضح الأسس التي يبنى عليها الإيمان: وهي اعتقاد القلب وعمله من النية والإخلاص، وقول اللسان وهو النطق بكلمة الإخلاص، وعمل الجوارح بفعل المأمورات وترك المنهيات، فسلامة هذه الأسس سلامة الإيمان وكمال له، وزوالها بالكلية زوال للإيمان بكامله، وفقدان عمل القلب يهدم جميع الأعمال والأقوال.

وإذا كان الفعل والترك من أسس الإيمان ومقوماته في رأي ابن القيم؛ فإن لهذا الأساس علاقة وثيقة بالشكر والصبر في رأيه أيضاً، فيقول عن ذلك: (... الفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين، فعل المأمور وترك المحظور)[1].

كما يجعل لليقين والصبر دوراً في دعامة الإيمان، لأن اليقين يبرز غير المحسوس في درجة المحسوس المشاهد، والإحسان تعريفه: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2] وهذا غاية اليقين، والصبر واليقين ركنان عظيمان يبنى عليهما الإيمان، هذا ما يراه ابن القيم ويؤكده بقوله: (... الإيمان مبني على ركنين يقين وصبر وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا منهم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾)[3]، من هذا يتضح أن الصبر أيضاً دعامة قوية من دعائم الإيمان وهو أنواع، منها الصبر على الطاعة؛ لأن النفس ميالة إلى الكسل والخمول والدعة والسكون والراحة، وهي تميل إلى الشهوات وتحجم عن الطاعات. فحملها على الطاعة والعبادة يحتاج إلى صبر ومصابرة، ومنها الصبر عن المعصية؛ لأن النفس قد زُينت لها الشهوات، وجبلت على حبها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ..﴾[4] الآية، ففطام النفس عنها يحتاج إلى صبر ومصابرة، ومنها

---

(١) عدة الصابرين ابن القيم، ص ٨٨، ٨٩.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم. كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، ١/٣٠.

(٣) عدة الصابرين، ابن القيم، ص ٨٨، ٨٩، سورة السجدة /٢٤.

(٤) سورة آل عمران /١٤.

الصبر على أقدار الله المؤلمة، فمن تحلى بهذه الأنواع من الصبر يكون من الصابرين حقاً، والمتحلي بالصبر ينال شرف المعية الخاصة لله عز وجل والتي قال الله عنها ﴿. . . وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾(1).

ولمنزلة الصبر عند ابن القيم جعله محور ارتكاز لكل نشاط المؤمن. فهو يقول في ذلك: (. . . والصبر آخية(*) المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساق إيمانه الذي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له)(2).

وهذا الإيمان الذي يحدثنا عنه ابن القيم في مواضع شتى من كتبه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو يقرر ذلك بقوله: (إن الإيمان قول وعمل ونية وتمسك بالسنة، والإيمان يزيد وينقص)(3)، وهذا الذي ذكره هو: (. . . المأثور عن الصحابة، وأئمة التابعين، وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة، أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية)(4).

وفي تعريفه للإيمان يذكر الرأي الصحيح الذي يعتقده ويرد ما خالفه، فهو ينفي زعم من يرى الاكتفاء بمجرد القول في الإيمان، أو معرفة القلب مع هذا القول، ويؤكد ضرورة العمل بجانب معرفة القلب ونطق اللسان، فيقول: (. . إن الإيمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرده، ولا معرفة القلب مع ذلك، بل لا بد فيه من عمل القلب وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته

---

(1) سورة البقرة / 249.

(*) الآخية: واحدة الأواخي، عود يُعَرَّض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة. . قال أبو عبيد الآخية العروة تشد بها الدابة مثنية في الأرض. ا. هـ. من لسان العرب، ابن منظور: طبعة مصورة عن طبعة بولاق. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر. الدار المصرية للتأليف والترجمة 18/24، 25.

(2) عدة الصابرين، ابن القيم، ص 4.

(3) حادي الأرواح، ابن القيم، ص 294.

(4) مجموع فتاوى، ابن تيمية، الإيمان 7/505.

ومتابعة رسوله ﷺ، وهذا خلاف من زعم أن الإيمان مجردُ معرفة القلب وإقراره)[1]،

وابن القيم يرى أن الإيمان لا يكفي فيه مجرد اعتقاد صدق الرسول ﷺ، بل يلزم مع هذا الاعتقاد حبه وعدم بغضه، ومتابعته على كل ما أمر، فيقول: (. . . ومن قال إن الإيمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به وإن لم يلتزم متابعته وعاداه وأبغضه وقاتله لزمه أن يكون هؤلاء[2] كلهم مؤمنين. وهذا إلزام لا محيد عنه)[3].

وهذا الذي ذكره ابن القيم. ذكره من قبل شيخه ابن تيمية رحمهما الله، حيث قال: (. . . فلا بد في الإيمان الذي في القلب من تصديق بالله ورسوله، وحب الله ورسوله، وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله، ومعاداة الله ورسوله، ليس إيماناً باتفاق المسلمين، وليس مجرد التصديق والعلم يستلزم الحب، إلا إذا كان القلب سليماً من المعارض. . .)[4].

مفهوم التربية الإيمانية:

مما سبق نستطيع القول إن التربية الإيمانية هي مجموع الأنشطة والأعمال التي يمارسها المربِّي حيال المربَّى في المحافظة على إيمانه وتكميله وزيادته. يقول ابن القيم: (. . . وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح. . .)[5] بحيث يتوافق ما يكنه في قلبه ويعتقده مع ما يعمله بجوارحه.

والتربية الإيمانية تعني بجعل المربَّى ممتثلاً أمر الله متبعاً هدى رسول

---

(١) المفتاح ابن القيم ١/٩٤.

(٢) يعني المكذبين له من قومه مثل: أبي جهل، وأمية بن أبي الصلت، ومثل هرقل الذي عرف صدق رسول الله ﷺ، واليهود الذين سألوه عن التسع آيات البينات فأخبرهم بها. انظر المفتاح، ابن القيم ١/٩٣.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/٩٤.

(٤) فتاوى، ابن تيمية، الإيمان ٧/٥٣٧.

(٥): إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ابن القيم ١/٤٦.

الله ﷺ، وابن القيم يوضح أن اتباع الهدى يتم بأمرين هما: تصديق الخبر الذي جاء به الرسول ﷺ من غير اعتراض شبهة عليه، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة. يقول رحمه الله: (. . . ومتابعة هدى الله. . . هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله)[1].

ويطالعنا بعد هذا القول بنظريته في الإيمان المبنية على العناصر الأربعة الآتية: ١ ـ تصديق الخبر. ٢ ـ طاعة الأمر. ٣ ـ دفع الشبهات. ٤ ـ مجاهدة الشهوات. فيقول رحمه الله: (. . . . وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر، ويتبعهما أمران آخران وهما: نفي الشبهات الواردة عليه المانعة من كمال التصديق، وأن لا يُخْمَش بها وجه تصديقه، ودفع شهوات الغيِّ الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال، فهذه أربعة أمور: أحدها تصديق الخبر، والثاني بذل الاجتهاد في ردّ الشبهات التي توحيها شياطين الجن والإنس في معارضته، والثالث: طاعة الأمر، والرابع: مجاهدة النفس لدفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة)[1].

ويدخل في مضمون التربية الإيمانية عند ابن القيم تلك الجهود التي بذلها رسل الله عليهم الصلاة والسلام في المحافظة على الفطر من الزيغ والانحراف، وردّها ـ إن انحرفت ـ إلى الطريق السوي؛ فالقلوب في نظر هذا المربِّي: (مفطورة على حب إلّهها وفاطرها وتأليهه، فصرف ذلك التألُّه والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة. ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل لصلاحها وردّها إلى حالتها التي خلقت عليها؛ فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها)[2]، وتهدف التربية الإيمانية بجانب المحافظة على الفطرة، إلى تعبيد الخلق لله عز

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٤٠.

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/١٥٨، انظر المفتاح ١/٢٨٠، ٣٠٤، ٣٠٥ بدائع الفوائد ٢/١٦٣.

وجل، فابن القيم يؤمن بأن الله: (سبحانه لم يخلقهم إلا لعبادته)[1].

والتربية الإيمانية عند ابن القيم مبنية على الأدلة والبراهين المتوافرة على صفحة الوجود، فمن نظر فيها بعين البصيرة هُدِي إلى صراط مستقيم، ومن صرف بصره عنها، فإنه لم يرفع بذلك رأساً يقول رحمه الله: (فتظاهرت أدلة ربوبيته وتوحيده في الأرض وتنوعت وقامت من كل جانب، فعرفه الموفّقون من عباده وأقروا بتوحيده إيماناً وإذعاناً، وجحده المخذولون على خليقته، وأشركوا به ظلماً وكفراناً فهلك من هلك عن بينة، وحيَّ من حيَّ عن بيّنة والله سميع عليم)[2].

والتربية الإيمانية في نظر ابن القيم تواجه أنماطاً من البشر متفاوتين في الإيمان (. . . فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به (الرسول ﷺ)(*) وبما دعا إليه من غير أن يطلب منه برهاناً خارجاً عن ذلك، كحال الكمّل من الصحابة كالصِّدِّيق رضي الله عنه، ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأن عادة الله أن لا يخزي من قامت به تلك الأوصاف والأفعال لعلمه بالله ومعرفته به وإنه لا يخزي من كان بهذه المثابة، كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها له ﷺ. . . وهذه المقامات في الإيمان عَجَزَ عنها أكثر الخلق، فاحتاجوا إلى الآيات والخوارق، والآيات المشهودة بالحس، فآمن كثير منهم عليها. وأضعف الناس إيماناً من كان إيمانه صادراً من المظهر ورؤية غلبته ﷺ للنّاس، فاستدلّوا بذلك المظهر والغلبة والنصرة على صحة الرسالة. . . وأضعف من هؤلاء إيماناً من إيمانه إيمان العادة والمربا(**)، والمنشأ فإنه نشأ بين أبوين مسلمين وأقارب وجيران وأصحاب كذلك. . .)[3].

---

(١) انظر المفتاح، ابن القيم ٢/٨٣.

(٢) المفتاح، ابن القيم ١/١٠.

(*) زيادة من الباحث لإظهار معنى النص المقتبس.

(* *) هكذا في الأصل. ولعله تصحيف، والصواب: المربى. والله أعلم.

(٣) المفتاح، ابن القيم ٢/١٣.

إن هذا التصنيف يساعد المربِّي في عمله، بحيث يواجه كـل صنف بما يناسبه في واقعه الحاضر، ولعله يستطيع أن يسمو به من درجته التي هـو فيها، إلى درجة أعلى منها، في حدود قدراته. .

الغاية من التربية الإيمانية:

بعد أن عرفنـا أن التربيـة الإيمانيـة هي مجموع الأنشـطة والأعمال التي تمارس للمحافظة على إيمان المربَّى بحيث يتوافق ما يكنُّه في قلبه ويعتقده مع ما يعمله بجوارحه، وبعد أن عرفنا أن هذه التربية هي مسؤولية الأنبياء والرسـل عليهم الصلاة والسلام، وأن الناس تجاهها أصناف وأنماط، نستطيـع أن نحدِّد غاية هذه التربية في إيجاد الإنسان الصالح المؤمن بالله، الـذي ينال قسـطاً من العلم النافع ويقرنه بالعمل الصالح، ثم يدعو غيره إليه، ويصبر على الأذى في سبيل ذلك تحقيقـاً لقول الله عـز وجل: ﴿وَٱلْعَصْـرِ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِي خُسْـرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَات وَتَـوَاصَوْا بِـٱلْحَقِّ وَتَوَاصَـوْا بِالصَّبْرِ﴾[1]، وإذا وجد هذا الإنسان الصالح وجد المجتمع الصالح الذي يشعر بمسؤوليته تجـاه الدعوة إلى الله، وحملها إلى البشرية جمعاء تحقيقاً لقول الله عـز وجل ﴿كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَت لِلنَّاس، تَـأْمُرُونَ بِـٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَر وَتُـؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2].

وهذا الإنسان في نظر ابن القيم بحاجة إلى التعرف إلى الله سبحانه عن طريق أسمائه وصفاته وإثباتهـا واعتقادهـا، والإيمان بهـا، والعمل بمـا تقتضيه والطمأنينة في ذلك الاعتقاد وهـذا العمل، والطمأنينـة إلى صـدق ما أخبـر الله بـه، يقول رحمـه الله: (وحقيقة الطمأنينـة التي تصير بهـا النفس مـطمئنـة أن تطمئن في باب معـرفة أسمـائه ونعـوت كمالـه، إلى خبره الـذي أخبر بـه عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشـراح الصدر لـه وفرح القلب بـه. . . والطمأنينـة إلى أسماء الـرب تعالى وصفـاته نـوعان،

---

(١) سورة العصر /

(٢) سورة آل عمران /١١٠.

طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية . . .)[١].

وكل ما يقوم به الإنسان من أنواع العبادة في نظر ابن القيم هو محض حق لله عز وجل، لا يجوز صرف شيء منه لغيره سبحانه: (فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة والتقوى والخشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً والطواف بالبيت والدعاء كل ذلك محض حق لله لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرّب ولا نبي مرسل)[٢].

ومن أهداف التربية الإيمانية عند ابن القيم، الإقرار أن العبودية التي تقوم على كمال الخضوع والذل، مع كمال المحبة من خصائص الألوهية لله عز وجل. يقول رحمه الله: (. . . ومن خصائص الألوهية العبودية التي قامت على ساقين لاقوام لها بدونهما: غاية الحب مع غاية الذلّ، هذا تمام العبودية)[٣].

ومن أهدافها عنده أيضاً، حفظ اللسان والجوارح وخطرات القلب عن كل ما يسخط الله، وأن يكون عملها في ضوء ما يحبه الله ويرضاه، والاستحياء من الله حقّ الحياء، يقول رحمه الله: (. . . فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه، وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه

---

(١) الروح. ابن القيم ص ٢٢١.

(٢) الجواب الكافي، ابن القيم، ص ٩٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٥، المفتاح، ابن القيم ٢/ ٨٧.

الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر لـه ذلك الحيـاء باطنـاً، ويثمر لـه الحياء اجتناب المحرمات والقبائح . . .)[1].

ومن أهدافها عند هذا المربِّي الفاضل أيضاً، بيان ارتباط كمال العبودية بكمال الحب لله، وكمال المحبة تابع لكمال المحبوب، ثم بيان أن الكمال المطلق لا يكون إلا لله، بحيث يكون هذا الباعث أكمل البواعث للعبودية، فهو يقول رحمه الله: (. . . ولا ريب أن كمال العبودية تابع لكمال المحبة، وكمال المحبة تابع لكمال المحبوب في نفسه، والله سبحانه له الكمال المطلق التام في كل وجه، الذي لا يعتريه توهم نقص أصلاً؛ ومَنْ هذا شأنه فإن القلوب لا يكون شيء أحب إليها منه، ما دامت فطرها وعقولها سليمة، وإذا كانت أحب الأشياء إليها فلا محالة أن محبته توجب عبوديته وطاعته وتتبع مرضاته، واستفراغ الجهد في التعبد له والإنابة إليه، وهذا الباعث أكمل بواعث العبودية وأقواها)[2].

وجعل حركات العباد وجميع أنشطتهم سائرة وفق رضا مولاهم، هدف من أهداف التربية الإيمانية عند ابن القيم، ذكر هذا بقوله: (أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبته، ولذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه)[3].

ومن أهدافها سعادة العبد وصلاحه في دنياه وأخراه وذلك بأن يكون الله تعالى محبوبه، وغاية مراده. يقول رحمه الله: (. . . وليس صلاح الإنسان وحده وسعادته إلا بذلك، بل وكذلك الملائكة والجن وكل حي شاعر لا صلاح له إلا بأن يكون الله وحده إلٰهه ومعبوده وغاية مراده)[4].

---

(١) المفتاح، ابن القيم، ٢/٩٠.
(٢) المرجع السابق، ٢/٨٨، الجواب الكافي، ص ٨٨، ٨٩، ١٣٣.
(٣) المفتاح ابن القيم، ١/١٥٩.
(٤) المرجع السابق؛ ٢/١٢٢، ٢/٨٣.

وسائل التربية الإيمانية :

من خلال استعراض آراء ابن القيم في هذا الجانب من جوانب التربية اتضح أن الوسائل في هذه التربية ثلاثة أصناف ـ حسب تقسيم التربية الإيمانية نفسها ـ فهي وسائل بنائية، وأخرى وقائية، وثالثة علاجية، وهناك ترابط شديد بين الأصناف الثلاثة، لأن الغاية التي تسعى إليها هي غاية واحدة وإن تعددت الوسائل وتنوّعت.

الوسائل البنائية :

يشمل هذا الصنف من وسائل التربية الإيمانية عند ابن القيم :

أ ـ النظرَ في دلائل القدرة الإلَهية وعظمة الخالق سبحانه وحكمته ورحمته. . . وهي دلائل ماثلة. .

١ ـ في آيات الله الكونية على صفحة الوجود.

٢ ـ في آياته في الأنفس.

٣ ـ في آياته المتلوَّة وشرعه المنزل.

ب ـ لفتَ النظر إلى ظاهرة الموت.

جـ ـ بيانَ شأن العبادة من حيث هي وسيلة من وسائل التربية الإيمانية.

أ ـ دلائل القدرة الإلـهية :

١ ـ يوجه ابن القيم الأنظار إلى ما في الكون من دلائل القدرة الإلَهية، والحكمة الربانية، ويحث على النظر فيها بعين البصيرة فيقول: (. . . تأمل العبرة في موضع هذا العالم، وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدلّه على كمال قدرة خالقه وكمال علمه، وكمال حكمته وكمال لطفه. .)[١].

٢ ـ ثم يطالعنا بمسلّمة أو بديهة عقلية، وهي أن كل صنعة لا بد لها من صانع، وكل موجود سوى الله لا بدّ له من موجد، فيقول: (إن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين، ومفتقر إليه في تحقيق ذاته

(١) المفتاح ابن القيم، ١/٢٠٦.

وأينيته(*) . . . كما أنه سبحانه ربّ كل شيء ومليكه وموجده. . . وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده إليه، استناد المصنوع إلى صانعه، والمفعول إلى فاعله. . .)[١].

٣ ـ وابن القيم يلفت الأنظار إلى كمال قدرة الله وأنه سبحانه الفعّال لما يريد، لا يحتاج إلى معاون، وكل ما سواه لا يستطيع فعل شيء إلا بمعونة فيقول: (. . . وأنه ليس شيء يستقل وحده بالفعل إلا الله، وكل ما سواه لا يفعل شيئاً إلا بمشارك ومعاون، وله ما يعاوقه ويمانعه)[٢].

٤ ـ ثم يذكر رحمه الله بعض مخلوقات الله التي نصبها شاهدة لقدرته العظيمة وحكمته البالغة وعلمه الواسع، وبرّه الشامل ولطفه العميم، فيقول: (. . . لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البيّنات ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّ عن بينة، وإن الله لسميع عليم، فارجع البصر إلى السماء، وانظر فيها وفي كواكبها ودوراتها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها، واختلاف مشارقها ومغاربها. . .)[٣]، وهو عند ذكر مخلوقات الله العظيمة يؤكّد جانب الإيمان العميق بالخالق جلّ جلاله، فيقول رحمه الله: (فسبحان من له في كل ما خلق وأمر حكمة بالغة شاهدة له بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه الله الذي لا إله إلا هو ربّ العالمين)[٤].

٥ ـ وفي الإيمان بالبعث والنشور وقيام الناس من القبورُ يطالعنا بتحليل لبعض الظواهر الكونية، كظاهرة انبلاج الفجر الذي يعقبه نهار حافل بالحركة والنشاط، بعد مرور الليل الذي تسكن فيه الحركة وتكفُّ فيه الكائنات عن

(*) في المطبوع (وأينيته) ولعل الصواب (وانّيّته) بمعنى ذاته وحقيقته وماهيته. . والله أعلم.

(١) المفتاح ابن القيم ١/٨٦.

(٢) المرجع السابق، ٢/١٦٣.

(٣) المرجع السابق، ١/١٦٧.

(٤) المرجع السابق، ٢/٣٣.

النشاط، فيقول رحمه الله: (حتى إذا أخذت منه [أي من الليل][*] النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرُّفها. جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزّقها كل ممزق، وكشفها عن العالم، فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معايشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها، فيا له من معاد ونشأة، دالّ على قدرة الله سبحانه وتعالى على المعاد الأكبر وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له ـ بحيث صار عادة ومألفاً ـ منعها من الاعتبار به. . ولكنّ الله يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء. . وبهذا وأمثاله يُعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويُسأل. . .)[1]، وقد لفت نظرنا ابن القيم إلى أن تكرر هذه الظاهرة جعلها مألوفة لا يلتفت إليها النظر، فهذه الظاهرة وغيرها من الظواهر أصبحت بالألف والعادة لا تؤثر إلا في القليل ممن هداهم الله.

٦ ـ ويرشد رحمه الله إلى دلائل قدرة الله الباهرة وعظمته في خلق هذا الإنسان، فيقول رحمه الله: (. . . إن الإنسان دليل نفسه على وجود خالقه، وتوحيده، وصدق رسله، وإثبات صفات كماله)[2]، كما يحثّ على التأمل والنظر في مراحل نموّ الجنين وأن من نقّله في هذه الأطوار وكلأه برعايته وحفِظه بحفظه، هو الذي أنزل عليه منهجاً ينظّم سيره في دينه ودنياه وبعث له مربياً يربّيه ويرشده ويهديه إلى سواء السبيل، فهذا من الأدلة على صدق الرسالة والإيمان بالرسل والكتب المنزَّلة والبعث والجزاء. . . يقول رحمه الله: (وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى حين كماله واستوائه، تبيّن له أن مَنْ عُني به هذه العناية، ونقلّه إلى هذه الأحوال وصرّفه في هذه الأطوار، لا يليق به أن يهمله، ويتركه سدى لا يأمره ولا ينهاه، ولا يعرفه بحقوقه عليه، ولا يثيبه ولا يعاقبه ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد وأن القرآن كلامه)[2].

(*) زيادة للإيضاح.

(١) المفتاح، ابن القيم، ١/٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) الجواب الكافي، ابن القيم، ص ٢٣.

٧ ـ وإذا كان ابن القيم يدعو إلى النظر والتفكر في مخلوقات الله في هذا الكون الفسيح ليعمق الإيمان في النفس، فإنه كذلك يَلْفِتُ النظر إلى عظمة الله في شرعه المنزل، وهذا يدل على أن آيات الله المشاهدة وآياته المتلوة جميعها تسعى لغاية واحدة؛ ألا وهي الإيمان به وعبادته ومراقبته في كل صغيرة وكبيرة، يقول رحمه الله لافتاً النظر إلى عظمة الشريعة ودلائل القدرة والحكمة والرحمة فيها: (. . . وضع أحكم الحاكمين شرائع دينه دالّة عليه وشاهدة له بكمال علمه وحكمته ولطفه بعباده وإحسانه إليهم)[١]، وإذا كانت آيات الله المشاهدة على صفحة الكون وآفاق الوجود ومكنونات الأنفس، وآياته المتلوة في كتابه المنزل تدل على قدرته وعظمته وشفقته وحكمته، فإن مَنْ يعتبر بذلك هو صاحب القلب الحي، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿. . . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٢]، أما صاحب القلب الغافل فإنه بحاجة إلى من يوقظه من غفلته ويبصّره ويهديه، يقول ابن القيم رحمه الله: (. . . آيات الربّ تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يُتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر من غفلته، فإن المضادّ للعلم إما عمى القلب، وزواله بالتبصر. وإما غفلته، وزوالُه بالتذكر. والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله. . .)[٣]، فهذا يذكرنا بفضل أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم عندما كانوا يتفقدون إيمانهم، ويحافظون على قلوبهم من الغفلة، بتذكر عظمة الله وجلوسهم لذلك، ويرون أن في هذا زيادة إيمان لهم، وزاداً من التقوى، يتقوون به على طاعة الله فهذا معاذ رضي الله عنه، كان يقول لأصحابه: («اجلسوا بنا نؤمنْ ساعة» يعني نذكر الله تعالى)[٤].

---

(١) المفتاح، ابن القيم، ٢/٢٢.

(٢) سورة قٓ آية ٣٧.

(٣) المفتاح، ابن القيم، ١/٢١٤.

(٤) كتاب الإيمان، ابن أبي شيبة، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المطبعة العمومية، دمشق ص ٣٥.

ب ـ ظاهرة الموت:

إن الإنسان في غمرة هذه الحياة وما تتطلبه منه من جهد ووقت ينسى نفسه ويغفل عن مصيره الذي ينتظره ونهايته الحتمية، ولا يظنّ الإنسان أنه أعطي ضماناً من الموت، كما أنه لا يظنّ أن موته هو نهاية الرحلة له، فابن انقيم رحمه الله يذكر أن الموت ما هو إلا انتقال من حال إلى حال، وهو بهذا ينبه الإنسان إلى الاستعداد للآخرة ولقاء الله عز وجل، فيقول رحمه الله: (إن الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين..)[1]. وابن القيم يذكّر بالحالات التي ينتقل فيها الإنسان، فالحال الأولى في الحياة الدنيا وحياته فيها من ولادته إلى نهاية أجله.

والحال الثانية حياته في عالم البرزخ وتبدأ من إدخاله القبر إلى النفخة الثانية في الصُّور.

والحال الثالثة الأخيرة، تبدأ من النفخة الثانية في الصُّور، التي على أثرها يقوم الناس من القبور ويحشرون للحساب، وبما أن الإنسان مركب من روح وجسد فإن لكل حياة من هذه الثلاث تأثيرها إما في البدن والروح تبع له، أو الروح والبدن تبع له، أو الروح والبدن معاً. يقول رحمه الله موضحاً ذلك أتم توضيح: (... مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعَّمة أو معذَّبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب.

ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لربّ العالمين)[2]، ويقول في مكان آخر: (... إن الموت معاد وبعث أول فإن الله سبحانه وتعالى جعل لابن آدم معادين وبعثين يُجزى فيهما الذين أساؤوا بما عملوا، ويُجزى الذين أحسنوا بالحسنى، فالبعث الأول

---

(١) الروح، ابن القيم، ص ٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٢.

مفارقة الروح للبدن، ومصيرها إلى دار الجزاء الأول... والبعث الثاني يوم يردّ الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار..)[1]، فهو بهذا يشير إلى وجوب الإيمان بالبعث والنشور وقيام الناس من القبور، ومجازاتهم على أعمالهم، وهذا الإيمان بلا شك يوجد الوازع الديني في النفوس، ومراقبة الله عز وجل والتزود بزاد التقوى؛ لأن الموت رحلة يحتاج الإنسان فيها إلى هذا النوع من الزاد، قال تعالى: ﴿... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[2]. فالله سبحانه أرشد (... إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها...)[3]. وابن القيم يذكر حديثاً عن ابن عباس مستشهداً به على عذاب القبر، وحالة الإنسان فيه، جاء في هذا الحديث أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب: (خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك، حتى ختمها، فقال النبي ﷺ: «هي المانعة هي المنجية من عذاب القبر»)[4].

وابن القيم رحمه الله أوصى بالإكثار من تذكر الموت حتى لا يلتهي الإنسان بمتطلبات الحياة الدنيا، وحتى لا ينسى مصيره، فأورد رحمه الله في ذلك حديثاً جاء فيه: «أكثر من ذكر الموت يشغلك عمّا سواه»[5].

---

(١) الروح لابن القيم ص ٧٤.

(٢) سورة البقرة /١٩٧.

(٣) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير. اختصره وعلق عليه / محمد نسيب الرفاعي، وزارة المعارف. المكتبات المدرسية المملكة العربية السعودية ط ٢، سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، ١/١٦١.

(٤) الروح، ابن القيم، ص ٨٠، والحديث رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك، رقم ٩، رقم الحديث ٢٨٩٠، ٥/١٦٤.

(٥) عدة الصابرين، ابن القيم، ص ١١٧، الحديث ضعيف أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» عن سفيان بن شريح مرسلاً. إلا أنه بدل «يشغلك عما» «يسليك مما» ضعيف الجامع. الألباني ١/٣٣٧.

جـ ـ العبادة من حيث هي وسيلة من وسائل التربية الإيمانية:

كما أن الإيمان يؤسس عن طريق النظر على الوجه الذي قدمناه، فإنه يُنَمَّى عن طريق العبادة؛ فالعبادة وسيلة في التربية الإيمانية البنائية، وهذه قضية يوضحها لنا ابن القيم، فإنه يشير:

١ ـ أن العمل الصالح هو ما اشتمل على الإخلاص لله والموافقة لرسول الله ﷺ، فيقول: (... ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلٰهية يجب أن يتفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيَّد بالسنة)[1]، نستفيد من هذه التوجيه حمل المربَّى على مزاولة نوعية خاصة من العمل ألا وهو العمل الصالح الذي يتوفر فيه الإخلاص والموافقة.

٢ ـ أن الدعاء والإلحاح فيه سبب لقرب العبد من ربه وحبه إيّاه وعطائه له، يقول رحمه الله: (... وكلما ألح العبد عليه في السؤال أحبه وقربه وأعطاه)[2]، فالمربِّي الجيد هو الذي يوجه المربَّى إلى الطريقة المثلى في سؤال الله عز وجل، وتوجيه ابن القيم يفيد في ذلك.

٣ ـ أن العمل الصالح الذي لا يطلع عليه أحد ولايشوبه شيء من الرياء سبب للنظر في وجه الرب الكريم يوم القيامة، ولقد استأنس ابن القيم رحمه الله في هذا بقول لعبد الله بن المبارك جاء فيه: (... من أراد النظر إلى وجه الله خالقه فليعمل عملاً صالحاً ولا يخبر به أحداً)[3] وهذا القول يفيد في تعميق الإيمان في نفس المربَّى لأنه يؤمن برؤية الله وعلمه واطلاعه على العمل الذي يقوم به، لذا ينبغي غرس مراقبة الله في قلبه بحثه على إخفاء أي عمل صالح يقوم به.

٤ ـ أن محبة كلام الله وتلاوته تحيي القلب وتشرح الصدر وتنور الوجه. ذكر هذا بقوله: (... وهذه المحبة هي التي تنور الوجه وتشرح الصدر وتحيي

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم، ص ٩١.

(٢) حادي الأرواح، ابن القيم، ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٤١.

القلب، وكذلك محبة كلام الله فإنه من علامة حب الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك سماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب حبيباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه)[1]، فلبناء الإيمان في قلب المربَّى يمكن الاستفادة من هذا التوجيه وحثه على حب كتاب الله وقراءته بالتلذذ وحضور القلب.

٥ ـ أن اليقين بملاقاة الله عز وجل، وعلمه بما يُسره العبدُ وما يعلنه ومساءلته عن كل عمل، لا يجتمع مع تضييع أوامر الله والإقامة على ما يسخطه سبحانه في قلب العبد، يقول رحمه الله: (... وكيف يجتمع في قلب العبد يقينه بأنه ملاقي الله وأن الله يسمع ويرى مكانه ويعلم سره وعلانيته ولايخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه، ومسؤول عن كل ما عمل، وهومقيم على مساخطه، مضيع لأوامره، معطِّل لحقوقه، وهو مع هذا يحسن الظن به، وهل هذا إلّا من خداع النفوس وغرور الأماني)[2].

٦ ـ أن النظر إلى من هو أقل في أمور الدنيا سبب في دوام الشكر لله ومعرفة نعمه وآلائه، وفي دوام الشكر بناء للإيمان، يقول رحمه الله منبهاً إلى ذلك: (... وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ«إذا أحبّ أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من هو تحته، ولا ينظر إلى من فوقه»)[3].

الوسائل الوقائية في التربية الإيمانية:

١ ـ إن الإيمان سر سعادة العبد ونجاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة. والإيمان قول وعمل واعتقاد. وهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وكما أنه

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٧٠.

(٢) المرجع السابق ص ١٤.

(٣) عدة الصابرين ابن القيم، ص ١٠٦ والحديث رواه البخاري بألفاظ متقاربة، في كتاب الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه..، ٤/١٢٧، ورواه أحمد في مسنده ٢/٢٤٣، ورواه الترمذي في اللباس باب ماجاء في ترقيع الثوب، ٣٨، رقم الحديث ١٧٨٠، ٤/٢٤٥.

بحاجة إلى مايزيده ويقويه، فهو بحاجة إلى ما يحفظه ويحميه، وللقلب مكانه في هذا المجال، واستقامة القلب في نظر ابن القيم: (. . . في شيئين أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحابّ، فإذا تعارض حبّ الله تعالى وحبّ غيره، سبق حبّ الله تعالى حب ما سواه. . . الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب تعظيم الأمروالنهي، وهو ناشىء عن تعظيم الآمر الناهي. .)[1].

٢ ـ وابن القيم يرى أن من أسباب وقاية الإيمان معرفة الإنسان لأعدائه الذين يتربصون به الدوائر وهم النفس الأمارة بالسوء والجهل والهوى والشيطان. يقول رحمه الله: (. . . وإنما غره بربه الغرور وهو الشيطان. ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه)[2]، وإذا عرف الإنسان هؤلاء الأعداء واستعان بالله في دفع كيدهم، فإنه سيكون في مأمن من شرورهم. ويسلم له إيمانه وتصفو له عقيدته.

٣ ـ ويرى رحمه الله أن ضعف البصيرة والكِبَر مع مزاولة المعاصي والاستمرار عليها لهما دور خطير في ضعف الإيمان، والوقوع في الآثام. يقول رحمه الله: (. . . فإذا بلغ العبد حد الكِبَر، وضعفت بصيرته ووهت قواه، وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة في غيه. وضعفاً في إيمانه صارت كالملكة له. بحيث لا يتمكن من تركها. فإن كثرة المزاولات تعطي الملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة في الغي والمعاصي كلما صدر عنه واحد منها أثّر أثراً زائداً على أثر ما قبله فيقوى الأثران وهلّم جراً)[3]. ويأخذ من هذا أن في قوة البصيرة حماية للإيمان من الضعف ووقاية له من ذلك.

٤ ـ وابن القيم يوضح أن ترك المناهي يحمي القلب، ويحفظ له إيمانه، وفعل المأمور يغذي القلب ويحفظ له قوته. يقول رحمه الله: (. . .

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص ٦.
(٢) الجواب الكافي، ابن القيم، ص ١٣.
(٣) المفتاح، ابن القيم ١/٢٨٣، ٢٨٤.

إن ترك المناهي من باب الحمية، وفعل المأمور من باب حفظ القوة والغذاء الذي لا تقوم البنية بدونه، ولا تحصل الحياة إلا به، فقد يعيش الإنسان مع ترك الحمية. وإن كان بدنه عليلاً، أشدّ ما يكون علة، ولا يعيش بدون القوة والغذاء الذي يحفظها، فهذا مثل المأمورات والمنهيات)[1]. ثم يصنف البشرية في موقفها من المناهي أصنافاً فبعضها يصعب عليه الفطام عنها، لأن دواعي ارتكابها شديدة فيها، فكفُّها عن ذلك ومعالجتها عليه يكسبها الأجر العظيم، إذا كانت تفعل ذلك طاعة لله وامتثالاً لأمره، فيقول رحمه الله: (. . . فالمناهي من باب حمية النفوس من مشتهياتها ولذاتها والحمية مع قيام دواعي التناول وقوته من أصعب شيء وأشقه، قالوا: ولذلك كان باب قربان النهي مسدداً كله، وباب الأمر إنما يفعل منه المستطاع . . . إن باب المنهيات أضيق من باب المأمورات، وإنه لم يرخص في ارتكاب شيء منه[2] كما رخص في ترك بعض المأمورات للعجز والعذر)[3].

٥ ـ وابن القيم يرى أن الصبر خلق فاضل يحمي القلب من الوقوع في الذنب، كما يحمي الجوارح من مزاولة الذنوب والآثام، ويكون بمثابة السند القوي لفعل الطاعة وامتثال الأوامر فيقول: (. . . . الصبر عن معاصي اللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمية والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وحكاية كلام الناس، والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر ولهذا قال ﷺ لمعاذ: «أمسك عليك لسانك»، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: «وهل يكبُّ الناس في النار على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم». ولا سيما

---

(١) عدة الصابرين، ابن القيم، ص ٢٨.

(٢) لقد رخص للمضطر في أكل الميتة بشروط، مع أن الميتة محرمة، وهناك قاعدة أصولية تقول: «الضرورات تبيح المحظورات» لكن هذه القاعدة مقيدة بقاعدة أخرى وهي: «الأخذ من الضرورة بقدر الحاجة»، هذا ما يعبر عنه بقولهم: الضرورة تقدر بقدرها.

(٣) عدة الصابرين، ابن القيم، ص ٢٧.

إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد فإنه يعز عليه الصبر عنها. ولهذا تجد الرجل يقوم الليل، ويصوم النهار، ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق وربما رخص أهل الصلاح والعلم بالله والدين القول على الله ما لايعلم)(١)، فهو بهذا يضع وصفاً دقيقاً للنفوس البشرية، وعجزها عن الكفّ عن المحرمات وغلبة الهوى واستحواذ الشيطان عليها، وهذا سبْقٌ في معرفة خفايا النفس البشرية من هذا العالم النفسي وهو سبق يسجّل له.

الوسائل العلاجية في التربية الإيمانية:

بعد أن عرفنا الوسائل البنائية للإيمان ووسائل وطرق حماية هذا الإيمان من النقص والخلل كما جاء في رأي ابن القيم، نريد الآن أن نعرف رأيه في الطرق التي تعالج القلب من داء الغفلة، هذا المرض الفتّاك، حتى يصبح الإيمان سليماً معافى يفيء على النفس الأمن والطمأنينة ويشعرها بالسعادة والرضا والسكينة والوقار، فأعظم دواء وأفضل علاج كما يرى رحمه الله اللجوء إلى التوبة والاستغفار وفعل الحسنات والرضا عند المصائب واستغفار الملائكة ودعاء المؤمنين، يقول في ذلك: (... إن باب المنهيات يمحوه الله سبحانه ويبطل أثره بأمور عديدة من فعل العبد وغيره، فإنه يبطله بالتوبة النصوح، وبالاستغفار وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة وباستغفار الملائكة وبدعاء المؤمنين)(٢).

ويلاحظ أن ابن القيم قد ركز على أهمية التوبة والاستغفار بعد أن ذكر شهود الحكمة الإلهية في قضاء السيئات وتقدير المعاصي فذكر من هذه الحكم تسعاً وعشرين حكمة، ثم بيّن أهمية التوبة بصفتها علاجاً ناجعاً في الخلاص من آثار الذنب وبين أنها غاية الكمال الإنساني، فقال رحمه الله:

---

(١) عدة الصابرين، ابن القيم، ص ٥٦، والحديث: رواه، أحمد، في مسنده بألفاظ متقاربة ٥/٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.

(... فالتوبة هي غاية كمال كل آدمي، وإنما كان كمال أبيهم بها...)[1]، ثم بين أن التوبة تقبل إذا حصلت من العبد وقت القدرة والإمكان في الدنيا، فقال عن توبة هذا الإنسان: (... لو أنه تاب وأناب وقت القدرة والإمكان لقُبلت توبته ومحيت سيئاته)[2] أما بالنسبة لمن ينغمس في الشهوات والمعاصي ويسوّف في التوبة، فيقول عنه إنه لا (يبالي بالانهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول إذا قرب الوقت أحدثت توبة...)[3]، فهذا لا تنفعه التوبة.

وابن القيم يذكر ما في التوبة من الفوائد فيقول: (... إن التوبة توجب للتائب آثاراً عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها. فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته فرتب له على ذلك القبول أنواعاً من النعم لا يهتدي العبد لتفاصيلها بل لا يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها)[4].

ومن الوسائل العلاجية الهجرة إلى الله والفرار إليه سبحانه وتعالى، وترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن يقول في ذلك: (... الهجرة أن تهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن)[5].

ومن الوسائل العلاجية أيضاً الصبر عند البلاء والشكر على النعماء والعفو والصفح عن الخلائق والاستغفار من الذنوب، كما يشير ابن القيم إلى هذا بإيراده القول الآتي: (... من ابتلي فصبر، وأُعطي فشكر، وظُلم فغفر، وظَلَم فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[6].

وفي هذا نوع من التوسع في الجانب العلاجي حيث إذا حل البلاء

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٢٨٦.
(٢) المرجع السابق ١/٢٨٤.
(٣) المرجع السابق ١/٢٨٣.
(٤) المرجع السابق ١/٢٩٤.
(٥) حادي الأرواح، ابن القيم ص ١٤٤.
(٦) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١١٦.

بالعبد عالج قلبه بالصبر لتخليصه من داء الجزع، وإذا ابتلي بالخيرات والنعم عالجها بالشكر، خلاصاً من داء الشح والبخل وكفران النعم، وإذا ظلمه الناس عالج قلبه بالعفو عنهم والصفح والمغفرة، وخلص قلبه من داء الانتقام والعدوان، وإذا حصل منه الظلم استغفر وأناب وخلص قلبه من داء العداوة والبغضاء والحقد.

ثمار التربية الإيمانية:

بعد هذا الاستعراض لوسائل التربية الإيمانية البنائية ووسائل التربية الإيمانية الوقائية، وللوسائل العلاجية للتربية الإيمانية، يجدر بنا التعرف على ثمار هذه التربية كما يراها ابن القيم، فمن ثمارها، ما يأتي:

١ ـ نيل جزاء الله ورضوانه والتمتع بنعيم الجنة، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أشار رحمه الله إلى هذا بذكر حديث: (... في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» مصداق ذلك في كتاب الله: **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**)[١].

٢ ـ انشراح الصدر وطيب العيش في الدنيا، والنعيم الدائم في الآخرة، يقول رحمه الله: (.. والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش، وضاقت بهم الدنيا. والفجّار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾** وطيب الحياة جنة الدنيا قال تعالى: **﴿فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً..﴾** فأي نعيم أطيب من شرح الصدر وأي عذاب أضيق من ضيق الصدر)[٢].

---

(١) حادي الأرواح، ابن القيم ١٩٧، والحديث رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، ٢/٢١٧. سورة السجدة /١٧.

(٢) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٣٩، سورة النحل / ٩٧، سورة الأنعام / ١٢٥.

٣ ـ نُضرة الوجه وسعة العيش ونعيم الجنة في الآخرة، قال رحمه الله تعليقاً على قول الله عز وجل ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾[1]: (. . . فإن في الصبر من الخشونة وحبس النفس عن شهواتها ما اقتضى أن يكون في جزائهم من سعة الجنة ونعومة الحرير ما يقابل ذلك الحبس والخشونة، وجمع لهم بين النضرة والسرور وهذا جمال ظواهرهم وهذا جمال بواطنهم، كما جمَّلوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام وبواطنهم بحقائق الإيمان)[2].

٤ ـ سلامة القلب من الريب والشك وجميع الأمراض، وامتلاؤه نوراً وشكراً وذكراً لله، فيقول رحمه الله: (. . . فإذا باشر القلبَ اليقينُ امتلأ نوراً وانتفى عنه كل ريب وشكّ وعوفي من أمراضه القاتلة وامتلأ شكراً لله وذكراً له ومحبة وخوفاً فيحيا عن بيِّنة)[3].

٥ ـ طمأنينة النفس، يقول ابن القيم: (. . . فللتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق)[4]، وسكون القلب والحماية من القلق والاضطراب، فالمؤمن كما يقول ابن القيم: (. . . يطمئن من قلق الغفلة والإعراض إلى سكون الإقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق الروح بحبه ومعرفته فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً، ولو انصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب)[5].

٦ ـ معية الملك للمؤمن ودفاعه عنه وتثبيته له وتعليمه إيّاه، يقول رحمه الله: (. . . فملك المؤمن يردّ عليه، ويحارب ويدافع عنه، ويعلّمه ويثبِّته ويشجعه)[6].

---

(١) سورة الإنسان / ١٢.

(٢) حادي الأرواح، ابن القيم ص ١٣٣.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/١٥٤.

(٤) الروح، ابن القيم ص ٢٢٢.

(٥) المرجع السابق ابن القيم ص ٢٢٢.

(٦) الجواب الكافي، ابن القيم ص ٧٥.

٧ ـ فرح القلب وطربه وانتعاشه عند التوبة من الذنب والإقبال على الله يقول رحمه الله: (. . . وتأمل كيف تجد القلب يرقص فرحاً وأنت لا تدري بسبب[*] ذلك الفرح ما هو، وهذا أمر لا يحس به إلا حي القلب، وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب)[1].

٨ ـ سلامة الفطرة بالبعد عن عبادة الأوثان والأنداد، لأنها لا تجد مكاناً لها في قلب المؤمن الذي تشرب بحلاوة الإيمان، يقول ابن القيم مشيراً إلى هذا: (. . . فإذا كان في القلب وجد أن حلاوة الإيمان وذوق طعمه أغناه ذلك عن محبة الأنداد وتأليهها، وإذا خلا القلب من ذلك احتاج إلى أن يستبدل به ما يهواه ويتخذه إلهه، وهذا من تبديل الدين، وتغيير فطرة الله التي فطر عليها عباده)[2].

٩ ـ صحة المعرفة وصحة الإرادة، يقول رحمه الله: (. . . والإيمان واليقين يورثان صحة المعرفة وصحة الإرادة)[3].

---

(١) المفتاح، ابن القيم، ١/٢٩٤.

(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ٢/١٥٦.

(٣) الفوائد، ابن القيم، ص ٨٥.

(*) هكذا، ولعل الصواب، (سبب) والله أعلم.



الفصل الثاني

التربية الروحية

تمهيد .

مفهوم الروح

* معاني الروح .
* تعريف الروح .
* علاقات الروح .
* صفات الروح .
* تميز الأرواح .
* سرعة الروح وقوة نفاذها .
* هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة .

أنواع النفوس وأحوالها :

* الروح والنفس .
* الصحة النفسية .
* أمراض الروح .
* علاج أمراض الروح .
* سلامة الروح عون على شفاء أمراض البدن .

تربية الروح .

نتائج تربية الروح .



التربية الروحية

تمهيد:

لقد مر بنا أن الإنسان عبارة عن مجموع الروح والبدن والعقل، فالتربية المتزنة هي التي تراعي جميع هذه العناصر، ولا تهتم بعنصر دون آخر، ولابن القيم رحمه الله اهتمام كبير بالتربية الروحية، ومما يدل على ذلك ما ألفه في الروح وما كتبه عنها في ثنايا كتبه الكثيرة، وإننا في هذا الفصل سنبين جانباً من جوانب التربية وسنستطلع رأيه في مفهوم الروح، فنذكر معاني الروح، وتعريف الروح، وعلاقات الروح، وصفات الروح، وتميز الأرواح، وسرعة الروح وقوة نفاذها، ثم نوضح أن الروح التي يعنى ابن القيم بتربيتها ذات مخلوقة مدبرة مربوبة وأنها ليست جزءاً من ذات الله، كما يتصور بعض من يحتج بقوله عز وجل ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِين فَإِذَا سَوَّيْتُه وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين**﴾[1].

كما نبين في هذا الجانب من جوانب التربية أنواع النفوس وأحوالها، فنذكر رأيه رحمه الله في الروح والنفس فهل هما شيء واحد؟ أم إنهما شيئان مختلفان، ثم نذكر الصحة النفسية كما يراها رحمه الله، ونذكر أمراض الروح، وعلاج هذه الأمراض.

ثم نميط اللثام عن رأيه في تربية الروح ونتائج هذه التربية. وسنأخذ جانب الاختصار في عرض هذه الأفكار بما يتلاءم وظروف البحث واحتياج الرسالة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) سورة ص / ٧١، ٧٢.

مفهوم الروح:

معاني الروح:

ذكر ابن القيم رحمه الله أن الروح وردت في القرآن والسنة لمعان كثيرة ومتعددة: (... منها:

١ ـ الوحي المنزل في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾[1].

٢ ـ القوة والثبات والنصرة التي يؤيد الله بها من شاء من عباده المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمِ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[2].

٢ ـ إنها تطلق على جبريل أمين الوحي عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينَ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِين﴾[3].

٤ ـ إنها تطلق على الروح التي سأل عنها اليهود، فأجيبوا بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوح مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[4].

٥ ـ إنها تطلق على المسيح بن مريم ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلمَسِيحُ عِيسَىٰ ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيم وَرُوحٌ مِنْهُ﴾[5].

هذا وإن أرواح بني آدم لم ترد في القرآن إلا بمسمى النفس لكنها وردت في السنة بلفظ النفس والروح...)[6].

(١) سورة الشورى /٥٢.

(٢) سور المجادلة /٢٢.

(٣) سورة الشعراء / ١٩٣، ١٩٤.

(٤) سورة الإسراء / ٨٥.

(٥) سورة النساء /١٧١.

(٦) انظر الروح، ابن القيم، ص ١٥٤.

وقد أشار ابن القيم إلى أن النفس في القرآن تطلق على ذات الإنسان وشخصه وقد تطلق على الروح وحدها، بعكس الروح فإنها لا تطلق على البدن وحده، كما أنها لا تطلق عليه مع النفس، فقال رحمه الله: (... والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها، كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[1]... وتطلق على الروح وحدها، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[2]... وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس)[3].

وابن القيم يبيّن الحكمة من تسمية ما أوحاه الله على رسله روحاً فيقول: (... وسمّى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة؛ فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة، بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة)[4].

ونحن مرادنا بالروح: ذلك الجسم الذي خلقه الله من مادة علوية والمتصف بصفات تميزه عن غير، والذي لا تدركه الحواس لكن آثاره وظواهره مدركة معلومة. والروح بهذا المعنى هي عنصر من مكونات هذا الإنسان بجانب ما وهبه الله من عقل، وما ركّبه عليه من شكل وصورة.

تعريف الروح:

إذا كان البدن يمكن وصفه، لأنه يدرك بالحواس، فيوصف بالطول والقصر والبياض والسواد إلى غير ذلك من الأوصاف، فإن الروح: (شيء مبهم غامض ليست له حدود، وهذا الإبهام في طبيعة الروح، والغموض الذي يحيط بها، والعجز عن إدراك كنهها هو الذي أغرى الماديين في العصور الحديثة أن يهملوها... كل ما لا تراه الحواس - في نظرهم - فهو غير موجود: والروح لا ترى بالحواس.. فهي إذاً شيء ليس له وجود)[5].

---

(١) سورة النور / ٦١.

(٢) سورة الفجر / ٢٧.

(٣) الروح، ابن القيم، ص ٢١٧.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٨.

(٥) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ١/٣٨.

وإذا كانت الروح شيئاً مبهماً لا تدركه الحواس، فإن آثارها على السلوك يمكن إدراكها فـ (الروح لا يعرف إلا بآثاره وهو دبيب الحياة في البدن وسريان حرارته فيه)[1].

وما ذكره بعض التربويين عن الروح سبقهم إليه ابن القيم. يقول رحمه الله في تعريفه للروح إنها: (جسم مخالف في الماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني علوي خفيف متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريانَ الماء في الورد، وسريانَ الدهن في الزيتون، والنّار في الفحم فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف شابكاً لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والإرادة)[2]، وهذا قول صريح منه رحمه الله أن الروح جسم مخلوق منفصل بذاته، لها صفاتها المميزة ولا تدركها الحواس، لكن آثارها على الجسم يمكن إدراكها.

علاقات الروح:

يشير ابن القيم أن للروح علاقة وثيقة بالبدن، فحياته مرتبطة ببقائها فيه، فإذا فُقدِت الروحُ منه فقد الحياة. يقول في مسمى الروح والنفس: (... وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن.. فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها، وسميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً)[3]، وهو بهذا يؤكد ما ذكره من قبل أن النفس هي الروح في بعض معانيها.

وابن القيم يشير إلى أن الروح التي اقترنت بهذا البدن خلقت من مادة علوية فقال: (... وهي جوهر علوي مخلوق من مادة علوية)[4]، وهي بهذا

---

(١) في أصول التربية وتاريخها، د/ أحمد عبد الرحمن عيسى ط ٢، سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م. دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ص ٦٣.

(٢) الروح، ابن القيم، ص ١٧٨.

(٣) الروح، ابن القيم ـ ص ٢١٧.

(٤) المفتاح، ابن القيم، ١/ ١٥٠.

الارتباط تشعر بالغربة وتحنّ إلى مكانها العلوي، إلا أنها أحياناً لشدة انشغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة تنسى معْلمها ووطنها وتخلد إلى الأرض. يقول رحمه الله: (الروح في هذا البدن بدار غربة، ولها وطن غيره فلا تستقر إلا في وطنها... وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكثيف فهي دائماً تطلب وطنها في المحل الأعلى، وتحنّ إليه حنين الطير إلى أوكارها. وكل روح فيها ذلك. ولكن ـ لفرط اشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة ـ أخلدت إلى الأرض، ونسيت معْلمها ووطنها الذي لا راحة لها في غيره؛ فإنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه، والدنيا سجنه حقاً؛ ولهذا تجد المؤمن بدنه في الدنيا، وروحه في المحل الأعلى)[1].

وبين الأرواح علاقات؛ فالأرواح يلتقي بعضها ببعض وتتعارف كما تتعارف الطير على رؤوس الشجر، وذلك بعد مفارقتها للأجساد، يذكر ابن القيم ما جاء في السنة بهذا الشأن. فيقول: (... وقد جاءت سنة صريحة بتلاقي الأرواح وتعارفها، قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن عبدالله بن بزيع أخبرني فضيل بن سليمان النمري، حدثني يحيى بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن جده قال: لما مات بشر بن البراء بن معرور وجدت عليه أمّ بشر وجداً شديداً فقالت: يا رسول الله إنه لا يزال الهالك يهلك من بني سلمة، فهل يتعارف الموتى فأُرسلَ إلى بشر بالسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، والذي نفسي بيده يا أمّ بشر إنهم ليتعارفون كما تتعارف الطير في رؤوس الشجر..»)[2].

ويشير ابن القيم إلى أن أرواح الأحياء تتلاقى أحياناً مع أرواح الموتى في المنام. يقول في ذلك: (... تلتقي أرواح الأحياء والأموات كما تلتقي أرواح الأحياء، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/١٥٠.

(٢) الروح، ابن القيم، ص ١٩.

مُسَمًّى، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾ . . . عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها)[١].

ويشير أيضاً إلى أن أرواح الأحياء أيضاً تلتقي بعضها مع بعض، فإن تعارفت ائتلفت وإن تناكرت اختلفت، وقد أورد ابن القيم أثراً يدل على هذا فقال: (. . . وروى جعفر بن عوم عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «إن الأرواح جنود مجندة، تتلاقى فتشامُّ كما تشامُّ الخيل فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)[٢].

ويذكر ابن القيم أيضاً أن أرواح المؤمنين المتحابين تتلاقى ولو فصلت بينها مسافات طويلة، يقول رحمه الله: (. . . ومن العجب أن أرواح المؤمنين المتحابين المتعارفين تتلاقى وبينها أعظم مسافة وأبعدها. فتتآلم[٣] وتتعارف، فيعرف بعضها بعضاً كأنه جليسه وعشيره، فإذا رآه طابق ذلك ما كان عرفته روحه قبل رؤيته)[٤].

صفات الروح:

لقد مر بنا تعريف ابن القيم للروح بأنها جوهر علوي مخلوق من مادة علوية فهل لهذا الجوهر صفات؟ وهل له آثار في البدن؟ وإذا كانت له صفات وآثار فهل هناك أدلة على ذلك؟ إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة يطالعنا بها ابن القيم بقوله: (. . . دلت النصوص الصحيحة الصريحة على أنها [الروح][*] تصعد وتنزل وتُقبض وتُمسك وتُرسل وتُستفتح لها أبواب السماء، وتسجد

---

(١) الروح، ابن القيم، ص ٢٠، سورة الزمر / ٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ٣١.

(٣) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب «فتتآلف» والله أعلم.

(٤) الروح، ابن القيم، ص ١٠٣.

(*) زيادة للإيضاح.

وتتكلم، وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة وتكفن وتحفظ في أكفان الجنة أو النار، وأن ملك الموت يأخذها بيده، ثم تتناولها الملائكة من يده، ويُشمُّ لها كأطيب نفحة مسك أو أنتن جيفة، وتشيع من سماء إلى سماء ثم تعاد إلى الأرض مع الملائكة، وأنها إذا خرجت تبعها البصر بحيث يراها وهي خارجة، ودلّ القرآن على أنها تنتقل من مكان إلى مكان حتى تبلغ الحلقوم في حركتها)[١].

لكن هذه الصفات والهيئات والأفعال والحركات لا يراها البشر، لكن قد يشاهدون ويلاحظون آثار ذلك في البدن، فإن كانت الروح طيبة وصالحة وتقية ظهر أثر ذلك أعمالاً خيرة في أقوال الإنسان وأفعاله، وإن كان سيئة خبيثة صدر من هذا الإنسان كل فحش وسوء وعمل شائن خبيث. وتربية الروح تستلزم صلاحها واستقامتها لتصدر منها الأفعال الطيبة والأعمال الخيرة، كما تستلزم إصلاح ما فسد منها، وبالتالي كفَّها عن فعل الشرور وأعمال السوء.

ويذكر ابن القيم أن الروح الطيبة تستقبلها الملائكة عند مفارقة البدن أحسن استقبال وتكافئها على أعمالها أعظم مكافأة، ويصحبها عند خروجها من البدن نور وضياء، وريح طيّب ورضوان من الله. يقول في ذلك: (... ثم يمدّ الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه ثم تخرج فيخرج لها نور مثل شعاع الشمس، ورائحة أطيب من رائحة المسك والحاضرون لايرون ذلك ولا يشمُّونه..)[٢].

وابن القيم كما يرى أن الروح محدثة مخلوقة يرى أنها تموت؛ لأن الله يقول: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾[٣]، لكن موتها ليس عدماً محضاً بل موتها مفارقة البدن وعيشها في حياة برزخية منعّمةً أو معذّبةً. وتبقى على هذه الحال حتى يعيدها الله إلى البدن يوم الجزاء الأوفى وينالها وإيّاه النعيمُ أو العذابُ حسب

---

(١) الروح، ابن القيم، ص ١١١.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٥.

(٣) سورة الرحمن / ٢٦.

مـا قدم العبـد من عمل. يقـول رحمـه الله عن مـوتهـا: (. . . هـو مفـارقتهـا لأجسادها وخروجها منها؛ فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة المـوت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحلّ وتصير عدماً محضاً فهي لا تموت بهذا الاعتبـار، بل هي بـاقيـة بعـد خلقهـا في نعيـم أو في عـذاب. . . حتى يـردهـا الله في جسدها)[1].

تميُّز الأرواح:

إذا كـانت الأبـدان يختلف بعضهـا عن بعض في الصفـات والأشكـال، فالأرواح في نظر ابن القيم أشد اختلافاً وتبايناً من الأجساد، يقـول رحمه الله: (. . وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاتـه؛ ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيـراً وبين روحيهما أعـظم التباين والتميـز، وأنت ترى أخـوين شقيقين متشابهين في الخلقـة غايـة الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين. . .)[2].

ثم يـذكر رحمـه الله أن تباين الأرواح واختـلافها في المصيـر والمـرجـع أعـظم من هذا التبـاين وهذا الاختـلاف. فيقول: (. . . الأرواح متفـاوتـة في مستقـرهـا في البـرزخ أعـظمَ تفـاوت فمنهـا أرواح في أعلى علّيّين في المـلأ الأعلى، وهي أرواح الأنبيـاء صلوات الله وسـلامـه عليهم. . ومنهـا أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء. . ومنهـا ما يكـون محبوساً على باب الجنـة. . ومنها ما يكون محبـوساً في قبـره كحـديث صاحب الشملة. . . ومنهم من يكـون محبوسـاً في الأرض لم تصـل روحه إلى الملأ الأعلى، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية، فـإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية. . . ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني. . . وأرواح في بحر الدم. . .)[3].

---

(١) الروح، ابن القيم، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠.

(٣) المـرجـع السابق، ص ١١٥، حـديث صاحب الشملة رواه البخـاري، كتاب المغـازي باب / =

وكل هذا ثمار لنوع التربية التي تلقتها هذه الأرواح، فإن كانت تربية إيمانية مبنية على مراقبة الله وحبّه والخشية والخوف منه نالت حظها من السعادة في الدنيا بالأمن النفسي والطمأنينة، ونالت في الآخرة حظها من مثوبة الله ورضوانه والجنة. وإن كانت تربية سيئة مجانبة للإيمان والتقوى عاشت في الدنيا في شقاء وقلق وضنك وهم وغم وحزن، قال تعالى: ﴿... **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[1]، ونالت في الآخرة ما تستحقه من عذاب وألم وحسرة، قال تعالى: ﴿**وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً، قَالَ كَذَلِكَ آتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَها وَكَذَلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنْسَى**﴾[2].

يقول ابن القيم رحمه الله: (... أخبر رسول الله ﷺ أنه رأى الأرواح ليلة أُسري به عند سماء الدنيا. عن يمين آدم أرواح أهل السعادة، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة... وأخبر بأن نسمة المؤمن وهي روحه طائر يعلق في[3] شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها[*]. وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وأخبر أن الروح تعذب وتنعم في البرزخ إلى يوم القيامة، وقد أخبر سبحانه عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدواً وعشياً قبل يوم القيامة)[4]، يعني قوله تعالى: ﴿**ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وَعَشِياً وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ**﴾[5]

= غزوة خيبر ٣/٥٤، ويشير ابن القيم رحمه الله بقوله: (... ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني.. وأرواح في بحر الدم..) إلى حديث رواه البخاري في كتاب التعبير باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح ٤/٢٢٠.

(١) سورة طه / ١٢٤.

(٢) سورة طه / ١٢٥، ١٢٦.

(٣) هكذا في الأصل ولعله تصحيف والصواب «من» والله أعلم.

(٤) الروح، ابن القيم ص ٣٩ يشير ابن القيم بقوله: (... أن أرواح الشهداء...) إلى حديث رواه مسلم. كتاب الامارة باب في بيان أن أرواح الشهداء في الجنة ٦/٣٩.

(٥) سورة غافر / ٤٦.

(*) أن نسمة المؤمن... رواه أحمد في مسنده ٣/٤٦٠.

سرعة الروح وقوة نفاذها:

إذا كان من صفات الروح عند ابن القيم الحركة والخروج والصعود، فإنه يصف هذه الحركة بالسرعة الشديدة التي لا يتخيل الإنسان مداها، فالروح لديها المقدرةُ على اختراق السموات والنفاذ منها والعود إلى الأرض بأسرع ما يكون، ولقد ورد في الحديث أن الميت إذا سُلِّم عليه يرجع الله روحَه إليه فيردُّ السلام، وأن الميت إذا مات صعد بروحه إلى السموات فتكون في علِّيِّن أو سجِّين. يقول رحمه الله: (... الروح تكون فوق السموات في أعلى علِّيين وتردّ إلى القبر فتردُّ السلام، وتعلم بالمسلِّم وهي في مكانها هناك... وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق، وتسجد لله بين يدي العرش، ثم تردُّ إلى جسده في أيسر زمان، وكذلك روح الميت تصعد بها الملائكة حتى تجاوزَ السموات السبع، وتقفُ بين يدي الله وتسجد له فيقضى فيها قضاء، ويريها الملك ما أعده الله لها في الجنة، ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه)[1].

هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة؟:

الرأي الصواب أن الروح مخلوقة، وهو رأي السلف، ذكر هذا ابن تيمية رحمه الله عندما سئل (... عن الروح هل هي قديمة أو مخلوقة؟)[2] فأجاب بقوله: (روح الآدميّ مخلوقة، مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين)[3]، ونقل هذا عنه ابن القيم في كتابه «الروح»[4].

وفي هذا رد على من يقول بقدم الروح، أو أنها من ذات الله عز وجل، يقول ابن تيمية رحمه الله: (... واعلم أن القائلين بقدم الروح صنفان:

(١) الروح، ابن القيم ص ١٠١.

(٢) الفتاوى، ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط ٢١٦/٤.

(٣) المرجع السابق ٢١٦/٤.

(٤) انظر كتاب الروح، ابن القيم، ص ١٤٥.

صنف من الصابئة الفلاسفة، يقولون: هي قديمة أزلية لكن ليست من ذات الربّ. . .، وصنف: من زنادقة هذه الأمة، وضُلاَّلِهَا من المتصوفة والمتكلمة والمحدثة يزعمون أنها من ذات الله. . .)[1].

وابن القيم رحمه الله عقد فصلاً في كتاب الروح، تحت المسألة السابعة عشرة بعنوان: «هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة؟»[2]، فقال: (. . فهذه مسألة زل فيها عالم، وضل فيها طوائف من بني آدم. وهدى الله اتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة. هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث، وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق له. وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة[3] على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة، حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة، فزعم أنها قديمة غير مخلوقة، واحتج بأنها من أمر الله، وأمره غير مخلوق، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده، وتوقف آخرون فقالوا: لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة. .)[4].

ثم رد رحمه الله زعم من يقول بأنها قديمة غير مخلوقة، وأبطل احتجاجهم بأنها من أمر الله، وأمره غير مخلوق. فقال: (. . . وأما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فمعلوم قطعاً أنه ليس المراد ها هنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر ها هنا المأمور وهو عرف مستعمل في لغة العرب وفي

---

(١) الفتاوى، ابن تيمية ٤/٢٢١، ٢٢٢.
(٢) الروح، ابن القيم، ص ١٤٤.
(٣) هكذا، ولعله تصحيف. والصواب: «المفضلة» والله أعلم.
(٤) الروح، ابن القيم، ص ١٤٤.

القرآن منه كثير كقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي مأموره الذي قدره وقضاه، وقال له كن فيكون، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لما جَاءَ أمر رَبِّك﴾ أي مأموره الذي أمر به من إهلاكهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق، كقوله تعالى للجنة أنت رحمتي، فليس في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما..)[1].

كما أبطل احتجاجهم بأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده، فقال: (... وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه، بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها؛ فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه، والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكاً له، وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلـهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته، حيث تقتضي خلقه وإيجاده، فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة، لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفات...)[2].

---

(١) الروح، ابن القيم، ص ١٥٠، ١٥١، سورة الإسراء /٨٥، سورة النحل /١، سورة هود /١٠١، سورة النحل /٧٧، سورة الإسراء /٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٤، سورة الحجر/٢٩، سورة القصص/٦٨.

ثم أورد رحمه الله إجابة أبي عبدالله بن مندة عندما سئل عن الـروح هل هي قديمة أو محدثة مخلوقة؟ حيث قال: (. . . ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها وكونها، واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه﴾)[1].

ثم استوفى الأدلة على أن أرواح بني آدم مخلوقة، وعقد لذلك فصلاً في كتاب الروح، بعنوان: «والذي يدل على خلقها وجوه»[2] ثم ذكر اثني عشر وجهاً في ذلك.

نخلص من هذا إلى أن أرواح بني آدم مخلوقة، وليست هي من ذات الله، وليست هي بعض الأمر أو من جنسه، يقول ابن تيمية: (. . . فقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ليس نصاً في أن الروح بعض الأمر، ومن جنسه بل قد تكون لابتداء الغاية، إذ كونت بالأمر وصدرت عنه، وهذا معنى جواب الإمام أحمد في قوله: ﴿وروح منه﴾. . من أمره كان الروح منه، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْه﴾، ونظير هذا أيضاً قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّه﴾. . .)[3].

أنواع النفوس وأحوالها:

بعد أن عرفنا رأي ابن القيم في مفهوم الروح، فبين لنا معاني الروح وتعريفها وعلاقاتها وصفاتها، وتميز بعضها عن بعض وسرعتها وقوة نفاذها، وأنها خلق من خلق الله، وليست من ذاته سبحانه، بعد هذا نريد أن نعرف أنواع النفوس وأحوالها، وما يصاحب كل نوع. فهو يذكر أن النفوس ثلاثة

---

(١) الروح ابن القيم، ص ١٤٥، سورة الجاثية /١٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٦.

(٣) الفتاوى، ابن تيمية ٢٢٨/٤، ٢٢٩، سورة الإسراء /٨٥، سورة النساء /١٧١، سورة الجاثية /١٣، سورة النحل /٥٣.

أنواع: النفس الأمارة، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، فإذا كان من أنواع النفوس النفس الأمارة، والنفس المطمئنة فإنه يرى أن النفس الأمارة معها شيطان يحدوها ويشجعها والنفس المطمئنة معها ملك يطمئنها ويشجعها على فعل الطاعات، وبينهما عداء مستحكم. يقول رحمه الله: (... وقد ركَّب الله سبحانه وتعالى في الإنسان نفسين: نفساً أمّارة، ونفساً مطمئنة وهما متعاديتان، فكل ما خفّ على هذه ثقل على هذه، وكل ما التذت به هذه تألّمت به الأخرى، فليس على النفس الأمارة أشقُّ من العمل لله وإيثارِ رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه، وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وإجابة داعي الهوى، وليس عليها شيء أضرّ منه؛ والملك مع هذه عن يمين القلب، والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب)[1].

والنفس اللوامة الملومة عنده هي التي استحكم عليها الجهل وطبع عليها الهوى، فيلومها الله على فعلها، ويلومها اللائمون من الملائكة المقرّبين وعباد الله المؤمنين، والنفس اللّوامة غير الملومة هي التي تعرف ما لها وما عليها، وتعرف جوانب الكمال والنقص في العبادة فتلوم صاحبها على التقصير في الطاعة وعدم الاستزادة. يذكر ابن القيم هذا التقسيم بقوله: (... اللوامة نوعان: لوامة ملومة؛ وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته، ولوامة غير ملومة؛ وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة)[2].

الروح والنفس:

وابن القيم يرى أن النفس هي الروح من حيث الذات، لكن الاختلاف في الصفات، فعلى هذا توصف النفس بأنها مطمئنة أو أمارة، أو لوامة ملومة، أو لوامة غير ملومة. يقول رحمه الله: (.. فالفرق بين النفس والروح فرق

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٠٩.

(٢) الروح، ابن القيم ص ٢٢٦.

بالصفات لا فرق بالذات)[1]، بمعنى أنهما شيء واحد باعتبار الذات، وثلاث باعتبار الصفات. يقول رحمه الله: (... فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها)[2].

ولقد ذكر رحمه الله أقوال الطوائف المختلفة في أن الروح غير النفس. وقال بعد ذلك: (قلت: أما الروح التي تتوفى وتقبض فهي روح واحدة، وهي النفس)[3].

الصحة النفسية:

إن صحة الروح وسلامتها تقوم بتخليصها من القلق والاضطراب والانزعاج والهمّ والغمّ والحزن، ومتى تخلصت من هذه الأدواء فإنها تعيش في أمن وراحة وطمأنينة وسعادة وفرح وسرور، وهذا لا يتأتى إلا بالإيمان بالله والثقة بما عنده ففي ذلك السعادة النفسية الكاملة، و(لقد أجمعت الأديان السماوية على أن السعادة هي ثمرة مؤكدة للإيمان)[4]، وابن القيم يرى: (أن طمأنينة القلب وسكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز، قضى الله سبحانه قضاء لا مردّ له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائناً من كان بل لو اطمأن العبد إلى علمه وماله وعمله سُلبه وزال عنه)[5].

وابن القيم المربِّي الخبير والطبيب النفسي الماهر يحذر من التعلّق بغير الله سبحانه وتعالى، لأن في هذا القلقَ والحيرةَ، فيقول: (... وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضاً لسهام البلاء... ليعلم عباده

(١) الروح. ابن القيم ص ٢١٨.
(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/٧٦.
(٣) الروح، ابن القيم، ص ٢١٩.
(٤) التوجيه والإرشاد النفسي، د / حامد زهران، ص ٣٢٤، ٣٢٥.
(٥) الروح، ابن القيم ص ٢٢٠، ص ٢٢١.

وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع)[1] ويحدّد حقيقة الطمأنينة ويربطها بمعرفة الله بأسمائه وصفاته، وتصديق خبره وأخذه بالقبول والتسليم والإذعان له وانشراح القلب به وفرح القلب وطربه له. يقول رحمه الله: (وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبرت به رسلُه فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان، وانشراح الصدر له وفرح القلب به. . .)[2]، ثم يبيّن رحمه الله أن القلب يعيش في قلق واضطراب حتى يداخله الإيمان بأسماء الربّ، فيكون قد ولج في الطمأنينة، ثم تزداد هذه الطمأنينة وتقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات الله. وهذه الطمأنينة من أصول الإيمان، ثم يطمئن القلب أخيراً إلى ما أُخبر به بعد الموت من أحوال الآخرة، حتى لكأنه يشاهد ذلك عياناً. يقول رحمه الله: (فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب(*) حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوّه على عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه. . . فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه وهذا أمر لا نهاية له، فهذه الطمأنينة أصل من أصول الإيمان التي قام عليها بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً، وهذه حقيقة اليقين. . .)[3].

ويرى ابن القيم أن هذه الطمأنينة منة من الله وعطاء. منة يستحق عليها الشكر والحمد والثناء، وهذه منزلة تهدي الروح إلى الله فيخشع القلب عندئذ وتذعن الجوارح ويلين البدن. قال رحمه الله: (فالطمأنينة إلى الله سبحانه

---

(١) الروح. ابن القيم ص ٢٢١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢١.

(*) باب معرفة أسماء الله وصفاته.

(٣) الروح، ابن القيم، ص ٢٢١، مطبعة محمد علي صبيح بميدان الأزهر ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م.

حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه، وتردّ قلب الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به ويبطش به، فتسري تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة، تجذب روحه إليه ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه... ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وذكره وهو كلامه الذي أنزله على رسوله ﷺ)[1] ومما يشير إليه ابن القيم أن النفس إذا أطمأنت لذكر الله وتلاوة كتابه أيقنت بلقائه، ومدار هذه الطمأنينة على العلم الذي يُعرفها ما أخبر الله به في كتابه، وما أخبر به رسوله ﷺ. يقول رحمه الله عن هذه النفس المطمئنة، أنها: (... هي التي أيقنت بلقاء الله، فكلام السلف في المطمئنة يدور على هذين الأصلين: طمأنينة العلم والإيمان، وطمأنينة الإرادة والعمل...)[2].

أمراض الروح:

إن مرض الروح أخطر على الإنسان وأعظم ضرراً وأشد فتكاً من مرض البدن. وأمراض الروح في نظر ابن القيم متعددة: منها مرض الشهوة، ومنها مرض الشبهة، ومنها الغفلة عن المصير المحتوم؛ هذه الغفلة التي تكون سبباً في ارتكاب المعصية، ومنها الاتكال على عفو الله ومغفرته، وهذا من أمانيّ النفس، قال تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُم وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ**﴾[3]، ومنها التسويف بالتوبة والاستغفار باللسان، ومنها الاتكال على فعل المندوبات، ومنها الاحتجاج بالقدر، ومنها متابعة الغير والتقليد له، يقول رحمه الله: (... فإن العبد يعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة والاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء تارة،

---

(١) الروح، ابن القيم ص ٢٢٠.
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٣.
(٣) سورة النساء /١٢٣.

وبالاقتداء بالأكابر تارة. وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: استغفر الله زال أثر الذنب وراح هذا بهذا. . .)[1].

وابن القيم يرى أن الغفلة تُعمي العاقل عمّا يصلح حاله ويسعده في دنياه وآخرته ويطمئنه. فيقول رحمه الله: (. . . فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده، وما تتقاضاه أوامر الربّ تعالى ونواهيه وأحكامه من الحكم، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك، ويقعده عن الاستدراك سنة القلب؛ وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات فاشتد إخلاده وركوده، فانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات، ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو في رقاده مع النائمين، وفي سكرته مع المخمورين)[2]، فالغافل في نظر ابن القيم محجوب عن حقيقة الإدراك ومقعد عن الاستدراك قلبه راكد عن عظائم الأمور، نزاع إلى الشهوات منغمس فيها وهو يعتاد كل قبيح ويخالط كل سفيه من أهل البطالات مضيعي الأوقات لا هم لهم إلا الملاهي والمعاصي، والمنكرات، فهو بمنزلة النائم، يقول رحمه الله: (. . . فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه)[3] فمرض الغفلة وغيره من أمراض الروح للشيطان فيها دور كبير، فهو الذي أخذ العهد على نفسه وأقسم بعزة الله أن يغوي بني آدم، فقد حكى الله عنه ذلك بقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. . .﴾[4]، وابن القيم يصف حال الشيطان وهو يخطط مع حزبه وأعوانه لغواية الإنسان وإفساد روحه، فيقول رحمه الله: (. . . أقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب في حصنه جالساً على كرسي مملكته. أمره نافذ في أعوانه وجنده قد حصنوا به[5]

---

(1) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١١.

(2) الروح، ابن القيم ص ٢٢٣.

(3) المرجع السابق، ص ٢٢٣.

(4) سورة ص /٨٢، ٨٣.

(5) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب: قد حصنوه، والله أعلم.

يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته، فلم يمكنهم الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه، فسأل عن أخص الجند به، وأقربهم منه منزلة، فقيل له: هي النفس، فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها، وانظروا مواقع مجتهدها، وما هو محبوبها، فعدوها به ومَنّوها إيّاه وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها، فإذا اطمأنت إليه وسكنت عنده، فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها، ثم جروها بها إليكم، فإذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه، ملكتم ثغر العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل)[1].

يلاحظ من هذا أن أخطر مدخل على الإنسان لإضلاله وغوايته - في رأي ابن القيم - شهوات النفس ومرغوباتها، فالشيطان بجنده وحزبه يستغل هذا المدخل، فيؤز النفس إلى الشهوات حتى تستسلم وتستكين، فيستعين بها في إفساد القلب حتى يغفل عن الله وذكره وشكره، وهذه الغفلة تشتد به شيئاً فشيئاً حتى تستحكم عليه، فينتكس فيصفّح، فيحيط به الران من كل جانب، فيكون بعدها منكوساً لا يسمع ولا يعي ولا يرى ولا يبصر؛ فيعيش بين المغالطات والخيالات الباطلة.

علاج أمراض الروح:

إذا كانت الغفلة من أمراض الروح وأخطرها، فإن اليقظة - كما يقول ابن القيم - علاج لهذه الغفلة وغيرها من أمراض الروح، مثل الشك والجهل والخيانة والرياء والكذب والعجز و العجب والتكبر والخمول والكسل. يقول رحمه الله عن النفس: (... فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العجب إلى ذلة الاخبات، ومن التيه إلى التواضع، ومن الفتور إلى العمل،

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ٦٧.

فقد باشرت روح الطمأنينة. . . وأصل ذلك كله ومنشأه من اليقظة فهي أول مفاتيح الخير)[1].

وتحصل اليقظة بسماع القلب زاجراً من زواجر الحق، أو تفكير عميق في معرفة الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، وما سيلقاه من حين الموت إلى دخول دار القرار، وحال الدنيا وما تصنع بعشاقها يقول رحمه الله: (. . . فمتى انكشف[2] عن قلبه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن. . . فأثارت تلك الفكرة نوراً رأى في ضوئه ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا، وعدم وفائها لبنيها، وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات. .)[3]. كما يذكر رحمه الله أن أعظم دواء وأنجع شفاء للقلوب والأرواح هو كتاب الله عز وجل فيقول: (. . . وليس لشفاء القلوب دواء قط أنفع من القرآن، فإنه شفاؤها التام الكامل الذي لا يغادر فيها سقماً إلّا أبرأه، ويحفظ عليها صحتها المطلقة ويحميها الحمية التامة من كل مؤذ ومضر. ومع هذا فإعراض أكثر القلوب عنه، وعدم اعتقادها الجازم الذي لا ريب فيه أنه كذلك، وعدم استعماله، والعدول عنه إلى الأدوية التي ركبها بنو حدسها[4] حال بينها وبين الشفاء به)[5].

سلامة الروح عون على شفاء أمراض البدن:

يشير ابن القيم إلى أن قوة النفس وسلامة الروح تدفع كثيراً من

---

(١) الروح، ابن القيم، ص ٢٢٣.

(٢) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب: انكشفت. والله أعلم.

(٣) الروح، ابن القيم، مطبعة محمد علي صبيح، بميدان الأزهر ص ٢٢٣، ٢٢٤، سنة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م.

(٤) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب: جنسها، وهو المثبت بهامش الكتاب وهو الصحيح، والله أعلم.

(٥) الطب النبوي، ابن القيم سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م مطبعة دار إحياء الكتب العربية القاهرة ص ٧٩.

الأمراض بشرط اصطحاب صدق التوجه إلى الله والإيمان بما جاءت به الرسل، وأن تكون الجنة والنار نصب العين، فيذكر رحمه الله على سبيل المثال الصرع الذي يصيب الإنسان ويفقده الوعي والإدراك ويبين أن علاجه بقوة النفس وسلامة الروح، فيقول: (.. بقوة النفس وصدق توجهه (المريض)[1] إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوذ الصحيح الذي تواطأ عليه القلب واللسان... وباقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءت به الرسل، وأن تكون الجنة والنار نصب عينه... و... بالدعوات والتوجه إلى الله...)[2]. ويذكر أيضاً أن صحة النفس وسلامة الروح وفرحها بقربها من خالقها وبارئها وأنسها به وحبها له وذكره وشكره واستعانتها به وتوكلها عليه تعين البدن في مدافعة الأمراض ومغالبتها، يقول رحمه الله: (... وقد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفس والطبيعة تعاونا على دفع الداء وقهره، فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به وحبها له وتنعمها بذكره، وانصراف قواها كلها إليه، وجمعها عليه، واستعانتها به، وتوكلها عليه، أن يكون ذلك لها من اكبر الأدوية، وتوجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية)[3].

تربية الروح:

إن التربية السليمة هي التي تحقق التوازن في حياة الإنسان فتعطي كل جانب فيه من التربية ما يوصله إلى كماله ليؤدي واجبه ومسؤوليته ويقوم بذلك خير قيام. فالروح عنصر هام من عناصر تكوين الإنسان وهي لا تصل إلى كمالها إلا بالتربية المستمدة من منهج الله سبحانه وتعالى، وفقدان كمال الروح يختلف عن فقدان كمال أي عضو من الأعضاء؛ ففي فقدان كمالها هلاك للانسان وضياع له؛ لأن البدن بجميع أعضائه آلات لها ورعية للقلب،

---

(١) زيادة للتوضيح.

(٢) الطب النبوي، ابن القيم ص ٥٢.

(٣) المرجع السابق ص ٧.

يـذكر هـذا ابن القيم بقولـه: (إن البدن والأعضـاء آلات للنفس ورعيـة للقلب وخدم له، فإذا فقد بعضهم كماله الذي خلق له كان بمنزلـة هلاك بعض جنـد الملك ورعيته وتعطل بعض آلاته. وقد لا يلحق الملك من ذلك ضرر أصـلاً، وأمـا إذا فقد القلب كمـاله الـذي خلق له، وحيـاته ونعيمـه كان بمنـزلة هـلاك الملك وأسره وذهاب ملكه من يديه وصيرورته أسيراً في أيـدي أعاديـه، فهكذا الروح إذا عدمت كمالها وصلاحها بمعرفة فـاطرهـا وبارئهـا وكونـه أحب شيء إليها رضاه، وابتغاء الوسيلة إليه آثر شيء عنـدها حتى يكـون اهتمامهـا بمحبته ومرضاته اهتمام المحب التام المحبة بمرضاة محبوبه الذي لا يجد منـه عوضـاً كانت بمنزلة الملك الذي ذهب منه ملكه وأصبح أسيراً في أيدي أعاديه يسومونه سوء العذاب)[1] وهذا يدل على أن كمـال النفس الذي يهيىء لها السعادة هـو معرفة الله وحبه وإيثار مرضاته على كل حظوظها وشهـواتها، وعبـادته وطـاعته، وهذا من أسمى أهداف التربية عند ابن القيم.

ومن وسائل هـذه التربيـة تعميق الإيمان بكـل ما أخبـر الله به، ومن بين ذلك أمور الأخرة، ابتداء بعالم البرزخ، وانتهاء بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. حول هذا المعنى يقول ابن القيم: (فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الإقرار به والإيمان سبباً لسعـادتهم، فإذا كشف عنهم الغطاء صار عياناً مشـاهداً، فلو كـان الميت بين الناس مـوضوعـاً لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلـك، ويجيبهما من غيـر أن يسمعوا كلامه ويضربانـه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه)[2].

ويقول في مكان آخـر: (مما ينبغي أن يعلم أن عـذاب القبر هـو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر، فلو أكلته السباع أو أحرق(*) حتى صار رمـاداً ونسف في الهواء أو صلب أو أغـرق

(١) المفتاح، ابن القيم ٢/١٢٤.

(٢) الروح، ابن القيم، ص ٧١.

(*) وافق كتابة هذا البحث التاريخ الذي أحرقت فيه رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي في شهر صفر ١٤٠٥ هـ.

في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور)(**)[1].

وابن القيم يـرى أن البدن يلحقـه من عذاب الـروح بـالاستتبـاع نصيب وافر، وإذا كان هذا مؤكداً في الآخرة فإنه يرى أن حصول هذا ممكن في حال النـوم. يقول رحمـه الله: (وأعجب من ذلك أنـك ترى النـائم يقوم في نـومـه ويضرب ويبطش ويـدافع كـأنه يقـظان وهو نـائم لا شعور لـه بشيء من ذلك، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجـه ولو دخلت فيـه لاستيقظ وأحس، فإذا كـانت الروح تتـألم وتتنعم ويصل ذلـك إلى بدنهـا بطريق الاستتباع فهكذا في البرزخ بل أعظم، فـإن تجرد الـروح هنالـك أكمل وأقوى، وهي متعلقة ببدنها لم تنقـطع عنه كـل الانقطاع. فـإذا كان يـوم حشر الأجسـاد وقيام النـاس من قبورهم صـار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً باديـاً أصلاً)[2]. فـالروح ينـالها من العـذاب والألـم والحسرة بقدر ما اكتسبت من المعاصي والذنـوب ﴿وَمَا رَبُّـكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ﴾[3]، وإذا كان هذا بسبب التفريط في تربيتهـا، فنتائـج هذا التفـريط تصيبها في حيـاتها، فتعيش في هم وغم وكرب وضيق، ويلحقها عنـد النزع الأخيـر ويعاملهـا ملك الموت بما تستحق، يقول ابن القيم: (. . . إذا أراد الله قبض روح عبده فـإن كان عاصياً خبيثاً قال لها الملك اخرجي أيتها الـروح الخبيثة كـانت في الجسد الخبيث)[4].

أما إذا كانت تربيتها سليمة متزنة، فإنها تعيش حياة سعيـدة في الدنيـا، كمـا تجد الـرفق واللين من ملك الموت عنـد فراق البـدن وتسمع من مـلائكة الـرحمة كـلاماً طيبـاً مؤنساً يقـول رحمه الله: (وإن كـان مؤمناً قـال لها الملك

(**) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب: المقبور، والله أعلم.

(١) الروح، ابن القيم، ص ٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٦٤.

(٣) سورة فصلت /٤٦.

(٤) الروح، ابن القيم ص ٤٠.

اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب)[1].

ثم هو يوضح رحمه الله أن الروح لا تتخلص من الشقاء والعناء والعذاب الا بالتعليم والتدريب على فعل الخير. قال رحمه الله بعد ذكر أنواع العذاب الذي يحل بالروح: (هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعليم وتدريب واعتياد)[2].

وابن القيم يطالعنا بحديث عن رياضة النفوس وتهذيبها ووسائل ذلك بما يدل على أصالة فكره التربوي، وإيمانه بأن الروح تتأثر بالتأديب والتعليم فيقول رحمه الله: (ورياضة النفوس: بالتعلم والتأدب والفرح والسرور والصبر والثبات والإقدام والسماح وفعل الخير ونحو ذلك مما ترتاض به النفوس، ومن أعظم رياضتها الصبر والحب والشجاعة والإحسان، فلا تزال ترتاض بذلك شيئاً فشيئاً حتى تصير لها هذه الصفات هيئات راسخة وملكات ثابتة)[3].

وابن القيم رحمه الله يشير إلى أن الإقبال على الله والاشتغال بمرضاته هو أنفع شيء للعبد وعدم ذلك هو أشد عذاب عليه، لكن روحه لفرط اشتغالها بغيره يجعلها لا تحس بالألم والعذاب يقول رحمه الله: (ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك فعدمه آلم شيء له وأشد عذاباً عليه، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستفراغها في ذلك الغير)[4].

وابن القيم يذكر أن كمال اللذة والسرور ونعيم الروح في محبة الله فاطر الأنفس والأكوان وبارئها فيقول: (إن كمال اللذة والسرور والفرح ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله وأنه

---

(١) الروح، ابن القيم ص ٤٠.

(٢) المرجع السابق ص ٤٠.

(٣) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩٢.

(٤) الجواب الكافي: ابن القيم، ص ١٤٠ وانظر إيضاح المفتاح، ابن القيم ٢/١٢٤.

أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه، والأمر الثاني كمال محبته واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار حبه والوصول إليه على كل شيء)[1] وابن القيم يولي (المحبة لله) اهتمامه وعنايته ويبين أن فيها سعادة الروح وبهجة القلب فيقول رحمه الله: (. . . ليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرة العين به والأنس بقربه والشوق إلى لقائه ورؤيته)[2] ويذكر أيضاً أن كمال النفس لا يحصل إلا بالعلم والإرادة معاً، فمجرد العلم لا يعتبر في نظره كمالاً لها. يقول رحمه الله: (إن كمال النفس في العلم والإرادة لا في مجرد العلم، فإن مجرد العلم ليس بكمال للنفس ما لم تكن مريدة محبة لمن لاسعادة لها إلا بإرادته ومحبته، فالعلم المجرد لا يعطي النفس كمالاً ما لم تقترن به الإرادة والمحبة)[3]، ففي هذا النص ذكر العلم والمحبة والإرادة وأن جماع ذلك يهذب النفس ويروضها لفعل كل خير فتصل بذلك إلى الكمال اللائق بها، فبالعلم يعرف الانسان خالقه وإلـهه ومعبوده وما أوجب عليه وما حرم، وبالإرادة يترجم هذه المعرفة إلى سلوك وعمل، وبالمحبة يجتهد في طلب العلم ويبذل وسعه في العمل. وكأن ابن القيم يرى للكمال والسعادة أساسين هما العلم والإرادة وعلى ذلك - كما رأينا - بنى كتابه (المفتاح)، وبذلك سماه

ويذكر ابن القيم أن في ذكر الله وإقام الصلاة لذة روحية، وخلاصاً للنفس من الهموم والأحزان فيقول: (واللذة الحاصلة بذكر الله والصلاة عاجلاً وآجلاً أعظم وأبقى وأدفع للهموم والغموم والأحزان)[4].

ويرشد ابن القيم في مجال تربية الروح إلى «محاسبة النفس» قبل النوم من كل ليلة، ففي هذه المحاسبة إرشاد للنفس وبيان لحالها، فإن وجدت بعد

---

(١) الجواب الكافي. ابن القيم ص ١٦٧.

(٢) روضة المحبين: ابن القيم ص ١٦٥.

(٣) المفتاح، ابن القيم ٢/٢٢٢.

(٤) روضة المحبين، ابن القيم، ص ١٥١.

المحاسبة حالها سيئة، فعليها المبادرة بالاستغفار والتوبة، وإن وجدت أنها عملت صالحاً تثبت عليه وتزداد منه. يقول رحمه الله في بيان علاج النفس من أمراضها، وذكر وسائل تربيتها: (من أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه ثم يجدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله، فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ، استيقظ مستقبلاً للعمل مسروراً من تأخير أجله حتى يستقبل ربه، ويستدرك ما فاته، وليس للعبد أنفع من هذه التوبة، ولا سيما إذا أعقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم، حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيراً وفقه لذلك)[1].

ويرشد ابن القيم إلى أن تربية الروح بالتأمل في مخلوقات الله التي تظهر فيها دلائل قدرته ووحدانيته وكمال صفاته وأسمائه وصدق رسله وأنبيائه وأن لقاءه حق لا ريب فيه. قال رحمه الله: (... فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقاً حق تأمله إلا وجده دالاً على فاطره وبارئه وعلى وحدانيته وعلى كمال صفاته وأسمائه وعلى صدق رسله وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه)[2].

ويذكر أيضاً رحمه الله بجانب محبة الله عز وجل تعظيم أمره ونهيه، لأن في هذا استقامة للقلب وسلامة للروح، يقول: (... فاستقامة القلب بشيئين: أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب.. والثاني: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشيء عن تعظيم الآمر الناهي)[3] وابن القيم - وهو يرى أن الغفلة من أمراض القلب، وأنها إذا اشتدت به استحكمت عليه القسوة - فإنه يرشد إلى علاج هذا المرض، ويراه في ذكر الله. فيقول: (إن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكرالله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله

(١) الروح، ابن القيم ص ٧٩.

(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/٢٦٢.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص ٦.

تعالى. . . وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة؛ فإذا ذكر الله تعالى ذابت)[1] وإذا زالت هذه القسوة عن القلب وتقشعت غيوم الغفلة أصبح قلباً حياً واستنار له الطريق وعقل عن الله كلامه وأذعن له وانقاد. يقول رحمه الله واصفاً حال هذا القلب: (فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله وفهم عنه وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة مابعث به رسوله ﷺ)[2].

إن هذه التربية لعنصر الروح تجعل الانسان متقرباً إلى الله عز وجل يشعر بالبهجة واللذة والسرور، فيشغله هذا الحب وهذا الوصل عن كل شيء في هذه الحياة، بل يشغله عن مطالبه الأساسية من الأكل والشرب وغيرهما. يقول رحمه الله عن وصال رسول الله ﷺ: (ومن تأمل قول النبي ﷺ لما نهاهم عن الوصال، فقالوا: إنك تواصل فقال: «إني لست كهيئتكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني» علم أن هذا طعام الأرواح وشرابها، وما يفيض عليها من أنواع البهجة واللذة والسرور والنعيم، الذي رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه، وغيره إذا تعلق بغباره رأى ملك الدنيا ونعيمها بالنسبة إليه هباء منثوراً بل باطلاً وغروراً)[3].

نتائج تربية الروح:

بعد أن عرفنا الغاية من تربية الروح عند ابن القيم، ووسائل هذه التربية نريد أن نعرف رأيه في النتائج المترتبة على تربية هذه الروح. فمن أهم هذه النتائج لديه:

١ ـ جعل النفس من أشرف النفوس وهي النفس اللوامة التي تلوم صاحبها على التقصير في العبادة وعدم الاستزادة منها وتقبل لوم اللائمين

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب. ابن القيم ص ٦٦.

(٢) اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ابن القيم، المكتبة السلفية، المدينة المنورة ص ٤.

(٣) المفتاح، ابن القيم، ١/٣٦ والحديث رواه أحمد في مسنده ٢/١٢٨ مع تغيير في بعض ألفاظه.

وعتـاب المعاتبين، يقـول رحمه الله: (وأشـرف النفـوس من لامت نفسهـا في طاعة الله، واحتملت ملام اللائمين في مرضاته فلا تأخذها فيه لومة لائم فهـذه قد تخلصت من لوم الله. . .)[1].

٢ ـ الحـذر الذي يـأخذ المؤمن من النفس الأمـارة، التي تتـرك آثـارهـا السيئـة على القلب، يقـول ابن القيم: (. . . وأول مـا يـدب فيـه السقم من النفس الأمارة من الشهوة وما يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب ومـا يتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط)[2].

٣ ـ النجاة من عذاب الله يقول رحمه الله: (فلا يعذب الله روحـاً عرفتـه وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدناً كانت فيه أبداً؛ فـإن عذاب القبـر وعذاب الآخرة أثـر غضب الله وسخطه على عبـده، فمن أغضب الله وأسخطه في هـذه الدار ثم لم يتب ومـات على ذلك كـان له من عـذاب البـرزخ بقـدر غضب الله وسخطه عليه)[3].

٤ ـ تمتـع الروح بكـونها تفـرح وتمرح في الجنـة في عالم البـرزخ ويوم البعث والجزاء يرافقها البدن في دخول الجنة، ذكر في ذلك رحمه الله حديث رسول الله ﷺ «إنما نسمة المؤمن طير يعلق في شجـر الجنة حتى يـرجعها الله إلى جسده يوم القيامة»[4] ثم علق عليه بقوله: (وهذا صريح في دخـول الروح الجنة قبل يوم القيامة)[5].

٥ ـ إيمانها بـالعلوم والمعارف التي تلقتهـا من مشكاة النبـوة، واعتقادهـا الجازم بصحة ذلك وصدقه، سبب لها الأمن والسعادة في الدنيا وعيش السعداء في الآخـرة. يقول رحمـه الله: (والروح الـزكية العلويـة المحققة التي لا تحب

---

(١) الروح، ابن القيم ص ٢٢٦.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٢.

(٣) المرجع السابق ص ٧٧.

(٤) رواه أحمد في مسنده ٣/ ٤٦٠.

(٥) حادي الأرواح، ابن القيم ص ٤٣.

الباطل ولا تألفه بضد ذلك كله تنعم بتلك الاعتقادات الصحيحة والعلوم والمعارف التي تلقتها من مشكاة النبوة وتلك الارادات والهمم الزكية، وينشىء الله سبحانه لها من أعمالها نعيماً ينعمها به في البرزخ فتصير لها روضة من رياض الجنة)[١].

٦ - عروج الروح إلى السماء وسجودها لله بين يدي العرش فتأنس بقربه سبحانه، أورد رحمه الله أثراً عن أبي الدرداء رضي الله عنه جاء فيه: (. . . «إذا نام الانسان عرج بروحه حتى يؤتى بها العرش، فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود»)[٢].

٧ - انتفاعها بالأعمال التي قدمها صاحبها في حياته الدنيا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، فهذه وغيرها من (دعاء المسلمين واستغفارهم وتصدقهم عنه والحج والعمرة روافد تزيد في حسناتها وتنتفع بها)[٣].

٨ - أنسها بالله واشتغالها بذكره عن كل شيء وانشراح الصدر بذلك، والتضحية في سبيله بالنفس والمال والولد والصبر على ذلك[٤].

٩ - شرفها وزكاتها وكمالها، وذلك بتحصيل العلم وحرصها عليه، يقول ابن القيم: (. . . ان النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها. . فحرصها على العلم عين كمالها. . .)[٥]، فـ (. . . العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها. .)[٦].

---

(١) الروح، ابن القيم، ص ١٠٤.
(٢) المرجع السابق، ابن القيم ص ٣١.
(٣) الروح، ابن القيم ص ١١٧.
(٤) انظر المفتاح، ابن القيم ١/ ٣٥.
(٥) المفتاح ابن القيم ١/ ١٢٩.
(٦) المرجع السابق ١/ ١٢٩.



الفصل الثالث

التربية الفكرية

١ ـ تمهيد.

٢ ـ أهمية العقل.

* بم كرم الإنسان.
* العقل والعلم.
* علاقة القلب بالعقل
* الحواس والقلب.

٣ ـ مفهوم الفكر.

* تعريف الفكر.
* الألفاظ المتقاربة في معنى الفكر.
* منازل الفكر ومتعلقاته.
* العلاقة بين المحبة والفكر.
* تربية الفكر.

٤ ـ مفهوم التفكر.

* تعريف التفكر.
* العلاقة بين الفكر والتفكر.
* التفكر من أفضل أعمال القلوب.
* التذكر والتفكر.
* التفكر والتعلم.
* من فوائد التفكر.



التربية الفكرية

١ ـ تمهيد:

نقصد بالتربية الفكرية تلك الجهود التي تبذل في تنمية الفكر وتوسيع أفقه ومداركه، سواء كانت هذه الجهود مبذولة من مربٍّ يشرف على هذا اللون من التربية، أو كانت عبارة عن مجهود ذاتي من الشخص في تربية فكره وتنميته وتوسيع مداركه.

والناس يختلفون في مستوى تفكيرهم: فمنهم حاد الذهن جيد التفكير، لديه المقدرة على التفكير في معضلات الأمور وغوامضها ومشكلاتها، والخروج من هذا الجهد بنتيجة إيجابية، ومنهم من هو دون ذلك في التفكير لا يستطيع إعمال فكره إلّا في الأشياء المحسوسة والمشاهدة، فيُعمل فكره فيه ويخلص إلى نتيجة تتفق مع ما تصل إليه عقول الغالبية العظمى من البشر، ومنهم متخلف الفكر ضعيف العقل لا يستطيع أن يستعمل عقله في شيء من ذلك، اللهم إلّا في أيسر الأمور وأبسط الأشياء.

وما نشاهده اليوم من مؤسسات للتربية الفكرية ما هو إلّا لرعاية هذا الصنف الأخير ممن يطلق عليهم «المتخلفون عقلياً» أو المعتوهين[١] فهذه المؤسسات ترعاهم فكرياً وبدنياً.

---

(١) المعتوه: هو المجنون كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي، قال ﷺ «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يشب، وعن المعتوه حتى يعقل»صحيح الجامع. الألباني ٣٥٠٨، ٣/١٧٩.

ولقد مر بنا أن الإنسان هو مجموع الروح والعقل والبدن، فلكي ينشأ نشأة سوية متزنة، لا بد من تربية روحه وعقله وبدنه.

والذي حدا بنا إلى العنونة بهذا العنوان هو القناعة بما ذكره ابن القيم من أن الفكر باب واسع، وأن التعقل مرتبة دون ذلك[1]. والتفكير المنظم هو الذي يبنى على مبادىء ومقدمات تعقبها خطوات ومراتب بعضها فوق بعض، توصل إلى غاية لا يتمارى فيها اثنان ولا يناقضها عقل سليم ولا فطرة سوية ولا شرع منزل.

وفي هذا الفصل سنتناول بإذن الله رأي ابن القيم في أهمية العقل حيث يشير إلى أن الإنسان كرم عن غيره بما حباه الله من نعمة العقل، فيه ينال العلم، ويشير إلى الترابط بين القلب والعقل ويبين العلاقة بين الحواس والقلب. ونذكر رأيه في مفهوم الفكر؛ فنعرف الفكر ونذكر الألفاظ المتقاربة في معناه، ونبين منازله ومتعلقاته، والعلاقة بينه وبين المحبة وتربية الفكر. كما نذكر رأيه في مفهوم التفكر؛ فنعرف التفكر ونشير إلى العلاقة بين الفكر والتفكر ثم نبين أن التفكر من أفضل أعمال القلوب والتذكر والتفكر والعلاقة الرابطة بينهما، والعلاقة بين التفكر والتعلم، ثم نذكر فوائد التفكر، كل ذلك كما جاء في فكر هذا المربِّي، فمن الله نستمد العون، ومنه نستلهم الرشد ونسأله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٢ ـ أهمية العقل:

بم كُرِّم الانسان؟:

لقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان على سائر المخلوقات بما حباه من صفات خَلقية وخُلُقية، منها العقل الذي بموجبه تحمل التكاليف، واستطاع به اصطياد العلم واقتناص المعرفة، وبه استحق التكريم، وفضل على كثير من المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ

(١) انظر المفتاح، ابن القيم ١/٢١٣.

وَرَزَقْنَاهُم مِنْ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]، يقول ابن القيم رحمه الله: (... فسبحان الذي ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق...)[2]. ونعمة العقل لا تبرز قيمتها إلاّ إذا استعملها الإنسان بما يعود عليه وعلى مجتمعه بالخير الوافر والسعادة الدائمة، والتقلب في مرضاة الله عز وجل، يقول ابن القيم: (... فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله ﷺ)[3].

ومن الأدلة على قيمة العقل وأهميته في الإسلام أن جعلت آيات الله المشاهدة منها والمتلوة مجالاً للتفكير والنظر والتدبر. يذكر ابن القيم امتداح الله سبحانه وتعالى العقل وأهله، كما يشير إلى ذم من يعطل هذه الطاقة أو يبددها فيما يضر ولا ينفع، فيقول: (... وقد مدح الله العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه... وذم من لا عقل له وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل)[4].

وابن القيم عرف قيمة العقل في عصر ساد فيه الجمود الفكري والتحجر العقلي، فجند قلمه وفكره في محاربة تعطيل العقل بالتقليد الذي انتشر في عصره، يقول رحمه الله في ذم التقليد: (... لو كان التقليد من الدين لم يجز العدول عنه إلى الاجتهاد والاستدلال لأنه يتضمن بطلانه)[5]، وهدفه من ذلك: (... الدعوة إلى تحرر الفكر بإبطال التقليد والأخذ بالاجتهاد وفي هذا دعوة إلى العودة بالدين إلى مصدره الأساسي كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ والتخلي عن آراء الرجال والفرق المذهبية المنحرفة التي طغى عليها التقليد واستحكم عليها الجمود الفكري والتحجر العقلي)[6].

---

(1) سورة الإسراء/ ٧٠.

(2) المفتاح، ابن القيم ١/ ٢٦٣.

(3) (4) المرجع السابق ١/ ١١٧.

(5) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/ ٣٥٠.

(6) انظر ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه.. د/ عبد العظيم شرف الدين ط ٢ سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م مكتبة الكليات الازهرية ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

والعقل هو مناط التكليف وأداة الإدراك وهو الذي يميز بين الخير والشر وهو الآلة التي يقتنص بها العلم والميزان الذي يميز صحيحه من سقيمه، وهو المعيار الذي يعرف به الحسن من القبيح. يشير إلى ذلك ابن القيم بقوله: (. . . فهو آلة العلم وميزانه الذي به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه، والمرآة التي يعرف بها الحسن من القبيح)[1].

والعقل عند ابن القيم هو المحرك لجميع البدن، فصلاح البدن في صلاحه وضياعه في ذهابه، يقول في ذلك: (. . وقد قيل العقل ملك والبدن روحه وحواسه وحركاته كلها رعية له، فإذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها)[2].

وهناك ارتباط قوي بين العقل والدين والعقل والحياء، فمن لا عقل له ليس بمطالب بتكاليف الإسلام وشرائع الدين، أما الحياء فعلاقته بالعقل ظاهرة وواضحة؛ لأن العقل يحجر على الإنسان ويبعده عن التصرفات السيئة التي تتنافى والذوق السليم، ويرفضها العقل الراجح، لكن من لا عقل له لا يتورع عن مثل هذه التصرفات. يقول ابن القيم: (. . . وروي أنه لما هبط آدم من الجنة أتاه جبريل. فقال: إن الله أحضرك العقل، والدين والحياء لتختار واحداً منها، فقال: أخذت العقل ، فقال الدين والحياء: أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان فانحازا إليه)[3].

العقل والعلم:

لا نعني بالعقل تلك الخلايا المعقدة التركيب الموجودة في الجمجمة أو التي تسمى الدماغ. ولكن نعني به تلك القدرة الضابطة التي تمسك ما وصل إلى القلب حتى لا يفلت منه والتي تتحكم في سلوك الإنسان فتقيه من اتباع

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١١٧.
(٢) المرجع السابق ١/١١٧.
(٣) المرجع السابق ١/١١٧.

طرق الغي والهلاك، يقول ابن القيم في ذلك: (. . . والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يفلت منه. ومنه عقل البعير والدابة، والعقال لما يعقل به، وعقل الإنسان يسمى عقلاً لأنه يعقله عن اتباع الغي والهلاك، ولهذا يسمى حجراً؛ لأنه يمنع صاحبه، كما يمنع الحجر ما حواه. .)[1].

وابن القيم يذكر العقل ويريد به القدرة على التعقل، يقول رحمه الله: (. . . ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان)[2].

ويرى رحمه الله أن (. . . عقل الشيء أخص من علمه ومعرفته، لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب كما تُعقل الدابةُ التي يخاف شرودها)[3].

والعقل عنده: (. . . هو آلة كل علم، وميزانه الذي يعرف به صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه)[4].

وبالعقل يكتسب العلم، وتحصل المعرفة، وبالعقل يثمر العلم العمل، وفي هذا يقول ابن القيم: (. . . العقل عقلان: عقل غريزة وهو أبو العلم ومربيه ومثمره، وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته، فإذا اجتمعا في العبد، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، فإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه، وإذا انفرد انتقص الرجل لنقصان أحدهما)[5].

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٢٥.

(٢) المرجع السابق ١/١٢٥.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/١٢٥.

(٤) المرجع السابق ١/١١٧.

(٥) المرجع السابق ١/١١٧، هكذا في المطبوع، وفيه نظر، ولعل الصواب: (فإذا فقدهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه)؛ أو: (فإذا فقدا فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه)، وكذلك لعل الصواب: (وإذا انفردا)، والله أعلم.

والحواس التي وهبها الله الإنسان هي النوافذ إلى العقل عن طريقها تنحدر المعلومات إليه: (فإذا كانت مرهفة قوية، غير بليدة أو مضطربة كان ما يصل إلى العقل صحيحاً واضحاً، فأدى عمله تاماً متقناً، وصحت نظرته إلى الأشياء وحكمه على الأمور، وتفسد ببلادة الحواس وانقباضها آلة العقل)[1].

يقول ابن القيم: (. . . فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابه، والرسول الموصول إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدي عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعي، وأنها إذا وعت وعى القلب. .)[2].

علاقة القلب بالعقل:

إن ابن القيم يصف القلب بأنه ملك مخدوم يستعمل جميع آلات البدن في خدمته يقول: (. . . فأما القلب فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر في الوسط. . .)[3].

ثم يبين شرفه وأنه قوام الحياة وهو أصل ومعدن العقل والاخلاق. يقول رحمه الله: (. . وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيواني والحرارة الغريزية، وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والإرادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال، فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جنود من أجناد القلب. . .)[4]

ثم أخذ يذكر هؤلاء الجنود والمهام التي يؤدونها. فقال: (. . . فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات)[5]، وعلى نفس النسق أخذ

---

(١) الفتوة عند العرب، عمر الدسوقي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ص ٢٢.

(٢) المفتاح، ابن القيم ١/١٢٥.

(٣) المرجع السابق ١/١٩٣.

(٤) المرجع السابق ١/١٩٣.

(٥) المرجع السابق ١/١٩٣.

يذكر الأعضاء والحواس ويبين ارتباطها به إلى أن قال: (... وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده..)[1].

ثم أوضح أن صلاح أعضاء البدن بصلاح القلب واستشهد على هذا بحديث رسول الله ﷺ الذي جاء فيه: «... ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[2].
والقلب عند ابن القيم هو منبع الحرارة، لذا فالرئة له كالمروحة تروح عليه، يقول رحمه الله: (... وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائماً لأنه أشد الأعضاء حرارة، بل هو منبع الحرارة)[3].

ثم بعد هذا شرع رحمه الله في وصف الدماغ الذي هو المخ وبين العلاقة التي تربط بينه وبين القلب، فقال: (.. وأما الدماغ وهو المخ فإنه جعل بارداً، واختلف في حكمة ذلك...)[4] ثم ذكر الخلاف وآراء الطوائف في ذلك، وذكر رأي الفرقة الوسط التي تقول: (... بل المخ حار لكن فاتر الحرارة، وفيه تبريد بالخاصية..)[5].

ويرى رحمه الله أن المخ مبدأ للذهن ومكان للتعقل والفكر، فقال: (فإنه مبدأ للذهن؛ ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الأقذار والكدر خال من الجلبة والزجل ولذلك تكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته)[6]
وهذه المهمة التي يقوم بها المخ الذي هو فاتر الحرارة يرى ابن القيم أن القلب الذي هو شديد الحرارة لا يصلح لها، فيقول: (... ولذلك لم يصلح لها القلب، وكان الدماغ معتدلاً في ذلك صالحاً له، ولذلك تجود هذه الأفعال

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٩٣.
(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/١٩.
(٣) المفتاح، ابن القيم ١/١٩٣، ١٩٤.
(٤) المرجع السابق ١/١٩٤.
(٥) المرجع السابق ١/١٩٤.
(٦) المرجع السابق ١/١٩٤.

في الليل وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة، وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية).[1]

ثم أورد الآراء المختلفة في مصدر القوة العاقلة، وبعد ذلك أورد الرأي الصواب الذي اختاره وارتضاه، واستدل عليه بدليل قرآني فقال رحمه الله: (... فالصواب أن مبدأه ومنشأه (العقل) [2] من القلب وفروعه وثمرته في الرأس...)[3] واستشهد على هذا بدليل من القرآن فقال: (... والقرآن قد دل على هذا بقوله: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾** وقال: **﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾** ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب) [4].

الحواس والقلب:

هناك ارتباط بين الحواس والقلب ولقد أورد ابن القيم في هذا قولاً لبعض الطوائف من هذه الأقوال: (... أن الحواس والعقل... مبدؤها كلها القلب، وهي مرتبطة به، وبينه وبين الحواس منافذ وطرق، قالوا: وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك، وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الأجسام التي فيها هذه الحواس) [5]، ثم بعد ذكر هذه الأقوال أورد الرأي الصحيح من وجهة نظره فقال: (... إن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها، فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف إلا على قبولها واستعدادها وإمداد القلب لا على مجار وأعصاب...)[6]

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/١٩٤.

(٢) زيادة للإيضاح، والمراد بالعقل القوة العاقلة.

(٣) المفتاح. ابن القيم ١/١٩٥.

(٤) المرجع السابق ١/١٩٥، سورة الحج / ٤٦، سورة ق /٣٧.

(٥) المرجع السابق ١/١٩٤.

(٦) المرجع السابق ١/١٩٥.

٣ ـ مفهوم الفكر:

تعريف الفكر: (*)

كل ما مر بنا هو من باب التواطئة للحديث عن التربية الفكرية عند ابن القيم ومن المناسب أيضاً لهذا الحديث أن نستطلع رأيه في تعريف الفكر، يقول رحمه الله: (... فالفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منها معرفة ثالثة) [١] ثم يقرب فهم هذا التعريف بضرب مثال توضيحي يقول فيه: (... ومثال ذلك إذا أحضر في قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها، وما يقترن به ن الآفات، وانقطاعه وزواله، ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين، أثمر له ذلك علماً ثالثاً، وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة) [٢]، فهو بهذا يرسم صورة واضحة لحقيقة الفكر؛ وذلك لأن الفكر له مورد يتعلق به، يوصل إليه بأمور حاصلة عنده تعتبر مبادىء ومقدمات له، وحتى يزداد هذا المعنى وضوحاً نستمع إليه وهو يقول: (... فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها، هذه حقيقته، فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، وتلك المواد (**) هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلاً عنده لم يتفكر فيه) [٣]، ونستمع إليه أيضاً وهو يرسم الخطوات التي يسير عليها التفكير المنظم الذي يثمر التذكر، ويثمر العلم النافع الذي يعقبه العزم القوي والإرادة الصادقة في مزاولة العمل الصالح، فهو يقول: (... فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب

(*) والفكر هو: (إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول)، المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية مادة (فكر) ٢/ ٦٩٨.

(١) المفتاح، ابن القيم ١/ ١٨١.

(٢) المرجع السابق ١/ ١٨١.

(**) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب: «الموارد» والله أعلم.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/ ٢١٣، ٢١٤.

الذي يريده، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه، فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته، فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره، فاستخرج ما لم يكن حاصلاً عنده، فهو لا يزال يكر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره ما دام عاقلاً؛ لأن العلم والإرادة لا يقفان على حدّ، بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة). [(١)]

الألفاظ المتقاربة في معنى الفكر:

بعد أن عرف ابن القيم الفكر بأنه إحضار معرفتين في القلب لاستثمار معرفة ثالثة منهما، قال: (... وهذا يسمى تفكراً، وتذكراً، ونظراً، وتأملاً واعتباراً، وتدبراً، واستبصاراً. وهذه معان متقاربة تجتمع في شيء وتتفرق في آخر) [(٢)]، ثم يفصل القول فيشرح كل كلمة من هذه الكلمات شرحاً مفصلاً فيقول: (...

١ ـ ويسمى تفكراً: لأنه استعمال الفكرة [(٣)] في ذلك وإحضاره عنده.

٢ ـ ويسمى تذكراً: لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[(٤)].

٣ ـ ويسمى نظراً: لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه.

٤ ـ ويسمى تأملاً: لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يجلى له، وينكشف لقلبه.

٥ ـ ويسمى اعتباراً: وهو افتعال من العبور؛ لأنه يعبر منه إلى غيره، فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهي المقصودة من الاعتبار؛

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٢١٤.

(٢) المرجع السابق ١/١٨٢.

(٣) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب: «الفكر»، والله أعلم.

(٤) سورة الأعراف /٢٠١.

ولهذا يسمى عبرة، وهي على بناء الحالات كالجلسة والركبة.والقتلة، إيذاناً بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[2].

٦ ـ ويسمى تدبراً: لأنه في أدبار الأمور، وهي أواخرها وعواقبها، ومنه تدبر القول، وقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[3] .... وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره، ثم يعيد نظره مرة بعد مرة، ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين.

٧ ـ ويسمى استبصاراً: وهو استفعال من التبصر، وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة...)[4].

منازل الفكر ومتعلقاته:

بعد أن بين لنا ابن القيم حقيقة الفكر، وأنه إحضار معرفتين في القلب للوصول إلى معرفة ثالثة، أخذ يفصل القول في مجرى الفكر ومتعلقه، وأنه في أربعة أمور: (... أحدها: غاية محبوبة مرادة الحصول، الثاني: طريق موصلة إلى تلك الغاية، الثالث: مضرة مطلوبة الإعدام مكروهة الحصول، الرابع: الطريق المفضي إليها، الموقع عليها)[5]، وبعد هذا البيان ذكر أن أفكار العقلاء لا تتجاوز ما ذكر، وأي فكر تخطاها فهو من الأفكار الردية والخيالات الباطلة، بقوله: (... فلا تتجاوز أفكار العقلاء هذه الأمور الأربعة، وأي فكر تخطاها فهو من الأفكار الردية والخيالات والأماني الباطلة...)[6]، وهذا الكلام إذا أضفناه إلى قوله في أن: (... المتفكر

---

(١) سورة النازعات /٢٦.

(٢) سورة آل عمران /١٣.

(٣) سورة المؤمنون /٦٨.

(٤) المفتاح، ابن القيم ١/١٨٢، ١٨٣.

(٥) المرجع السابق ١/١٨٤.

(٦) المرجع السابق ١/١٨٤.

ينتقل من المقدمات والمبادىء التي عنده إلى المطلوب الذي يريده...) [1]، يذكرنا بما يسمى الآن خطوات البحث العلمي الذي يفترض وجود مشكلة تحتاج إلى حل، فيعمل فيها الفكر عمله ويطرح لها فروضاً ويختبر هذه الفروض لمعرفة مدى صحتها، ثم يختار أصحها في بلورة المشكلة وحلها.

ثم يطالعنا رحمه الله بتحديد منازل الفكر، فيذكر أن له منزلين ومكانين الأول في هذه الدار، والآخر في دار القرار، يقول رحمه الله: (... وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التي ذكرناها، فله أيضاً محلان ومنزلان: أحدهما: ـ هذه الدار، والآخر: دار القرار، فأبناء الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة من خلاق عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة في هذه الدار، فأثمرت لهم أفكارهم ما أثمرت، ولكن إذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة، تبين الرابح من المغبون، وخسر هنالك المبطلون. وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها عمروا بيوت أفكارهم ـ على تلك الأقسام الأربعة ـ فيها) [2]، وهذا يذكرنا بقول الله عز وجل فيمن كان علمهم متعلقاً بالحياة الدنيا وهم غافلون عن الآخرة. قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِراً مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾[3]، فجميع تفكيرهم منصرف إلى هذه الحياة ولا يعطون شيئاً من التفكير للحياة الآخرة الباقية.

العلاقة بين المحبة والفكر:

بعد أن ذكر ابن القيم مجرى الفكر ومتعلقه، وحصر ذلك في أمور أربعة: أولها غاية محبوبة مرادة الحصول، وثانيها طريق موصلة إلى هذه الغاية، وثالثها مضرة مطلوبة الإعدام، ورابعها طريق مفض إليها. وبعد أن أكد أن أفكار العقلاء لا تجاوز هذه المتعلقات. وبعد أن بين المحل والمكان الذي يكون مجالاً للفكر وأنه في منزلين: الأول هذه الدار، والثاني هو دار

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٢١٣.

(٢) المرجع السابق ١/١٨٤.

(٣) سورة الروم /٧.

القرار. بعد ذلك كله [1] أخذ رحمه الله في بيان العلاقة الرابطة بين الفكر والمحبة [2] وهذا يدل على أن هناك ترابطاً بين (التربية الفكرية)، و(التربية العاطفية) لدى هذا المربِّي.

تربية الفكر:

يلفت ابن القيم النظر في تربية الفكر إلى وسائل هامة وأساسية منها:

١ ـ الدعوة إلى النظر في مخلوقات الله عز وجل في الأنفس والآفاق بعين البصيرة النيرة لاستجلاء عظمة الله فيها ومعرفة قدرته الباهرة وحكمته سبحانه، فيقول: إن الله (... قد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بَيِّنة ويحيا من حيي عن بَيِّنة وأن الله لسميع عليم...) [3]، وهو رحمه الله لا يكتفي بهذا الإجمال في القول، بل نراه في مكان آخر يدعو إلى النظر إلى عظم هذه الأرض، وأنها من أعظم الآيات الدالة على قدرته سبحانه فيقول: (... وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها ومبدعها، خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً، وذللها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم...) [4]، ثم يدعو إلى التفكر فيها وإجالة النظر في قطعها المتجاورة وكيف أنها تسقى بماء واحد وتخرج أصنافاً شتى من النباتات المختلفة المتباينة، فيقول رحمه الله: (... ثم انظر قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحد، فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة، واللقاح واحد والأم واحدة... ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾) [5]، ويقول رحمه الله بشأن الريح كلاماً يحث الفكر على التأمل والتدبر والنظر: (... ومن آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض والطير محلقة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه

---

(١) و(٢) انظر المفتاح، ابن القيم ١/ ١٨٤.

(٣) المرجع السابق ١/١٩٧.

(٤) المرجع السابق ١/١٩٩.

(٥) المرجع السابق ١/ ٢٠٠، سورة النمل /٨٨.

كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانها كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته... وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً ومفسداً لما يمر عليه...) [1] أما عن السماء وأنها من الآيات الدالة على قدرته سبحانه فيقول: (... فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها... ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا...)[2]، وعن حال الشمس والقمر يقول: (... ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم...) [3]، وبالأسلوب نفسه يحث على النظر والتدبر في العالم كله فيقول: (... تأمل العبرة في موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه...) [4] أما عن الانسان ودلائل القدرة الإلهية فيه فيقول رحمه الله داعياً إلى التفكر والنظر: (... فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً، بل عظماً واحداً من أصغر عظامها بل عرقاً من أدق عروقها، بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك، بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين، فمن هذا صنعه في قطرة ماء فكيف صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها. فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع العجائب من بدن الإنسان) [5].

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/ ٢٠٠، ٢٠١.
(٢) المرجع السابق ١/ ٢٠٧.
(٣) المرجع السابق ١/ ٢٠٧.
(٤) المرجع السابق ١/ ٢٠٦.
(٥) المرجع السابق ١/ ١٩٦.

٢ ـ الدعوة إلى النظر في آيات الله المتلوة وشرعه المنزل، ومعرفة ما في هذا الشرع من حسن اتفقت عليه الفطر السليمة والعقول المستقيمة، فقد جاء هذا الشرع بتحقيق المصلحة للعباد في العاجل والآجل، وابن القيم يحث على قراءة القرآن بتدبر وتفكر؛ لأن في هذا صلاحاً للقلب. والتفكر في القرآن نوعان (. . . تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه، وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه، فالأول تفكر في الدليل القرآني، والثاني تفكر في الدليل العياني، الأول تفكر في آياته المسموعة، والثاني تفكر في آياته المشهودة)[١]، وابن القيم يحذر من مجرد تلاوة القرآن التي لا تقترن بعمل، ويحث على قراءته بتدبر وتفكر ثم العمل به، فيقول: (. . . ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه. . .) [٢]، وإذا كان ابن القيم يؤمن بما في شرع الله من مصالح للعباد في العاجلة والآجلة فإنه ينكر بشدة على من يعرض عن هذا بل يدعي خلو العبادات والتشريعات من الحكمة والمصلحة. فيقول: (. . . وكيف يجوز ذو العقل أن ترد شريعة أحكم الحاكمين بضد ما وردت به. . .) [٣]، ثم يفصل القول لافتاً النظر إلى سر تشريع الصلاة: (. . . فالصلاة قد وضعت على أكمل الوجوه وأحسنها التي تعبد بها الخالق تبارك وتعالى عباده، من تضمنها للتعظيم له بأنواع الجوارح من نطق اللسان وعمل اليدين والرجلين والرأس وحواسه وسائر أجزاء البدن. . .) [٤]، ثم يقول: (. . . فأي شيء بعد هذه العبادة من الحسن وأي كمال وراء هذا الكمال وأي عبودية أشرف من هذه العبودية) [٥].

وفي سر تشريع الزكاة يقول: (. . . وأما حسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوي الحاجات والمسكنة والخلة من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٨٧.
(٢) المرجع السابق ١/١٨٧.
(٣) المرجع السابق ٢/٢.
(٤) المرجع السابق ٢/٢.
(٥) المرجع السابق ٢/٣.

نفوسهم ويخاف عليهم التلف إذا خلاهم الأغنياء وأنفسهم وما فيها من الرحمة والإحسان والبر والطهرة وإيثار أهل الإيثار والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل، والخروج من سمات أهل الشح والبخل والدناءة، فأمر لا يستريب عاقل في حسنه ومصلحته، وأن الآمر به أحكم الحاكمين، وليس يجوز في العقل ولا في الفطرة البتة أن ترد شريعة من الحكيم العليم بضد ذلك أبداً)(1)، وعن سر تشريع الصوم والحج والجهاد يتكلم بكلام طويل. يقول في نهايته: (... فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار الشريعة ويشرفك على محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به وأن الله تعالى يتنزه عن ذلك كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به...)(2).

٣ - ويرى ابن القيم أن من الوسائل الهامة في تربية الفكر أيضاً امتثال أمر الله والاستقامة على منهجه، مما يهيىء القلب ويفسح المجال له للتفكر والنظر في مصالحه ففي غض البصر عن المحرم مثلاً فوائد، منها، كما يقول ابن القيم: (... أنه امتثال لأمر الله، ويمنع وصول أثر السم، ويورث القلب أنساً بالله، ويقوي القلب ويفرحه، ويكسب القلب نوراً يورثه الفراسة الصادقة، والثبات والشجاعة، ويسد عليه مداخل الشيطان، ويفرغه للفكر في مصالحه؛ لأن بين القلب والنظر منفذاً)(3).

٤ - ويرى أيضاً أن من الأمور الأساسية في تربية الفكر وسلامته الاحتراس من معوقات نموه والانتباه إلى خطر المعاصي والحذر منها؛ لأنها صوارف تصرف الفكر عن وظائفه، فإن القلب إذا توالت عليه المعاصي، فإنه لا يزال يحدث صاحبه بها حتى: (... يصرفه عن حقائق الذكر والتفكر فيما ينفعه في دنياه وآخرته...)(4).

---

(١) المفتاح، ابن القيم ٢/٣.

(٢) المرجع السابق ٢/٧.

(٣) انظر الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٢٥.

(٤) عدة الصابرين ابن القيم ص ٤٢.

٥ ـ ومن شدة اهتمام ابن القيم بأمر الفكر إنكاره وذمه للتقليد الذي يحجر على العقل ويعطل مفعول الفكر فيقول رحمه الله: (... ونحن نبرأ إلى الله من هذا الخلق الذميم والمرتع الذي هو على أصحابه وخيم، ونتولى علماء المسلمين ونتخير من أقوالهم ما وافق الكتاب والسنة، ونزنها بهما، لا نزنهما بقول أحد كائناً من كان، ولا نتخذ من دون الله ورسوله رجلاً يصيب ويخطىء، فنتبعه في كل ما قال، ونمنع بل نحرم متابعة غيره في كل ما خالفه فيه. وبهذا أوصانا أئمة الإسلام، فهذا عهدهم إلينا، فنحن في ذلك على منهاجهم وطريقهم وهديهم دون من خالفنا) [1]، وهذه من ابن القيم دعوة واضحة وصريحة إلى الاجتهاد الذي يعتمد على الكتاب والسنة ويكون للفكر فيه دور بارز، ثم يورد رحمه الله أقوال أئمة وعلماء السلف التي تدعو إلى إعمال الفكر في نصوص الكتاب والسنة وتنادي بالاجتهاد ونبذ التقليد. منها ما نقله عن أبي عمر (... قال أهل العلم والنظر: حد العلم التبين وإدراك المعلوم على ما هو عليه، فمن بان له الشيء فقد علمه، قالوا: والمقلد لا علم له) [2]، ومنها ما نقله عن الشافعي: (مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري...) [3]، ومنها ما قاله أحمد بن حنبل: (... من قلة فقه الرجل أن يقلد في دينه الرجال...) [4]، ومنها ما قاله أبو يوسف: (... لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا) [5].

٦ ـ وابن القيم يرى أن الفكر بحاجة إلى مناخ مناسب ليمارس عملية التفكير فيذكر أن جودة الفكر تكون عند سكون البدن وراحته واستقراره وذهاب الصوارف والشواغل عنه، فيقول: (... ولهذا كان الذهن بحاجة إلى

---

(١) الفروسية، ابن القيم ١/١٠١.

(٢) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٩٧.

(٣) المرجع السابق، ٢/٢٠٠.

(٤) المرجع السابق ٢/٢٠١.

(٥) المرجع السابق ٢/٢٠١.

موضع ساكن قار صاف عن الأقذار والكدر خال من الجلبة والزجل، ولذلك تكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته...) [1].

٧ ـ وابن القيم ينادي بالابتعاد عن كل ما يعطل العقل والفكر من ممارسة وظائفه، لذا حُرِّم كلُّ مسكر ومفتر، لأن فيهما اعتداء على نعمة العقل التي وهبها الله للإنسان وميزه بها على كثير من المخلوقات، فهو يحذر ولي أمر الطفل ومربيه من تمكينه من تعاطي ما يزيل عقله، فيقول: (... والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره...) [2].

٤ ـ مفهوم التفكر:

تعريف التفكر:

إن التفكر عند ابن القيم يكشف حقائق الأمور ويميز مراتبها في الخير والشر وبه يعرف مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها، يقول رحمه الله: (... فإن التفكر يوجب له [المتفكر] (*) من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها، وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب، ويدفع موجبها، والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله، وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه...) [4].

ثم ذكر ابن القيم أقوال بعض السلف في أهمية التفكر ومكانته بالنسبة للإيمان والعمل ومن هذه الأقوال قول ابن عباس رضي الله عنهما: (... ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب...) [5]، وما

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٩٤.
(٢) تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٤٢.
(*) زيادة للإيضاح.
(٤) المفتاح، اب القيم ١/١٨٠.
(٥) المرجع السابق ١/١٨٠.

قاله أيضاً: (... التفكر في الخير يدعو إلى العمل به...) [1]، وما قاله الفضل: (... التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك...) [2]، وما قاله الشافعي: (... استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة...) [3]، ثم علق على كلام الشافعي بقوله: (... وهذا لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح. وأيضاً فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد). [4]

العلاقة بين الفكر والتفكر:

لقد مر بنا أن الفكر هو إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول [5]، وهو كما عرفه ابن القيم فيما مضى: (... إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة). [6]

وهذا متقارب مع معنى التفكر؛ لأنه بعد أن عرف الفكر وبين نتيجته بكونه يثمر: (... إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد لها وأن يسعى لها سعيها)[7] قال: (... وهذا يسمى تفكراً وتذكراً ونظراً وتأملاً واعتباراً وتدبراً واستبصاراً وهذه المعاني متقاربة...) [8].

وهذا يفيد بأن كلاً من الفكر والتفكر من أعمال العقل ووظائفه.

التفكر من أفضل أعمال القلوب:

يرى ابن القيم أن التفكر مفتاح الخير والسعادة، وأن الفكر حالة تحدث

(١) المفتاح. ابن القيم ١/١٨٠.
(٢) المرجع السابق ١/١٨٠.
(٣) المرجع السابق ١/١٨٠.
(٤) المرجع السابق ١/١٨٠.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية. مادة (فكر) ٢/٦٩٨.
(٦) المفتاح، ابن القيم ١/١٨١.
(٧) المرجع السابق ١/١٨٢.
(٨) المرجع السابق ١/١٨٢.

للقلب نتيجة علم، وهذا العلم يثمر إرادة، وهذه الإرادة توجد عملاً فمرجع كل ذلك إلى التفكر، يقول رحمه الله؛ (. . . فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكر، فإنه لا بد من تفكر وعلم يكون نتيجته الفكر، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم، فإن كل من علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة، وينصبغ بصبغته من علمه، وتلك الحال توجب له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل، فها هنا خمسة أمور: ـ الفكر وثمرته العلم، وثمرتهما الحالة التي تحدث للقلب، وثمرة ذلك الإرادة، وثمرتها العمل، فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه ، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له حتى قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة) [1].

التذكر والتفكر:

بعد هذا االبيان والتوضيح للتقارب بين الكلمات التي تشترك في معنى الفكر أوضح ابن القيم رحمه الله الاختلاف بين التذكر والتفكر بقوله: (. . . وكل من التفكر والتذكر له فائدة غير فائدة الآخر، فالتذكر: يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولاينمحي فيذهب أثره من القلب جملة. والتفكر: يفيد تكثير العلم، واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب، فالتفكر يحصله، والتذكر يحفظه) [2]، وهذا من ابن القيم سبق في تحديد الوظيفة النفسية لكل من التذكر والتفكر، وبيان وظيفة كل منهما، يسجل له رحمه الله، وقد سبق به واضعي علم النفس الحديث.

التفكر والتعلم:

لقد أوضح ابن القيم رحمه الله العلاقة الرابطة بين التفكر والتعلم، وبين

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٨٣، ذكر الألباني «في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» ط. سنة ١٣٩٨ هـ. المكتب الاسلامي. حديثاً موضوعاً معناه قريب من هذا، وهو: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة». ورقمه ١٧٣. ص ٢٠٩.

(٢) المرجع السابق ١/١٨٣.

أنها علاقة وثيقة، وأورد على ذلك أدلة من أقوال السلف، منها ما جاء عن الحسن البصري حيث قال: (ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة. . .) [1]، ثم أشار ابن القيم إلى أن طول الفكرة يورث العلم، والعلم يورث العمل واستشهد على ذلك بأثر جاء فيه: (. . . وقال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل) [2].

ثم بين رحمه الله الطريقة الجيدة في كسب العلم وأنها بالمناقشة والتفكر والتذكر وملاقاة الرجال، فقال: (. . . فالتفكر والتذكر بذار العلم وسقيه مطارحته، ومذاكرته تلقيحه، كما قال بعض السلف: ملاقاة الرجال تلقيح الألباب، فالمذاكرة بها لقاح العقل. . .) [3]

من فوائد التفكر:

للتفكر في نظر ابن القيم فوائد منها:

١ ـ أنه سبب في حصول الإيمان، يقول رحمه الله: (. . . فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد) [4]، بل إنه يرى أن التفكر مفتاح الإيمان ووسيلة موصلة إليه فيقول: (. . . ومفتاح الإيمان التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه) [5].

٢ ـ الكشف عن حقائق الأمور، ومعرفة ما فيها من خير وشر، يتميز الفاضل منها من المفضول، وبيان الأسباب المفضية إليها ومعرفة ما ينبغي السعي له، وما ينبغي التحرز منه. يقول رحمه الله: (. . . فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها، وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٨٣.

(٢) المرجع السابق ١/١٨٠.

(٣) المرجع السابق ١/١٨٣.

(٤) المرجع السابق ١/١٨٠.

(٥) المرجع السابق ١/١٩٤.

إليها، وما يقاوم تلك الأسباب، ويدفع موجبها، والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله، وبين ما ينبغي السعي في دّفع أسبابه، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها وبيان السبب المانع حقيقة فيشتغل به دون الأول). [1].

٣ ـ وابن القيم يلفت النظر إلى خطر الوهم الذي يكون في غيبة التفكر، يقول رحمه الله: (. . . فما قطع العبدَ عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطعٌ أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذي هو مركبها بل بحرها الذي لا تنفك سابحة فيه، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة، وعزم صادق يميز بين الوهم والحقيقة)[2].

٤ ـ والتفكر سبب في كفّ النفس عن المحرم؛ لأن المرء بفكره ينظر في العواقب المترتبة على اقتراف الذنب والمعصية، ويوازن ما فيها من لذة عارضة بما يترتب عليها من حسرة دائمة، يقول رحمه الله: (. . . وكذلك إذا فكر في عواقب الأمور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها وعلم مراتبها؛ فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذته وفرح النفس به إلى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذة والفرحة، ومن فكر في ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه)[3].

٥ ـ والتفكر عند ابن القيم أصل لكل طاعة. يقول في ذلك: (. . . فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله، والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/ ١٨٠.

(٢) المرجع السابق ١/ ١٨١.

(٣) المرجع السابق ١/ ١٨١.

والعقل عنه، ومن مرض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدر. (وبالجملة فأصل كل طاعة إنما هي الفكرة)(*)[1].

٦ - وابن القيم يلفت النظر إلى ثمرة التفكر فيما دعا الله إلى التفكر فيه، ذلك أنه يوصل إلى معرفة الله سبحانه وتعالى بوحدانيته وصفات كماله والتوحيد الخالص له. يقول رحمه الله: (وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك(**) على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه. فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته..)[2].

٧ - وابن القيم يبين أن التفكر خلال تلاوة القرآن الكريم أصل في صلاح القلب، يقول رحمه الله: (... فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب)[3].

(*) في المطبوع (الفكر) والسياق يقتضي ما أثبتناه وهو (الفكرة) وهي بمعنى التفكر.

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٨٣.

(* *) كذا في المطبوع. ولعل الصواب (أوقفك) بالفاء..

(٢) المفتاح، ابن القيم ١/١٨٧.

(٣) المرجع السابق ١/١٨٧.



الفصل الرابع

التربية العاطفية

١ ـ تمهيد.

٢ ـ الغرائز.

أ ـ الحزن:

١ ـ تعريف الحزن.

٢ ـ أنواع الحزن.

٣ ـ علاج الحزن.

ب ـ الفرح.

جـ ـ الخوف:

١ ـ الخوف والحب.

٢ ـ الخوف من الله من لوازم الإيمان.

٣ ـ الخوف وحالات العبد.

٤ ـ لا خوف إلاَّ من الله.

٥ ـ الخوف وسيلة من وسائل العبادة

٦ ـ ثمرة الخوف من الله.

د ـ الغضب:

١ ـ تعريف الغضب.

٢ ـ درجات الغضب.

٣ ـ مضار الغضب.

٤ ـ علاج الغضب

٣ ـ المحبة:

أ ـ تعريف المحبة.

ب ـ أنواع المحبة وضروبها.

ج ـ المحبة التي تصلح للخلق.

د ـ المحبة الخاصة.

هـ ـ وسيلة المحبة.

و ـ المحبة دافع قوي.

ز ـ ما يترتب على حب غير الله.

ح ـ تربية عاطفة الحب.



التربية العاطفية

١ ـ تمهيد:

بعد أن عرفنا رأي ابن القيم في التربية الفكرية بصفتها جانباً مهماً من جوانب التربية لديه، يجدر بنا في هذا الفصل أن نعرف رأيه في جانب آخر مهم من جوانب التربية، ألا وهو التربية العاطفية.

لقد مر بنا أن التربية التي ينادي بها ابن القيم تحقق التوازن في حياة الفرد، وتهتم بكل عنصر من عناصر تكوينه، تهتم بالبدن، كما تهتم بالعقل وتعرف له قدره، وتهتم أيضاً بالروح، وتنادي هذه التربية بتوجيه كل أفعال الفرد وأقواله إلى الوجهة التي يرضاها خالقه سبحانه وتعالى، تحقيقاً لقوله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ**. .﴾[1].

كما تحث الفرد على أن يوجه عاطفة حبه لله عزّ وجلّ، فيسمو بمشاعره وأحاسيسه وغرائزه إلى الدرجة التي تجعله واحداً من أولياءالله عزّ وجلّ، فلا يحزن إلاّ إذا فرط في جنب الله عزّ وجلّ، بل إنه ليحزن إذا وجد أن جزءاً من أجزاء قلبه خال من محبة الله، أو أن جزءاً من أجزاء بدنه متصرف في غير محاب الله. كما أنه لا يفرح إلاّ إذا وفق لطاعة الله ومحبته. ولا يخاف إلاّ إذا حرم الطاعة والمحبة، فمن كان الله معه فما له وللخوف، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ**. .﴾[2]، ولا يكون الله إلاّ مع عباده المتقين المحسنين، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾[3]. ولا يغضب إلاّ إذا انتهكت

---

(١) سورة الأنعام /١٦٢.

(٢) سورة فصلت /٣٠. (٣) سورة النحل /١٢٨.

محارم الله عزّ وجلّ، أسوة برسول الله ﷺ الذي ما غضب لنفسه قطّ إلاّ أن تنتهك محارم الله. لذا فكل غرائز الإنسان ودوافعه الأولية يجب أن تتوجه وفق ما يحبه الله ويرضاه، ومتى وصل الإنسان إلى هذه الحال شعر بالسعادة والأمن في الدنيا، وظفر بالفوز والرضوان في الآخرة. وإننا في هذا الفصل سنتناول بعض الغرائز التي يسميها ابن القيم عوارض النفس، فنعرف الحزن، ونبين أنواعه، وسبل علاجه، ثم نذكر الفرح وأسبابه، ونذكر الخوف، ونبين أنه من لوازم الإيمان، ونذكر حالات العبد من حيث عارض الخوف، وأن الخوف لا يكون إلاّ من الله، وهو وسيلة من وسائل العبادة، ونبين ثماره كما نذكر الغضب ونعرفه ونبين درجاته ومضاره وطرق علاجه، ونعرف المحبة ونبين أنواعها وضروبها، ونذكر المحبة التي تصلح للخلق بعضهم لبعض، والمحبة الخاصة لله، ونذكر وسيلة المحبة، ونبين أنها دافع قوي للعمل، ونبين ما يترتب على حب غير الله، ثم نذكر وسائل تربية عاطفة الحب، نقوم بكل ذلك حسب ما ورد في فكر ابن القيم التربوي، فمن الله نستمد العون، ومنه نستلهم الرشد، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

٢ ـ الغرائز:

لقد أودع الله سبحانه وتعالى في الكائنات الحية غرائز متعددة تدفع بها عن نفسها الأخطار، وتحمي حياتها، وتنظم شؤونها، هذه الغرائز ما هي إلاّ محركات وموجهات لسلوك الكائن الحي، تسيره تلقائياً وتدفع به إلى السلوك دون إدراك أو تفكير أو وعي إلاّ في الحيوانات الذكية، لأن هناك علاقة بين ذكاء الكائن الحي وغرائزه، فكلما كان الذكاء أقوى كان توجيه الغريزة ممكن، وقوة سيطرتها أضعف، وكلما قل الذكاء لدى الكائن الحي: (. . . كانت الغريزة أكمل وأقرب إلى تأدية حاجاته في سهولة ويسر)[1]. والإنسان لديه غرائز متعددة: (وهذه الغرائز لا توجد بشكلها الطبيعي إلاّ عند الطفل والإنسان البدائي، أما عند غيرهما فهي تخلع ثوبها الفطري وتظهر بمظهر آخر. .

(١) لمحات في وسائل التربية الاسلامية وغاياتها. د. محمد أمين المصري ص ٥٧.

فالغرائز عند الإنسان تعدل، والتعديل يتناول مثير الغريزة أو السلوك الناشىء)[1]. وهذه الغرائز للإنسان يسميها ابن القيم العوارض النفسية، لأنها أمور تعرض للنفس البشرية، وهذه العوارض، لها تأثير في القول إهداراً واعتباراً، وإعمالاً وإلغاء، يقول رحمه الله: (... إن قاعدة الشريعة أن عوارض النفس لها تأثير في القول إهداراً واعتباراً وإعمالاً وإلغاء وهذا كعارض النسيان والخطأ والإكراه والسكر والجنون والخوف والحزن والغفلة والذهول ولهذا يحتمل من الواحد من هؤلاء من القول ما لا يحتمل من غيره ويعذر بما لا يعذر به غيره، لعدم تجرد القصد والإرادة)[2]، والغضب يعده ابن القيم من أقوى هذه العوارض، فيقول: (... وعارض الغضب قد يكون أقوى من كثير من هذه العوارض)[3]، لذا فالغضبان لا يترتب على كلامه مقتضاه لعدم تجرد القصد والإرادة عنده، يقول ابن القيم في معرض حديثه عن طلاق الغضبان بعد أن ذكر من يتنابهم عارض النسيان والخطأ والإكراه والسكر والجنون والخوف والحزن والغفلة والذهول، وبيان تأثير هذه العوارض على أقوالهم: (... فإذا كان الواحد من هؤلاء لا يترتب على كلامه مقتضاه لعدم القصد فالغضبان الذي لم يقصد ذلك إن لم يكن أولى بالعذر منهم لم يكن دونهم)[4]. والناس يتفاوتون في قواهم من هذه العوارض، يقول رحمه الله: (... وقوى الناس متفاوتة تفاوتاً عظيماً في ملك تقواهم[5] عند الغضب والطمع والحزن والخوف والشهوة، فمنعهم[6] من يملك ذلك ويتصرف فيه، ومنهم من يملكه ذلك ويتصرف فيه)[7].

---

(١) لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغايتها. د/ محمد أمين المصري ص ٥٨.

(٢) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان. ابن القيم، نقله عن أصل مخطوط محمد بن عبدالله ابن هشام الانصاري، عني بتصحيحه الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م مطبعة دار التأليف ص ٢٨.

(٣) المرجع السابق ص ٢٩.

(٤) المرجع السابق ص ٢٩.

(٥) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب: «قواهم» والله أعلم.

(٦) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب: «فمنهم» والله أعلم.

(٧) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، ابن القيم ص ٣٢.

ومن هذا يتضح أن ابن القيم يرى أن الحزن والخوف والغضب من الغرائز التي هي عوارض للنفس، وأننا سنتناول بالحديث عارض الحزن والفرح والخوف والغضب ونبين كيفية توجيه ابن القيم هذه الغرائز الوجهة الإسلامية.

أ ـ الحزن:

١ ـ تعريف الحزن:

يعرف ابن القيم الحزن بقوله: (... هو انخلاع عن السرور، وملازمة الكآبة لتأسف عن فائت أو توجع لممتنع..)[١]، وهو مرض من أمراض القلوب يحول دون القلب فيمنع صاحبه من النهوض والسير والتشمير للعمل، يقول رحمه الله: (... فالحزن من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره)[٢]. وهو بلية من البلايا يقول رحمه الله: (... فالحزن هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها)[٣]، وابن القيم يرى أن الهم والحزن قرينان، ويعرفهما بقوله: (... وهما الألم الوارد على القلب)[٤]، ثم يفصل القول فيهما فيقول: (... فإن كان على ما مضى فهو الحزن، وإن كان على ما يستقبل فهو الهم. فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن، وإن كان مصدره خوف الآتي أثر الهم)[٥]، وللحزن دور خطير في ضعف العزم والإرادة لأن الإرادة من أعمال القلوب والحزن يضعف القلب ويقعده عن سيره، يقول ابن القيم: (... والحزن يضعف القلب ويوهن العزم ويضر بالإرادة)[٦].

٢ ـ أنواع الحزن:

وابن القيم لا يكتفي بذكر الحزن في جانبه السلبي الذي عرضناه بل

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٥٩.

(٤) المرجع السابق ص ٣٥٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٥٩.

(٦) المرجع السابق ص ٣٦٠.

نجده قد عرض علينا جانباً إيجابياً للحزن. فهو يرى أن حزن المؤمن إما أن يكون على تفريطه وتقصيره في عبادة ربه وإما أن يكون على وقوعه في معصيته ومخالفة أمره، يقول رحمه الله: (... فإن المؤمن إما أن يحزن على تفريطه وتقصيره في خدمة ربه وعبوديته، وإما أن يحزن على تورطه في مخالفته ومعصيته وضياع أيامه وأوقاته)[1]، نلاحظ أن ابن القيم قد بين لنا الوجهة الصحيحة التي ينبغي أن تتوجه إليها هذه الغريزة، فهو لا ينكر وجودها ولا ينادي بدفعها، بل يبين أن حزن المؤمن ينبغي أن يسلك مسلكاً إيمانياً فلا يحزن على شيء إلّا إذا فرط في جنب الله عزّ وجلّ، وفي هذا دليل على صحة الإيمان وحياة القلب، يقول رحمه الله: (... وهذا يدل على صحة الإيمان في قلبه، وعلى حياته حيث شغل قلبه بمثل هذا الألم فحزن عليه)[2]. كما يشير إلى أن عدم حزن العبد على تقصيره في جنب الله يدل على موت قلبه وعدم إحساسه يقول في ذلك: (... ولو كان قلبه ميتاً لم يحس بذلك، ولم يحزن ولم يتألم)[3]، ثم بين رحمه الله أن هناك تناسباً طردياً بين حياة القلب وشعوره بألم الحزن، فيقول: (... وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهذا الألم أقوى)[4].

وابن القيم رحمه الله يرى أن الحزن الذي يقعد عن العمل ويوهن القلب ويضعفه لا يفيد العبد ولا يجديه ولا ينفعه بشيء، بل الذي ينفعه حقيقة هو استقبال السير وبذل الجهد والتشمير في العمل، يقول رحمه الله: (... ولكن الحزن لا يجدي عليه. فإنه يضعفه.. بل الذي ينفعه أن يستقبل السير ويجد ويشمر ويبذل جهده)[5]. ثم يضرب مثالاً يبين فيه أن الحزن وحده دون عمل

---

(١) طريق الهجرتين... ابن القيم، ص ٣٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٦٠.

لا يفيد ولا ينفع، فيقول: (وهذا نظير من انقطع عن رفقته في السير فجلس في الطريق حزيناً كئيباً، يشهد انقطاعه، ويحدث نفسه باللحاق بالقوم، فكل ما فتر وحزن حدث نفسه باللحاق برفقته، ووعدها إن صبرت أن تلحق بهم، ويزول(*) عنها وحشة الانقطاع)[1].

ولقد أوضح ابن القيم أن هناك حزناً أخصّ من هذا وهو الحزن على تفرق القلب وضياع الوقت بحيث يضعف السالك عن السير إلى الله، يقول رحمه الله: (... وأخص من هذا الحزن حزنه على قطع الوقت بالتفرقة المضعفة للقلب عن تمام سيره وجده في سلوكه، فإن التفرقة من أعظم البلاء على السالك)[2]، ثم يؤكد على نوع هام من الحزن وهو أخص من سابقه ألا وهو حزنه على صرف جزء من أجزاء قلبه، أو جزء من أجزاء بدنه في غير محبة الله عزّ وجلّ، يقول رحمه الله: (... وأخص من هذا الحزن حزنه على جزء من أجزاء قلبه كيف هو خال من محبة الله؟ وعلى جزء من أجزاء بدنه كيف هو متصرف في غير محاب الله؟ فهذا حزن الخاصة، ويدخل في هذا حزنهم على كل معارض يشغلهم عما هم بصدده من خاطر أو إرادة أو شاغل من خارج)[3].

٣ ـ علاج الحزن:

بعد أن عرفنا رأي ابن القيم في أن الحزن مرض من أمراض القلوب وبعد معرفتنا لأنواع الحزن التي أشار إليها، نريد الآن أن نعرف علاج الحزن إذا عرض للقلب.

إنه يرى أن مراتب الحزن لا بد وأن تعتري العبد في سيره إلى الله يقول

(*) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب (وتزول) والله أعلم.

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٦٠.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦٠.

(٣) المرجع السابق ص ٣٦١.

رحمه الله بعد ذكر مراتب الحزن: (... فهذه المراتب من الحزن لا بد منها في الطريق)[1] ويرى أن من العلاج:

أ ـ عدم الاستسلام لمراتب الحزن حتى لا تملكه وتقعده عن العمل، يقول في ذلك: (... ولكن الكيّس لا يدعها تملكه وتقعده)[2].

ب ـ التفكير فيما يدفعها به، يقول: (... بل يجعل عوض فكرته فيها فكرته فيما يدفعها به)[3].

ج ـ اللجوء إلى الله بأن يصرف عنه الحزن والهم، ولقد استشهد على هذا بما ورد في الحديث الصحيح، فقال رحمه الله: (... وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل وضلع الدين، وغلبة الرجال ...» والمقصود أن النبي ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه)[4].

د ـ معرفة العبد ربه وحبه له يقيانه من الهموم والغموم والأحزان، يقول رحمه الله: (... فإن من عرف الله أحبه ولا بد، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب، فإنه لا حزن مع الله أبداً، ولهذا قال حكاية عن نبيه ﷺ أنه قال لصاحبه أبي بكر: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ فدّل أنه لا حزن مع الله وأن من كان الله معه فما له وللحزن، وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله فمن حصل الله له فعلى أي شيء يحزن؟ ومن فاته الله فبأي شيء يفرح)؟[5].

---

(١) طريق الهجرتين. ابن القيم ص ٣٦١.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦١.

(٣) المرجع السابق ص ٣٦١.

(٤) المرجع السابق ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ والحديث صحيح رواه (حم، ق، ٣) عن أنس. من صحيح الجامع الصغير وزيادته. محمد ناصر الدين الألباني رقم ١٣٠٠، ١/ ٤٠٨.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٦١، سورة التوبة / ٤٠.

هـ ـ إن ابن القيم يصنف النفوس تجاه المكروه إلى صنفين، فيقول: (. . . فإن المكروه إذا ورد على النفس فإن كانت صغيرة اشتغلت بفكرها فيه وفي حصوله عن الفكرة في الأسباب التي يدفعها به، فأورثها الحزن، وإن كانت نفساً كبيرة شريفة لم تفكر فيه، بل تصرف فكرها إلى ما ينفعها، فإن علمت منه مخرجاً فكرت في طريق ذلك المخرج وأسبابه، وإن علمت أنه لا مخرج منه فكرت في عبودية الله فيه، وكان ذلك عوضاً لها من الحزن، فعلى كل حال لا فائدة لها في الحزن أصلاً)[1]، وهذا توجيه تربوي هام يلفت ابن القيم نظرنا إليه، ألا وهو الاحتساب والصبر عند نزول المكروه وفي هذا تنمية للجانب الإيماني وتوجيه للحزن وجهة إيمانية.

ب ـ الفرح:

الفرح ضد الحزن، وهو عارض من عوارض النفس، وبالفرح بالله عزّ وجلّ: (. . . ينال القلب حقيقة الحياة)[2]؛ وابن القيم يرى أن معرفة الله عزّ وجلّ تكسب العبد حباً له، وهذا الحب يكشف عن القلب الهموم والغموم والأحزان، يقول رحمه الله: (. . . فإن من عرف الله أحبه ولا بد، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب، فإنه لا حزن مع الله أبداً ولهذا قال حكاية عن نبيه ﷺ أنّه قال لصاحبه أبي بكر (رضي الله عنه) ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فدل أنه لا حزن مع الله، وأن من كان الله معه فما له وللحزن. وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله، فمن حصل الله له فعلى أي شيءيحزن؟ ومن فاته الله فبأي شيء يفرح؟ قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه. فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به: من حبيب، أو حياة، أو مال، أو نعمة أو ملك. يفرح المؤمن بربه أعظم

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦٢.

من هـذا كله. ولا ينـال القلب حقيقـة الحيـاة حتى يجـد طعم هـذه الفــرحـة والبهجة)[1].

وإن ابن القيم بهـذا يصف الوسيلة المثلى لتـربية عـاطفـة الحب، حتى تضبط هذه العاطفة جميع الغرائز التي يسميهـا عوارض النفس، بحيث تنـطلق وتتجه جميعها إلى ما يحبه الله ويرضاه.

وابن القيم يرى أن من الوسائل التي تكسب القلب فرحة وبهجة وتشرح الصـدر الإحسان. فيقـول: (. . . إن الإحسان يفـرح القلب ويشرح الصـدر، ويجلب النعم، ويـدفع النقم)[2]، وتـركـ الإحسان يكسب القلب حـزنـاً وهمـاً وضيقـاً يقـول رحمـه الله: (. . . وتـركـه [أيّ الإحسـان][3] يـوجب الضيم والضيق، ويمنع وصول النعم إليه)[4].

ويقصـد ابن القيم بالإحسـان البذل والعـطاء، أوضح هـذا عند شـرحـه للجبن والبخـل حيث قـال: (فـالجبن تـركـ الإحسـان بـالبـدن، والبخـل تـركـ الإحســان بــالمــال)[5]، لأن الجبن والبخــل قــرينــان يقــول رحمــه الله: (. . . والجبن والبخل قرينان)[6].

جـ ـ الخوف:

يتحدث ابن القيم عن الخوف بصفته عارضاً من عوارض النفس، ويرى أنه يتعلق بالأفعال: (. . . ولا يخـرج عن كون سببـه جنايـة العبد، وإن كـانت جنايته من قـدر الله، ولهذا قـال علي بن أبي طالب رضي الله عنـه «لا يرجـوّن عبد إلاّ ربَّه، ولا يخافنّ عبدٌ إلاّ ذنبه» فمتعلق الخوف ذنب العبد وعاقبته)[7].

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص ٣٦١، ص ٣٥٢، سورة التوبة /٤٠، سورة يونس /٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٩.

(٣) زيادة للايضاح.

(٤) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٥٩.

(٥) المرجع السابق ص ٣٥٩.

(٦) المرجع السابق ص ٣٥٩.

(٧) المرجع السابق ص ٣٦٧.

١ ـ الخوف والحبُّ:

لقد أوضح ابن القيم الفرق بين الخوف والحب بقوله: (... والفرق بينه وبين الحب: أن الحب سببه الكمال. وذاته تعالى لها الكمال المطلق. وهو متعلق الحب التام. وأما الخوف فسببه توقع المكروه، وهذا إنما يكون في الأفعال والمفعولات)[١]، وهو يرى أن: (... الخوف يتعلق بالأفعال. وأما الحب فإنه يتعلق بالذات والصفات)[٢]، ثم يبين أن الخوف يزول في الجنة أما الحب فإنه يزداد، فقال رحمه الله: (... ولهذا يزول الخوف في الجنة وأما الحب فيزداد)[٣].

٢ ـ الخوف من الله من لوازم الإيمان:

يقول ابن القيم: (... إن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته، فلا يختلف(*) عنه)[٤]، ثم يشير رحمه الله إلى أن هناك تناسباً طردياً بين علم العبد بالله وخوفه منه، فيقول: (... فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «وكفى بخشية الله علماً». ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه، وخوفه له، وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفاً وحباً)[٥].

٣ ـ الخوف وحالات العبد:

يصف ابن القيم حال العبد فيقول: (... فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة)[٦]، ثم يذكر خوفه في كل من هذين الحالين،

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص ٣٦٧.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦٧.

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٧.

(*) هكذا ولعله تصحيف والصواب (يتخلف) والله أعلم.

(٤) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٦٤.

(٥) المرجع السابق ص ٣٦٥.

(٦) المرجع السابق ص ٣٦٥.

فيقول: (... فإن كان مائلاً عن الاستقامة، فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلّا بهذا الخوف)[1]، ثم يبين الأمور التي ينشأ منها الخوف في هذه الحالة، فيقول: (... وهو ينشأ من ثلاثة أمور: أحدها: معرفته بالجناية وقبحها. والثاني: تصديق الوعيد، وأن الله رتب على المعصية عقوبتها. والثالث ـ أنه لا يعلم لعله يُمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب. فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف)[2]، ثم أوضح النسبة الرابطة بين قوة هذه الأمور وضعفها وبين قوة الخوف وضعفه، بقوله: (... وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه)[3]، ولقد ذكر رحمه الله دافع ارتكاب الذنب، فقال: (... فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوء عاقبته. وإما أن يجتمع له الأمران، لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان)[4] ثم أوضح أن العبد إذا علم قبح الذنب، وعلم سوء مغبته فإنه يخاف من ارتكابه ابتداء، وإذا ارتكبه اشتد خوفه بعده، يقول رحمه الله: (فإذا علم قبح الذنب، وعلم سوء مغبته، وخاف أن لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد)[5].

وهذا بناء محكم لتربية العاطفة الدينية، وتوجيه لغريزة الخوف بحيث لا يكون خوف العبد إلاّ من الله عزّ وجلّ، فلا يخشى إلاّ الله ولا يخاف إلاّ منه. وابن القيم يرى أنه متى استقر الإيمان في القلب بتذكر الدار الآخرة وجزائها، والحذر من المعصية والوقوع عليها، وعدم قبول التوبة منه، فإن الخوف يتمكن من القلب حتى يكون سبباً في نجاته. يقول رحمه الله: (... من استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٦٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٦٥.

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٦٥.

(٥) المرجع السابق ص ٣٦٥.

الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج من قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو)[1].

بعد هذا ذكر ابن القيم خوف العبد في حالة استقامته، فقال: (. . . وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس لعلمه أن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عزّ وجلّ.

فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه. . . فأي قرار لمن هذه حاله؟ ومن أحق بالخوف منه؟ بل خوفه لازم له في كل حال، وإن توارى عنه بغلبة حالة أخرى عليه، فالخوف حشو قلبه. .)[2]. ثم أوضح رحمه الله أن الخوف في الحالة الأولى ما هو إلا ثمرة للعلم بالوعد والوعيد من الله، وأن الخوف في الحالة الثانية ما هو إلا ثمرة للعلم بقدرته سبحانه وعزته وأنه الفعّال لما يريد، فقال: (. . . فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزته وجلاله، وأنه الفعال لما يريد، وأنه المحرك للقلب المصرف له، المقلب له كيف يشاء لا إله إلاّ هو)[3].

٤ ـ لا خوف إلا من الله:

إن الخوف في نظر ابن القيم عبودية القلب، وعبودية القلب لا يصح صرفها إلا لله عزّ وجلّ، يقول رحمه الله: (. . . وأما الخشية والمخافة فلا تصلح إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾. فالخوف عبودية القلب، فلا تصلح إلا لله كالذل والمحبة والإنابة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب)[4].

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٦٥.
(٢) المرجع السابق ص ٣٦٥.
(٣) المرجع السابق ص ٣٦٥.
(٤) المرجع السابق ص ٣٧٧، سورة المائدة / ٤٤ سورة آل عمران / ١٧٥، سورة التوبة / ١٨.

ثم أكد أن الطاعة لله ورسوله وأما الخشية فللّه وحده دون سواه، واستشهد على هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ثم علق على هذه الآية بقوله: (... وتأمل... كيف جعل الطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوى له وحده)[1]، نلاحظ أن ابن القيم حصر هذه الغريزة؛ ألا وهي غريزة الخوف على الخوف من الله وهذا توجيه تربوي لها لتكون في مسارها الإيماني، لكن معروف أن الإنسان قد يعتريه الخوف لموقف من المواقف أو مثير من المثيرات فهذا خوف ناشىء من حب البقاء ولا أظن أن ابن القيم يعيب على من يعتريه هذا الخوف وإن لم يشر إليه رحمه الله.

٥ ـ الخوف وسيلة من وسائل العبادة:

إذا كان ابن القيم يرى أن الخوف عبودية القلب التي لا تصلح إلا لله عز وجل فإنه يرى أن الخوف وسيلة لتقوية العبودية، يقول رحمه الله: (... وأما الخوف فإنه إنما زال [2] لأنه وسيلة إلى تقوية العبودية والقيام بالأمر والوسيلة تزول عند حصول الغاية. ولكن زوال الوسيلة عند حصول الغاية لا يدل على أنها ناقصة، وإن كانت تلك الغاية لا كمال للعبد بدونها فالوسيلة إليها كذلك)[3]، وليس هناك ما يمنع من جعل الخوف عبادة من جهة ووسيلة من جهة أخرى، فالوضوء مثلاً عبادة في ذاته ووسيلة لعبادة أخرى.

٦ ـ ثمرة الخوف من الله:

إن الناس متفاوتون في درجة خوفهم من الله عز وجل، فالمقربون خوفهم أعظم من خوف غيرهم، يقول ابن القيم: (... إن خوف المقربين عند ربهم أعظم من خوف غيرهم) [4]، ويقول أيضاً: (... ومن ههنا كان

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٧٨، سورة النور /٥٢.

(٢) أي في الجنة.

(٣) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٧٩.

(٤) المرجع السابق ص ٣٧٤.

خوف السابقين من فوات الإيمان، كما قال بعض السلف: أنتم تخافون الذنب، وأنا أخاف الكفر، وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: «نشدتك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ ؟» يعني في المنافقين فيقول: لا، ولا أزكى بعدك أحداً[1].

والذين يخافون الله في الدنيا كان الخوف أنفع لهم، فبه حصلوا على الأمن التام، يقول ابن القيم: (... كان الخوف في الدنيا أنفع لهم، فبه وصلوا إلى الأمن التام، فإن الله سبحانه وتعالى لا يجمع على عبده مخافتين اثنتين. فمن خافه في الدنيا أمنه يوم القيامة، ومن أمنه في الدنيا ولم يخفه أخافه في الآخرة. وناهيك شرفاً وفضلاً بمقام ثمرته الأمن الدائم المطلق)[2].

د ـ الغضب:

١ ـ تعريف الغضب:

إن الغضب في رأي ابن القيم عارض من عوارض النفس البشرية وفي تعريفه له يقول: (... والغضب نوع من الغَلْقِ والإغْلاقِ الذي يغلق على صاحبه باب حسن التصور والقصد)[3]، كما يصفه بأنه غول للعقل، يؤثر عليه كتأثير الخمر أو أشد، يقول رحمه الله: (... فإن الغضب غول العقل يغتاله كما تغتاله الخمر ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان)[4]، والغضب عدو العقل يشبهه ابن القيم في حال اغتياله للعقل بالذئب، عند افتراسه للشاة، فيقول: (... الغضب عدو العقل، وهو له كالذئب للشاة، قلما يتمكن منه إلا اغتال عقله)[5] وهو مرض من أمراض

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٧٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٨.

(٣) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٧٥.

(٤) أعلام الموقعين، ابن القيم ـ ٢/١٧٥، ورد حديث في صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب هل يقضي الحاكم أو يفتي وهو غضبان؟ جاء فيه: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» ٤/٢٣٦.

(٥) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، ابن القيم ص ٢٢.

القلوب وداء من ادوائهـا يقـول رحمـه الله: (. . . إن الغضب مـرض من الأمـراض وداء من الأدواء فهو في أمـراض القلوب نـظيـر الحمى والـوسـواس والصرع في أمراض الأبدان، فالغضبان المغلوب في غضبه كالمريض والمحموم والمصروع المغلوب في مـرضه والمبـرسم المغلوب في برسـامـه، وهذا قياس صحيـح في الغضبان الـذي قد اشتـد به الغضب حتى لا يعلم مـا يقول)[1].

وهو (. . . يهجم على القلب دون إرادة صاحبـه) [2]. فـ (. . . العاقـل لا يستدعي الغضب ولا يريده بل هـو أكره شيء إليـه وهو كمـا قال النبي ﷺ: «جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه» والعـاقل لا يقصد إلقاء الجمرة في قلبه، فهو ناشيء فيه بغير اختياره) [3] والدليل على أنه ناشيء فيه بغير اختياره ما ذكره رحمه الله بقوله: (. . . إنك تقول للغضبان إذا اشتد غضبه ففعل ما لم يكن يفعله، أو تكلم ما لم يكن تكلم به قبل الغضب: هل أردت ذلك أو قصدته؟ فيحلف أنه ما أراده ولا قصده، ولا كان له باختيار، ويحلف أنه وقع بغير اختياره. ولا تنكـر هذا فـإنك تجـده من نفسك، وتحقيق الأمـر أن له فيـه إرادة هو محمـول عليها، حمله عليهـا الغضب، فهي كـإرادة المكره، بل المكره أدخل في الإرادة) [4].

وإذا وصل الغضب بالإنسان إلى درجة فقدان العلم والإرادة، فتكلم بما لا يقصـد ولا يعي من تصرفـاته شيئـاً، فالشـارع الحكيم لا يكلف نفسـاً فـوق طاقتها، لذا لا يلزمه بما يصدر عنه أثناء الغضب من تصـرفات لا يتـرتب عليها إتـلاف مال للغيـر ولا إزهـاق نفس لـه، لأن الخـطأ والعمـد في دمـاء النـاس وأموالهم سواء، يقول ابن القيم رحمه الله بشأن تصرفات الغضبان: (. . . فلا ريب أن لا ينفذ شيء من أقواله في هذه الحالة، فإن أقوال المكلف إنمـا تنفذ

(١) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، ابن القيم ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٠، والحديث رواه احمـد في مسنده ١٩/٣ والترمذي في كتـاب الفتن ١٦ ـ ٤٨٣/٤.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٠.

مع علـم القائل بصدورها منه ومعناها وإرادته للتكلم بها) [١].

٢ ـ درجات الغضب:

والغضب درجات، والناس فيها متفاوتـون، يقول ابن القيم: (. . . فـإن الناس متفاوتون في الغضب تفاوتاً عظيماً، فمنه مـا هو كـالنشوة، ومنـه ما هـو كالسكر، ومنه ما هـو كالجنـون، ومنه مـا هو سـريع الحصـول سريـع الزوال، وعكسه، ومنه سريع الحصول بطيء الزوال وعكسه) [٢].

٣ ـ مضار الغضب:

وللغضب مضار منها فقدان كمال التصـور والقصد عنـد الغاضب، ذكـر ابن القيم هـذا في معـرض تعـدد حـالات الـطلاق حين الغضب، فقـال: (. . . الصـورة الثـالثـة: أن لا يقصـد أمـراً بعينـه، ولكن الغضب حمله على ذلك، وغير عقله ومنعه كمال التصور والقصد، فكان بمنزلة الذي فيـه نوع من السكر والجنون، فليس هو غائب العقل، بحيث لا يفهم ما يقول بالكليـة، ولا هو حاضر العقل بحيث يكون قصده معتبراً) [٣].

ومن مضـاره إصابـة الغاضب بـإغماء وغشي يـرفع بهمـا عنـه التكليف، يقول ابن القيم: (. . . قد يحصل للغضبان اغماء وغشي وهو في هذه الحالـة غير مكلـف قطعاً. . .) [٤].

٤ ـ علاج الغضب:

إن الغضب وسيلة يستعملها الشيطان في غواية الإنسان وانحرافه وتدميره وهلاكه، فهو يجري منه مجرى الدم، ويوصي حزبه وأعوانه أن يستعينـوا على بني آدم بالشهوة والغضب والشبهـة ويوصيهم بـأن يبعدوهم عن الهـدى الإلهي والإرشاد المحمدي، يصف لنـا ابن القيم طريقـة الشيطان وهـو يخطط لحـزبه

(١) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، ابن القيم، ص ١٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٢.

(٣) المرجع السابق ص ٣١.

(٤) المرجع السابق ص ٣٢.

في غـوايـة الإنسـان، فيقـول: (. . . وإيـاكم أن تمكنـوا ابن آدم عنـد غضبـه وشهـوته من قـربـان الـوضوء والصـلاة، فإن ذلـك يـطفـئ عنهم نـار الغضب والشهوة، وقد أمرهم نبيهم بذلـك وقال: «إن الغضب جمـرة في قلب ابن آدم أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس ذلك فليتـوضأ »، وقـال لهم: «إنما تطفأ النار بالماء» وقـد أوصاهم الله أن يستعينـوا بالصبـر والصلاة، فحولوا بينهم وبين ذلك وأنسوهم إياه، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب) [١]
من هذا القول نستطيع أن نستخلص علاج الغضب في الآتي:

أ ـ الاستعـاذة من الشيطان، وتـلاوة بعض الآيـات التي تكـون سببـاً في طرده وإبعاده.

ب ـ ذكر الله عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٢].

ج ـ الوضوء، لأن فيه تبريداً لأعضاء الجسم وتهدئة للأعصاب.

د ـ الاستعانة على الغضب بـالصبر والتجلد، وتـذكر قـول الله عز وجـل ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[٣]، وقـوله تعـالى ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

هـ ـ تعمد إتيان الصلاة في حال الغضب، لأنها وسيلة في طرد الشيطان وإبعاده، لأن الإنسان في الصلاة يناجي ربه ويدعـوه، فهو قـريب منه لا سيمـا أثناء الصلاة.

و ـ التحـول عن حـالتـه، فـإن كـان قـائمـاً فليقعـد، وإن كـان قـاعــداً فليضطجع. يقول ابن القيم: (. . . إن النبي ﷺ شرع للغضبان أن يقول أعوذ

(١) انـظر الجـواب الكـافي، ابن القيم ص ٧١، الحـديث رواه التـرمـذي في كتـاب الفتن ١٦، ٤/٤٨٣، والحديث رواه أحمد في مسنده ٤/٢٢٦.
(٢) سورة الرعد /٢٨.
(٣) سورة النحل /١٢٧.
(٤) سورة آل عمران /١٣٤.

بالله من الشيطان الرجيم، وأن يتوضأ، وأن يتحول عن حالته، فإن كان قائماً فليقعد، وإذا كان قاعداً فليضطجع، قال: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» [1].

وهذا العلاج إنما يكون للغضب في مبادئه أما إذا تمكن من الإنسان فإن علاجه صعب. يقول ابن القيم: (... من الغضب ما يمكن صاحبه أن يملك نفسه عنده وهو الغضب في مبادئه، فإذا استحكم وتمكن منه لم يملك نفسه عند ذلك) [2].

هـ ـ المحبة:

أ ـ تعريف المحبة:

لقد ذكر ابن القيم أسماء المحبة وأوصلها إلى الستين وزيادة، إلا أن الملاحظ في هذه الأسماء أن الكثير منها من لوازم المحبة وآثارها لا من أسمائها، كالحزن والأرق وغير ذلك [3].

كما تعرض رحمه الله إلى اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها وأطال الحديث فيها، فذكر ما يتعلق بالمحبة من الناحية اللغوية، واستوفى وجوهاً كثيرة حول اشتقاق هذه الكلمة إلا أنه لم يرجح واحداً منها [4]، لأنه يرى أن المحبة لا تحتاج إلى تعريف؛ لأن التعريف إنما يكون حال الإشكال والاستعجام على الفهم، يقول رحمه الله أثناء رده على أبي العباس بن العريف الذي يقول عن المحبة في كتابه «محاسن المجالس»: (... وهي على الإجمال قبل أن تنتهي إلى التفصيل وجود تعظيم في القلب يمنع الانقياد لغير محبوبه) [5]،

---

(1) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، ابن القيم ص ٢٤. والحديث رواه أحمد في مسنده ٢٢٦/٤.

(2) المرجع السابق ص ٢٧.

(3) انظر روضة المحبين، ابن القيم، ص ١٦.

(4) انظر المرجع السابق، من ص ١٧ إلى ص ٥٣.

(5) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص ٣٨١.

وبعد أن أورد عدة تعريفات للمحبة غير تعريف أبي العباس بين أن هذه التعاريف لا يصار إليها؛ لأن المحبة في نظره ألطف وأرق من كل ما يعبر به عنها ـ : (... وقد قيل في المحبة حدود أكثر من هذا، وكل هذا تعن. ولا توصف المحبة ولا تحد بحد أوضح من المحبة، ولا أقرب إلى الفهم من لفظها. وأما ذكر الحدود والتعريفات فإنما يكون عند حصول الإشكال والاستعجام على الفهم، فإذا زال الإشكال وعدم الاستعجام فلا حاجة إلى ذكر الحدود والتعريفات) [1]، ثم أوضح رحمه الله أن هذا التعظيم للمحبوب ما هو إلا أثر من آثار المحبة فقال: (... هذا التعظيم المانع من الانقياد لغير المحبوب هو أثر من آثار المحبة وموجب من موجباتها، لا أنه نفس المحبة. فإن المحبة إذا كانت صادقة أوجبت للمحب تعظيماً لمحبوبه تمنعه من انقياده إلى غيره) [2].

ويرى رحمه الله أن المحبة أكبر من أن يحدها لفظ، فيقول: (... وهي وراء ذلك كله، ليس اسمها كمسماها، ولا لفظها مبين لمعناها وكذلك اسم المصيبة والبلية والشدة والألم؛ إنما تدل أسماؤها عليها نوع دلالة، لا تكشف حقيقتها) [3].

والمحبة عنده من الأمور الوجدانية التي: (... لا تعلم حقيقتها إلا بذوقها ووجودها، وفرق بين الذوق والوجود وبين التصور والعلم) [4]، ثم يذكر سبب اختلاف التعريفات للمحبة، فيقول: (... الشيء إذا كان من الأمور الوجدانية الذوقية التي إنما تعلم بآثارها وعلاماتها، وكان مما يقع فيه التفاوت بالشدة والضعف، وكان له لوازم وآثار وعلامات متعددة، اختلفت العبارات عنه بحسب اختلاف هذه الأشياء، وهذا شأن المحبة، فإنها ليست

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١.
(٢) المرجع السابق ص ٣٨١.
(٣) المرجع السابق ص ٣٨١.
(٤) المرجع السابق، ص ٣٨١.

بحقيقة معانيهـا ترى بـالأبصار، فيشتـرك الواصفـون لها في الصفـة، وهي في نفسها متفاوتة أعظم تفاوت، كما بين العلاقة التي هي تعلق القلب بـالمحبوب والخلة التي هي أعلى مـراتب الحب، وبينهمـا درجـات متفـاوتـة تفـاوتـاً لا ينحصر، ولها آثار توحيها وعلامات تدل عليها، فكل أدرك بعض علاماتها فعبر بحسب ما أدركه) [1].

فـالمحبة من أعمـال القلوب وصفات الـروح لكن لهـا عـلاقـة بـالسلوك والوظائف الجسدية والإنسـان بحاجـة إلى الحبّ، يقول بعض علمـاء النفس: (إن لدى الإنسان حاجة نفسية، هي الحاجة إلى الحبّ: حاجتـه إلى أن يُحِبَّ وأن يُحَبَّ، إن الإنسـان بتكـوينــه النفسي حـريص على أن يحبّ وأن يكــون محبوباً) [2].

والإنسان بطبيعته وتركيبته النفسية إن صح التعبير هـو بحاجـة إلى الحبّ ـ وهـذه نقطة التقـاء بين فكر ابن القيم التـربوي ومـا قالـه بعض علماء النفس الحديث ـ أما نقطة الخلاف فهي أن بعض علمـاء النفس يجعلون هناك عـلاقة وثيقة جداً بين الحبّ والجنس مثل فرويد ومن سار على دربـه، حيث يجعلون الجنس محور ارتكاز تدور عليه أفعال الإنسان [3].

إن ابن القيم يعـطي الحبَّ مجالاً أوسـع وأُفقاً أرحب، فـالمحبـة عنـده أنواع، يقول عنها: (والمحبة أنواع متعددة، فـأفضلها وأجلهـا: المحبة في الله ولله، وهي تستلزم محبـة ما أحبّ الله، وتستلزم محبـة الله ورسولـه ﷺ، ومنها محبة الاتفاق في طـريقة أو دين أو مـذهب أو نحلة أو قرابـة أو صناعـة أو مراد مـا، ومنها محبـة لنيل غـرض من المحبوب إمـا من جاهـه أو من مـالـه أو من تعليمه وإرشاده، أو من قضاء وطر منه. وهذه هي المحبة العرضية، التي تزول

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص ٣٨١.
(٢) أصول علم النفس وتطبيقاته، د. فاخر عاقل، ص ٢٢٣، ٢٢٤.
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٥، ٢٢٦.

بزوال موجبها، فإنه من ودّك لأمر ولى عند انقضائه) [1].

ب ـ أنواع المحبة وضروبها:

يبين لنا ابن القيم رحمه الله أن من المحبة ما هو مفيد يعود على الإنسان بالسعادة والأمن والطمأنينة، ومنها ما هو ضار يعود عليه بالشقاوة والتعس. وكل من هذين النوعين أقسام، ولكل منهما آثار ولوازم وأحكام، يقول موضحاً ذلك: (... المحبة النافعة ثلاثة أنواع، محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله واجتناب معصيته. والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله تعالى، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى، أو تنقصها، ... فهذه ستة أنواع عليها مدار محاب الخلق)[2].

ثم يذكر رحمه الله الآثار والأحكام المترتبة على كل من المحبة المحمودة أو المذمومة، والمحبة النافعة أو الضارة، فيقول: (... والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت محمودة أو مذمومة نافعة أو ضارة من الوجد والذوق والحلاوة والشوق والأنس والاتصال بالمحبوب والقرب منه أو الانفصال عنه، والبعد منه والصد والهجران والفرح والسرور والبكاء والحزن وغير ذلك من أحكامها ولوازمها) [3].

ثم يشير بأن للمحبة الضارة أضراراً بالغة على الفرد والأسرة والمجتمع، فهي تعين على الظلم والعدوان، وتروج للغش والخداع، لأن العاشق يمكن معشوقه من كل ما فيه ظلم، أو يسعى له في منصب لا يستحقه، فيغش بذلك الأمة، أو يقف معه ضد خصمه وإن كان خصمه على حق فيقول رحمه الله: (وكما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبغي، حتى ربما يسعى له في منصب لا يليق به، ولا

(١) الطب النبوي، ابن القيم، ص ٢٠٩.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/١٣٦، إلى ١٤٠.

(٣) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٤٤.

يصلح لمثله، في تحصيل مال من غير حله، وفي استطالته على غيره، فإذا اختصم معشوقه وغيره أوتشاكيا لم يكن إلا في جانب معشوقه ظالماً كان أو مظلوماً، إلى ما ينضم إلى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك) [1]. ويذكر من مضارها أيضاً أن تجعل كلاً من المعشوق والعاشق ظالماً لنفسه ولصاحبه ولغيرهما من أفراد المجتمع، يقول رحمه الله: (... وفي العشق من (*) ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه لنفسه، فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه، وظلمهما متعمد إلى الغير) [2].

إن التربية التي ينادي بها ابن القيم تربية سليمة متزنة شاملة تتناول الإنسان على أنه كيان موحد، وتسعى لتحقيق العبودية بمفهومها الواسع وتوجيه جميع قدرات الإنسان وكل أحاسيسه ووظائفه العقلية وحركاته البدنية لطاعة الله عز وجل، فيشعر عندئذ بالسعادة والرضا وينال الجزاء الأوفى يوم القيامة، فيقول: (... فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله تعالى بها وخلق خلقه لأجلها هي محبته وحده لا شريك له، المتضمنة لعبادته دون عبادة ما سواه) [3]، فهو يوجه المحبة ويضع لها الإطار الصحيح ويرسم لها الضوابط الواضحة لتحقيق مرضاة الله التي تجلب السعادة والأمن للإنسان، كما يحذر من محبة غير الله ويعرضها على حقيقتها ويبين أن السعادة فيها وقتية آنية لا تلبث أن تزول ثم تبقى حسرتها والندامة على فعلها، وهذا أسلوب جيد في التنفير ووسيلة تربوية هامة. نستمع إليه رحمه الله وهو يتحسر فيقول: (... فياحسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس،

---

(1) الجواب الكافي. ابن القيم. ص ١٥٥.

(*) هكذا، ولعله خطأ والصواب حذف «من» فتكون الجملة: «وفي العشق ظلم..».

(2) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٥٥.

(3) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ١٣٣/٢.

وشهـوة عـاجلة، ذهبت لـذتهـا، وبقيت تبعتهـا، وانقضت منفعتهـا، وبقيت مضرتها، فذهبت الشهوة وبقيت الشقوة، وزالت الغشوة وبقيت الحسرة)[1].

ج - المحبة التي تصلح للخلق:

من المحبـة في نـظر ابن القيم مـا يصلح للخلق بعضهم لبعض يقـول رحمـه الله: (. . . والمحبة المشتـركـة ثـلاثـة أنـواع: أحـدهـا محبـة طبيعيـة مشتركة، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، وغير ذلـك. وهذه لا تستلزم التعـظيم، النوع الثـاني: محبة رحمـة وإشفاق كمحبـة الوالـد لـولـده الـطفـل ونحـوها، وهـذه أيضـاً لا تستلزم التعـظيم، والنوع الثـالث: محبة أنس وألف وهي محبة المشتركين في صنـاعة أو علم أو مـرافقة أو تجـارة أو سفر لبعضهم بعضاً، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضاً، فهـذه الأنواع الثـلاثة هي المحبـة التي تصلح للخلق بعضهم مع بعض، ووجودها فيهم لا يكون شـركاً في محبـة الله سبحانه وتعالى . . .)[2].

د - المحبة الخاصة:

بعـد أن ذكـر ابن القيم المحبـة التي تصلح للخلق بين أن هنـاك محبـة خـاصة، ألا وهي محبـة العبوديـة المستلزمة لكمـال الذل والخضـوع والتعظيم والإيثار، فهذه لا تصلح إلاّ لله وحده دون سواه، يقـول في ذلك: (. . . وأمـا المحبـة الخاصـة التي لا تصلح إلاّ لله وحده ومتى أحب العبـد بها غيـره كـان شركاً لا يغفـره الله، فهي محبة العبـودية المستلزمـة للذل والخضوع والتعـظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره،فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً)[3]، وهـذه المحـبة من لـوازمها أنهـا تجعل العبـد قريبـاً من حبيبـه وخـالقه عـز وجـل، (فإنـه سميع قـريب، وهذا القـرب هو من لـوازم المحبة، فكلمـا كان الحب أعظم كان القرب أكثر)[4] وهذه المحبة هي غـاية كمـال العبد، لأنهـا

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/ ١٢١.

(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٨٢.

(٣) المرجع السابق ص ٣٨٢.

(٤) المرجع السابق ص ٢٥.

مبنية على الكمال والجمال والجلال له سبحانه. يقول ابن القيم: (... فإنه سبحانه الجليل الجميل والحب الناشئ عن شهود هذين الوصفين هو الحب النافع... وشهود الوصفين معاً يوجب حباً مقروناً بتعظيم وإجلال ومهابة، وهذا هو غاية كمال العبد) [1]، وقد أوضح رحمه الله أن هناك حباً مزيفاً يحمل النفس على الدعاوى والرعونات الباطلة والأماني الكاذبة، وهذا الحب هو الخالي من التعظيم والإجلال لله عز وجل، قال: (... لا ريب أن الحب والأنس المجرد عن التعظيم والإجلال يبسط النفس، ويحملها على بعض الدعاوى والرعونات والأماني الباطلة وإساءة الأدب، والجناية على حق المحبة، فإذا قارن المحبة مهابة المحبوب وإجلاله وتعظيمه وشهود عز جلاله وعظيم سلطانه، انكسرت نفسه له، وذلت لعظمته واستكانت لعزته، وتصاغرت لجلاله، وصفت من رعونات النفس وحماقاتها ودعاويها الباطلة، وأمانيها الكاذبة) [2].

من بيان ابن القيم لأنواع المحبة نستطيع أن نسلط الأضواء على اتجاه المحبة الشائعة في الأوساط الاجتماعية عامة، وأوساط الشباب على وجه الخصوص، من حب للكرة لدرجة الهوس والجنون، وحب للأغاني والألحان العارية من الحياء والأدب، وحب لأفلام الفديو التي تشيع الفاحشة والفساد في أوساط الشباب عامة. وأن ما ذكره ابن القيم يرشدنا إلى الوضع الأمثل بشأن الحب، وهو توجيه الحب إلى الخير والصلاح والبعد به عن كل ما يسخط الله عز وجل.

هـ ـ وسيلة المحبة:

بعد أن عرفنا أنواع المحبة التي تصلح للخلق بعضهم لبعض والمحبة التي لا تصلح إلا لله عز وجل، نريد أن نعرف الوسيلة التي تثمر محبة الله عز وجل، يقول ابن القيم في ذلك: (... فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٧٩، ٣٨٠.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٩.

محبته، والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها، بل قد تضره؛ لأنها توجب الإدلال والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل) (١).

و ـ المحبة دافع قوي:

لقد تبين لنا من كلام ابن القيم على المحبة وضروبها ومن تقسيمه لها إلى محبة محمودة، وأخرى مذمومة أنه ينظر إلى المحبة نظرة شمولية في مظاهرها المختلفة، ونضيف إلى ذلك أنه يرى أن المحبة «محرك» و «دافع». يقول رحمه الله: (... فالمحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له، فتحرك محب الرحمن، ومحب القرآن، ومحب العلم والإيمان، ومحب المتاع والأثمان، ومحب الأوثان والصلبان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، فتثير من كل قلب حركة إلى محبوبه من هذه الأشياء) (٢).

وابن القيم يرى أن كل فعل أو حركة أو سكون في هذا العالم فهو بالحب والإرادة، كما أن الكف والترك بسبب البغض والكراهية، يقول رحمه الله: (... فأصل كل فعل وحركة في العالم من الحبّ والإرادة فهما مبدأ لجميع الأفعال والحركات، كما أن البغض والكراهية مبدأ كل ترك وكف... فكل حركة في العالم العلوي والسفلي فسببها المحبة والإرادة، وغايتها المحبة والإرادة) (٣).

ز ـ ما يترتب على حب غير الله:

إن ابن القيم يحذر من حب غير الله ويبين أنه أساس للغي والضلال،

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم ١/١٠.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/١٣٢.

(٣) المرجع السابق ٢/١٢٣، ١٢٥.

وحب غير الله يضعف الإخلاص له سبحانه ويكون سبباً في الوقوع في الشرك، يقول رحمه الله: (... وأصل الغي من الحب لغير الله، فإنه يضعف الإخلاص به، ويقوي الشرك بقوته)[1]، وإذا كان ابن القيم قد أوضح لنا من قبل أن العبودية تعني كمال الحب لله مع كمال الخضوع والذل له، فإنه يوضح لنا أيضاً أن عشق الصور والافتتان بها ينافي هذا الكمال، وإذا ازداد فإنه يصل إلى منافاتها بالكلية، فحينئذ يستعبد المحبوبُ المحبَّ. يقول رحمه الله: (... والفتنة بعشق الصور تنافي أن يكون دين العبد كله لله، بل ينقص من كون دينه لله بحسب ما حصل له من فتنة العشق، وربما أخرجت صاحبه من أن يبقى معه شيء من الدين لله)[2]،ولقد ذكر قصة رجل مسلم كان يؤذن على سطح مسجد فرأى امرأة نصرانية ففتن بها وتنصر بسببها. قال رحمه الله: (... كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر وهو على سطح مسجد امرأة جميلة ففتن بها فنزل ودخل عليها وسألها نفسها، فقالت: هي نصرانية فإن دخلت في ديني تزوجت بك ففعل، فرقي في ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات)[3]. ثم بين رحمه الله بعض أساليب النصارى في تنصيرهم المسلمين وبالذات الأسرى منهم. فقال: (... وإذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه في نفسها حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل في دينها...)[4].

ح ـ تربية عاطفة الحبِّ:

من وسائل تعميق محبة الله في القلب والتعلق به وعبادته سبحانه وتعالى:

١ ـ شعور العبد بأنه فقير إليه، ويتحقق هذا بأن يفرغ يده وقلبه من الدنيا ويزهد فيها، ويقول ابن القيم: (... وعلامة فراغ اليد نفض اليدين من

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/١٥١.

(٢) المرجع السابق ٢/١٥٨.

(٣) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٥٥

(٤) المرجع السابق ص ١٥٥.

الدنيا ضبطاً أو طلباً، فهو لا يضبط يده مع وجودها شحاً وضناً بها، ولا يطلبها مع فقدها سؤالاً وإلحافاً وحرصاً، فهذا الإعراض والنفض دال على سقوط منزلتها من القلب، إذ لو كان لها في القلب منزلة لكان الأمر بضد ذلك، وكان يكون حاله الضبط مع الوجود لغناه بها، ولكان يطلبها مع فقدها لفقره إليها، وأيضاً من أقسام الفراغ إسكات اللسان عنها ذماً ومدحاً؛ لأن من اهتم بأمر وكان له في قلبه موقع اشتغل اللسان بما فاض على القلب من أمره مدحاً أو ذماً، فإنه إن حصلت له مدحها، وإن فاتته ذمها. ومدحها وذمها علامة موضعها في القلب. . . وصاحب هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها ولا يفيض من قلبه على لسانه مدح لها يدل على محبتها، ولا يفيض من القلب على اللسان ذم يدل على موقعها وخطرها، فإن الشيء إذا صغر أعرض القلب عنه مدحاً أو ذماً)[1]، وتمام الفقر إلى الله عز وجل الإيمان بربوبيته، والإيمان بأنه غني عن خلقه، والإيمان بحاجة العبد إليه، ليكون فقره: (. . . فقراً تاماً إليه من جهة كونه رباً ومن جهة كونه إلٰهاً معبوداً لا غنى له عنه، كما لا وجود له بغيره)[2]، ولا يحصل هذا الفقر إلّا بمعرفتين. يقول رحمه الله: (. . . وإنما يصح له هذا بمعرفتين لا بد منهما، معرفة حقيقة الربوبية والإلٰهية، ومعرفة حقيقة النفس والعبودية، فهنالك تتم له معرفة هذا الفقر، فإن أعطى هاتين المعرفتين حقهما من العبودية اتصف بهذا الفقر حالاً)[3].

٢ ـ وعلمه أن له قلباً واحداً إذا امتلأ بحب شيء لم يكن فيه مجال لحب غيره يقول ابن القيم: (. . . الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلب من هم وإرادة وحب يخرج منه هم وإرادة وحب يقابله، فهو إناء واحد والأشربة متعددة، فأي شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره، وإنما يمتلئ الإناء بأعلى الأشربة إذا صادفه خالياً، فأما إذا صادفه ممتلئاً

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ١٥.
(٢) المرجع السابق ص ٣١.
(٣) المرجع السابق ص ٣١ ـ ٣٢.

من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثم يسكن موضعه)[1].

٣ ـ وإيمانه بأن ما عنده هو ملك لله عز وجل، ويرى أن لا مليكة له في شيء مما هو تحت يده من أمور الدنيا، يقول ابن القيم: (. . . وقد يكون العبد قد فوض إليه من ذلك شيء، وجعل كالخازن فيه، كما كان سليمان بن داود، أوتي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وكذلك الخليل وشعيب والأغنياء من الأنبياء، وكذلك أغنياء الصحابة، فهؤلاء لم يكونوا بريئين من الملكة في الظاهر، وهم بريئون من رؤية الملكة بنفوسهم، فلا يرون لها ملكاً حقيقياً، بل يرون ما في أيديهم لله عارية ووديعة في أيديهم، ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبيد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره، وكان كالخازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله، فهذا لو كان بيده من المال أمثال جبال الدنيا لم يضره. . . فليس لقلبه بالمال تعلق، ولا له به اكتراث كصعوده عنه وارتفاع همته إلى المالك الحق فهو غني به وبحبه ومعرفته وقربه منه، عن كل ما سواه، وهو فقير إليه دون ما سواه)[2].

٤ ـ عبوديته لله باسمه: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، تورثه حقيقة الفقر له سبحانه وتعالى: (. . . فمن عبده باسمه الأول والآخر، حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضاف إلى ذلك عبوديته باسمه الظاهر والباطن فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد، ظاهراً وباطناً، فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد. . فمن نزَّل اسمه الأول على هذا المعنى أوجب له فقراً خاصاً، وعبودية خاصة. وعبوديته باسمه الآخر تقتضي أيضاً عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ١٩.
(٢)المرجع السابق ص ١٣ ـ ١٤.

بعدها، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يغنى به. . . فكان الله ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلاّ وجهه. . . فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده، ودوام الفقر إليه، دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتداء منه وإليه يرجع. . فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره، وكما أنه رب كل شيء وفاعله، وخالقه وبارئه، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده، فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرىء، فكما كان واحداً في إيجادك، فاجعله واحداً في تألهك إليه لتصح عبوديتك، كما(*) ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك إليه، لتصح لك عبوديته باسمه الأول والآخر)[1].

٥ ـ أن يتحقق من علو الله المطلق على كل شيء، وأنه القاهر فوق عباده، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض: (. . . فإذا تحقق العبد علوه المطلق على كل شيء بذاته وأنه ليس فوقه شيء البتة، وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُ﴾(*)، صار لقلبه إماماً يقصده ورباً يعبده وإلهاً يتوجه إليه)[2].

٦ ـ معرفته لكثرة نعم الله عليه وعظيم فضله ومنه، وأنه لو فرض إتيانه لجميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً فالذي لربه فوق ذلك، يقول ابن القيم:

(*) هكذا ولعله تصحيف. والصواب «وكما» والله أعلم.

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٠، ٢١، ٢٢.

(*) سورة فاطر / ١٠.

(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٢٢.

(. . . لو فرض أن العبد يأتي بمقدوره كله من الطاعة ظاهراً وباطناً فالذي ينبغي لربه فوق ذلك وأضعاف أضعافه، فإذا عجز العبد عنه لم يستحق ما يترتب عليه من الجزاء والذي أتى به لا يقابل أقل النعم)[1].

٧ ـ إيمانه بأن الله هو الخالق لأفعاله وهو الذي يهب الإيمان في قلبه. يقول ابن القيم: (. . . إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة، فهو الذي يجعل الإيمان والهدى في القلب، ويجعل فيه التوبة والإنابة والإقبال والمحبة والتفويض وأضدادها)[2].

٨ ـ شعوره بالحاجة إلى هداية الله له وفقره إليه، يقول ابن القيم (. . . والعبد في كل لحظة مفتقر إلى هداية يجعلها الله في قلبه وحركات يحركه بها في طاعته، وهذا إلى الله سبحانه وتعالى، فهو خلقه وقدره)[3].

٩ ـ اهتمامه بالأدعية المنضمنة طلب التوفيق من ربه وتزكيته له واستعماله في محابه اقتداء برسول الله ﷺ الذي كان من دعائه: (. . . «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها». . . وعامة أدعيته ﷺ متضمنة لطلب توفيق ربه وتزكيته له واستعماله في محابه)[4].

١٠ ـ معرفته لنعم الله عليه: (. . . ومطالعة الآلاء والنعم، فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم أحساناً من الله سبحانه، فإن إحسانه على عبده في كل نفس ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله)[5]، ومن نعم الله على عباده: (أنه خلق لهم ما في السموات والأرض وما في الدنيا والآخرة، ثم أهلهم وكرمهم، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وشرع لهم شرائعه، وأذن لهم في

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم، ص ٣٧١.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٣.

المرجع السابق ص ٣٧٣.

(٤) المرجع السابق ص ٣٧٣، والحديث رواه احمد في مسنده، ٤/ ٣٧١.

(٥) المرجع السابق ص ٤٠٨.

مناجاته كل وقت أرادوا، وكتب لهم بكل حسنة يعملونها عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدة فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة. وإذا بلغت ذنوب أحدهم عنان السماء ثم استغفره غفر له. ولو لقيه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة، وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب فوفقهم لفعلها ثم قبلها منهم، وشرع لهم الحج الذي يهدم ما قبله، فوفقهم لفعله، وكفر عنهم سيئاتهم به. وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات. هو الذي أمرهم بها، وخلقها لهم وأعطاهم إياها، ورتب عليها جزاءها، فمنه السبب ومنه الجزاء، ومنه التوفيق، ومنه العطاء أولاً وآخراً. وهم محل إحسانه فقط ليس منهم شيء إنما الفضل كله والنعمة كلها والإحسان كله منه أولاً وآخراً. أعطى عبده ماله، وقال: تقرب بهذا إليَّ أقبله منك، فالعبد له، والمال له، والثواب منه، فهو المعطي أولاً وآخراً. فكيف لا يُحب من هذا شأنه؟... فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والإحسان ورؤية النعم والآلاء) [1]، وتزداد محبة العبد لخالقه إذا ازداد نظره واعتباره في هذه النعم: (... فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه، والله سبحانه وتعالى دعا عباده إليه من هذا الباب، حتى إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر. وهو باب الأسماء والصفات الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقاً الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحد منهم، بل كل ما بدا له عنه علم ازداد شوقاً ومحبة وظمأ، فإذا انضم داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلّا أردى القلوب وأخبثها وأشدها نقصاً وأبعدها من كل خير، فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه سبحانه وتعالى ولا شيء أكمل منه ولا أجمل) [2]، والعباد متفاوتون في حبهم لله سبحانه وتعالى: (... وإنما تفاوت

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٤١٠ - ٤١١.
(٢) المرجع السابق ص ٤١٠.

منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم بالله أشدهم حباً له، ولهذا كانت رسله أعظم الناس حباً له)[1].

١١ ـ علمه أن محبة الله هي مقتضى عقد الإيمان: (... فالمؤمنون أشد حباً لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب، هذا مقتضى عقد الإيمان الذي لا يتم إلا به، وليست هذه المسألة من المسائل التي للعبد عنها غنى، أو منها بد كدقائق العلم والمسائل التي يختص بها بعض الناس دون بعض، بل هذه تفرض مسألة على العبد، وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها، فليشتغل بها العبد أو ليعرض عنها، ومن لم يتحقق بها علماً وحالاً وعملاً لم يتحقق بشهادة أن لا إله إلا الله)[2]، ولا يفوتنا هنا لفت النظر إلى أن تعبير ابن القيم (علماً وحالاً وعملاً) فيه إشارة ذكية بليغة وموجزة إلى ما تقرر من قديم في دراسة النفس الإنسانية من أن الحياة النفسية ذات جوانب ثلاثة هي: الجانب العقلي العلمي، والجانب الوجداني العاطفي، والجانب العملي السلوكي، ولا بد في كل عمل تربوي من ملاحظة هذه الجوانب الثلاثة. وقد أشار إلى هذا أحد المربين المعاصرين حيث يقول في تربية «الروح الدينية»: «... فلدينا إذن نواح ثلاث: أولاهن عقلية، والثانية عاطفية، والثالثة إرادية، ولا بد لنا في تربية العاطفة الدينية من العناية بهذه النواحي كلها)[3].

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٤١٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤١٤، ٤١٥.

(٣) لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها د/ محمد أمين المصري. ط ٣، سنة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م، دار الفكر ص ٦٨.

الفصل الخامس

التربية الخلقية

١ ـ تمهيد .
٢ ـ مفهوم التربية الخلقية .
٣ ـ الحاجة إلى التربية الخلقية .
٤ ـ مصادر التربية الخلقية .
٥ ـ غاية التربية الخلقية .
٦ ـ أساليب التربية الخلقية .
  ١ ـ أسلوب التخلية والتحلية .
  ٢ ـ إشراك الناشىء في فعل البرّ والخير .
  ٣ ـ التدريب والتعويد
  ٤ ـ التنفير من الأخلاق الذميمة .
  ٥ ـ بيان ثمرة حسن الخلق .
٧ ـ حقائق مساعدة على التربية الخلقية .
  ١ ـ الأخلاق فطرية ومكتسبة .
  ٢ ـ ميزان الأخلاق .
  ٣ ـ أمهات الأخلاق .
  ٤ ـ وضع الخلق في غير موضعه .
  ٥ ـ الحياء والخلق .
  ٦ ـ من الأخلاق الفاضلة .
    أ ـ الصبر .
    ب ـ الشجاعة
    جـ ـ الإيثار .
    د ـ الشكر .
٨ ـ ترابط الأخلاق .

التربية الخلقية

١ ـ تمهيد:

إن الحديث عن التربية الخلقية يشمل كل ما ورد في الإسلام من مبادئ وأخلاق وآداب. قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[١]. ولقد وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خلق رسول ﷺ عندما سئلت عن ذلك فقالت: «كان خلقه القرآن»[٢]، وهذا يعني أن كل فعل حث عليه القرآن وأمر به فرسول الله ﷺ يبادر إلى فعله ويترجمه إلى سلوك، وكل فعل نهى عنه وحذر منه أبعد ما يكون عنه ﷺ، فهو القدوة العملية الخيرة لأصحابه رضوان الله عليهم، وللناس كافة، وسيرته هي الترجمة الحقيقية للإسلام.

وابن القيم في فكره التربوي يتناول الإسلام منهج حياة، ويبين الغاية من خلق الإنسان ومفهوم العبادة والفطرة، ويوضح الكمال الإنساني، ويبين نوعية التربية التي تعد هذا الإنسان لكماله الذي خلق له، ويذكر أنواعاً من العبادات وضروباً من الآداب التي لها علاقة بالكليات العامة للأخلاق. كما يتناول مفردات الأخلاق مثل الصبر والشجاعة والإيثار، والشكر والكرم والجود والأمانة والصدق إلى غير ذلك. فهناك إذاً كليات عامة للأخلاق، ومفردات لها.

---

(١) حديث صحيح رواه (ابن سعد، خد، ك، هب) عن أبي هريرة، صحيح الجامع الصغير وزيادته، الألباني ٢/٢٨٥، رقم الحديث ٢٣٤٥.

(٢) حديث صحيح رواه (حم، م، د) عن عائشة، صحيح الجامع الصغير وزيادته، الألباني - ٤/٢٣٨. رقم الحديث ٤٦٨٧.

وإننا في هذا الجانب من جوانب التربية سنعني بالحديث عن مفردات الأخلاق، ونتناول ـ بقدر الحاجة ـ ما يتعلق بعموميات الأخلاق، لأنا قد تناولنا شيئاً من عموميات الأخلاق عند ابن القيم في مواضع أخرى من هذه الرسالة. والأخلاق في الإسلام مبناها على الحسن والقبح، والحسن والقبح مستقر أمرهما في الفطر السليمة والعقول المستقيمة؛ فكل فعل استحسنته هذه الفطر وتلك العقول فهو من الأخلاق الحميدة الفاضلة، وكل فعل استقبحته فهو من الأخلاق الدنيئة: (... وعلى الرغم من أن النفس هي مجمع الغرائز والأهواء والشهوات والمخاوف والمطامع فإنها تستحسن محاسن الأخلاق وتستقبح مساويها، وهي بطبيعتها تميل إلى أن تعامل من قبل الآخرين بالخلق الحسن وتنفر من أن تعامل بالخلق القبيح) [1].

لكن الفطر والعقول قد تعجز أحياناً عن الحكم بأن هذا حسن وذاك قبيح، فدليلها ورائدها ومرشدها هو الشرع المتمثل في الكتاب والسنة.

وحديثنا في هذا الفصل سيتناول مفهوم التربية الخلقية والحاجة إليها ومصادرها والغاية منها، وأساليبها، والحقائق المساعدة على التربية الخلقية، كميزان الأخلاق، ووضع الخلق في غير موضعه، وعلاقة الحياء بالأخلاق، وبيان أن الأخلاق منها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب، ثم نشير إلى بعض الأخلاق الفاضلة كل ذلك حسب ما جاء في آراء ابن القيم رحمه الله.

٢ ـ مفهوم التربية الخلقية:

إن التربية الخلقية تعني تعويد الناشئ على الأخلاق الفاضلة والشيم الحميدة حتى تصير له ملكات راسخة وصفات ثابتة يسعد بها في الدنيا والآخرة، وتخليصه من الأخلاق السيئة، فالطفل: (... ينشأ على ما عوده المربي في صغره...) [2].

---

(١) الأخلاق الاسلامية، عبد الرحمن الميداني ط ١ ـ دار القلم. دمشق بيروت ١/ ٦٩.
(٢) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم ص ٢٤٠.

وحسن الخلق يعني طلاقة الوجه وبذل المعروف وكف الأذى، يقول ابن القيم: (... قال الترمذي: قال عبد الله بن المبارك: «حسن الخلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى»[1].

وحسن الخلق قسمان يقول ابن القيم: (... وقال غيره[2]: «حسن الخلق قسمان، أحدهما: مع الله عز وجل، وهو أن يعلم[3] أن كل ما يكون منك يوجب عذراً، وكل ما يأتي من الله يوجب شكراً، فلا تزال شاكراً له معتذراً إليه، سائراً إليه بين مطالعة منته وشهود عيب نفسك وأعمالك. القسم الثاني: حسن الخلق مع الناس. وجماعه أمران: بذل المعروف قولاً وفعلاً، وكف الأذى قولاً وفعلاً) [4].

وابن القيم يذكر أركاناً خمسة يرتكز عليها الخلق، يقول: (وهذا إنما يقوم على أركان خمسة: العلم، والجود، والصبر، وطيب العود، وصحة الإسلام)[5]، ثم يشرح كل ركن من هذه الأركان فيقول: (... أما العلم: فلأنه يعرف معالي الأخلاق وسفاسفها، فيمكنه أن يتصف بهذا ويتحلى به، ويترك هذا ويتخلى عنه. وأما الجود: فسماحة نفسه وبذلها، وانقيادها لذلك، إذا أراده منها، وأما الصبر: فلأنه إن لم يصبر على احتمال ذلك والقيام بأعبائها لم يتهيأ له. وأما طيب العود: فأن يكون الله تعالى خلقه على طبيعة منقادة سهلة القياد، وسريعة الاستجابة لداعي الخيرات)[6].

ثم أخذ يفصل طبائع البشر في تقبل التربية أو رفضها فيقول: (... والطبائع ثلاثة: طبيعة حجرية صلبة قاسية، لا تلين ولا تنقاد، وطبيعة مائية هوائية سريعة الانقياد، مستجيبة لكل داع، كالغصن أي نسيم مرّ يعصفه،

(١) تهذيب سنن أبي داود، ابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي دار المعرفة بيروت ٧/١٦١.
(٢) أي عبدالله بن المبارك.
(٣) هكذا ولعله تصحيف، والصواب «تعلم» والله أعلم.
(٤) تهذيب سنن أبي داود، ابن القيم ٧/١٦١، ١٦٢.
(٥) المرجع السابق ٧/١٦٢.
(٦) المرجع السابق ٧/١٦٢.

وهاتان منحرفتان، الأولى: لا تقبل، والثانية: لا تحفظ، وطبيعة قد جمعت اللين والصلابة والصفاء، فهي تقبل بلينها، وتحفظ بصلابتها، وتدرك حقائق الأمور بصفائها، فهذه الطبيعة الكاملة التي ينشأ عنها كل خلق صحيح) [١]، ثم يذكر الركن الخامس فيقول: (... وأما صحة الإسلام: فهو جماع ذلك، والمصحح لكل خلق حسن، فإنه بحسب قوة إيمانه وتصديقه بالجزاء وحسن موعود الله وثوابه يسهل عليه تحمل ذلك، ويلذ له الاتصاف به) [٢].

والأخلاق الفاضلة ما هي إلّا ثمرة من ثمار العلم؛ لذا فيجب على المربِّي أن يعلم من تحت يده من الناشئين العلم الذي يكسبهم هذه الأخلاق؛ فكل صفة مدح في الإنسان سببها العلم، كما أن كل صفة ذم مردها الجهل، فرأس الخير وجماعه كله العلم، فجميع الأخلاق الفاضلة من حب الله: (... والخوف منه والرجاء والإنابة والحلم والوقار واللب والعقل والعفة والكرم والإيثار على النفس والتضحية لعباده والرحمة بهم والرأفة وخفض الجناح والعفو عن مسيئهم والصفح عن جانيهم وبذل الإحسان لكافتهم ودفع السيئة بالحسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في مواطن الصبر والرضا بالقضاء، واللين للأولياء والشدة على الأعداء والصدق في الوعد والوفاء بالعهد والإعراض عن الجاهلين والقبول من الناصحين واليقين والتوكل والطمأنينة والسكينة والتواصل والتعاطف والعدل في الأقوال والأفعال... والتحذير عن سبل أهل الضلال وتبين طرق الغي وحال سالكيها، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والحض على إطعام المسكين وبر الوالدين وصلة الأرحام وبذل السلام لكافة المؤمنين إلى سائر الأخلاق المحمودة والأفعال المرضية التي أقسم الله على عظمتها، فقال تعالى: **﴿نٓ والقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُون * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾** قالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق

---

(١) تهذيب سنن أبي داود، ابن القيم ١٦٢/٧.

(٢) المرجع السابق ١٦٢/٧.

رسول الله ﷺ : «كان خلقه القرآن» فهذه الأخلاق ونحوها هي ثمرة شجرة العلم) [1].

ومما يقرره ابن القيم شمول التربية الخلقية لمعرفة ما في المأمور من الخير، وما في المحظور من الشر، وذلك في معرض حديثه عن الصبر وبيان أنه من أخلاق النفس، وتحليله إلى مفردين، العلم والعمل، فالجانب العلمي هو إدراك: (. . . ما في المأمور [به][2] من الخير والنفع واللذة والكمال، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء، فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه، وحلت له مرارته، وانقلب ألمه لذة) [3] ، فالتربية الخلقية تتضمن كسب العلم الذي يُري الإنسان الخير وطرقه ومسالكه، ويوضح له سبل الشر ووسائله ومجالاته، كما تتضمن وجود العزيمة الصادقة والنية المخلصة التي تسعى إلى الخير وتبتعد عن الشر وتحذر منه.

ولابن القيم عناية بتحريك الهمة وتوكيد العزيمة، ومما يستعين به في ذلك الشعر. وله قصيدة في وصف الجنة وإيقاظ الحنين إليها. منها:

فحيَّ على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم)[4]

٣ ـ الحاجة إلى التربية الخلقية:

إن الحاجة ماسة إلى التربية الخلقية؛ لأن آثارها الطيبة تنعكس على

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١١٥، ١١٦، سورة القلم: ١، ٢، ٣، ٤، والحديث صحيح رواه (حم، م، د) عن عائشة صحيح الجامع الصغير وزيادته الألباني ٤/٢٣٨، رقم الحديث ٤٦٨٧.

(٢) زيادة للإيضاح.

(٣) عدة الصابرين، ابن القيم، ص ٤١، ٤٢.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم ص ١٣.

الفرد والمجتمع على حد سواء، كما أن آثار إهمالها تحيق بالفرد والمجتمع أيضاً، لذا يجب الاهتمام بها من بداية مراحل العمر للإنسان وهو في سن الطفولة، يقول ابن القيم: (. . . ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه. . .) [1].

فالكثير من الناس تنحرف أخلاقهم بسبب سوء التربية التي نشأوا عليها، يقول ابن القيم: (. . . ولهذا نجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم وذلك من قبل التربية التي نشأ [2] عليها) [3].

والحاجة إلى التربية الخلقية توجب على المربِّي تجنيب الناشئ: (. . . إذا عقل مجالس اللهو والباطل والغناء وسماع الفحش، والبدع ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر وعز على وليه استنقاذه منه؛ فتغيير العوائد من أصعب الأمور يحتاج صاحبها إلى استجداد طبيعة ثانية، والخروج عن حكم الطبيعة عسر جداً) [4]، وفي هذا الكلام بيان لأهمية التربية الخلقية، وذلك بوقاية الناشئ وحمايته من الوقوع في الأخلاق الدنيئة، والفاحش من القول والفعل، فهذه الوقاية تجعل قلبه خالياً وقابلاً لتلقي الطيب من القول والفعل والجميل من الأخلاق.

٤ ـ مصادر التربية الخلقية:

إن المصدر الأول للتربية الخلقية عند ابن القيم هو كتاب الله عز وجل، الذي ربّى أمة وصفها الله عز وجل بأنها: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [5]، والذي كان خلق رسول الله ﷺ كما ذكر ابن القيم [6] وأغنى عن بسط

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم ص ٢٤٠.
(٢) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب (نشأوا). والله أعلم.
(٣) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم ص ٢٤٠.
(٤) المرجع السابق ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.
(٥) سورة آل عمران: ١١٠.
(٦) المفتاح، ابن القيم ١/١١٦.

هذا الموضوع هنا ما ورد في ثنايا هذا البحث من شواهد توضح رجوع ابن القيم دائماً إلى القرآن واستمداده منه في كلامه على الأخلاق.

والمصدر الثاني الذي يستقي منه ابن القيم في التربية الخلقية هو سنة رسول الله ﷺ وتندرج فيها سيرته التي كانت بمثابة التطبيق العملي للإسلام، فرسول الله كان قمة في الأخلاق، ولقد أورد ابن القيم رحمه الله في (حلمه وأخلاقه ﷺ) عدة أحاديث منها: [1].

١ ـ حديث أنس رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء، من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء» [2].

٢ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني. قال: «لا تغضب»، فردد مراراً، قال: «لا تغضب»[3].

٣ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». [4]

٤ ـ حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الحياء لا يأتي إلاّ بخير» [5].

٥ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الحياء شعبة من الإيمان» [6].

---

(١) انظر تهذيب سنن أبي داود، ابن القيم تحقيق / محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٥٩/٧ . ١٦٠.

(٢) البخاري، كتاب الأدب ـ باب التبسم والضحك ٦٣/٤.

(٣) ، (٤) البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٦٧/٤.

(٥) المرجع السابق باب الحياء ٦٧/٤.

(٦) المرجع السابق باب الحياء، ٦٨/٤.

٦ ـ حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه» (١).

٧ ـ حديث النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، قال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» (٢).

٨ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خيركم لنسائهم» (٣).

٩ ـ حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»(٤).

والثرثار: هو كثير الكلام بتكلف، والمتشدق: المتطاول على الناس بكلامه الذي يتكلم بملء فيه تفاصحاً وتفخماً وتعظيماً لكلامه، والمتفيهق: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه تكثراً وارتفاعاً وإظهاراً لفضله على غيره» (٥).

ولنا أن نلاحظ اهتمام ابن القيم هنا بطائفة من الأخلاق مثل الحلم والحياء وبيان منزلة حسن الخلق من الإيمان.

٥ ـ غاية التربية الخلقية:

إن الغاية من التربية الخلقية عند ابن القيم تحقيق العبودية لله عز وجل

---

(١) الجامع الصحيح. البخاري. باب الحياء ٤/٦٨.

(٢) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، ٨/٦.

(٣) الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة رقم ١١٦٢ ٤/٤٦٦.

(٤) الترمذي، كتاب البر، باب ما جاء في معالي الأخلاق، رقم الحديث ٢٠١٨، ٤/٣٧٠.

(٥) انظر تهذيب سنن ابي داود، ابن القيم، تحقيق / محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان ٧/١٦١.

التي هي سبب السعادة لهذا الإنسان، الذي خلقه الله وكرمه وجعله خليفة في الأرض، ولا سعادة ولا فلاح له إلا باجتناب سيىء الأخلاق، والتحلي بأفضلها، أما من اتصف بالفاسد من الأخلاق فقد ضيع سعادة الدنيا والآخرة. فما أحوج المسلم إلى عبادة تحقق مقتضاها، فتغرس في نفسه بذور الخير وتحيي قلبه بذكر الله وتنمي فكره بالنظر في ملكوته سبحانه وتعالى وتجعل لسانه رطباً بذكره، لذا اقتضت حكمته ورحمته تشريع أنواع من العبادت لتحقيق هذه المعاني الفاضلة وبناء الأخلاق على دعامة قوية من الإيمان، فمن الحكم التي شرعت لها العبادات التأكيد على بعض الأخلاق مثل (. . . المروءة والنجدة والبذل والتضحية والاهتمام بالأمة والجهاد في سبيله)[*].

وإذا كان للعبادات هذا الأثر على الأخلاق. فإن التربية الخلقية الرصينة تثمر أداء العبادات على الوجه الأكمل والأحسن، ولقد فطن ابن القيم رحمه الله إلى هذا، فأوصى ولي أمر الطفل بعدم تيسير طرق الكذب والخيانة له، فقال محذراً ومنذراً من ذلك فلـ (يجنبه الكذب والخيانة أعظم مما يجنبه السم الناقع، فإنه متى سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة وحرمه كل خير) [1].

٦ ـ أساليب التربية الخلقية:

من أساليب التربية الخلقية عند ابن القيم:

١ ـ أسلوب التخلية والتحلية: يقول رحمه الله: (. . . قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع . . .) [2].

(*) لمحات في وسائل التربية الاسلامية وغاياتها، د. محمد أمين المصري ص ٢٣٥.

(١) تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٤١.

(٢) الفوائد، ابن القيم ط ٢ سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م. دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص ٢٩

٢ ـ **إشراك الناشئ** : في فعل البر والخير حتى يصبح الخلق الفاضل محبباً إلى نفسه، يرغب فيه رغبة تدفعه إلى مزاولته والإكثار منه، لأن حلاوة المشاركة في العمل تدفع إلى مزاولته والاستمرار عليه. فعلى المربِّي :(. . .إذا أراد. . . أن يعطي شيئاً أعطاه إيّاه على يده، ليذوق حلاوة الإعطاء. . .) [١].

٣ ـ **التدريب والتعويد**: وذلك لأن التربية الصالحة هي التي توجه المربَّى إلى الاتصاف والتحلي بالأخلاق الفاضلة وممارسة أنواع العبادات.

فابن القيم يوصي ولي أمر الطفل بأن: (. . . يعوده الانتباه آخر الليل فإنه وقت قسم الغنائم وتفريق الجوائز) [٢]، كما: (ينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره، . . . فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة، وينشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي) [٣]، ويذكر رحمه الله أن التعويد على الأخلاق وتكلفها يجعلها سجية للإنسان. فيقول: (. . . وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية، كذلك سائر الأخلاق) [٤].

٤ ـ **التنفير من الأخلاق الذميمة**: فابن القيم ينفر من ذميم الأخلاق ببيان ما تؤول إليه حال من اتصف بها، فيقول: (. . . إذا اتّصف القلب بالمكر والخديعة والفسق وانصبغ بذلك صبغاً تاماً صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك من القردة والخنازير وغيرهما، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدواً خفياً ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهراً على الوجه، ثم يقوى حتى يقلب الصورة الظاهرة كما قلب الهيئة الباطنة. ومن له فراسة تامة يرى صور الناس مسخاً من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن، فقل أن نرى مختالاً مكّاراً مخادعاً ختاراً إلا وعلى وجهه مسخة قرد، وقل أن نرى رافضياً إلا وعلى وجهه مسخة خنزير، وقل أن

---

(١) تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤١.

(٣) المرجع السابق ص ٢٤١.

(٤) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٢.

نرى شرهاً نهماً، نفسه نفس كلبية إلا وعلى وجهه مسخة كلب. فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط، فإذا استحكمت الصفات المذمومة في النفس قويت على قلب الصورة الظاهرة) [1].

٥ ـ **بيان ثمرة حسن الخلق**: فابن القيم ـ رحمه الله ـ يبين ثمرة حسن الخلق ويوضح أن بحسن الخلق يصالح الإنسان ما بينه وبين الناس. فبالتالي يحبه الناس ويقدرونه. ويذكر رحمه الله أن النبي ﷺ قد جمع بين تقوى الله وحسن الخلق فأحبه الله وأحبه الناس. فيقول: (... جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق، لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته) [2].

٧ ـ حقائق مساعدة على التربية الخلقية:

١ ـ الأخلاق فطرية ومكتسبة:

إن ابن القيم يرى أن حسن الأخلاق وقبحها مستقر في الفطر، فهي تستحسن الحسن منها، وتستقبح القبيح. يقول رحمه الله: (... فأثبت [الله] [3] في الفطر حسن العدل والإنصاف والصدق والبر والإحسان والوفاء بالعهد والنصيحة للخلق، ورحمة المساكين ونصر المظلوم ومواساة أهل الحاجة والفاقة وأداء الأمانات ومقابلة الإحسان بالإحسان والإساءة بالعفو والصفح، والصبر في مواطن الصبر والبذل في مواطن البذل والانتقام في موضع الانتقام، والحلم في موضع الحلم، والسكينة والوقار، والرأفة والرفق، والتؤدة وحسن الأخلاق وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد وستر العورات وإقالة العثرات، والإيثار عند الحاجات، وإغاثة اللهفات، وتفريج الكربات والتعاون على أنواع الخير، والبر والشجاعة والسماحة والبصيرة والثبات،

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ١/٢٦٧.
(٢) الفوائد، ابن القيم ص ٥٤.
(٣) زيادة للإيضاح.

والعزيمة والقوة في الحق، واللين لأهله، والشدة على أهل الباطل، والغلظة عليهم . . . وأثبت في الفطر علمها بقبح أضداد ذلك)[1].

ويرى أن بعض الأخلاق غرائز ثابتة في النفس. يقول رحمه الله: (. . . والجبن والشجاعة غرائز وأخلاق)[2]، ولقد استشهد بحديث عن رسول الله ﷺ، جاء فيه أنه ﷺ: (قال لأشج عبد القيس: «إن فيك خلقين يحبهما الله، الحلم والأناة»، قال: خلقين تخلقت بهما أم جبلت عليهما؟ قال: «بل جبلت عليهما». فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما تحب)[3].

كما يرى أن بعض هذه الأخلاق يكتسب بالتدريب والتعويد والتربية فالطفل: (ينشأ على ما عوده المربِّي في صغره)[4]. فيوصي رحمه الله الآباء والمربين أن يجنبوا النشء الأخلاق الذميمة، ويبعدوهم عن ممارستها لئلا تضبح من الصفات الثابتة لهم، فيحرموا بها سعادة الدنيا والآخرة، يقول موجهاً المربِّي: (ويجنبه الكذب والخيانة. . . فإنه متى سهل له سبيل الكذب والخيانة أفسد عليه سعادة الدنيا والآخرة وحرمه كل خير)[5].

٢ ـ ميزان الأخلاق:

لقد جبلت الفطر على معرفة ما في الأفعال من الحسن والقبح، فالفطر السليمة والعقول المستقيمة تستحسن الحسن من الأخلاق والأفعال وتستقبح القبيح منها؛ لأن الله سبحانه: (. . أثبت [فيها][6] حسن العدل والإنصاف)[7]

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٢٨١، ٢٨٢.

(٢) الفروسية، ابن القيم ص ١٧٤.

(٣) الفروسية. ابن القيم ص ١٧٥، الحديث صحيح، رواه (م. ت) عن ابن عباس، لكن بدل «خلقين»، «لخلتين»، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني. رقم الحديث /٢١٣٢، ٢/٢٢٣، ٢٢٤.

(٤) تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٤٠.

(٥) المرجع السابق ص ٢٤١.

(٦) زيادة للايضاح.

(٧) المفتاح، ابن القيم ١/٢٨١.

هذا وابن القيم يضع لنا معياراً للأخلاق به يعرف نوع الخلق هل هو خلق حميد أو خلق ذميم، يقول رحمه الله: (. . . للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدواناً، ومتى قصرت عنه كان نقصاً ومهانة، فللغضب حدّ هو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص وهكذا كماله؛ فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل، وللحرص حد وهو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد عليه كان شرهاً ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه. وللحسد حد وهو المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره، فمتى تعدى ذلك صار بغياً وظلماً يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس. . والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظناً سيئاً بالبريء، وإن قصرت عنه كانت تغافلاً ومبادىء دياثة، وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلاً ومهانة ومن(*) قصّر عنه انحرف إلى الكبر والفخر، وللعز حد إذا جاوزه كان كبراً وخلقاً مذموماً وإن قصر عنه انحرف إلى الذل والمهانة. وضابط هذا كله العدل وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة)[1].

٣ ـ أمهات الأخلاق:

يوضح ابن القيم أن أصل الأخلاق المذمومة الكبر والمهانة والدناءة وأصل الأخلاق المحمودة الخشوع وعلو الهمة. يقول رحمه الله: (. . . أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة. وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة، فالفخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار، وطلب العلو وحب الجاه والرئاسة وأن يحمد بما لم يفعل، وأمثال ذلك كلها ناشئة من

(*) هكذا، ولعله (وإذا) والله أعلم.

(١) الفوائد، ابن القيم ص ١٣٩، ١٤٠، ١٤١.

الكبر. وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس.

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق... والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل والتغافل عن زلات الناس وترك الاشتغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة... فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل)[1].

٤ ـ وضع الخلق في غير موضعه:

يحذرنا ابن القيم من كيد الشيطان ومكره، فيوضح لنا أنه يدعو العبد بحسن خلقه إلى أنواع من الآثام والفجور، فيقول رحمه الله: (... من أنواع مكايده ومكره أن يدعو العبد بحسن خلقه وطلاقته وبشره إلى أنواع من الآثام والفجور، فيلقاه من لا يخلصه من شره إلا تجهمه والتعبيس في وجهه والإعراض عنه، فيُحسّن له عدوه أن يلقاه ببشره، وطلاقة وجهه، وحسن كلامه فيتعلق به، فيروم التخلص منه فيعجز، فلا يزال العدو يسعى بينهما حتى يصيب حاجته فيدخل على العبد بكيده من باب حسن الخلق وطلاقة الوجه)[2].

٥ ـ الحياء والأخلاق:

إن الحياء خلق خاص بالإنسان دون سائر الحيوان، وهو من أفضل الأخلاق بل هو محورها الذي تدور حوله فإذا فقد الإنسان هذا الخلق فإن حاله سيكون أسوأ من الحيوان، استمع إلى ابن القيم وهو يقول: (... تأمل

(١) الفوائد، ابن القيم ص ١٤٣، ١٤٤.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان. ابن القيم ١/١٢٠.

هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خلق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها بل هو خاصة الإنسانية فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف، ولم يوف بالوعد ولم تؤد الأمانة ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل وآثره والقبيح وتجنبه، ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة. وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقاً، ولم يصل له رحماً ولا بر له والداً فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق، قد(*) تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها)[1].

وملاك الأخلاق عند المسلم تقوى الله عزّ وجلّ والخوف والحياء منه، هذا ما يميز الأخلاق عند المسلمين. يشير ابن القيم إلى هذا في معرض حديثه عن الصبر والمصابرة والمرابطة وعلاقة التقوى بها، يقول: (... قال تعالى **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**، فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه والمرابطة وهي الثبّات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة. فقد يصبر العبد ولا يصابر وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها)[2].

٦ ـ من الأخلاق الفاضلة:

أ ـ الصبر:

يرى ابن القيم أن الصبر خلق فاضل من أخلاق النفس، فيقول عنه إنه:

(*) هكذا، ولعله (وقد) والله أعلم.

(١) المفتاح، ابن القيم ١ /٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٣ سورة آل عمران /٢٠٠.

(. . . خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها)[1] فيعرف الصبر فيقول: هو (حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية، كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحوه)[2].

والصبر - كما يراه ابن القيم - محور ارتكاز للأخلاق فهو يقول عنه: (. . . لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفساني الاختياري عن إجابة داعي الهوى المذموم كانت مراتبه وأسماؤه بحسب متعلقه، فإنه إن كان صبراً عن شهوة الفرج المحرمة سمي عفة، وضده الفجور والزنا والعهر، وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يجمل سمي شرف نفس وشبع نفس، وسمي ضده شرهاً ودناءة ووضاعة نفس، وإن كان عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمي كتمان سر، وضده إذاعة وإفشاء أو تهمة أو فحشاً أو سباً أو قذفاً، وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً وضده حرصاً، وإن كان على قدر يكفي من الدنيا سمي قناعة وضده الحرص أيضاً، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سمي حلماً وضده تسرعاً، وإن كان عن إجابة داعي العجلة سمي وقاراً وثباتاً وضده طيشاً وخفة، وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهرب سمي شجاعة وضده جبناً وخوفاً، وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سمي عفواً وصفحاً وضده انتقاماً وعقوبة، وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سمي جوداً وضده بخلاً، وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سمي صوماً، وإن كان عن داعي العجز والكسل سمي كيساً، وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكل على الناس وعدم حمل كلهم سمي مروءة)[3].

---

(١) عدة الصابرين ابن القيم ص ٨.

(٢) الوابل الصيّب من الكلم الطيب. ابن القيم ص ٣.

(٣) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١١.

ب ـ الشجاعة:

الشجاعة من أخلاق النفس تستلزم تصرفات معينة تجاه المواقف التي يمر بها الإنسان. يقول ابن القيم في ذلك: (... ولما كانت الشجاعة خلقاً كريماً من أخلاق النفس ترتب مظهرها وثمرتها، الإقدام في موضع الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام، والثبات في موضع الثبات، والزوال في موضع الزوال)[1].

ج ـ الإيثار:

وابن القيم يرى أن الإيثار خلق من الأخلاق الفاضلة، يقول معرفاً له: (... خلق الإيثار وهو خلق الفضل)[2] وهذا الخلق الفاضل هو الإيثار بالدنيا أما الإيثار بالوقت وبأمور الدين فليس من هذا النوع. يقول ابن القيم رحمه الله: (... فإن الإيثار المحمود الذي أثنى الله على فاعله الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب)[3]، وهناك خلق آخر هو: (... خلق القسمة والتسوية وهو خلق العدل)[4]، والخلق الذميم المضاد لخلق الإيثار هو الأثرة يقول عنه: (... خلق الاستئثار والاستبداد وهو خلق الظلم)[5].

د ـ الشكر:

وابن القيم يذكر شكر الله عز وجل بوصفه خلقاً من أخلاق النفس الفاضلة وأن له أركاناً منها الاعتراف بالنعمة والتحدث بها وصرفها في مرضاة الله والاعتراف بالتقصير في أداء شكرها يقول رحمه الله تجاه نعم الله على العبد: (... فقيدها الشكر وهو مبني على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطناً والتحدث بها ظاهراً وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها، فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها)[6].

---

(١) الفروسية، ابن القيم ص ١٧٧.

(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٨٨.

(٣) المرجع السابق ص ٣٨٦.

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٨.

(٥) المرجع السابق ص ٣٨٩.

(٦) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص ٣.

٨ ـ ترابط الأخلاق:

إن الأخلاق الفاضلة تتلازم في الغالب، فالصادق غالباً يكون أميناً مخلصاً في نصحه للناس. كما أن الأخلاق الدنيئة تتلازم غالباً والكذّاب يكون خائناً لأمانته في الغالب، ويكون غاشاً لأمته ماكراً محتالاً. إلا أن هذا التلازم ليس أمراً مطرداً في كل حال وفي جميع الأخلاق، فبعض الناس قد يتصف بأخلاق حسنة وقد يكون فيه بعض الأخلاق الذميمة، ولقد سئل رسول الله ﷺ عن المؤمن أيكون جباناً أيكون بخيلاً قال: «نعم»، قال: أيكون كذّاباً. قال: «لا»[١].

وابن القيم لا يرى التلازم بين الشجاعة والجود وإن كانت الأخلاق المتشابهة تتلازم في الغالب، يقول في ذلك: (... لا تلازم بين الشجاعة والجود كما ظنه بعض الناس وإن كانت الأخلاق الفاضلة تتلازم وتتصاحب غالباً؛ كذلك الأخلاق الدنيئة)[٢].

---

(١) الموطأ، مالك بن أنس، تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، كتاب الكلام باب ما جاء في الصدق والكذب /٧ رقم الحديث ١٩، ٢/ ٩٩٠.

(٢) الفروسية، ابن القيم ص ١٧٥.

الفصل السادس

التربية الاجتماعية



التربية الاجتماعية

تمهـيد:

للمجتمع دور هام في تكوين الفرد من جوانبه المختلفة الفكرية والسلوكية والعاطفية..، فالفرد يتفاعل في المجتمع ويتأثر بما فيه من اتجاهات وسلوك، فيكون لبنة صالحة في هذا البناء إذا كانت التربية الاجتماعية السائدة في المجتمع تربية إسلامية، ويكون لبنة سيئة في بناء سيئ إذا كانت التربية الاجتماعية لا تحمل روح الإسلام. ومن المستحيل أن يعيش الفرد بعزلة عن المجتمع، لأنه كما يقول ابن القيّم مدني بطبعه: (... لا بد له أن يعيش مع الناس...)[1].

وطالما أنه سيعيش مع النّاس فإنه لا شك سيؤثر فيهم ويؤثرون فيه، إلا أنّ تأثير المجتمع عليه أبلغ وأخطر؛ لأن الرأي العام والوسائل العامة تفوق إمكانياتِ الفردِ المؤثرةَ في المجتمع، لذا فتأثيره في المجتمع أقل خطورة من تأثير المجتمع فيه. وابن القيم أشار إشارات غير مباشرة إلى التربية الاجتماعية ووجه وصايا اجتماعية؛ فبين اللحمة البنائية للمجتمع، وذكر الشعور الاجتماعي، والحقوق الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية، وبين كيف أن الفرد يتأثر بالوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، وذكر تأثر الطفل بهذا الوسط، وذكر فوائد بعض العبادت الجماعية كالصلاة وغيرها، ثم بين صفات المجتمع القوي. وإننا سنعرض في هذا الفصل وفي هذا الجانب من جوانب التربية

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/١٩٣.

هذه الإشارات وتلك الوصويا، فمن الله نستمد العون ومنه نستلهم الرشد فهو حسبنا ونعم الوكيل.

البناء الاجتماعي:

إن التربية الاجتماعية التي يشير إليها ابن القيّم تقيم بين أفراد المجتمع علاقاتٍ قويةً من الترابط والتماسك المبني على الحبِّ في الله تحقيقاً لمفهوم قول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[١] وهي تحقق نوعاً من الترابط بين الأفراد عزّ أن يوجد له نظير في عالم اليوم؛ فالله سبحانه كما يقول ابن القيّم: (... أمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة؛ فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام وذلك مما أمر به أن يوصل، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء، بأن نطعمهم مما نأكل ونكسوهم مما نكتسي، ولا نكلفهم فوق طاقتهم، وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا، وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر، وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتي إليهم بما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحيي منهم، كما يستحيي الرجل من جليسه وهو معه ممن يجلّه ويكرمه)[٢].

الشعور الاجتماعي:

إن التربية الاجتماعية السليمة في نظر ابن القيّم هي التي تراعي مشاعر الآخرين؛ فالفرد في المجتمع لا يصحّ له أذية أخيه حتى ولا برائحة كريهة. يقول رحمه الله: (... وقد أمرهم يوم الجمعة بالغسل والطيب عند اجتماعهم لئلا يؤذيَ بعضُهم بعضاً برائحته التي إنما يتجشمها ساعة للاجتماع ثم

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان باب من الإيمان أن يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه ١/١٢.

(٢) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٢٠ ـ ٢١.

يفترقا(*). ومنع آكل الثوم والبصل من دخول المسجد لأجل تأذي الناس والملائكة به)[1].

ولا يؤذيه ولا يحزنه بأن يناجي رجلاً معهما في المجلس، يقول رحمه الله: (. . . ومنع الاثنين أن يتناجيا دون صاحبهما خشية تأذّيه وحزنه)[2].

ولا يؤذيه بأخذ متاعه ولو كان لاعباً. يقول رحمه الله: (. . . ومنع أحدهم أن يأخذ متاع أخيه لاعباً؛ لأن ذلك يؤذيه)[3].

وابن القيم لا يكتفي في إرشاداته التربوية بالدعوة إلى كف الأذى عن الآخرين بل ينادي بأنه يستحب للمسلم إدخال الفرحة والسرور إلى نفوس إخوانه ويستشهد على هذا بما ورد من سيرة رسول الله ﷺ، فيقول: (. . . فكره ﷺ لأمته مقامها على حالة يؤذي بها بعضهم بعضاً لغير عذر ولا فائدة تعود عليهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ويؤدي هذا إلى التقاطع والتنافر مع أنه ﷺ قد ندبهم واستحب لهم إدخال أحدهم السرور على أخيه المسلم ما استطاع، ودفع الأذى والمكروه عنه، فقال: «لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم»)[4]، وهذه المبادىء لو أخذ بها كل فرد من أفراد المجتمع لشاع الوئام والأمن ربوع المجتمع، ولأصبح المجتمع قوي البناء يشدّ بعضه بعضاً.

الحقوق الاجتماعية:

إن التربية الاجتماعية البناءة عند ابن القيم هي التي تنتج أفراداً يحبُّ بعضهم بعضاً ويدعو بعضهم لبعض بظهر الغيب، ومن ثمرات هذا تأمين الملك على دعاء الرجل لأخيه، وتبشيره له بأن له مثل هذه الدعوة. يقول

(*) كذا في الأصل، والصواب: يفترقان.

(1) المفتاح، ابن القيم ٢٤٨/٢.

(2) المرجع السابق ٢٤٨/٢.

(3) المرجع السابق ٢٤٨/٢.

(4) المرجع السابق ٢٤٨/٢، والحديث رواه البخاري، كتاب الأدب - باب الهجرة ٦٢/٤

رحمه الله: (. . . وإذا دعا العبد المسلم في ظهر الغيب لأخيه أمَّنَ الملك على دعائه فقال: ولك بمثل ذلك. . .)[1].

وابن القيّم يرى أن من حبِّ الأخ لأخيه إيصال الخير إليه في الحياة وبعد الممات، وأن: (. . . أفضل ما يُهدى إلى الميّت العتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه. .)[2].

إن الفكر التربوي عند ابن القيّم متكامل ومترابط نلحظ هذا عندما نجده يربط التربية الاجتماعية بالجانب الإيماني، فيذكر أن الفرد لا يستفيد ولا ينتفع بشيء من أعمال البر التي يهديها أفراد المجتمع إليه إلا إذا كان على جانب جيد من الإيمان، فيقول رحمه الله: (. . . إن الله سبحانه جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه، وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ لعمرو بن العاص: «إنّ أباك لو كان أقرّ بالتوحيدِ نفعه ذلك»، يعني العتق الذي فعل عنه بعد موته، فلو أتى بالسبب لكان قد سعى في عمل يوصل إليه ثواب العتق)[3].

وابن القيم يذكر أن من الحقوق الاجتماعية حق المريض في الزيارة؛ فالمجتمع المسلم متماسك البناء قوي الرابطة كل فرد فيه يشعر بشعور أخيه فيتألم لألمه ويفرح لفرحه؛ فمشروعية الزيارة فيها فوائد يذكرها ابن القيم بقوله: (. . . فإن فيها أربعة أنواع من الفوائد نوع يرجع إلى المريض، ونوع يعود على العائد، ونوع يعود على أهل المريض ونوع يعود على العامة)[4]، ومن فوائد عيادة المريض التي تعود عليه انتعاش قواه، وفرح نفسه، وتطييب

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ٧٥.

(٢) الروح، ابن القيم ص ١٤٢.

(٣) الروح، ابن القيم ص ١٢٨ الحديث بهذا اللفظ لم أجده، لكن ورد في مسند أحمد حديث: «عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة، وأن عمراً سأل النبي ﷺ عن ذلك. فقال: أما أبوك فلو كان أقرّ بالتوحيد فصمتَ وتصدقتَ عنه نفعه ذلك». مسند أحمد ٢/ ١٨٢.

(٤) الطب النبوي. ابن القيم ص ٩٢.

قلبه وإدخال ما يسره عليه، يقول رحمه الله: (. . . وقد شاهد النـاس كثيراً من المـرضى تنتعش قواه بعيـادة من يحبونـه ويعظمـونه ورؤيتهم لـه، ولطفهم بـه ومكالمتهم إيّاه. . .)[1]، ويقول: (. . . تفريـح نفس المريض وتـطييب قلبه، وإدخال ما يسره عليه، له تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها)[2].

العلاقات الاجتماعية:

يوضح ابن القيم أن صحبة الجاهل تضرّ الإنسان؛ فالجاهل يضرّ صاحبه من حيث يظن أنه ينفعه، كما يوضح أن العدو العاقـل أقلُّ ضـرراً من الصديق الجاهل، ويوصي أخيراً بجعـل العاقـل صديقـاً، ويحذر من فقـدان صداقتـه، يقول رحمه الله: (. . . إن العدو العاقل أقل ضـرراً من الصديق الجـاهل فـإن الصـديق الجاهـل يضرك من حيث يقـدّر أنه ينفعـك، والشـأن كـل الشـأن أن تجعل العاقل صديقك، ولا تجعله عدوّك)[3].

وهذا التوجيه الاجتماعي من هذا المربِّي يذكرنـا بالحكمـة التي تقول: إن العاقل هو الذي يكسب كل يوم صديقاً، والأحمق هو الذي يفقد كل يوم صديقاً.

الفرد في الوسط الاجتماعي:

إن ابن القيم بنظرته الاجتماعية الثاقبة يرى أن الفرد في المجتمـع الذي تسوده أفكار خاطئة وتصورات فاسـدة يقف أحد مـوقفين: إما أن يخـالفهم في هـذه الأفكار وتلك التصـورات، وإمـا أن يـوافقهم عليهـا، فـإن خـالفهم آذوه وعـذبوه، وإن وافقهم أوقـع نفسه في غضب الله وسخـطه. يقـول رحمـه الله: (. . . والنـاس لهم إرادات وتصـورات واعتقـادات فيـطلبـون منـه أن يـوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر. . .)[4]، ثم يبين رحمـــه الله أن لا بد للفـرد من مخالـطة الناس،

---

(١) الطب النبوي. ابن القيم ص ٩٢.

(٢) المرجع السابق ص ٩٢.

(٣) المفتاح، ابن القيم ٢/٢١٢.

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/١٩٣.

وأنه لا بد أن يوافقهم أو يخالفهم، وفي الموافقة ألم وعذاب، وفي المخالفة ألم وعذاب، إلا أن ألم المخالفة لهم في الباطل أسهل وأيسر. يقول رحمه الله: (. . . فلا بد له من الناس ومخالطتهم، ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم، وفي الموافقة ألم وعذاب إذا كانت على باطل، وفي المخالفة ألم وعذاب، إذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداتهم وإراداتهم، ولا ريب أن ألم المخالفة لهم في باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم) [1].

ثم يضرب على ذلك أمثلة من الواقع الاجتماعي. فيقول: (. . . واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم أو فاحشة أو شهادة زور أو المعاونة على محرّم، فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادَوه، ولكن له العاقبة والنصرة عليهم، إن صبر واتقى. وإن وافقهم فراراً من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فرّ منه. والغالب أنهم يُسلَّطون عليه، فيناله من الألم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولاً بموافقتهم) [2]، وفي هذا توجيه تربوي للمسلم صاحب الفكرة، بأن يكون متميزاً بشخصيته الإسلامية وهو يخالط الناس ولا ينعزل عنهم، ولا يذوب في وسطهم الاجتماعي، يتحسس أدواء نفوسهم وعللها، ويحاول جهده معالجتها. قائده في ذلك هدي رسول الله ﷺ حيث يقول: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» [3]، وابن القيم يبشر هذا المؤمن صاحب الفكرة أنه إذا مات في سبيلها نال الشهادة، والموت آت لجميع الناس، وفرق بين من يموت لغاية ومبدأ ومن يموت دون غاية أو مبدأ. يقول رحمه الله: (. . . ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله. وتلك أشرف الموتات وأسهلها. . .) [4].

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان. ابن القيم ٢/١٩٣.

(٢) المرجع السابق ٢/١٩٣.

(٣) مسند أحمد ٢/٤٣.

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/١٩٤.

ويـوصي رحمه الله الفـرد في محيطه الاجتمـاعي أن يتسامـح مـع أفـراد مجتمعه ويعفو لهم زلاتهم، ويشيـر إلى أن من سامـح أخاه فـإن الله سيجازيـه بمسامحته له ومن تجاوز عن أخيه تجاوز الله عنه، فيقول: (... ومنهـا [1] أن يعامل العبد بني جنسه في إساءتهم إليه، وزلاتهم معه بما يحب أن يعـامله الله به في إساءته وزلاته وذنوبه، فـإن الجزاء من جنس العمـل، فمن عفا عفـا الله عنـه، ومن سامـح أخاه في إسـاءته إليـه سامحـه الله في سيئـاتـه، ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه، ومن استقصى استقصي عليه) [2]، وفي هـذا توجيـه تربوي اجتماعي هامّ لو طبقه كلُ فردٍ في المجتمع لما حصل شيء من المشاكل الاجتمـاعيـة التي تعـج بهـا المحـاكم اليـوم• ولَمَـا نُصِّب قـاضٍ للحكم بين اثنين، ولساد المجتمع مبدأ الإخاء وروح الألفة والمحبة، ولعـاش الجميع حـالة من الأمن والاستقـرار والتماسـك تعطي المجتمـع دفعة إلى فعـل الخيـر والدعوة إليه.

تأثر الطفل بالوسط الاجتماعي:

يوصي ابن القيم ولي أمر الطفل ومربيه أن يجنبه المجالس التي تسـودها المنكرات، وتتفشى فيها الضـلالات، لأن الطفـل صافي الفـطرة نقي السريـرة قلبه صفحة بيضاء ينقش عليها كل ما لامسهـا. يقول رحمـه الله: (... يجب أن يجنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والباطل والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء) [3]، ثم يعللّ ذلك بأن سمعه قابل لأن يعلق به كـل شيء، وأنه في هذا السن إذا علق بسمعه شيء عسر عليه وعلى وليّ أمره ومربيـه تخليصه منه، فيقول: (فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعـزّ على وليّه استنقاذه منه) [4].

ويذكر رحمه الله أن الوسط الاجتماعي الذي يخالطه الطفل قد لا يكون

---

(١) أي من الحكم في قضاء السيئات وقبول التوبة من العبد. انظر المفتاح، ابن القيم ١/٢٨٦.

(٢) المفتاح، ابن القيم ١/٢٩١.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم ص ٢٤٠.

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٠.

وسطاً فاسداً لكن قضاء وقت طويل فيه يسبب خسارة كبيرة ويفوت عليه خيري الدنيا والآخرة. يقول رحمه الله: (. . . ويجنبه فضول الطعام والكلام والمنام ومخالطة الأنام. . .) [١]، ثم يعلّل ذلك ويبيّن أن في هذا خسارة الدنيا والآخرة، فيقول: (. . . فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوِّت على العبد خير دنياه وآخرته) [٢].

أثر العبادات الجماعية على الفرد والمجتمع:

إن ابن القيّم بنظرته التربوية الدقيقة يرى أن أفراد المجتمع ينتفع بعضهم ببعض في أداء بعض شعائرهم التعبدية كالصلاة وغيرها. يقول رحمه الله: (. . . فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها كالصلاة في جماعة؛ فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفاً لمشاركة غيره له في الصلاة، فعمل غيره كان سبباً لزيادة أجره، كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر؛ بل قد قيل إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المصلين، وكذلك اشتراكهم في الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى، وقال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وشبك بين أصابعه)[٣] وفي هذا حث للمسلم أن يمارس عبادته في جماعة لينال هذه الفوائد ويحظى بها.

وابن القيم رحمه الله بسعة أفقه التربوي وحسّه الاجتماعي يرى أنّ الفوائد الاجتماعية تعود على الأفراد في حال الحياة وبعد الممات لكن يشترط وجود الرابطة الإيمانية بين الأفراد الذين يستفيد بعضهم من بعض: (. . . فدخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه في حياته وبعد مماته.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود. ابن القيم ص ٢٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤١.

(٣) الروح، ابن القيم ص ١٢٨، الحديث صحيح رواه (ق ـ ت ـ ن) عن أبي موسى، من صحيح الجامع الصغير وزيادته، الألباني ٦/٦.

ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم)[1]، وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن فكر ابن القيم التربوي متكامل ومترابط، فهو يربط بين التربية الاجتماعية والتربية الإيمانية برباط لا ينفصم، وهذه نظرة المربِّي المسلم الذي عرف أن الإسلام كل لا يتجزأ.

صفات المجتمع القوي:

يصف ابن القيم المجتمع القوي، ويبين أنه الذي تتوفر فيه أسباب القوة من الفروسية الخيلية، والفروسية الإيمانية فأفراده يخوضون المعارك بمهارة فائقة وشجاعة منقطعة النظير، طالبين الشهادة والفوز العظيم، يقول رحمه الله في بيان أنواع الفروسية: (... والفروسية أربعة أنواع أحدها: ركوب الخيل والكر والفر بها، والثاني: الرمي بالقوس، والثالث: المطاعنة بالرماح، والرابع: المداورة بالسيوف، فمن استكملها استكمل الفروسية، ولم تجتمع هذه الأربعة على الكمال إلّا لغزاة الإسلام وفوارس الدين وهم الصحابة رضي الله عنهم وانضاف إلى فروسيتهم الخيلية فروسية الإيمان واليقين والتنافس في الشهادة وبذل نفوسهم في محبة الله ومرضاته، فلم تقم لهم أمة من الأمم البتة. ولا حاربوا أمة إلّا وقهروها وأذلوها وأخذوا بنواصيها. فلما ضعفت هذه الأسباب فيمن بعدهم لتفرقها فيهم، وعدم اجتماعها دخل عليهم من الوهن والضعف بحسب ما عدموه من هذه الأسباب)[2]. وهو بهذا يشخص داء المجتمع ويشير إلى أسبابه، ويوضح علاجه الناجع الذي يخلّصه من الذلة والمهانة.

---

(١) الروح، ابن القيم ص ١٢٨.

(٢) الفروسية، ابن القيم ص ١٤٦.



الفصل السابع

التربية الإرادية

- تمهيد.
- مفهوم الإرادة.
- الإرادة من طبيعة النفس.
- أنواع الإرادة.
- الإرادة والمراد.
- تنوع الإرادة.
- الكمال والإرادة.
- المحبة والإرادة.
- صحة الإرادة.
- فساد الإرادة.
- الإرادة من أعمال القلوب.
- الإرادة إذا كانت جازمة.
- من وسائل التربية الإرادية.



التربية الإرادية

تمهيد:

إن الإرادة شأنها عظيم عند ابن القيم؛ لأنها هي المحرك والدافع إلى العمل، والعمل هو ثمرة العلم، والعلم دون عمل لا ينفع صاحبه، بل هو وبال عليه، فمن أراد السعادة في الدنيا والآخرة فليقرن العلم بالعمل، وإننا في هذا الفصل وفي هذا الجانب المهم من جوانب التربية عند ابن القيم سنتناول بالحديث مفهوم الإرادة، وأنها من طبيعة النفس، وأنها أنواع وتتنوع بحسب المراد وبيان أن كمالها بكمال المراد، ولها علاقة بالمحبة، ومتى تكون صحيحة ومتى تتعرض للفساد، وبيان أنها من أعمال القلوب، ومعرفة الإرادة إذا كانت جازمة ثم نذكر وسائل التربية الإرادية.

نتناول كل ذلك حسب ما جاء في فكر ابن القيم فمن الله نستمد العون ومنه نستلهم الرشد فهو حسبنا ونعم الوكيل.

مفهوم الإرادة:

قبل التحدث عن التربية الإرادية كما يراها ابن القيم يحسن ويجمل بنا أن نقف وقفة لغوية عند هذا المصطلح: (الإرادة) فنرجع إلى مادة (ورد) التي تتصل بكلمة (الإرادة).

جاء في مختار الصحاح في مادة: (ورد) - (الإرادة) المشيئة. و (راوده) على كذا (مُرَاوَدَةً) و (رِوَاداً) بالكسر أي أرادَه. و (رادَ) الكلأ أي طلبه وبابه قال...) [١].

(١) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي ط ١ سنة ١٩٦٧ م دار الكتاب العربي بيروت، مادة (رودة).

من هذا يتضح أن الإرادة تعني المشيئة والإرادة عند ابن القيم هي: الهمة التي تنهض بالإنسان إلى العمل، وهي التي تحقق للإنسان السعادة في الدارين إذا سبقها العلم النافع؛ فالإرادة باب الوصول إلى الله وطلب مرضاته، والعلم مفتاح هذا الباب.

وابن القيم يهتم اهتماماً بالغاً بالإرادة المحركة لهمة العامل. فيقول: (... والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج آدم وذريته من الجنّة أعاضهم أفضل منها وهو ما أعطاهم من عهده الذي جعله سبباً موصلاً لهم إليه، وطريقاً واضحاً بين الدلالة عليه، من تمسك به فاز واهتدى، ومن أعرض عنه شقي وغوى؛ ولما كان هذا العهد الكريم والصراط المستقيم، والنبأ العظيم، لا يوصل إليه أبداً إلّا من باب العلم والإرادة. فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه) (١).

وابن القيم يرى أن الإرادة من القوى المغروسة في النفس البشرية. يقول رحمه الله: (... ثم إنه سبحانه ركب فيه [الإنسان] (٢) من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائبة وسعيه في طلب ما يصلحه ودفع ما يضره...) (٣).

ومما يدل على أهمية الإرادة عند ابن القيم أنه جعلها ـ رحمه الله ـ إحدى دعامتي السعادة فبنى كتاباً من أهم كتبه ـ ألا وهو كتاب «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة» ـ على العلم والإرادة. وقال: (... فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسساً على هاتين القاعدتين ومقصوده التعريف بشرف هذين الأصلين) (٤).

ولقد أفاض وأجاد. وفصل وبين بياناً شافياً الأصل الأول وهو العلم،

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٤٦.

(٢) زيادة للإيضاح.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/٢٧٥.

(٤) المفتاح، ابن القيم ١/٤٧.

وذكر ما دعاه إلى الحديث عنه قبل الإرادة. فقال: (... ولما كان العلم إمام الإرادة. ومقدماً عليها، ومفصلاً لها ومرشداً لها قدمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة [1]) [2].

ثم شرع بالكتابة عن شرف العلم وفضله، فقال: (... فلنشرع الآن في المقصود بحول الله وقوته، فنقول: الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه...) [3]، وبعد أن استقصى الكلام في هذا الأصل، كنا ننتظر حديثاً شائقاً عن الأصل الثاني، لكنه لم يفعل... !! ولا ندري سبباً لذلك. والأمر محل تساؤل.. لكنه ذكر بعض التوجيهات غير المباشرة التي تبين أهمية الإرادة، مما سنذكره إن شاء الله.

الإرادة من طبيعة النفس:

يرى ابن القيم أن النفس لا بد وأن تكون مريدة، فإما أن تكون إرادتها صالحة، وإما أن تكون إرادتها فاسدة. يقول رحمه الله: (... فالنفس لا تكون إلّا مريدة عاملة. فإن لم توفق للإرادة الصالحة، وإلّا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار...) [4].

أنواع الإرادة:

يوضح ابن القيم أن للإرادة بداية، ولها أنواع، فمبدؤها الهم، يقول رحمه الله: (... الهم مبدأ الإرادة..) [5]، وأنواعها بحسب متعلقها: فإن كانت متعلقة بمحبة الله والوقوف عند أوامره فهي من أعلى الإرادات، وإن كانت متعلقة بمراد صاحبها فهي من أسفل الإرادات. يقول رحمه الله: (... وأعلى الهمم في باب الإرادة أن تكون الهمة متعلقة بمحبة الله والوقوف

---

(1) هكذا، ولعله تصحيف، والصواب «الإرادة». وفقاً لمقتضى السياق وبناء الكتاب والله أعلم.
(2) المفتاح، ابن القيم ١/٤٧.
(3) المرجع السابق ١/٤٨.
(4) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ١٣٤.
(5) المرجع السابق ١٣٤.

مع مراده الديني الأمري، وأسفلها أن تكون الهمة واقفة مع مراد صاحبها من الله، فهو إنما يعبده لمراده منه، لا لمراد الله منه، فالأول يريد الله، ويريد مراده، والثاني يريد من الله وهو فارغ عن إرادته) [1] .

الإرادة والمراد:

يوضح ابن القيم أن كمال الإرادة بحسب كمال مرادها، فإذا كانت إرادة العبد في أعالي الأمور، ومنتهى الخلائق، كانت إرادته في أعلى درجات الكمال، أما إذا كانت إرادته في أسافل الأمور وأدنى الأشياء كانت إرادته سافلة منحطة، وهمته لا قيمة لها ولا وزن، يقول رحمه الله ممثلاً لهذا المعنى: (. . . ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها، وشرف العلم تابع لشرف معلومه كانت نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها، ولا حياة له إلّا بها أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت، وعزمات همته مسافرة إلى حضرة الحي الذي لا يموت؛ ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى أو الحظ الأوفى إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه) [2] ﷺ.

إن ابن القيم يحث كل من يريد السعادة على الالتزام بالإرادة القوية وكسب العلم النافع، فيقول: (. . . فحق على من كان في سعادة نفسه ساعياً، وكان قلبه حياً عن الله واعياً، أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله) [3].

تنوع الإرادة:

الناس في نظر ابن القيم أربعة أصناف بشأن العلم والإرادة: فصنف: كمل في العلم، وكمل في الإرادة؛ وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل. يقول رحمه الله: (. . . فبالحياة تنال العزيمة، وبالنور ينال العلم، وأئمة هذا

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٦١.
(٢) المفتاح، ابن القيم ١/٤٦.
(٣) المرجع السابق ١/٤٧.

الضـرب هم أولـو العـزم من الـرسـل) [1]، وصنف: (حـرم هــذا وهـذا وهم الموصوفون بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]، وصنف ثـالث وهو: (من فتـح له بـاب العلم وأغلق عنه بـاب العزم والعمـل، فهذا في مرتبة الجاهل أو شر منه وفي الحديث المـرفوع: «أشـد الناس عـذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» ثبته أبو نعيم) [3]، وصنف رابع وهو: (من رزق حظاً من العزيمـة والإرادة ولكن قلَّ نصيبـه من العلم والمعرفـة، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقاً. ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيماً﴾[4].

الكمال والإرادة:

وابن القيم يرى أن كمال الإنسان في أمرين هامين؛ علم نافع مستمد من منهـج الله عز وجـل، وإرادة صادقـة وعزيمـة على العمل. فيقـول في ذلـك: (... وكمـال كل إنسـان إنما يتم بهـذين النوعين: همـة ترقيـه، وعلم يبصره ويهديه) [5].

وإذا فـات الإنسان أمـر من هذين الأمـرين، أو فوتهمـا كليهما فـاته كـل خير، وحلّت به الشقاوة في الدنيا والدين. يقول ابن القيم: (... فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما، إمـا أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها، أو يكون عالماً بها ولا تنهض همتـه

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١١٤.

(٢) المرجع السابق ١/١١٤، سورة الأنفال /٢٢.

(٣) المرجع السـابق ١/١١٥، والحديث ضعيف جـداً رواه (طص، عد، هب) عن أبي هـريرة من ضعيف الجامع الصغير وزيادته، الألباني رقم ٩٦٨ ١/٢٨٠.

(٤) المرجع السابق ١/١١٥، سورة النساء /٦٩، ٧٠.

(٥) المرجع السابق ص ٤٦.

إليها) [1]، كما يقول في مكان آخر: (إن أعظم الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة، ولذة النعيم في الدارين، ويدخل عليه عدوه منها هو الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد، وحرمانه منازل السعداء) [2]، فهو بهذا يبين أسباب السعادة؛ ويجعلها في العلم النافع والعمل الصالح، كما يبين أسباب حرمان السعادة ويحصرها في الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، فكأنه بذلك يحث على طلب العلم ويؤكد أمر الإرادة كما أنه يحذر من الغفلة والكسل والضجر. فيقول: (. . . قال بعض الحكماء في وصيته: إيّاك والكسل والضجر، فإن الكَسِلَ لا ينهض لمكرمة والضّجِرَ إذا نهض إليها لا يصبر عليها، والضّجَرُ متولدٌ عن الكسلِ والعجزِ) [3] .

ويشتد ابن القيم رحمه الله في تحذيره من تواني الهمة وضعف العزيمة وترك العلم وضعف الإرادة فيصف حال من ضعفت همته وخارت عزيمته وتوانى في طلب العلم، أو تقاعس عن العمل بقوله: (. . . فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدوداً منكوساً، قد أسام نفسه مع الأنعام راعياً مع الهمل، واستطاب لقيعان الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل) [4] .

ويشجع على التشمير عن ساعد الجد والعمل بهمة لا تفتر ونشاط لا ينقطع، ويذكر أن حال ذلك المتكاسل ليس: (. . . كمن رُفع له علم فشمر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه قد أبت غلبات شوقه إلّا لهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلّا ابن سبيل يرافقه في سبيله) [5]، إنه بهذا يصور هذا العامل في سيره في طريق العمل الجاد ويبين

(١) المفتاح. ابن القيم جـ ١ ـ ص ٤٦.
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١١٢.
(٣) المرجع السابق ١/١١٣.
(٤) المرجع السابق ١/٤٦.
(٥) المرجع السابق ١/٤٦.

أنه يرفض الكسل والتواني والإخلاد إلى الراحة، وهذا غاية الهمة وأعلى مراتب الإرادة والعزيمة.

المحبة والإرادة:

يوضح ابن القيم أن هناك اتصالاً قوياً بين إرادة العبد ربه ومحبته إيّاه. يقول رحمه الله: (... لا يزال العبد منقطعاً عن الله حتى تتصل إرادته ومحبته بوجهه الأعلى: والمراد بهذا الاتصال أن تفضي المحبة إليه وتتعلق به وحده فلا يحجبها شيء دونه...) [1].

صحة الإرادة:

يذكر ابن القيم أن لصحة الإرادة علامة، فيقول: (... علامة صحة الإرادة أن يكون همّ المريد رضا ربه واستعداده للقائه، وحزنه على وقت مر في غير مرضاته، وأسفه على فوت قربه والأنس به، وجماع ذلك أن يصبح ويمسي وليس له هم غيره) [2].

فساد الإرادة:

يبين ابن القيم أن الإرادة تكون في حالة من الحالات فاسدة وفسادها يترتب عليه فساد العلم، ذكر هذا رحمه الله في معرض بيانه آفة العلم فقال: (... وأما العلم فآفته عدم مطابقته لمراد الله الديني الذي يحبه ويرضاه وذلك يكون من فساد العلم تارة ومن فساد الإرادة تارة؛ ففساده من جهة العلم أن يعتقد أن هذا مشروع محبوب لله وليس كذلك أو يعتقد أنه يقرِّبه إلى الله وإن لم يكن مشروعاً فيظن أنه يتقرب إلى الله بهذا العمل وإن لم يعلم أنه مشروع، وأما فساده من جهة القصد فأن لا يقصد به وجه الله والدار الآخرة بل يقصد به الدنيا والخلق وهاتان الآفتان في العلم والعمل لا سبيل إلى السلامة منهما إلا بمعرفة ما جاء به الرسول في باب العلم والمعرفة، وإرادة وجه الله والدار الآخرة في باب القصد والإرادة، فمتى خلا من هذه المعرفة

---

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٢٠٣.

(٢) المرجع السابق ص ١١٧.

وهذه الإرادة فسد علمه وعمله. والإيمان واليقين يورثان صحة المعرفة وصحة الإرادة...)[1]،

الإرادة من أعمال القلوب:

إن الإرادة من أعمال القلب، والإرادة هي سبب الحركة والفعل الاختياري، وابن القيم يرى أن الإرادة من خلق الله عز وجل وأنها محدثة، يقول رحمه الله: (... الله سبحانه هو الذي يحرك القلوب بالإرادة، ويحرك الجوارح بالأعمال)[2]. ويقول أيضاً: (... وأنه هو الذي يحرك القلوب بالإرادات، والجوارح بالإعمال، وأنها مدبرة تحت تسخيره مذللة تحت قهره، وأنها أعجز وأضعف أن تتحرك بدون مشيئة نافذة فيها كما هي نافذة في حركات الأفلاك والمياه والأشجار وأنه حرك كلاً منها بسبب اقتضى تحريكه، وهو خالق السبب المقتضى، وخالق السبب خالق للمسبب، فخالق الإرادة الجازمة التي هي سبب الحركة والفعل الاختياري خالق لهما، وحدوث الإرادة بلا خالق محدث محال، وحدوثها بالعبد بلا إرادة منه محال، وإن كان بإرادة فإرادته للإرادة كذلك ويستحيل بها التسلسل، فلا بد من فاعل أوجد تلك الإرادة التي هي سبب الفعل وهنا يتحقق الفقر والفاقة والضرورة التامة إلى مالك الإرادات ورب القلوب)[3]، وهو بهذا يعمق الجانب الإيماني حيث يتحقق الفقر والفاقة والضرورة التامة إلى مالك الإرادات والقلوب سبحانه وتعالى.

الإرادة إذا كانت جازمة:

الإرادة إذا كانت جازمة، وحال دون الأعمال حائل، فإن هذه الإرادة تلحق صاحبها في الأجر بغيره ممن عمل، فنية المرء خير من عمله. يقول ابن القيم: (... أما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك

---

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٨٥.

(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢، ٣٣.

الألـوف المؤلفـة في الـطاعـة الـواحـدة لم يكن عليهم فيهـا ضيق ولا تـزاحم ووسعتهم كلهم، وإن قدر التزاحم في عمـل واحد أو مكـان لا يمكن أن يفعله الجميع بحيث إذا فعله واحد فـات على غيره، فـإن في العزم والنيـة الجازمـة على فعله من الثواب ما لفاعله، كما ثبت عن النبي ﷺ في غير حديث، فـإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله) [1]

من وسائل التربية الإرادية:

المتأمل فيمـا ورد في فكر ابن القيم التـربوي عن بعض وسـائل التـربية الإرادية يستنتج أن الإرادة تكـون: بمحبة الشيء المـراد، وتحمل المشقـة في سبيله والصبر عليه، وتذكر النتـائج المتـرتبة على ذلـك، وتعويـد النفس الجِدّ والعمـل. يقـول ابن القيم: (. . . ومن طمحت همتـه إلى الأمـور العـاليـة، فواجب عليه أن يشد على محبة الـطرق الدينيـة وهي السعادة، وإن كـانت في ابتـدائها لا تنفـك عن ضرب من المشقّـة والكره والتـأذي، وأنها متى أكـرهت النفس عليهـا، وسيقت طائعـة وكارهـة إليها، وصبـرت على لأوائها وشـدتها، أفضت منهـا إلى رياض مـونقة، ومقـاعد صـدق، ومقام كـريم، تجد كـل لذة دونها لعـب الصبي بالعصفور، بالنسبة إلى لذات الملوك. . . فالمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يعبر إليها إلاّ على جسر المشقة، فلا تقـطع مسافتهـا إلا في سفينـة الجِـدّ والاجتهـاد، قـال مسلم في صحيحـه: «قـال: يحيى بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم» وقد قيل: من طلب الراحة ترك الراحة) [2] يقـول ابن القيم في تـوجيهـاتـه لـولي أمـر الـطفـل والمسؤول عن تـربيتـه: (. . . ويعـوده الانتباه آخـر الليل فـإنه وقتُ قَسِمْ الغنـائم، وتفـريق الجـوائـز، فمستقلّ ومستكثر ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيراً سهل عليه كبيراً) [3]، ففي

---

(1) طريق الهجرتين. ابن القيم ص ٣٨٧، يشير إلى حديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «من هم بحسنـة فلم يعملها كتبت لـه حسنة. .» الحـديث، كتاب الإيمـان. باب إذا همّ العبد بحسنه كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب ١/ ٨٣.

(٢) المفتاح، ابن القيم ١/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣) تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٤١.

هذا حث على التعويد والتدريب على العمل ـ الذي هـو ثمرة الإرادة ـ ، حتى يصبح الجِدّ والعمل صفة للشخص.

وفي مجال الصبر الذي هو قرين الإرادة يقول ابن القيم في تعليقه على قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1]: (وهؤلاء ثَنِيَّةُ(*) الله من النوع الإنساني المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة. ولا خلاص من هذا الذم إلاّ بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر الكبير إلا بهما)[2]، ويقول: (. . . فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَان لَفِي خُسْر * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ * وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِٱلْصَّبْرِ﴾ أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلاّ مَنْ كمّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح وكمّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه. . .)[3].

---

(١) سورة هود /١١.

(*) الثَّنِيَّةُ: الشيء المنثني، والثَّنِيَّةُ: الشهداء الذين استثناهم الله عن الصفقة. القاموس المحيط. الفيروزأبادي. المعجم الوسيط مجمع اللغة: مادة «ثني».

(٢) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٥٩.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ١/٦. سورة العصر.

الفصل الثامن

التربية البدنية

١ ـ تمهيد.

٢ ـ تدبير البدن في حالي الصحة والمرض:

- ـ حالات البدن.
- ـ حاجة البدن إلى الغذاء.
- ـ أسباب المرض.
- ـ حاجة البدن إلى العلاج.
- ـ طرق العلاج.

٣ ـ التربية الرياضية:

- ـ حاجة البدن إلى الرياضة.
- ـ من وسائل التربية الرياضية.
- ـ الألعاب الرياضية.
- ـ التشجيع الرياضي.
- ـ من آداب التربية الرياضية.
- ـ البدء باللعب واختيار المكان.



التربية البدنية

١ ـ تمهيـد :

لقد اهتم الإسلام برعاية البدن والمحافظة عليه وإعطائـه حقوقـه كاملة؛ لأن في هذا عوناً على طاعة الله وأداء ما فـرضه من واجبـات فـ «المؤمن القوي خير ـ أو أفضل ـ وأحبّ إلى الله عزّ وجلّ من المؤمن الضعيف وكـل خير»[1]، والقوة هنا تشمل قوة الإرادة ،والعزيمة وقوة البدن وسلامة الساعد. ونتناول الآن في هـذا الفصل بحث التـربية البـدنية عنـد ابن القيم الذي يستقي أفكـاره من الإسلام.

عرفنا في الأبواب والفصول السـابقة رأي ابن القيّم في طبيعـة الإنسان، ونوعية التربية التي يحتاجها ليحقق الغاية من وجوده في هذه الحياة، كما عرفنا من أفكاره أيضاً بعض جوانب التربية، ونريد في هذا الفصل أن نستعرض رأيه في التربية البدنية بصفتها جانباً هاماً من جوانب التربية عند هذا المربِّي.

ولأهمية التربية البدنية عند ابن القيم نـراه ضمن كتاب الفـروسية الكثيـر من الإرشـادات والتوجيهـات الريـاضية المفيـدة، كما أشـار في كتـاب الـطب النبـوي إلى أهمية البـدن وضرورة المحـافظة عليـه بإعطائـه الغـذاء الضروري لحفظ صحتـه، وحمـايتـه من كـل مـا هـو مؤذٍ ومضـر، وتـدبيـر أمـر عـلاجـه في حـالة المـرض، وإعطائـه من التدريبـات الريـاضيـة مـا يحفظ لـه صحتـه وسلامته.

---

(١) حديث رواه أحمد في مسنده ٢/ ٣٧٠.

واهتمام ابن القيم بالبدن يأتي ضمن إيمانه بأن الإنسان هو مجموع الروح والبدن والعقل، وأن هذه العناصر تعمل كلًا لا يتجزأ؛ فالتربية السليمة هي التي تعطي كل عنصر من هذه العناصر المكونة للإنسان ما يحتاجه من تربية وتوجيه. يذكر رحمه الله حاجة البدن إلى الغذاء، ونوعية الغذاء المفيد له، من جهة الكيفية والكمية، وحاجته أيضاً إلى الحماية من الأمراض، وذكر طرق العلاج إذا فقد صحته وحلّت به الأمراض، وحاجته أيضاً إلى التدريب الرياضي والنشاط والحركة، فيذكر أنواعاً من الرياضة التي أباحها الإسلام، كما يشير رحمه الله إلى أن في بعض الشعائر التعبدية من الحركات الرياضية ما يفيد البدن في جملته، كما يذكر لنا الآداب الرياضية التي لو انتشرت بين الرياضيين لشاعت بينهم روح الأخوة والألفة والمحبة.

وإننا إذ نعرض أفكار ابن القيم في التربية الرياضية، نتمنى من الله أن يعيد لأمة الاسلام مقومات شخصيتها، لتعرف أنها خير أمة أخرجت للناس ولتعلم أن الإسلام ينظّم حياة المسلم في حال جِدِّه، وأثناء لعبه واستجمامه.

٢ ـ تدبير البدن في حالي الصحة والمرض:

حالات البدن:

يذكر ابن القيم أن للبدن ثلاث حالات: حالة يكون البدن فيها صحيحاً، وأخرى يكون فيها مريضاً، وثالثة وسط بينهما. يقول في ذلك: (. . . وللبدن ثلاثة أحوال حال طبيعية وحال خارجة عن الطّبيعة، وحال متوسطة بين الأمرين، فالأولى يكون بها البدن صحيحاً، والثانية يكون بها مريضاً، والحال الثالثة هي متوسطة بين الحالتين. . .)[1].

وابن القيم يرى أن الحال التي يكون البدن فيها مريضاً تستوجب العلاج، وأن العلاج والتداوي لا يتنافى مع التوكل على الله، فيقول بعد ذكر الأحاديث التي تحث على التداوي: (. . . وفي هذه الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل. . . بل لا تتم حقيقة التوحيد إلّا بمباشرة

(١) الطب النبوي ابن القيم ص ٥.

الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً. .)[1].

وابن القيم بعد أن يطالعَنا بذكر الأسس العامة في طب الأبدان. بقوله: (. . . إن قواعد طب الأبدان ثلاثة، حفظ الصحة، والحمية من المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة. .)[2]، يذكر أن الدواء الجيد هو ما كان بالغذاء فقط، وإذا دعت الضرورة فالدواء البسيط، ولا يرى العلاج بالدواء المركب، إلا عند الضرورة القصوى، وحينما لا يفيد الدواء البسيط. ثم يذكر لنا أن الأطباء متفقون على هذا. فيقول: (. . . وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء، لا يعدل إلى الدواء ومتى أمكن بالبسيط لا يعدل إلى المركب، قالوا: ولا داء قدر على دفعه بالأغذية والحمية، لم يحاول دفعه بالأدوية، قالوا: وكل ينبغي للطبيب أن يولع بسقي الأدوية؛ فإن الدواء إذا لم يجد في البدن داء يحلّله أو وجد داء لا يوافقه أو وجد ما يوافقه فزادت كميته عليه أو كيفيته تشبث بالصحة وعبث بها. .)[3].

حاجة البدن إلى الغذاء:

يرى ابن القيم أنه لحفظ صحة البدن ينبغي الاهتمام بأمر غذائه، لأن الغذاء يعوض ما يتحلل منه نتيجة لجهد يبذله أو عمل يقوم به، وحتى يكون الغذاء ذا فائدة، لا بدّ وأن يكون بقدر معقول، ونوعية خاصة؛ لأن تجاوز الحدّ المعقول يصيبه بأنواع شتى من الأمراض، كما أن إعطاءه القليل الذي لا يفي بحاجته يعرضه للأمراض ويصيبه بها. فيقول رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[4] (فأرشد عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً، وكلاهما مانع من

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢.

(٣) المرجع السابق ص ٦.

(٤) سورة الأعراف / ٣١.

الصحة جالب للمرض؛ أعني: عدم الأكل والشرب أو الإسراف فيه...)[1].

وإذا كان ابن القيّم يرى حاجة البدن إلى الغذاء، فإنه يحدد الكمية التي يحتاجها ويستفيد منها؛ لأن كلاً من الإفراط والتفريط مضر بالصحة ويعرض البدن للأمراض المستعصية والأدواء الفتاكة. يقول في ذلك: (... ومرتبة الغذاء ثلاثة أحدها مرتبة الحاجة، والثانية مرتبة الكفاية، والثالثة مرتبة الفضلة، فأخبر النبي ﷺ أنه يكفيه لقيماتٌ يقمن صلبه، فلا تسقط قوته، ولا تضعف معها، فإن تجاوزها فليأكل في ثلث بطنه، ويدع الثلث الآخر للماء، والثلث للنفس، وهذا من أنفع ما للبدن والقلب)[2].

ثم يطالعنا رحمه الله بآداب الطعام التي تجعل له على الصحة تأثيراً طيباً. فيقول: (... وللتسمية في أول الطعام والشراب وحمد الله في آخره تأثير عجيب في نفعه واستمرائه ودفع مضرته)[3].

ثم أورد أثراً عن الإمام أحمد رحمه الله يبيّن فيه الحال التي يكمل فيها الطعام جاء فيه: (... إذا جمع الطعام أربعاً، فقد كمل: إذا ذكر اسم الله في أوله، وحمد الله في آخره، وكثرت عليه الأيدي، وكان من حلّ)[4].

ويرى ابن القيم أن الاكتفاء بنوع واحد من الأطعمة مضر بصحة البدن ومؤذ له. يقول في ذلك: (... فلم يكن من عادته ﷺ حبس النفس على نوع واحد من الأغذية، لا يتعداه إلى ما سواه، فإن ذلك يضر بالطبيعة جداً... فإن لم يتناول غيره ضعف أو هلك... فقصرها على نوع واحد دائماً... خطر مضر)[5]، وهذه لفتة جيدة من هذا العالم المربِّي؛ لأن الجسم بحاجة إلى

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٦٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٣، وهو يشير إلى معنى حديث رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل ٤/ ٥٩٠ وفيه بدل لقيمات «أكلات».

(٣) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٨١.

(٤) المرجع السابق ص ١٨١.

(٥) المرجع السابق ص ١٦٩.

الغذاء الكامل الذي تتنوع فيه جميع احتياجات البدن من الفيتامينات والبروتينات والنشويات، والسكريات وغيرها، فهو بهذا يعايش الوقت الحاضر الذي ينادي فيه الأطباء بضرورة تكامل الغذاء واحتوائه جميع العناصر التي يحتاجها البدن، بل هو بهذا الرأي يحوز السبق التام إلى هذا الأمر.

ثم يورد رحمه الله هدي رسول الله ﷺ في عدم حمل النفس على طعام تعافه ولا ترغب فيه، لأن هذا مضر بالصحة جالب للمرض. يقول في ذلك: (. . . وكان إذا عافت نفسه الطعام لم يأكله ولم يحمّلها إيّاه على كره، وهذا أصل عظيم في حفظ الصحة، فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه ولا تشتهيه، كان تضرره به أكثر من انتفاعه)[1].

وابن القيم لا يكتفي في توجيهاته وإرشاداته بتحديد كمية الطعام التي يحتاجها البدن ولا بنوعيته فقط، بل يصف الجلسة الصحية عند تناوله، فيذكر هدي رسول الله ﷺ في ذلك و: (. . . أنه كان يجلس للأكل متوركاً على ركبتيه، ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر قدمه اليمنى، تواضعاً لربه عزّ وجلّ، وأدباً بين يديه، واحتراماً للطعام وللمؤاكل، فهذه الهيئة أنفعُ هيئات الأكل وأفضلُها؛ لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي الذي خلقها الله سبحانه عليه، مع ما فيها من الهيئة الأدبية، وأجود ما اغتذى الإنسان إذا كانت أعضاؤه على وضعها الطبيعي)[2].

ثم بعد ذكر الجِلسة الصحية عند الأكل يصف لنا رحمه الله الجِلسة الرديئة عند تناوله بقوله: (. . .وأردأ الجِلسات للأكل الاتكاء على الجنب)[3]، ثم يبيّن الضرر في هذه الجِلسة، فيقول عن الاتكاء. (. . . إنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي عن هيئته، ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة، ويضغط

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٦٩، ١٧٠.
(٢) المرجع السابق ص ١٧٢.
(٣) المرجع السابق ص ١٧١.

المعدة فلا يستحكم فتحها للغذاء، وأيضاً فإنها تميل ولا تبقى منتصبة فلا يصل الغذاء إليها بسهولة)[1].

وينبه ابن القيم على أن إدخال الطعام على الطعام، والإفراط في الأكل، وتناول الأغذية قليلة النفع بطيئة الهضم والإكثار من الأغذية المختلفة التراكيب مضر بالصحة جالب للمرض، ويؤكد أن أكثرية الأمراض: (.. سببها: إدخال الطعام على البدن قبل هضم الأول، والزيادة في القدر الذي يحتاج إليه البدن، وتناول الأغذية القليلة النفع البطيئة الهضم، والإكثار من الأغذية المختلفة التراكيب المتنوعة، فإذا ملأ الآدميّ بطنه من هذه الأغذية، واعتاد ذلك، أورثته أمراضاً متنوعة)[2].

وابن القيم يذكر أنواعاً من الأغذية المفيدة التي تكون سبباً في حفظ الصحة وسلامة البدن من الأمراض، منها التمر الذي يعتبر نوعاً من الأغذية، وواحداً من الأدوية وصنفاً من الفاكهة، يقول عن ذلك: (... والتمر يدخل في الأغذية والأدوية والفاكهة)[3].

ومن أنواع الأغذية عنده الرطب، وله فائدة عظيمة ومفيدة في تقوية المعدة الباردة لكن له بعض الآثار الضّارة، فيذكر منها أنه معكر للدم، مصدّع للرأس مولّد للسدد مضرّ بالأسنان موجع للمثانة. أما فوائده فهو يوافق المعدة الباردة ويزيد في الباءة. يقول في ذلك: (.. والرطب حار رطب في الثانية: يقوي المعدة الباردة ويوافقها، ويزيد في الباه، ولكنه سريع التعفن، معطش، معكر للدم مصدّع، مولّد للسدد، ووجع المثانة، ومضرّ بالأسنان)[4].

ويذكر من الأغذية أيضاً القثاء الذي يعتبر غذاء ودواء. يقول فيه: (... والقثاء بارد رطب في الثانية، مسكن للعطش، منعش للقوى بشمّه لما

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٧٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٢.

(٣) المرجع السابق ص ٧٧.

(٤) المرجع السابق ص ٨٠.

فيه من العطرية مطفىء لحرارة المعدة الملتهبة، وإذا جفف بذره ودق واستحلب بالماء وشرب سكن العطش، وأدرّ البولَ، ونفع من وجع المثانة)[1].

ويذكر من أنواع الأغذية المفيدة للبدن في فترة النقاهة ما يقوى به البدن الشعير إذا طبخ بأصول السلق. يقول في ذلك: (. . . فإن في ماء الشعير من التبريد والتغذية والتلطيف والتليين وتقوية الطبيعة ما هو أصلح للناقة، لا سيما إذا طبخ بأصول السلق، فهذا من أوفق الأغذية لمن في معدته ضعف)[2].

ثم يعدد رحمه الله أنواعاً من الأغذية تفيد البدن وتكسبه صحة وقوة منها العسل واللحم والحلواء. يقول في ذلك: (. . . اللحم والعسل والحلواء من أفضل الأغذية وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء، وللاغتذاء بها نفع عظيم في حفظ الصحة والقوة ولا ينضر منها إلا من به علة وآفة)[3].

وابن القيم رحمه الله يرى أن حفظ صحة البدن في الغذاء الجيد، والدواء الناجع، والرياضة الهادفة، فكل ما مر بنا فهو من باب الغذاء وأنواعه وفوائده في العلاج، بقي علينا أن نستمع لرأيه في أسباب المرض وكيفية العلاج، ورأيه في الحركة والتدريب الرياضي.

أسباب المرض:

يرى ابن القيم أن معظم أمراض البدن من المعدة، فهي بيت الداء كما يقول طبيب العرب الحارث بن كَلَدَة، ولقد أورد ابن القيم حديثاً عن رسول الله ﷺ يشير إلى هذا المعنى، قال رحمه الله: (. . . ويذكر عن النبي ﷺ: «أن المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا سقمت المعدة صدرت العروق بالسقم»)[4].

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ٨٠.
(٢) المرجع السابق ص ٨٣.
(٣) المرجع السابق ص ١٧١.
(٤) المرجع السابق ص ٨٢.

ثم يوضح كيف تصبح المعدة بيت الداء، فهو يرى أن ما يتخلف فيها من كثرة الغذاء أو رداءته، أو تتابع الطعام عليها، يعجزها عن تمام الهضم، ومن ثم لا تستطيع التخلص من ذلك فتصاب بالمرض، وتصدره إلى جميع الأعضاء، يقول رحمه الله، عن المعدة: (. . . وهي بيت الداء، وكانت محلاً للهضم الأول، وفيها ينضج الغذاء وينحدر منها بعد ذلك إلى الكبد والأمعاء، ويتخلف منه فيها فضلات عجزت القوة الهاضمة عن تمام هضمها، إما لكثرة الغذاء، أو لرداءته، أو لسوء ترتيب في استعماله، أو لمجموع ذلك، وهذه الأشياء بعضها مما لا يتخلص الإنسان منه غالباً، فتكون المعدة بيت الداء لذلك)[1].

حاجة البدن إلى العلاج:

لقد مر فيما مضى بيان ابن القيم أن من حالات البدن حالة خارجة عن الطبيعة، فيكون البدن مريضاً يحتاج إلى علاج، ثم يذكر قواعد طب الأبدان بقوله: (. . . الدواء كله شيئان: حمية وحفظ صحة، فإذا وقع التخليط احتيج إلى الاستفراغ الموافق، ولذلك مدار الطب كله على هذه القواعد الثلاث)[2].

ويذكر ابن القيم أن العلاج مراتب، أولها العلاج بالأغذية، والعلاج بها أفضل من العلاج بالأدوية، وثانيها، العلاج بالدواء البسيط، والعلاج به أفضل من العلاج بالأدوية المركبة، وثالثها العلاج بالدواء المركب، يقول في ذلك: (. . . وهم متفقون كلهم على أن من سعادة الطبيب أن يداوي بالغذاء، فإن عجز فبالمفرد، فإن عجز فبما كان أقلَّ تركيباً)[3].

وابن القيم يورد أثراً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشير إلى ما في

---

(١) الطب النبوي ابن القيم ص ٩٤.

(٢) المرجع السابق ص ٨١.

(٣) المرجع السابق ص ٥٧.

أشعة الشمس من فوائد للبدن، جاء فيه: (... وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب)[1].

ثم يعلق عليه بقوله: (... فإن العرب لم تكن تعرف الحمام ولا كان بأرضهم، وكانوا يتعوضون عنه بالشمس، فإنها تسخن وتحلل كما يفعل الحمام)[2]، وهذا من ابن القيم سبق في مجال العلاج، لأن في أشعة الشمس لا سيما عند طلوعها وفي حال الغروب علاجاً لأمراض الجلد، ولين العظام عند الصغار، كما أن حرارة الشمس تساعد الجسم في إفراز كمية من العرق يفيده خروجها ويساعده على طرد بعض المواد منه، وحرارتها تسخن العضلات وتنشطها، فهذا النوع من العلاج بضوابطه قد يحتاجه البدن في حالة من حالاته.

طرق العلاج:

أ ـ يرى ابن القيم أن أول طرق العلاج الحمية، فقد: روى قول طبيب العرب الحارث بن كلدة الذي يقول فيه: (... الحمية رأس الدواء..)[3].

ب ـ ومن طرق العلاج التي يراها أيضاً تمكين البدن مما اعتاده، فأورد قول طبيب العرب الذي جاء فيه: (... وعودوا كل بدن ما اعتاد..)[4].

ج ـ ومن طرق العلاج المعاجلة بالغذاء، وهو أنفع شيء للبدن يقول رحمه الله: (... وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء لا يعدل إلى الدواء)[5].

د ـ من طرق العلاج التي يراها استعمال الأدوية البسيطة، وهي أفضل

---

(١) الفروسية، ابن القيم ص ١٥.
(٢) المرجع السابق ص ١٦.
(٣) الطب النبوي، ابن القيم ص ٩٣.
(٤) المرجع السابق ص ٩٣.
(٥) المرجع السابق ص ٦.

من الأدويـة المركبـة، فإذا أمكن استفـادة البدن منهـا فإنـه لا يعـدل عنهـا إلى المـركب، فيقول عن كيفيـة مـدافعـة المـرض: (. . . ومتى أمكن بـالبسيط لا يعدل إلى المركب)[1].

ثم ذكـر رحمه الله أن استعمـال الدواء لـه من الأضرار مـا قالـه الأطباء: (. . . فـإن الـدواء إذا لم يجد في البـدن داء يحلله أو وجد داء لا يـوافقه، أو وجد ما يوافقه فزادت كميته عليه أو كيفيته تشبّث بالصحة وعبث بها)(*)[2].

وابن القيم يرى أن هناك ارتباطاً بين نوعية الغذاء الذي يتعاطاه الإنسـان والعلاج الذي يستفيد منه، فأهل البـوادي لبساطـة أغذيتهم تفيـد في أمراضهم الأدوية البسيطة أما أهل المدن لتعقد أغـذيتهم، وكثرة تـراكيبها لا تفيـدهم إلا الأدويـة المركبـة، يقول في ذلـك: (. . . والتحقيق في ذلك: أن الأدويـة من جنس الأغذية، والأمة والطائفة التي غالب أغذيتها المفـردات، أمراضهـا قليلة جداً، وطبها بالمفردات. وأهل المدن الـذين غلبت عليهم الأغذيـة المركبـة، يحتاجون إلى الأدوية المركبـة، وسبب ذلك أن أمـراضهم في الغالب مـركبة، فالأدوية المركبة أنفـع لها، وأمـراض أهل البـوادي والصحارى مفـردة، فيكفي في مداواتها الأدوية المفردة)[3].

هـ ـ وبجانب ما ذكر فإن ابن القيم قـد فطن إلى نـوع من العلاج يجهله الكثير من الأطباء أو يغفلون عنه، علاج يفيد القلوب والعقول والأرواح، ذكـره بقوله: (. . . وأين يقع هذا وأمثاله من الوحي يوحيه الله إلى رسولـه بما ينفعـه

---

(١) الطب النبوي. ابن القيم ص ٦.

(*) سبحان الله!! كيف لو رأى ابن القيم بعض أطبـاء اليوم الـذين لا يتورعـون عن إعطاء أصنـاف متعددة من العلاج المركب والمعقد للمريض، والتي يكون بعض منها سبباً في وفـاته أو ذهـاب صحته مدى الحيـاة، إنهم يفعلون هذا واضعين في أذهـانهم أن هذا المـريض ما هـو إلا مكان لتجربة العـلاج ومعمل لتحليله، فإليك هذا العـلاج فإن لم يفد دعه وهـذه كمية أخـرى فإن لم تستفد فراجع الطبيب، وهكذا دواليك، وإلى الله المشتكى!!

(٢) المرجع السابق ص ٦.

(٣) المرجع السابق ص ٦.

ويضره؟. فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء. بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض، ما لم تهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية، وقوة القلب، واعتماده على الله، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة والدعاء والتوبة والاستغفار والإحسان إلى الخلق وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم ـ على اختلاف أديانها ومللها ـ فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء ولا تجربته ولا قياسه)[1]. وهذا باب من الطب النفسي ـ الروحاني الذي عني به ابن القيم وخص به شطر كتابه (الطب النبوي)، ولا نفصل القول فيه لأننا نذير الكلام على التربية البدنية عنده.

و ـ ومن طرق العلاج معالجة المريض بما تشتهيه نفسه، فقد يكون فيه شفاؤه ذكر رحمه الله عيادة رسول الله ﷺ لرجل مريض، يستشهد بهذا على ما ذكر فيقول: (. . . أن النبي ﷺ عاد رجلاً، فقال له: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي خبز برٍ، وفي لفظ أشتهي كعكاً، فقال النبي ﷺ: من كان عنده خبز بر فليبعث إلى أخيه، ثم قال؛ إذا اشتهى مريض أحدكم شيئاً فليطعمه)[2].

ز ـ ومن طرق العلاج التي يذكرها رحمه الله العلاج بأشعة الشمس كما مر بنا وهو يدخل فيما يسمى اليوم بالعلاج الطبيعي.

ح ـ ثم ذكر رحمه الله أنواعاً من العلاج المستعمل في الطب النبوي كالسعوط[3] واللدود[4] ذكر هذا في أثر لابن عباس رضي الله عنهما، جاء

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٤ والحديث رواه ابن ماجه، كتاب الطب باب المريض يشتهي الشيء رقم الحديث ٣٤٣٠، ٢/١١٣٨.

(٣) سعطة: الدواء كمنعه ونصره، وأسعطه إيّاه سعطة واحدة وإسعاطة واحدة، أدخله في أنفه، فاستعط، والسعوط كصبور ذلك الدواء. من القاموس المحيط، الفيروزأبادي مادة سعطه.

(٤) واللدود: كصبور ما يُصَبُّ بالمُسْعُط من الدواء في أحد شقَّي الفَمِ. من القاموس المحيط. الفيروزأبادي. مادة اللديدان.

فيه: (. . . إن خير ما تداويتم به السعوط واللدود والحجامة والمشي)[1].

٣ ـ التربية الرياضية:

حاجة البدن إلى الرياضة:

إذا كان الجسم بحاجة إلى الغذاء في حال الصحة، وبحاجة بجانب ذلك إلى الدواء والعلاج حال المرض، فهو بحاجة إلى الحركة الرياضية، في زمن الصحة وحال المرض، فالحركة تعد علاجاً لبعض الأمراض. يذكر ذلك ابن القيم بقوله: (.. من المعلوم افتقار البدن ـ في بقائه ـ إلى الغذاءوالشراب، ولا يصير الغذاء بجملته جزءاً من البدن، بل لا بد أن يبقى منه عند كل هضم بقية ما. إذا كثرت على مر الزمان اجتمع منها شيء له كمية وكيفية، فيضر بكميته بأن يسد ويثقل البدن، ويوجب أمراض الاحتباس، وإن استفرغ[2] تأذى البدن بالأدوية لأن أكثرها سمية، ولا تخلو من إخراج الصالح المنتفع به. ويضر بكيفيته بأن يسخن بنفسه، أو بالعفن أو يبرد بنفسه، أو يضعف الحرارة الغريزية عن إنضاجه. وسدد الفضلات ـ لا محالة ـ ضارة تركت أو استفرغت، والحركة أقوى الأسباب في منع تولدها، فإنها تسخن الأعضاء، وتسيل فضلاتها، فلا تجتمع على طول الزمان، ويعود البدن الخفة والنشاط، ويجعله قابلاً للغذاء، ويصلب المفاصل، ويقوي الأوتار والرباطات، ويؤمن جميع الأمراض المادية، وأكثر الأمراض المزاجية، إذا استعمل القدر المعتدل منه في وقته)[3].

وابن القيم مع قناعته التامة بفائدة الرياضة، يرى أن الإفراط فيها ومزاولتها قبل انهضام الطعام مضر بالصحة، يقول في ذلك: (. . . ووقت الرياضة بعد انحدار الغذاء وكمال الهضم، والرياضة المعتدلة هي التي تحمر

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ٤١ ورواه الترمذي كتاب الطب باب ما جاء في السعوط وغيره رقم الحديث ٢٠٤٧، ٤/ ٣٨٨.

(٢) بالأدوية.

(٣) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩١، ١٩٢.

فيهـا البشـرة وتـربـو، وينتـدي فيهـا البـدن، وأمـا التي يلزمهـا سيـلان العـرق فمفرطة)[1].

وابن القيم ينظر إلى الريـاضة نـظرة شمولـيـة، فلا يحصـرها في ريـاضة أعضـاء بعينها بل يرى أن لكل عضو من أعضاء البدن رياضة تخصـه، وهناك أنواع من الرياضة يستفيد منها كل البدن، يقول رحمه الله: (وأي عضـو كثرت رياضته قوي، وخصوصاً على نوع تلك الرياضة.. ولكل عضو رياضة تخصه، فللصدر القراءة، فليبتدىء فيها من الخفية إلى الجهر بتدريـج، ورياضـة السمع بسمع الأصوات، والكلام بالتدريج، فينتقـل من الأخف إلى الأثقل، وكـذلك رياضة اللسـان في الكلام، وكـذلك ريـاضة البصـر، وكذلـك رياضـة المشي بالتدريج شيئاً فشيئاً، وأما ركوب الخيل، ورمي النشـاب والصراع، والمسـابقة على الأقـدام فرياضـة للبـدن كله، وهي قـالعـة لأمـراض مـزمنـة كـالجـذام والاستسقاء..)[2].

والـرياضـة عند ابن القيم لا تختص بـأعضاء البـدن فقط، بـل يـرى أن الـروح تحتاج إلى ريـاضة من نـوع خاص، لتسمـو هذه الـروح وتحرص على أعالي الأمور، وهذا المفهوم للتربية من هذا المربيِّ الفاضل صـادر عن إيمانـه بأن الإنسان مركب من عنصرين أساسين هما المادة والروح، يقول رحمه الله، في بيـان رياضـة الأرواح: (... ورياضـة النفوس بـالتعلم والتأدب، والفـرح والسـرور، والصبر والثبـات والإقدام والسمـاح وفعل الخيـر، ونحو ذلـك ممـا ترتاض به النفوس، ومن أعظم رياضتها: الصبر والحب والشجاعة والإحسان، فلا تزال ترتاض بذلك شيئاً فشيئاً حتى تصير لها هـذه الصفات هيئـات راسخة وملكات ثابتة)[3].

ولسنا بسبيل تفصيـل هذا النـوع من الريـاضة الـروحية لأنـا إنما نتنـاول

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩٢.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢.

(٣) المرجع السابق ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

«التربية البدنية»، وكنا تناولنا هذا النوع في التربية الروحية.

من وسائل التربية الرياضية:

لم يفت ابن القيم وهو يعالج أمور الصحة والتربية البدنية أن يلاحظ ما في بعض الشعائر التعبدية، كالصلاة، والصوم، والجهاد والحج - وهي عبادات خالصة لله - من آثار نافعة للجسم.

أ - فهو يقول بشأن الصلاة:

(... ولا ريب أن الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن، وإذابة أخلاطه وفضلاته ما هو من أنفع شيء له، سوى ما فيها من حفظ صحة الإيمان وسعادة الدنيا والآخرة)[1]، وهويفصل القول في هذه الشعيرة من شعائر الإسلام ويبين ما فيها من رياضة للروح والبدن فيقول: (... الصلاة رياضة النفس والبدن جميعاً، إذ كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة من الانتصاب والركوع والسجود والتورك والانتقالات وغيرها من الأوضاع التي يتحرك معها أكثر المفاصل وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة، كالمعدة والأمعاء وسائر آلات النفس والغذاء؛ فما ينكر أن في هذه الحركات تقوية وتحليلاً للمواد ولا سيما بواسطة قوة النفس وانشراحها في الصلاة فتقوى الطبيعة فيندفع الألم)[2]

ب - ويقول بشأن قيام الليل:

(.. وكذلك قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة، ومن أنفع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب..)[3].

ج - وهو يتحدث عن الصوم فيقول:

(.. وفي الصوم الشرعي من أسباب حفظ الصحة، ورياضة البدن

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٦٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٤.

(٣) المرجع السابق ص ١٩٣.

والنفس، ما لا يدفعه صحيح الفطرة)[1].

د ـ ويتحدث عن الجهاد فيقول:

(.. وأما الجهاد وما فيه من الحركات الكلية، التي هي من أعظم أسباب القوة، وحفظ الصحة، وصلابة القلب والبدن، ودفع فضلاتهما، وزوال الهم والغم والحزن، فأمر إنما يعرفه من له منه نصيب)[2].

هـ ـ ويذكر عن الحج والمسابقة والمشي في حوائج الإخوان وإلى المساجد للجمع والجماعات فوائد رياضية فيقول:

(.. وكذلك الحج وفعل المناسك، وكذلك المسابقة على الخيل بالنصال، والمشي في الحوائج وإلى الإخوان، وقضاء حقوقهم وعيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم، والمشي إلى المساجد للجمعات والجماعات، وحركة الوضوء والاغتسال وغير ذلك، وهذا أقل ما فيه الرياضة المعينة على حفظ الصحة ودفع الفضلات)[3].

الألعاب الرياضية:

بعد أن رأينا بجلاء ووضوح ما في الشعائر التعبدية من تربية رياضية لكل من الروح والقلب والبدن، نريد أن نستطلع رأي ابن القيم في وسائل رياضية غير ما ذكر في تلك الشعائر، فهو يرى أن في بعض الألعاب الرياضية تربية للبدن وتقوية له، إلا أنه يصنف هذه الألعاب حسب فهمه الذي استمده من الشريعة الإسلامية إلى أصناف ثلاثة، فصنف يرى أنه مباح بعوض وبغير عوض وصنف ثان يرى إباحته لكن بدون عوض، وصنف ثالث لا يرى إباحته إطلاقاً، لا بعوض ولا بغير عوض، يقول رحمه الله موضحاً هذا التفصيل: (... إن المغالبات ثلاثة أقسام: محبوب مرضي لله ورسوله ﷺ ـ كالسباق

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩٣.

(٢) المرجع السابق ١٩٣.

(٣) المرجع السابق ص ١٩٣.

بالخيل، والإبـل، والرمي بـالنشاب. وقسم مبغـوض مسخوط لله ورسـوله ﷺ مـوصل إلى مـا يكرهـه الله ورسولـه ﷺ كسائـر المغالبـات التي توقـع العداوة والبغضاء، وتصد عن ذكر الله، وعن الصلاة، كـالنرد والشـطرنج ومـا أشبهها، وقسم ليس بمحبوب لله ولا مسخوط له، بل هو مباح لعدم المضرة الـراجحة، كالسباق على الأقدام والسباحة وشيل الأحجار والصراع ونحو ذلك)[1]، فالنوع الأول محبوب إلى الله لأنه وسيلة إلى غاية سامية، فهو تدريب على الجهاد في سبيل الله، والنوع الثاني مبغوض إلى الله، لأنه سبب في ضياع الـوقت وفوات الحقـوق والواجبـات، وسبب للعداوة بين النـاس، لذا فهـو محـرم لا يصـح، والنوع الثالث مباح؛ لأن فيه تقوية للبدن وراحة للنفس وانشراحاً للصـدر، مع عدم وجود مضرة فيه.

وهذا يدل على أن ابن القيم قد قعد الرياضة بقواعد الإسلام، وأحـاطها بإطار من الشرع، بما ألمح من أن الألعاب الرياضية ليست غايـة في ذاتها بـل هي وسيلة إلى طـاعة الله عـز وجل، وبمـا أوضحه من أن الـرياضـة لا تكـون مباحة إلا أذا خلت من الإضرار بالغير، أما إذا أضـرت بأحـد فلا تكـون حينئذ مباحة بوجه من الوجوه.

وابن القيم يرى أن المال الذي يأخـذه الإنسان، لا يكـون حلالاً إلا إذا أخذه من وجه شرعي مباح، فالمال الذي يأتي عن طريق المغالبـات الريـاضية لا يكـون مباحـاً إلا إذا كانت تلك الـرياضـة معينة على الجهـاد في سبيـل الله كسبـاق الخيل والـرمي وما شـابه ذلـك، يقول رحمـه الله: (... والأصل في المال أن لا يؤكل إلا بالحق، وأن لا يؤكل بالباطل، وهو مـا لا منفعة فيـه... وكل مغالبة يستعان بها على الجهاد تجوز بالعـوض بخلاف المغـالبات التي لا ينصـر الدين بهـا، كنقار الـديوك، ونـطاح الكباش، والسبـاحة، والصنـاعـات المباحة)[2]. وفي هذا الكلام دليل على أن احتراف أنواع الريـاضة المبـاحة،

(1) الفروسية، ابن القيم ص ٨٣، ٨٤.

(2) الفروسية، ابن القيم ص ٤٩، ٥٠.

وجعلها مصدراً للرزق والكسب، وقصر النفس عليها أمر غير مباح في نظر ابن القيم. وهذا: (ليس لأن في العمل مفسدة في نفسه وهو حرام بل لأن تجويز أكل المال به ذريعة إلى اشتغال النفوس به، واتخاذه مكسباً، لا سيما وهو من اللهو واللعب الخفيف على النفوس، فتشتد رغبتها فيه من الوجهين، فأبيح في نفسه؛ لأنه إعانة وإجمام للنفس وراحة لها، وحرم أكل المال به لئلا يتخذ عادة وصناعة ومتجراً) [1]، فهو رحمه الله يرى إباحة الترويح عن النفس باللعب البريء الذي لا ضرر فيه على أحد من باب إجمام النفس وإدخال الفرحة والسرور اليها، لكنه لا يرى اتخاذ ذلك حرفة ومهنة وغاية، وهو محق في هذا، لأن المسلم خلق لغاية وأنيطت به مسؤولية وهو من أمة مسلمة صاحبة رسالة مجاهدة في سبيل الله، والأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد في الأمور والحزم في المواقف، فهي لم توجد لتلهو وتلعب وتضيع الأوقات وتهدر الأموال وتبدد الجهود، بل هي أمة دعوة وحاملة رسالة وداعية إلى الهدى والنور، فمزاولتها لبعض الألعاب الرياضية المباحة والمشروعة القصد منها تقوية الأبدان والترويح عن النفوس.

والملاحظة أن ابن القيم عدّ السباحة من أنواع الرياضة التي لا يصح أخذ العوض عليها، فمعنى هذا أنها لا تكون عوناً على الجهاد ولا ينصر بها الدين وهذا غير مسلم، لأنه ورد في الأثر عن عمر رضي الله عنه قوله: «... علموا أبناءكم الرماية والسباحة ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً»، وهذا لأهميتها واتخاذها وسيلة تعين على الجهاد في سبيل الله، وما يؤكد هذا أن الأساطيل البحرية أصبحت في العصر الحاضر ذات أثر فعال في الحروب، وكذلك الزوارق البحرية، والضفادع البشرية إلى غير ذلك، فالسباحة إذاً يستفاد منها في الجهاد، وينصر بها الدين، فلا بأس بأخذ العوض عليها كالرماية وركوب الخيل، على القاعدة التي ذكرها ابن القيم.

---

(١) الفروسية. ابن القيم ٨٥ ـ ٨٦.

وابن القيم يرى أن الرياضة المباحة أذا خلصت فيها النية فإنها تكون عبادة وعملاً صالحاً، يقول رحمه الله: (... الصراع والعدو والسباحة وشيل الأثقال ونحوها فهذا القسم رخص فيه الشارع بلا عوض، إذ فيه مصلحة راجحة وللنفس فيه استراحة وإجمام، وقد يكون مع القصد الصالح عملاً صالحاً كسائر المباحات التي تصير بالنية طاعات) [١]، وإذا أباح الشرع هذه الأنواع وغيرها من أنواع الرياضة فإنه لم يجعلها غاية في ذاتها، كما أنه يحرمها إذا كانت سبباً في الإصرار بالغير، أما ما نشاهده اليوم من جنون الكرة، وهوس الرياضة فأمر لا يقره الشرع؛ لأن فيه إهداراً لطاقة الأمة، المتمثلة في ثروتها البشرية، وعماد قوتها، ألا وهم الشباب، الذين استهوتهم الرياضة اليوم فأصبحوا لا يفكرون إلا فيها، ولا يعجبون ألا بلاعبيها، فإلى الغيورين على مستقبل هذه الأمة نسدي النصح والإرشاد بإيقاف هذا التيار الجارف، وهذا الهوس المحموم الذي يصح أن يسمى جنون الكرة، فلتتوجه الطاقات إلى الجوانب المفيدة من الأنشطة الثقافية والفكرية، والبناء الإيماني، مع إعطاء قدر معقول من الرياضة البدنية المباحة، حتى ينشأ جيل قوي الإيمان، سليم الجسم، واضح الفكر. نقي السريرة، يعرف دوره في الوجود، ومسؤوليته في الحياة.

التشجيع الرياضي:

إذا كان ابن القيم يشير إلى أن الإسلام أباح أنواعاً من اللعب والرياضة، فإنه يرى أن التشجيع الرياضي ـ إن صح التعبير ـ لا بأس به في هذه الألعاب من قبل ولي الأمر. ويستشهد على ذلك بحديث في السنن جاء فيه: (عن عقبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه المحتسب في عمله الخير، والرامي به، والممد به (*)») [٢]، وفي

---

(١) الفروسية، ابن القيم ص ٣٣.

(*) انظر من خلال هذا الحديث ـ إلى عظمة الاسلام في تشجيع أمته على صناعة الأسلحة والذخيرة.

(٢) الفروسية، ابن القيم ص ١٤، الحديث رواه أحمد في المسند ٤/١٤٤. مع تغيير في بعض ألفاظه

هذا الحديث تشجيع لمزاولة الرمي الذي يعد من أفضل ألوان الرياضة، حيث جعل ثواب الرامي بسهم واحد دخول الجنة، وهذا أعظم تشجيع. ثم استشهد ابن القيم بموقف رسول الله ﷺ من طائفتين من أصحابه كانوا ينتضلون وتشجيعه لهم، استشهد رحمه الله بهذا على جواز التشجيع لألوان من الرياضة المباحة، قال ﷺ: «... ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً ارموا وأنا مع بني فلان»، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال: «مالكم لا ترمون؟» فقالوا: كيف نرمي، وأنت معهم. ؟ فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم» [(1)]، كما أورد بعض الآثار التي تدل على تشجيع السلف لبعض ألوان من الرياضة، منها ما رواه عن مصعب بن سعد، قال: (... كان سعد يقول: أي بني تعلموا الرماية فإنها خير لعبكم، ذكره الطبراني في كتاب فضل الرمي) [(2)]، وما رواه عن أبي أمامة سهل بن حنيف: (... قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح: أن علموا غلمانكم العوم، ومقاتلتكم الرمي...) [(3)]، وإذا كان في هذا دليل على اهتمام الولاة ببعض ألوان الرياضة وتشجيعهم لها، إلا أن المبالغة في التشجيع وصرف الأموال الطائلة على الرياضة وإضاعة الجهود فيها، وإهدار الوقت الطويل في مشاهدتها أمر لا يقره الشرع؛ فما نشاهده اليوم من تشجيع الرياضة والرياضيين خارج عن التشجيع المباح الذي ذكرناه [(4)]

(1) الفروسية. ابن القيم ص ١٤ والحديث رواه أحمد في المسند ٤/٥٠. مع التغيير في بعض ألفاظه.

(2) المرجع السابق ص ١٤.

(3) المرجع السابق ص ١٤.

(4) أعجبتني كلمة قصيرة في مجلة اليمامة عدد ٨٢٥ الأربعاء ٢٩ محرم ١٤٠٥ هـ في ص ٦٨ بعنوان «أمجاد يا عرب أمجاد» جاء فيها: (الحمد لله الذي هدى البشرية إلى اختراع الفديو لنتمكن من تسجيل أمجادنا العربية قبل أن يطويها الزمن ولتبقى حية تشاهدها الأجيال المتعاقبة. وأولى هذه الأمجاد هو «الخطيب» لاعب الكرة في النادي الأهلي المصري الذي يتداول الشباب والصغار فيلم حياته، بإجلال وافتخار، ونرى في هذا الفيلم الوالدين اللذين أنجبا هذا الشبل، والمدارس التي درس فيها، وأحذيته وطبقه المفضل.... وأدهى من هذا كله مشهد الخطيب وهو يتلوى على أرض الملعب بالحركة البطيئة والموسيقى الجنائزية تصدع في الخلف، والمعلق يقول: بصوت رخيم، يقطر حزناً ومرارة يسكر القلوب الصدئة، والطرية =

من آداب التربية الرياضية:

بعد أن عرفنا ما عرضه ابن القيم في جواز الترويح عن النفس وإدخال الفرح والسرور عليها، وإذهاب الهم والغم عنها. بمزاولة بعض الألعاب الرياضية أو مشاهدتها وتشجيعها، نريد أن نعرف الآداب العامة التي لو طبقت لأدت الرياضة أغراضاً نبيلة وحققت أهدافاً سامية، وكانت سبباً في إشاعة روح الأخوة والمحبة بين الرياضيين، وهذه الآدآب لو خلت الرياضة منها لانقلب الحكم فيها من الإباحة إلى التحريم، لأنها تكون حينئذ مدخلاً لارتكاب المنهى عنه، ولقد أشار ابن القيم إلى بعض الآدآب التي يجب أن يكون عليها الرياضي المسلم إن صح هذا التعبير. بحيث يكون دائم الذكر لله، كامل الطهارة، تعلوه السكينة والوقار، متحلياً بالآداب الفاضلة والشيم الجميلة، وإذا وصل مكان السباق أو الملعب صلى ركعتين تيمناً وطلباً للنجاح. وسأل الله التوفيق وعليه أن يتحلى بالأخلاق الإسلامية مع خصمه فلا يبكته ولا يضحك عليه، ولا ينظر إليه نظرات ازدراء وتهكم وعليه أن يستفيد من أخطائه ويصلح من شأنه، ويحمد الله في حال الإصابة وأن لا يفعل ما يشغل خصمه أو يبرد عزيمته، إلى غير ذلك من الآداب العامه التي ذكرها رحمه الله بقوله (... ولا يعد رواحه لهواً باطلاً، ولعباً ضائعاً، بل هو كالرواح إلى تعلم العلم، فيذهب على وضوء، ذاكراً الله عز وجل، عامداً إلى روضة من رياض الجنة، وعليه السكينة والوقار، فإذا وصل إلى الموضع، دخل بأدب وسلم، ووضع سلاحه، وحسن أن يصلي ركعتين وليست بتحية البقعة ولكنها مفتاح للنجاح والإصابة، فالأمور إذا افتتحت بالصلاة كانت جديرة بالنجاح، ثم يدعو ويسأل الله التوفيق والسداد) [1]، وقال في مكان آخر: (... فإذا رمى رسيله [2] لم يبكته على

= معاً: هل هي ضريبة الشهرة يدفعها الخطيب أم أنه قدر كتب عليه أن يواجهه، وكان الخطيب بطل يسقط صريعاً في ساحة الشهادة، أو فدائي في جنوب لبنان تلوك مجنزرةٌ أحشاءه ويموت رواد الفكر والفن والأدب دون حتى شريط كاسيت، وغداً بإذن الله نجد أفلاماً عن حياة (طليفيح بطل الطفحيط).

(١) الفروسية، ابن القيم ص ١٤٨.

(٢) (... ورسيل) الرجل الذي يراسله في نضال أو غيره. ا هـ. من مختار الصحاح، الرازي - مادة رسل.

خطأ ولم يضحك عليه. . . فإن هذا فعل السفل، وقل أن أفلح من اتصف به، ومن بكت بكت بـه، ومن ضحك على النـاس ضحك عليـه، ومن عيّـر أخـاه بعمل ابتلي به ولا بد، ولا يحسده على إصابته، ولا يصغرها في قلبه ويقول: رمية من غير رام، ونحو هذا الكلام، ولا يحسن أن يحد النظر إلى رسيله حال رميه، فإن ذلك يشغله، ويشوش عليه قلبه وجمعيته. وينبغي للرماة أن يخرجوا هذا من بينهم، فإن ضرره يعود عليهم) [1]، ما أعظم هذه الآداب التي يذكرها هذا المربِّي الفذ عليه رحمة الله، فلو تحلى بها الرياضيـون اليوم لسـاد الوئـام والأخوة، وتفشت فيهم روح المحبة، بدلاً من التناحـر والحقد والبغضـاء التي تنشأ بين الفرق الرياضية ومشجعي الرياضة، والتي نشاهد مـظاهرهـا في شكل فوضى لا نهاية لها.

كما يستطرد رحمـه الله في ذكر هـذه الآداب بقولـه: (. . . فإذا وصلت النوبة إليه، قام وشمر كمه وذيله وسمى الله وأخذ سهامه بيمينه وقوسه بيسـاره، ووقف على مـوقفه بـأدب وسكينة ووقـار وإطراق ولبـاقة وخفـة واسـتمداد ممن الحول والقوة بيده، أن يمده بالقوة والإصـابة. ويجعـل سهامـه بين رجليه. . . فإذا وقع على علة الخطأ تجنبها، وسمى الله عند كل رمية، فإن أصـاب حمـد الله وأثنى عليه) [2].

إن اللعب الـرياضي هـو وسيلة لـطاعـة الله عـز وجـل، وليس من بـاب إضاعة الوقت، والإضرار بالغير وأذية الناس، لذا نلحظ من توجيهاته رحمه الله أن الرياضي يكون ذاكراً لله حامداً لـه مثنياً عليـه تعلوه السكينة والـوقار يستمـد التوفيق من الله؛ فكل هذه الأمور طاعة لله وعبادة له.

وابن القيم ينبه على أن الرياضة المباحة، تصبح مذمـومة إذا كـانت لغير وجه الله عز وجـل، يقول: (. . . إذا أريـد بها الفخـر والعلو في الأرض وظلم الناس كانت مذمومة. . .) [3].

---

(١) الفروسية، ابن القيم ص ١٤٨.
(٢) المرجع السابق ص ١٤٨، ١٤٩.
(٣) المرجع السابق ص ٤٨.

إن ما ذكره ابن القيم من الآداب الرياضية يشيع المحبة بين الرياضيين ويعد الأمة للجهاد ولو تحلى به وامتثله الرياضيون اليوم من الشباب لكان خير عون لهم في الدعوة إلى الدين الحنيف، لأن الدعوة بلسان الحال أقوى من الدعوة بلسان المقال، فما أحرى المسلمين اليوم في الألعاب الرياضية وهم يشاركون دول العالم أن يتخذوا هذه الألعاب وسيلة إلى الدعوة إلى الله وأن يتحلوا بالأخلاق الإسلامية الفاضلة وهم يمارسون ألعابهم الرياضية.

ولا زال ابن القيم يتحفنا بوصاياه القيمة في الآداب الرياضية يقول رحمه الله : (. . . ولو تشاغل عن الرمي لتأنيه وطول بلا حاجة إليه من مسح القوس والوتر ونحو ذلك ليبرد همة صاحبه أو يثنيه عن الوجه الذي أصاب به ويشغله عنه منع من ذلك وطولب بتعجيل الرمي، ولا يدهش بالاستعجال بحيث يمتنع من تحري الإصابة، ويمتنع كل واحد من المناضلين من الكلام الذي يغيظ صاحبه، مثل أن يفتخر ويتبجح بالإصابة، ويعنف صاحبه على الخطأ أو يظهر له الغلبة، ويمنع من ذلك من حضرهم من الأمين والشهود والنظارة) [1]. سبحان الله! كيف لو رأى ابن القيم الجمهور المشجع اليوم؟. وما يفعله من عويل وصياح ونباح يصل بالكثير إلى درجة فقدان الصواب، وحالة الإغماء، ولكن لا غرابة في ذلك من أناس فقدوا معالم التربية الإسلامية في جوانب كثيرة من حياتهم.

إن الآداب التي ذكرها ابن القيم والتي استمدها من منهج الله عز وجل، المتمثل في كتابه وسنة رسوله ﷺ، جديرة بالتطبيق في عالم الرياضة، لتعود فوائدها بالخير العظيم على المجتمعات المسلمة وغير المسلمة على حد سواء، ليعلم الناس جميعاً أن دين الإسلام ينظم حياة الإنسان في حال جده وأوقات لعبه، بل في كل حين من أوقات حياته، فياله من دين لو كان له رجال.

---

(١) الفروسية، ابن القيم ص ١٣٣.

البدء باللعب واختيار المكان:

إن ابن القيم رحمه الله يرى أن الرماة إذا اصطفوا يقدم الفريق الذي يبدأ بأحد طريقين إما بالقرعة، وإما بتقديم من يرشحه مخرج السبق. يقول (... في الموقف واختلافه: إذا اصطفت الرماة... ففيه وجهان: أحدهما يقدم بالقرعة والثاني يقدم من يختاره مخرج السبق أومن له مزية بإخراجه...)[1]

حتى: (... وإن كان الموضع الذي عينه بعضهم خيراً من غيره مثل أن يكون أحد الموقفين مستقبلاً للشمس أو للريح أو نحو ذلك. والموقف الآخر مستدبرهما...)[2].

---

(١) الفروسية، ابن القيم ص ١٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥.

الفصل التاسع

التربية الجنسية

مفهوم التربية الجنسية .

التوعية الجنسية .

مضار الشذوذ الجنسي

وسائل التربية الجنسية :

أ ـ الوسائل الوقائية .

ب ـ الوسائل العلاجية .



التربية الجنسية

مفهوم التربية الجنسية:

إذا كانت التربية الجنسية في رأي بعض الكتاب والباحثين تعني: (إعطاء الطفل الخبرة الصالحة التي تؤهله لحسن التكيف في المواقف الجنسية في مستقبل حياته وحاضره)[1]، فنحن في حديثنا عن هذا الفصل وفي هذا الجانب من جوانب التربية سنتناول إن شاء الله رأي ابن القيم في العلاقة بين الذكر والأنثى بغض النظر عن الطفل أو غير الطفل، لأنه في حديثه عن ذلك يذكر الأمر دون تقييده بمرحلة من مراحل العمر، والملاحظ عليه أنه لايستنكر هذا الميل الفطري الذي جبل عليه كل من الذكر والأنثى؛ لأنه يعلم علم اليقين أن الله هو الذي جبل الانسان على غرائز عدة ومنها غريزة الجنس: التي تعني الاتصال الشهواني بين الذكر والأنثى[2]، والزواج في نظره هو تلبية لهذه الرغبة، وطريق لمشروعية الجماع المباح، والذي وضع في الأصل لمقاصد شريفة ونبيلة يذكرها ابن القيم بقوله: (... فإن الجماع وضع في الأصل لثلاثة أمور هي مقاصده الأصلية، أحدها: حفظ النسل ودوام النوع الإنساني.. والثاني: إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن، والثالث: قضاء الوطر ونيل اللذة والتمتع بالنعمة..)[3].

وبعد أن بين أن حفظ النسل وبقاء النوع الإنساني من مقاصد الجماع،

(١) التربية الجنسية، محمود مهدي الاستانبولي ط ٣، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م المكتب الاسلامي، دمشق ص ١٧.

(٢) انظر المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. جـ ١ مادة (جنس).

(٣) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩٤.

أشـار رحمه الله إلى أن تكـوين الإنسان في مـرحلته الجنينيـة يتم بامتـزاج ماء الـذكر بمـاء الأنثى. فقال: (. . . والـذي دلّ عليـه العقـل والنقـل أن الجنين يخلق من الماءين جميعاً)[1]، وقوله هذا يوافق بعض ما جاء في معنى الآيـة، التي يقول الله فيها: ﴿**إِنَّـا خَلَقنا الإنْسَـان مِنْ نُطفـة أَمْشـاج**[*] **نَبْتَلِيـه فَجَعَلْنَـاه سَمِيعاً بَصيراً**﴾[2].

وابن القيم يذكر ما يروى عن الليث بن سعـد أنه إذا أراد شيئـاً من أهله اختلى في مكـان منعزل، وتهيـأ لذلـك بلبـاس خـاص، يشيـر بـذلـك إلى أن للجماع آداباً منها اتخاذ مكـان خاص، وهـو ما يسمى اليـوم بغرف النـوم، مع اتخاذ ألبسة خاصة بالنوم أيضاً، يعينها العرف السائد في المجتمع، فقال رحمه الله: (. . . وقال عبدالله بن صالح: كان الليث بـن سعد إذا أراد الجمـاع خلا في منزل في داره، ودعا بثوب يقال له: الهركان. وكان يلبسـه إذ ذاك وكان إذا خلا في ذلك المنزل علم أنه يريد أمراً)[3].

وابن القيم يعـرف أن لحسن العـلاقــة بين الـزوجين دوراً في استقــرار الأسرة، فيوصي رحمه الله عند اختيار الزوجة أن تكون بكـراً؛ لأن في زواجها والعلاقة بها من الفوائد النفسية والبدنية وحسن الاستقرار للأسرة. . ما لا يتوفر في زواج الثيب وجمـاعها، فيقـول في ذلك: (وفي جمـاع البكر من الخـاصية وكمال التعلق بينها وبين مجامعها وامتـلاء قلبها من محبتـه وعدم تقسيم هـواها بينه وبين غيره، ما ليس للثيب)[4]، وهذا قاله تقديماً بين يـدي قول النبي ﷺ

---

(1) المنتاح، ابن القيم ١/٢٥٩.

(*) إن كلمة «أمشاج» تعني أكثر من اجتماع الماءين، فالنطفة بتركيبها ليست خلية بسيطة أو عنصراً بسيطاً، بل هي جامعة لعناصر متعددة أشد التعـدد متنوعـة أعظم تنـوع ممهدة ومهيئـة للصفات الوراثية الكثيرة التي يتميز بها المخلوق من حيث هو إنسـان من جهة، ومن حيث يـرث صفات أبويه وأجداده وفق قانون الوراثة أو سنة الوراثة.

(2) سورة الإنسان /٢.

(3) روضة المحبين، ابن القيم ص ٢١٣.

(4) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩٧، ١٩٨.

لجابر بن عبدالله رضي الله عنهما: «هلا تزوجت بكراً..»[1] وهو بهذا يرد زعم من يرى أن جماع الثيب أفضل من جماع البكر، ويغلط أصحاب هذا الرأي بقوله: (... وغلط من قال: من الأطباء أن جماع الثيب أنفع من جماع البكر وأحفظ للصحة، وهذا من القياس الفاسد، حتى ربما حذر منه بعضهم، وهو مخالف لما عليه عقلاء الناس، ولما اتفقت عليه الطبيعة والشريعة)[2] وفي هذا رد على منحرفي الذوق والطبع والأخلاق ممن ينادي اليوم بأن المرأة التي لها تجربة جنسية سابقة مفضلة في الزواج على التي لا تعرف ذلك، فهم بهذا يفتحون باب العشق المحرم، والعلاقة غير الشرعية بين الرجل والمرأة بزعم أن كلًا منهما يختبر طباع الآخر وخلقه، ويشعرون المجتمع أن هذا هو الطريق السوي، مع أنه في الحقيقة مخالف للشرع والطبع والذوق.

وابن القيم يصف أحوال الناس تجاه الميل إلى المرأة والرغبة فيها، فمنهم من إذا امتنعت المرأة وأبت الجماع نفرت نفسه وعاف جماعها، ومنهم من لا يزيده إباؤها إلا رغبة فيها وشوقاً إليها، يقول في ذلك: (... فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب.. فطباع الناس مختلفة في ذلك..)[3].

وابن القيم لاعترافه بالجنس يبين ما في الجماع المباح من حفظ للصحة وسلامة من الأمراض، فينقل لنا رأي الأطباء في ذلك، فيقول: (... وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع من أحمد أسباب حفظ الصحة)[4]، وهذا إذا كان بقدر معقول بعيد عن الإفراط المضر بالصحة، لأن كل شيء يزيد على حده

(١) والحديث ورد في صحيح البخاري بلفظ «.. هلاّ جارية تلاعبها وتلاعبك» كتاب النكاح باب الثيبات ٣/٢٤٠.

(٢) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩٧.

(٣) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٤٨.

(٤) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩٤.

ينقلب إلى ضده. كما يرى ذلك ابن القيم[1]. كما أن من اعترافه أن جعل الصبر عن جماع أهله صبراً مكروهاً، إذا تضرر به أحد الزوجين، أو إذا احتاجت زوجته إلى ذلك ولم يتضرر به فيقول: (. . . وأما الصبر المكروه فله أمثلة، أحدها أن يصبر عن الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه، الثاني: صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به)[2] لأن المعاشرة بين الزوجين حق مشترك، وهي مبنية على القاعدة الشرعية «لا ضرر ولا ضرار»[*] وهذا أكبر اعتراف بغريزة الجنس التي جبل عليها كل من الذكر والأنثى، والتي هي في الأساس للامتزاج والاختلاط بين الجسدين كما يقول ابن القيم: (. . . ركب الله سبحانه شهوة الجماع بين الذكر والأنثى طلباً للامتزاج والاختلاط بين البدنين)[3].

وابن القيم في كلامه على التربية الجنسية يقوم بتوعية جيدة يفيد منها الرجل في المحافظة على صحته، فهو يضع صفات للمرأة التي يضر جماعها، بجملة البدن، وصفات للمرأة التي لا يضر جماعها، فيقول: (. . . وجماع المرأة المحبوبة في النفس يقل إضعافه للبدن مع كثرة استفراغه للمني، وجماع البغيضة يحل البدن ويوهن القوى مع قلة استفراغه)[4].

ويعطي ابن القيم رأياً فقهياً في الاستمناء باليد لمن كان مغلوباً على شهوته ويخاف الضرر على نفسه، فيرى إباحة ذلك فيقول: (وإن كان مغلوباً على شهوته يخاف العنت كالأسير والمسافر والفقير جاز له ذلك)[5] ثم ذكر أن فتواه هذه هي مما: (. . . نص عليه أحمد)[6].

---

(١) انظر مبحث التوعية الجنسية من هذه الرسالة.

(٢) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٢٣.

(*) مسند أحمد ١/٣١٣.

(٣) روضة المحبين، ابن القيم ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٤) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩٨.

(٥) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/٩٦.

(٦) المرجع السابق ٢/٩٦.

وابن القيم يشير إلى أن تمام اللذة بالمرأة في حسن صورتها وحسن عشرتها وأن تكون بكراً، فيقول: (... في سورة الواقعة ﴿عُرُباً﴾ مثقلة(*) واحدها عروب مثل صبور وصبر، يسميها أهل مكة العربة، وأهل المدينة الغنجة، وأهل العراق الشكلة، قلت: فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها وهذا غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن، وفي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ﴾ إعلام بكمال اللذة بهن، فإن لذة الرجل بالمرأة التي لم يطأها سواه، لها فضل على لذته بغيرها، وكذلك هي أيضاً)(١) وهذا فيه تفصيل، لأنه كم من امرأة كانت تحت زوج تعيش معه حياة شقاء وبؤس فإذا بانت منه وخلصت من شره، وتزوجت بآخر تقي صالح شعرت بمعنى السعادة الزوجية ووجدت الشفقة والحنان، وكم من رجل كان يعيش مع امرأة ذربة اللسان تذيقه الخسف والذل، والحقارة والمهانة، مع أنه تزوجها وهو لم يعرف غيرها، وكذلك هي فعندما أصبحت حياته معها جحيماً لا يطاق، وتخلص منها بالطلاق، وبحث عن غيرها، وجد عندها ما كان يفتقده مع الأولى من حب واحترام وتقدير.

وابن القيم يذكر ما في الجماع المباح من فوائد تعود على الرجل وعلى زوجته وعلى المجتمع، من غض البصر، والعفة عن المحرم، وكف النفس، فيقول: (... ومن منافعه غض البصر وكف النفس والقدرة على العفة عن الحرام وتحصيل ذلك للمرأة، فهو ينفع نفسه.. وينفع المرأة..)(٢).

وابن القيم إذا كان في توجيهاته اعتراف بهذه الغريزة، فإنه يرى ترك التكلف فيها وتجنب استدعائها؛ لأن في هذا ضرراً على الصحة، كما أنه من الضرر أيضاً، حرمان النفس منها، عند شدة الرغبة إليها وتوفر الطريق

(*) مثقلة: أي مضمومة الراء، فتح الباري، الطبعة السلفية، ابن حجر، كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة - ٦/٣٢٢، سورة الواقعة /٣٧.

(١) حادي الأرواح، ابن القيم ص ١٦٢، ص ١٦٣، سورةالرحمن /٥٦.

(٢) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٩٥.

المشروع لها، فيقول: (. . . ولا ينبغي أن يستدعي شهوة الجماع ويتكلفها ويحمل نفسه عليها، وليبادر إليه إذا هاجت به كثرة المني واشتد شبقه)[1].

ويذكرنا ابن القيم بالسنة النبوية التي تدعو إلى الاغتسال أو الوضوء عند العود للجماع، لأن هذا أنشط له وأطيب لنفسه وأكمل في النظافة والطهر، وأحفظ للصحة. فيقول: (. . . وفي الغسل والوضوء بعد الوطء من النشاط وطيب النفس وإخلاف بعض ما تحلل بالجماع وكمال الطهر والنظافة واجتماع الحار الغريزي إلى داخل البدن، بعد انتشاره بالجماع وحصول النظافة التي يحبها الله ويبغض خلافها ما هو من حسن التدبير في الجماع وحفظ الصحة والقوى فيه)[2].

ومن رأيه رحمه الله، التقدمة بين يدي الجماع بالمداعبة والملاعبة، لأن في هذا إثارة للغريزة عند كل من الرجل والمرأة وإعداداً للنفوس، فيقول: (. . . ومما ينبغي تقدمه على الجماع ملاعبته المرأة وتقبيلها. . .)[3] ثم يذكر حديثاً عن جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة»[4].

ثم يطالعنا رحمه الله بالحالات التي يتضرر فيها البدن بالجماع، منها ما له علاقة بالمرأة التي يجامعها، فيقول في ذلك محذراً الرجل: (. . . يحذر من جماع العجوز والصغيرة التي لا يوطأ مثلها والتي لا شهوة لها والمريضة، وقبيحة المنظر والبغيضة. فوطء هؤلاء يوهن القوى ويضعف الجماع)[5].

ومنها ما له علاقة بوقت الجماع، فيذكر رحمه الله أنفع الأوقات له، مشيراً إلى أن أسوأ الأوقات في ضدها، يقول رحمه الله (. . . وأنفع أوقاته

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم، ص ١٩٧.
(٢) المرجع السابق ص ١٩٧.
(٣) المرجع السابق ص ١٩٦.
(٤) المرجع السابق ص ١٩٦.
(٥) انظر المرجع السابق ص ١٩٧.

بعد انهضام الغذاء في المعدة، وفي زمان معتدل لا على جوع، فإنه يضعف الحار الغريزي، ولا على شبع فإنه يوجب أمراضاً سددية، ولا على تعب، ولا إثر حمام، ولا استفراغ ولا انفعال نفساني كالغم والهم والحزن. وشدة الفرح، وأجود أوقاته بعد هزيع من الليل، إذا صادف انهضام الطعام، ثم يغتسل أو يتوضأ وينام عقبه. فترجع إليه قواه، وليحذر الحركة والرياضة عقبه، فإنها مضرة جداً)[1].

التوعية الجنسية:

إن الأفكار التي يعرضها ابن القيم في هذا المجال فيها من التوعية والإرشاد ما لو اتبعت لأعطت نتائج طيبة في الصنون والعفة والكرامة والصحة، فهو يبين قيمة المني، الذي يعتبر ماء الحياة، وأنه لا ينبغي إخراجه إلا في طلب الذرية الصالحة، أو عند الضرورة من خوف مرض باحتباسه، فيقول رحمه الله: (. . . وإذا ثبت فضل المني، فاعلم أنه لا ينبغي إخراجه إلا في طلب النسل، أو إخراج المحتقن منه، فإنه إذا دام احتقانه أحدث أمراضاً رديئة منها الوسواس والجنون والصرع)[2].

ثم يبين أنواعاً من الجماع الضار، محذراً منه ومن أضراره، وهذا غاية التوعية حيث يقسم الجماع الضار إلى ضار شرعاً، وضار طبعاً، ثم يتناول تقسيمات كل نوع بالتفصيل والإيضاح، فيقول: (. . . فالضار شرعاً، المحرم، وهو مراتب بعضها أشد من بعض، والتحريم العارض منه أخف من اللازم كتحريم الإحرام والصيام والاعتكاف، وتحريم المظاهر قبل التكفير، وتحريم وطء الحائض ونحو ذلك؛ ولهذا لا حد في هذا الجماع. . . وأما اللازم فنوعان: نوع لا سبيل إلى حله البتة، كذوات المحارم فهذا من أضر الجماع، وهو يوجب القتل حدّاً عند طائفة من العلماء. . . والثاني ما يمكن أن يكون حالاً كالأجنبية، فإن كانت ذات زوج ففي وطئها حقان، حق لله،

---

(١) انظر الطب النبوي، ابن القيم ص ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٤.

وحق للزوج، فإن كانت مكرهة ففيه ثلاثة حقوق، وإن كان لها أهل وأقارب يلحقهم العار بذلك، صار فيها أربعة حقوق، فإن كانت ذات محرم منه صار فيها خمسة حقوق، فمضرة هذا النوع بحسب درجته في التحريم.

وأما الضار طبعاً فنوعان: نوع ضار بكيفيته. . .، ونوع ضار بكميته كالإكثار منه، فإنه يسقط القوة، ويضر بالعصب، ويحدث الرعشة والفالج والتشنج ويضعف البصر وسائر القوى ويطفىء الحرارة الغريزية ويوسع المجاري ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية)[1]، ثم يتعرض رحمه الله إلى ما في جماع الحائض من الضرر، وهو بهذا يوجه إلى الابتعاد عن الجماع مدة الحيض؛ لأنه مضر بالصحة وحرام شرعاً، يقول: (وجماع الحائض حرام طبعاً وشرعاً، فإنه مضر جداً، والأطباء قاطبة تحذر منه)[2].

ومن الأمراض التي يذكرها ابن القيم ما يكون بسبب الإفراط في الجماع كالصداع، فيذكر سبب هذا المرض وأنه: (. . . لتخلل الجسم، فيصل إليه من حر الهواء أكثر من قدره. . .)[3].

مضار الشذوذ الجنسي:

نقصد هنا بالشذوذ الجنسي إتيان الرجل الرجل، أو تيان المرأة في دبرها. وللشذوذ الجنسي في رأي ابن القيم مضار متعددة ومفاسد عظيمة، منها:

١ ـ أنه سبب في نزول العذاب وحلول النقمة، ونزول المقت والغضب من الله، وسبب في شقاوة الدنيا والآخرة، فيقول في ذلك: (. . . ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات. وقد اختلف الناس، هل هو أغلظ عقوبة من الزنا، أو الزنا أغلظ عقوبة منه، أو عقوبتهما سواء على ثلاثة أقوال)[4].

---

(١) الطب النبوي، ابن القيم ص ٢٠٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٨.

(٣) المرجع السابق ص ٦٧، ٦٨.

(٤) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١١٨.

ثم يذكر رحمه الله أن هذه الجريمة كانت سبباً في تدمير أمة من الأمم السابقة وإهلاكها وحصدها بالحجارة وخراب قراها، فقال: واصفاً حالهم: (... أخذهم على غرة وهم نائمون، وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون... ذهبت اللذات وعقبتها الحسرات، وأورثتها الشقوات)[1].

٢ ـ ومن الشذوذ الجنسي إتيان المرأة في دبرها، وفاعل ذلك توعده الله بالعذاب الأليم على لسان رسوله، فعذابه كعذاب من يأتي رجلاً أو صبياً، ولقد أورد ابن القيم في هذا المعنى حديثاً عن رسول الله ﷺ جاء فيه: (من نكح امرأة في دبرها أو رجلاً أو صبياً حشر يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة يتأذى منه الناس حتى يدخل النار، وأحبط الله أجره ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً، ويدخل في تابوت من نارٍ ويسدُّ عليه بمسامير من نار، قال أبو هريرة هذا لمن لم يتب)[2].

وفاعل هذا مستحق للعنة الله، واستشهد ابن القيم على هذا بحديث جاء فيه: (أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من أتى النساء في محاشهن» يعني أدبارهن)[3].

٢ ـ وابن القيم يذكر فظاعة الشذوذ الجنسي، فهو أمر مخالف للطبع والذوق تستبشعه المخلوقات، فالأرض تهتز منه، والملائكة تشكو إلى الله من عظم ما رأت، فيقول: (... تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها

---

(١) الجواب الكافي. ابن القيم ص ١٢٢.

(٢) الطب النبوي، ابن القيم ص ٢٠١، والحديث / قال عنه ابن القيم: (... في مسند الحرث ابن (أبي) أسامة ـ من حديث أبي هريرة ابن عباس..) أ. هـ الطب النبوي، ابن القيم ص ٢٠١.

(٣) المرجع السابق ص ٢٠١، والحديث / يقول فيه ابن القيم: (.. وقال عبدالله بن وهب حدثنا عبدالله (بن) لهيعة عن مشرح بن هاعان عن عقبة بن عامر. أن رسول الله ﷺ قال: «... وذكر الحديث» أ. هـ. من الطب النبوي ص ٢٠١.

وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها، خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم، فتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها)[1].

وسائل التربية الجنسية:

بعد الحديث عن مفهوم التربية الجنسية، وعن التوعية الجنسية التي يراها ابن القيم، وبعد ذكر مضار الشذوذ الجنسي كما جاء في أقوال ابن القيم، نريد في هذا المبحث أن نذكر وسائل التربية الجنسية الوقائية منها والعلاجية كما جاءت عند هذا المربِّي الفاضل:

أ ـ الوسائل الوقائية:

١ ـ يشير ابن القيم إلى مضار الزنا ومفاسده الاجتماعية والخلقية، وقصده من ذلك والله أعلم الوقاية من الوقوع في هذه الجريمة التي تعد من كبائر الذنوب. فيقول: (... ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله ﷺ في سنته)[2]، ثم يستطرد في بيان مفاسد الزنا فيقول: (... فكم في الزنا من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم، ومن خاصيته أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس، ومن

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١١٩.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٥، يشير إلى قوله تعالى: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾ سورة الفرقان /٦٧.

ولعله يشير إلى ما جاء عن عبادة بن الصامت. قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم..» الحديث في صحيح البخاري باب بيعة النساء، ٤/٢٤٧.

خاصيته أيضاً أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان)[1].

٢ ـ لما في اللواط من الخطر الكبير والضرر البالغ، فإن ابن القيم يهتم بالتحذير منه وبيان مضاره ومفاسده الخطيرة، وأضراره البالغة، وأن الأرض تكاد أن تميد من جوانبها بسببه والملائكة تشكو إلى الله من هول ما شاهدت، والجبال تكاد أن تزول من أماكنها، ثم يذكر رحمه الله أن عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات: (... تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليها، وتهرب الملائكة إلى أقطار السماوات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم، وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها)[2]، ويقول أيضاً: (... ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد، كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات)[3].

٣ ـ وإذا كان النظر سهماً من سهام إبليس، وبريداً إلى الزنا، فابن القيم يعرف أن إطلاقه خطر على صاحبه؛ لذا يحذر من إرساله وإطلاقه في المحرمات، ويوصي بكفه، فيقول: (... وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدأها من النظر، كما أن معظم النار مبدأها من مستصغر الشرر)[4].

ولا يكتفي ابن القيم من الوصية بكف الطرف عن المحرم بل يعدد الفوائد التي يجنيها العبد من غض طرفه وكف بصره عن الحرام، فيقول: (في

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١١٤.

(٢) المرجع السابق ص ١١٩.

(٣) المرجع السابق ص ١١٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٠٦.

غض البصر عدة منافع)[1]، ثم يعددها في الآتي:

فوائد غض البصر:

أ ـ أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية السعادة للعبد في معاشه ومعاده.

ب ـ أنه يمنع وصول أثر السم الذي لعله فيه هلاكه.

ج ـ أنه يورث القلب أنساً بالله.

د ـ أنه يقوى القلب ويفرحه.

هـ ـ أنه يورث القلب نوراً.

و ـ أنه يورث الفراسة الصادقة التي تميز بين الحق والباطل والصدق والكذب.

ز ـ أنه يورث ثباتاً وشجاعة.

ح ـ أنه يسد على الشيطان المداخل إلى القلب.

ط ـ أنه يفرغ القلب للتفكر في مصالحه.

ي ـ أن بين العين والقلب منفذاً يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر وأنه يصلح بصلاحه ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر وإذا فسد النظر فسد القلب)[2].

٤ ـ وابن القيم يرى أن شعور العبد بمراقبة الله له، ومشاهدته إياه من الوسائل الجيدة التي تحفظه من إطلاق النظر في الحرام، فيقول: (... وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)[3].

٥ ـ يوصي ابن القيم الإنسان بحفظ نظره وفكره ونطقه وخطواته من إرسالها فيما حرم الله، وأن يكون حارساً عليها، ومراقباً لها، دقيقاً في هذه المراقبة، حتى يسلم له دينه، وتحفظ له أخلاقه؛ لأنه يرى أن هذه الأمور

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٢٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٣) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٠٥.

الأربعة يتلو بعضها بعْضاً. فيقول: (... ثم تكـون نظرة، ثم تـكـون خطرة، ثم تكون خطوة، ثم خـطيئة، ولهـذا قيل: من حفظ هـذه الأربعة أحـرز دينه، اللحظات، والخطرات، واللفظات والخطوات، فينبغي للعبـد أن يكون بـواب نفسه على هذه الأبـواب الأربعة، ويـلازم الربـاط على ثغورهـا، فمنها يـدخل عليه العدو)[1].

٦ ـ وإذا كـان يـوصي بحفظ اللسـان وعـدم التكلم إلا بمـا فيـه الخيـر والصـلاح، فإنـه يـذكـر كيفيـة حفظ اللسـان، وأن يـزن المتكلم الكلمـة قبـل التحدث بها، للتعرف على النتائج المترتبة عليها، لمعرفـة الربـح من الخسارة من هـذه الكلمة، فيقـول: (... وأما اللفـظات فحفظهـا بأن لا يخـرج لفـظة ضائعة، بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيـه الربـح والزيـادة في دينه، فـإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر هل فيها ربح أو فائدة أم لا؟ فـإن لم يكن فيها ربـح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر هل تفوته بها كلمة هي أربـح منها، فـلا يضيعها بهذه)[2].

٧ ـ إذا كـان يـوصي كـذلـك بحفظ الخـطوات من أن تسيـر في طـريق معصيـة الله، ويحـذر من ذلـك أشـد التحـذيـر، فـإنـه يبين كيف تحفظ هـذه الخطوات، فيقول: (.. وأمـا الخطوات فحفـظها بـأن لا ينقل قـدمه إلا فيمـا يرجو ثوابه عند الله تعالى، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعـود عنها خيـر له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة يتقرب بها، وينويهـا لله، فتقع خطاه قربة، وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات)[3].

٨ ـ وإذا كان من وصاياه حفظ خطرات العبد، وعدم التفكيـر في معصية الله، ولمعرفته بأن القلب الفارغ مأوى للشيطان، فإنه يذكر كيفيـة حفظ القلب من التفكيـر في المعصية بقـولـه: (... إشـغال القلب بمـا يصـده عن ذلـك

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٠٥، ١٠٦.

(٢) المرجع السابق ص ١١٠ ـ ١١١.

(٣) المرجع السابق ص ١١٣.

ويحول بينه وبين الوقوع فيه، وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب، أو محبة ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب لم يجد بداً من عشق الصور وشرح هذا أن النفس لا تترك محبوباً إلّا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدا، أو أحد منهما لم ينتفع بنفسه، أحدهما بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه. والثاني: قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك. . .)[1].

٩ ـ وإذا كانت النفس الأمارة بالسوء هي التي تقود العبد إلى ارتكاب المحرم وتؤزه إليه أزاً، فإن ابن القيم يدعو إلى مخالفتها، ويبين أن النصر عليها بتقوى الله عز وجل والثبات والصبر والمصابرة والمرابطة على ذلك. فيقول: (. . . والنصر مع الصبر ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله، فله العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدل أبداً أن العاقبة للتقوى والعاقبة للمتقين)[2].

١٠ ـ ومن الطرق الوقائية والوسائل الجيدة في الحفظ من ارتكاب المحرم ما يوصي به ابن القيم ولي أمر الطفل ومربيه وهو عدم تمكينه من شهواته، لا سيما شهوتي الفرج والبطن، فيقول: (. . . ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب، فإن تمكينه من أسبابها والفسح فيها يفسده فساداً يعز عليه بعده صلاح، وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه وإعانته له على شهواته)[3].

١١ ـ وإذا كان الفراغ وعدم استغلال الوقت سبباً للفساد، فإن ابن القيم

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٢٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٣) التحفة، ابن القيم ص ٢٤٢.

يوصي ولي أمر الطفل بإبعاده عن الكسل والبطالة، وفي هذا شغل لوقته بكل ما هو مفيد، وعدم جعله نهباً للفراغ القاتل، والبطالة المميتة. فيقول: (... ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة، بل يأخذه بأضدادها، ولا يريحه إلا بما يجم نفسه وبدنه للشغل، فإن للكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم وللجد والتعب عواقب حميدة إما في الدنيا وإما في العقبى، وإما فيهما...)[1].

١٢ ـ ومن الطرق الوقائية والوسائل المفيدة في الحفظ من الانجراف في المعصية ما ينادي به ابن القيم من تحذير ولي أمر الطفل من تمكينه غشيان أماكن اللهو والباطل، وعدم السماح له بسماع الغناء ومنطق السوء. فيقول: (... وكذلك يجب أن يجنب الصبي إذا عقل: مجالس اللهو والباطل، والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه)[2].

١٣ ـ تنمية الجانب الإيماني لدى المربَّى، وتعويده مزاولة أنواع من نوافل العبادات لا سيما قيام الليل، فابن القيم يوصي ولي أمر الطفل أن يعوده على ذلك؛ لأن العبادة تكون بمثابة الدرع الواقي للإنسان من المعصية، فالصلاة يقول سبحانه عنها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[3]، وابن القيم يوصي مربِّي الطفل أن: (... يعوده الانتباه آخر الليل؛ فإنه وقت قسم الغنائم وتفريق الجوائز فمستقل ومستكثر ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيراً سهل عليه كبيراً)[4].

١٤ ـ عدم إثارة الناشئ جنسياً، وعدم تمكينه من مشاهدة أي شيء يثيره: من منظر أو هيئة أو عملية جنسية، فابن القيم يرى أن على الأبوين

---

(١) التحفة، ابن القيم ص ٢٤١.
(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠.
(٣) سورة العنكبوت / ٤٥.
(٤) التحفة، ابن القيم ص ٢٤١.

الاستتار حال الوقاع حتى لا تقع عين أحد من الأطفال أو أفراد الأسرة عليهما، فيذكر عن الليث بن سعد أنه: (. . . إذا أراد الجماع خلا في منزل في داره. . .)[1].

١٥ ـ وابن القيم يحذر كل التحذير من الخلطة السيئة؛ لأن لها دوراً خطيراً في انحراف الناشئ، لأن الجليس السوء كنافخ الكير كما جاء عن رسول الله ﷺ(*) ففي تحذيره رحمه الله يوجه القول لولي أمره، أن يجنبه: (. . . عشرة من يخشى فساده أو كلامه له. .)[2].

١٦ ـ وإذا كانت الخمر أم الخبائث ومجمع الذنوب، فإن ابن القيم يحذر ولي أمر الطفل من تمكينه من ذلك، فيقول: (. . . والحذر كل الحذر من تمكينه من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره)[3] لأن من يفقد عقله لا يؤمن منه أن يرتكب جميع المنكرات بما في ذلك الزنا وقتل النفس، ويوضح ذلك قصة الرجل العابد من بني إسرائيل الذي دعته امرأة بحجة أنها تريد استشهاده على أمر، فعندما حضر، وأغلقت الأبواب، ودعته إلى فعل واحد من أمور ثلاثة، شرب كوب من الخمر، أو الزنا بها، أو قتل طفل بين يديها، ولقد حاول الفكاك من هذا الموقف الخطير، لكنها هددته بالفضيحة على رؤوس الأشهاد، وبعد أن فكر في أنواع الجرائم الثلاث، استخف منها شرب الخمر، فشربها فزال عقله، فوقع على المرأة وقتل الصبي، وهذه القصة ليست عن أفكارنا ببعيد.

١٧ ـ حماية الناشئ من كل ما يخنث طبعه، وما يكون سبباً في ميوعته وأنوثته وما يفقده صفة الرجولة؛ لأن هذا يجعله قابلاً للسير في طريق الانحراف أو الشذوذ؛ لذا فابن القيم يوصي ولي أمره أن (. . . يجنبه لبس

---

(١) روضة المحبين، ابن القيم ص ٢١٣.

(*) الحديث صحيح رواه (ق) عن أبي موسى، صحيح الجامع، الألباني ٢/ ٢٩ رقم ٢٣٦٤.

(٢) التحفة، ابن القيم ص ٢٤٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٢.

الحرير، فإنه مفسد له ومخنث لطبيعته، كما يجنبه اللواط وشرب الخمر..)[1].

ب ـ الوسائل العلاجية:

هناك تشابه كبير بين الوسائل العلاجية والوسائل الوقائية عند ابن القيم، لكننا سنذكر بعض الوسائل العلاجية التي يراها، والتي لم يسبق ذكرها ضمن الوسائل الوقائية فإذا كان للشهوة بواعث تحرك النفس وتؤزها أزاً إلى التفكير بما هنالك، فهو يصف قوة باعث الشهوة ودوره في صرف التفكير عما ينفعه في دينه ودنياه فيقول: (... فإذا قوي باعث الشهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه أو يملكه ولكن لا يملك طرفه، أو يملكه، ولكن لا يملك قلبه، بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكر بما ينفعه في دنياه وآخرته فإذا عزم على التداوي ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولاً بأمور:)[2]، ثم يشرع في ذكر أنواع العلاج فيقول:

١ ـ أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة فيجدها في الأغذية المحركة للشهوة، إما بنوعها أو بكميتها وكثرتها ليحسم هذه المادة بتقليلها، فإن لم تنحسم فليبادر إلى الصوم فإنه يضعف مجاري الشهوة ويكسر حدتها، ولاسيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلاً.

٢ ـ أن يجتنب محرك الطلب وهو النظر فليقصر لجام طرفه.

٣ ـ تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففيما إباحه الله سبحانه غنية عنه وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس كما أرشد إليه النبي ﷺ، فالدواء الأول يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح، وعن الكلب الضاري لإضعاف قوتهما، والدواء الثاني يشبه تغييب اللحم عن الكلب والشعير عن البهيمة لئلا تتحرك قوتهما له عند المشاهدة، والدواء

---

(١) التحفة، ابن القيم ص ٢٤٣.

(٢) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٤٢.

الثالث يشبه إعطاءهما من الغذاء ما يميل إليه طبعهما بحسب الحاجة لتبقى معه القوة فتطيع صاحبها ولا تغلب بإعطائها الزيادة على ذلك. . .)[1].

٤ ـ التفكير في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر. . .

٥ ـ التفكر في مقابح الصورة التي تدعوه نفسه إليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره، فيعز نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب. . ومن له أدنى مروءة ونخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه. .)[2].

بعد أن ذكر ابن القيم أنواعاً من الدواء معينة على حماية الإنسان من الانجراف في الحرام ذكر لنا نوعاً هاماً من الدواء وهو المتعلق بحماية القلب وسلامته من مجرد التفكير في الحرام. يقول رحمه الله (. . . ودواء هذا الداء القتال أن يعرف إنما ابتلي به من الداء المضاد للتوحيد أولاً ثم يأتي من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه، وأن يرجع بقلبه إليه، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله، وهو الدواء الذي ذكره الله في كتابه حيث قال: **﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾** فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه فإن القلب إذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور، فإنه إنما تمكن من قلب فارغ)[3].

وابن القيم رحمه الله يؤكد أن تقوية باعث الدين من أنجع الوسائل في معالجة النفس وكفها عن المحرم. وتقوية باعث الدين في أمور منها:

تقوية باعث الدين في:

١ ـ إجلال الله تبارك تعالى أن يُعصى وهو يرى ويسمع.

---

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٤٢، ٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٣.

(٣) الجواب الكافي، ابن القيم ص ١٥٠ ـ ١٥١، سورة يوسف /٢٤.

٢ ـ مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له . .

٣ ـ مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه .

٤ ـ مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب تعالى : إذا تمادى العبد في معصيته غضب؛ وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء . . .

٥ ـ مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة . .

٦ ـ مشهد القهر والظفر، فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرةوفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين . .

٧ ـ مشهد العوض وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها، وليوازن بين العوض والمعوض فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه . .

٨ ـ مشهد المعية وهو نوعان معية عامة ومعية خاصة . . .[1].

٩ ـ مشهد المغافصة(*) والمعاجلة، وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غرة فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة . .

١٠ ـ مشهد البلاء والعافية فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها .

(والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها . . . .)[2]، إلى غير ذلك من المشاهد التي يذكرها رحمه الله، ويوصلها إلى عشرين مشهداً، فمن أراد الزيادة والتوسع فليرجع إليها في كتاب عدة الصابرين .

---

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(*) غافصه : أخذه على غرة . مختار الصحاح، الرازي، مادة (غفص) .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .



الباب الرّابع

التوجيهات التربوية العامة لنجاح التربية عند ابن القيم

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: المحتوى العلمي والمعرفي.

الفصل الثاني: عوامل النجاح في تقديم المحتوى وتلقيه

الفصل الثالث: توجيه المؤسسات التربوية



إننا في هذا الباب سنتحدث عن التوجيهات التربوية العامة لنجاح التربية عند ابن القيم.

نتحدث عن المحتوى العلمي والمعرفي في الفصل الأول. وفي الفصل الثاني نذكر عوامل النجاح في تقديم هذا المحتوى وتلقيه. أما الفصل الثالث فنبين توجيه ابن القيم رحمه الله للمؤسسات التربوية.

فمن الله نستمد التوفيق والسداد.



الفصل الأول

المحتوى العلمي والمعرفي عند ابن القيم

تمهيـد:

أ ـ أهمية العلم والمعرفة.

أولاً: بيان شرف العلم.

ثانياً: ذم الجهل.

ثالثاً: حاجة الفرد إلى العلم.

رابعاً: حاجة المجتمع إلى العلم.

نوع العلم الذي يدعو إليه ابن القيم.

ذم التقليد.

ب ـ مفهوم المعرفة البشرية ومراتب فضلها.

جـ ـ مصادر المعرفة البشرية وأدوات اكتسابها.

د ـ أنواع المعرفة البشرية وتفاوت فضلها.

هـ ـ تكامل العلوم الشرعية والعقلية.

و ـ تنقية المعرفة من الأوهام.



المحتوى العلمي والمعرفي عند ابن القيم

تمهيد:

بعد أن عرفنا رأي ابن القيم في طبيعة الإنسان، وفي تحديد هُوية الإنسان الأمثل، الذي تحرص التربية على تنشئته ورعايته، وبعد أن اتضح لنا مفهوم التربية التي توجد هذا الإنسان وتصوغه، فَعُرِفَتْ غايتُها، وحُدِّدت أهدافُها واتَضَحَتْ وسائِلُها وحُصِرَتْ جوانبُها، بعد هذا كله نريد أن نعرف في هذا الفصل رأيه رحمه الله في المحتوى العلمي والمعرفي الذي يقدم لهذه التربية كي تحقق غايتها وأهدافها، ولذا سنتناول في هذا الفصل بيان أهمية العلم والمعرفة وحاجة الفرد والمجتمع إليه، ومفهوم المعرفة البشرية وأنواعها ومراتب فضلها ومصادرها، حسب ما جاء في الفكر التربوي لابن القيم.

أ ـ أهمية العلم والمعرفة:

سنذكر في هذا المبحث الأدلة من كلام ابن القيم على أهمية العلم والمعرفة فنذكر إشادته بشرف العلم، وذم الجهل، وحاجة الفرد والمجتمع إلى العلم، ونشير إلى نوع العلم الذي ينادي به، ونوضح بشيء من الإيجاز دعوته إلى تحرير العقول والأفكار من أسر الجمود والتقليد لما لهما من أثر ضار على تحصيل العلم والحياة العلمية.

إن اهتمام ابن القيم بالعلم والمعرفة نابع عن إيمانه بأن السعادة والفلاح للفرد وصلاح المجتمع وتقدمه لا تكون إلّا بالعلم والمعرفة، وهذا سبق منه رحمه الله للفكر الحديث الذي يؤمن بأهمية العلم والمعرفة في تقدم المجتمعات وبناء حضارتها، ولا غرابة في ذلك فهو يستقي فكره من منابع

الإسلام الصافية: من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: (. . . فإن الإسلام بتعاليمه الخالدة. . . كان له فضل السبق في تأكيد أهمية المعرفة والعلم وبيان فضلهما والدعوة إلى طلبهما من المهد إلى اللحد)[1].

ويجدر بنا الآن أن نقتبس من أقوال ابن القيم بعض الأدلة التي تبين أهمية العلم والمعرفة عنده.

أولاً ـ بيان شرف العلم:

لقد أورد ابن القيم في كتاب «المفتاح» أكثر من مائة وخمسين وجهاً في شرف العلم، ونحن نختار بعض هذه الوجوه التي تبرز فضل العلم وشرفه، منها:

١ ـ أنه سبب في شرف الإنسان وتفضيله على غيره من المخلوقات. يقول رحمه الله: (. . . العلم أشرف ما في الإنسان. . وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم)[2].

٢ ـ وأن منزلته من الإيمان كمنزلة الروح من الجسد. يقول رحمه الله: (. . . فإذاً العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد)[3].

٣ ـ وأنه سبب في استغفار جميع المخلوقات لحامله، ذكر ابن القيم هذا عند شرحه لحديث أبي الدرداء في فضل العلم، فوقف وقفات طيبة في شرح هذا الحديث، فقال: (. . . لما كان العالم سبباً في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات، وكان سعيه مقصوراً على هذا، وكانت نجاة العباد على يديه جوزي من جنس عمله، وجعل من في السموات والأرض ساعياً في نجاته من أسباب المهلكات باستغفارهم له)[4].

---

(١) فلسفة التربية الاسلامية، عمر محمد التومي الشيباني. الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ص ١٨٤.

(٢) المفتاح، ابن القيم ١/٥٣.

(٣) المرجع السابق ١/٨١.

(٤) المرجع السابق ١/٦٤، وحديث أبي الدرداء رواه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم الباب ١٩. رقم الحديث ٢٦٨٢، ٥/٤٩.

٤ ـ وأنه حاكم على غيره ليس محكوماً عليه، فأي أمر اختلف فيه فالعلم يحكم. وحكمه نافذ. يقول رحمه الله: (... إن العلم حاكم على ما سواه، ولا يحكم عليه شيء، فكل شيء اختلف في وجوده وعدمه، وصحته وفساده، ومنفعته ومضرته، ورجحانه ونقصانه..، ومدحه وذمه، ومرتبته في الخير، وجودته ورداءته، وقربه وبعده، وإفضائه إلى مطلوب كذا، وعدم إفضائه، وحصول المقصود به، وعدم حصوله، إلى سائر جهات المعلومات، فإن العلم حاكم على ذلك كله، فإذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الاتباع)[١].

٥ ـ وأن الإرادة فرع العلم، ومفتقرة إليه، يقول رحمه الله: (... والإرادة فرع العلم، فإنها تستلزم الشعور بالمراد، فهي مفتقرة إلى العلم في ذاتها)[٢].

٦ ـ وأنه إمام العمل، وقائد له، يقول رحمه الله: (... إن العلم إمام العمل، وقائد له، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه)[٣].

٧ ـ أن الدولة بجميع أجهزتها بحاجة إليه، وهي التي يعبر عنها ابن القيم بالملك والسيف والقلم. فيقول في ذلك: (... فملك لا يتأيد بعلم لا يقوم، وسيف بلا علم مخراق لاعب، وقلم بلا علم حركة عابث، والعلم مسلط حاكم على ذلك كله..)[٤].

٨ ـ أن به قوام الدين، وأنه جهاد الخاصة من أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام. يقول رحمه الله: (... فقوام الدين بالعلم والجهاد؛ ولهذا كان الجهاد نوعين، جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير[٥]، والثاني

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٧٩.
(٢) المرجع السابق ١/٨١.
(٣) المرجع السابق ١/٨٢.
(٤) المرجع السابق ١/٨٠.
(٥) المشارك في الجهاد باليد والسنان كثير في زمنه رحمه الله، وأما الآن فتوجد غفلة شاملة عن هذا الجهاد.

الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته، وشدة مؤونته وكثرة أعدائه)[1].

٩ ـ وأن العمر لو صرف في طلبه مدى الحياة لا يعتبر صرفه ضياعاً له، ومما أورده رحمه الله في ذلك إجابة الحسن عندما سئل: (... عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن به أن يطلب العلم، قال: إن كان يحسن به أن يعيش)[2].

ثانياً ـ ذم الجهل:

١ ـ يذكر ابن القيم أن كل فساد وكل ضرر يلحق العبد هو نتيجة لجهله، يقول رحمه الله: (... ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد، وكل ضرر يلحق العبد في دنياه وأخراه فهو نتيجة الجهل)[3].

٢ ـ إن النفوس الجاهلة في نظر ابن القيم قد ألبست ثوب الذل، يقول رحمه الله: (... إن النفوس الجاهلة التي لا علم عندها قد ألبست ثوب الذل. والإزراء عليها والتنقص بها أسرع منه إلى غيرها، وهذا أمر معلوم عند الخاص والعام)[4].

٣ ـ ويروى أن شجرة الجهل لا تثمر إلا القبيح من الأقوال والأفعال والنيات والمقاصد. فيقول رحمه الله: (... وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان...)[5]، ثم بين أن: (... الشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل..)[6].

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/ ٧٠.
(٢) المرجع السابق ١/ ٧٤.
(٣) المرجع السابق ١/ ٨٧، ٨٨.
(٤) المرجع السابق ١/ ١٦٦.
(٥) المرجع السابق ١/ ١١٦.
(٦) المرجع السابق ١/ ١١٦.

ثالثاً ـ حاجة الفرد إلى العلم:

١ ـ يرى ابن القيم أن حاجة الفرد إلى العلم والمعرفة حاجة ملحة وضرورية، لمعرفة ما ينفعه ومعرفة ما يضره، يقول رحمه الله: (. . . فالعبد أحوج شيء إلى علم ما يضره ليجتنبه وما ينفعه ليحرص عليه ويفعله، فيحب النافع ويبغض الضار)[١].

٢ ـ ثم يشير إلى أن الفرد العالم الناصح لنفسه لا يؤثر محبة ما يضره، وإذا حصل أنه يحب ذلك فهذا دليل على فساد تصوره ومعرفته أو فساد قصده ونيته. يقول رحمه الله: (. . . فالحي العالم الناصح لنفسه لا يؤثر محبة ما يضره ويشقى به ويتألم به، ولا يقع ذلك إلا من فساد تصوره ومعرفته أو فساد قصده وإرادته)[٢].

٣ ـ وابن القيم يذكر أن الإنسان خلق في الأصل ظلوماً جهولاً، ولا ينفك عن الجهل إلا إذا علمه الله ما ينفعه، ولا ينفك عن الظلم إلا إذا ألهمه الله رشده. فيقول في ذلك: (. . . والإنسان خلق في الأصل ظلوماً جهولاً، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده، فمن أراد به الخير علمه ما ينفعه فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه فخرج به عن الظلم)[٣].

٤ ـ والإنسان في نظر ابن القيم: (. . . إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه ومعاده كان الحيوان البيهم خيراً منه)[٤].

٥ ـ ومما يدل على الحاجة إلى العلم أن الحرفيين مع ما يبذلونه من جهد وقلة ما يأخذونه من الأجر لا يستغنون عن (الأستاذ) الذي يبين لهم كيف يسيرون في عملهم، فهم لنقص علمهم محتاجون إلى علمه أو إلى ما عنده من

---

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/١٣٨.

(٢) المرجع السابق ٢/١٣٦.

(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/١٣٦.

(٤) المفتاح، ابن القيم ١/٧٩.

علم. يقول ابن القيم: (... إن صاحب العلم أقل تعباً وعملاً وأكثر أجراً، واعتبر هذا بالشاهد، فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه)[1]، وكلامه هذا متسق، فإن الأعمال تحتاج إلى أصناف من البشر على درجات من العلم، فقيادة المصنع مثلاً تحتاج إلى مهندس من أعلى الدرجات، ويليه آخرون فنيون، ويليهم الذين لا عمل لهم إلا بأيديهم.. فالذي هو بالمنزلة العليا أعظم أجراً ممن يليه وهكذا، وما نال تلك المرتبة العليا والأجر الكبير إلا بالعلم.

٦ ـ ما أحوج الإنسان إذا أراد العمل إلى دليل ومرشد، وإذا فقد الدليل والمرشد تاه وتخبط، والدليل لهذا الإنسان في نظر ابن القيم هو العلم. يقول في ذلك: (... إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل. ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته، وإن قدر سلامته اتفاقاً نادراً فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء)[2].

رابعاً ـ حاجة المجتمع إلى العلم:

إيمان ابن القيم بأهمية العلم والمعرفة وأنه (... هدف من الأهداف الأساسية التي يسعى الأفراد والمجتمعات إلى بنائها وتكوينها من وراء تربيتهم وتعليمهم)[3] دفعه إلى أن يشبه حاجة العباد إلى العلم بحاجتهم إلى الغيث، بل حاجتهم إلى العلم أعظم. يقول رحمه الله: (... إن حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث)[4]، وهو يعتبر هذه من الحاجات الضرورية التي لا غنى لهم عنها. يقول: (... إن حاجة العباد إلى العلم ضرورية، فوق حاجة

---

(١) المفتاح، ابن القيم١/٨١، ٨٢.

(٢) المرجع السابق ١/٨٢، ٨٣.

(٣) فلسفة التربية الاسلامية، الشيباني ص ١٨٤.

(٤) المفتاح، ابن القيم ١/٦١.

الجسم إلى الغـذاء؛ لأن الجسم يحتاج إلى الغـذاء في اليـوم مـرة أومرتين، وحاجة الإنسـان إلى العلم بعدد الأنفـاس. . فالحـاجة إليـه فوق الحـاجة إلى الطعام والشراب)[1].

والعلم في نظر ابن القيم سبب في نجاة الناس وسعادتهم، ذكر هذا في معرض بيان الأجر الذي يناله معلم الناس الخير. فقال رحمه الله: (. . . لمـا كان تعليمه للناس الخير سبباً لنجاتهم وسعـادتهم وزكاة نفـوسهم جازاه الله من جنس عمله. .)[2].

نوع العلم الذي يدعو إليه ابن القيم:

إن العلـم الذي ينادي به رحمه الله هو علم الشريعة فهو يرى أن: (. . . حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء)[3].

فحـاجتهم إلى علم الشريعـة فوق حـاجتهم إلى العلوم الأخرى. يقـول رحمـه الله: (. . . ولا نسبة لحـاجتهم إلى علم الطب إليهـا [الشريعـة][*] ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب)[4]، وهو ينبه إلى أن معرفـة ما جـاء به الرسول ﷺ لا بد معها من القيام به والدعوة إليه والصبر على المجـاهدة فيـه. يقول رحمه الله: (. . . فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معـرفة مـا جاء به الرسول ﷺ والقيام به والـدعوة إليـه والصبر عليـه وجهاد من خـرج عنه حتى يـرجـع إليـه)[5]، فهـو بهـذا القـول يضـع الخـطة السليمـة للمعلميـن والمربِّين، فهم حين يتعلمون العلم، يعـرفون حـاجة النـاس إليه، ثم يقـومون بتعليم الناس ودعوتهم إلى الخير، ويصـبرون على هـذه المهمة ويجـاهدون في سبيلها، لأنه لا سعادة للعالم ولا صـلاح لهم كما يقـول ابن القيم إلا بهذا

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٨١.

(٢) المرجع السابق ١/٦٣.

(٣) المرجع السابق ٢/٢.

(*) زيادة للإيضاح.

(٤) المفتاح. ابن القيم ٢/٢.

(٥) المرجع السابق ٢/٢.

العلم والمعرفة. يقول: (.. وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسر)[1]، فـ (الشرائع كلها في أصولها وإن تباينت متفقة مركوز حسنها في العقول، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة..)[2].

ذم التقليد:

إن حياة العلم، والوصول لأي حقيقة فيه، لا يكونان إلا بإعمال العقول، لذا فإن ابن القيم ينادي بتحرير العقول والأفكار من أسر الجمود الفكري والتحجر العقلي. ويحمل على التقليد، ويذمه ولقد: (... ذكر تفصيل القول في التقليد وانقسامه إلى ما يحرم القول فيه، والإفتاء به، وإلى ما يجب المصير إليه، وإلى ما يسوغ من غير إيجاب)[3].

ثم قال: (.. فأما النوع الأول فهو ثلاثة أنواع: أحدها الإعراض عما أنزل الله، وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء. الثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله. الثالث: التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد...)[4].

ثم بعد ذكر هذه الأقسام. قال: (... وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التقليد في غير موضع من كتابه)[5]، ثم أورد الأدلة على ذلك من كتاب الله عز وجل، ثم قال في النهاية إن الإنسان: (... لا يكون... مهتدياً حتى يتبع ما أنزل الله على رسوله)[6].

وهذه دعوة صريحة منه للعودة إلى كتاب الله عز وجل، وإذا تأملنا هذه الدعوة الحارة منه إلى إعمال العقل ونبذ التقليد عرفنا أي قدر لهذا المربِّي

---

(١) المفتاح، ابن القيم ٢/٢.

(٢) المرجع السابق ٢/٢.

(٣) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٨٧.

(٤) المرجع السابق ٢/١٨٧، ١٨٨.

(٥) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٨٨.

(٦) المرجع السابق ٢/١٨٩.

الذي لا يكتفي بتزويد الطالب بالمعرفة، بل يجعله ينمي عقله وعلمه بتحري البرهان والدليل، ويجعل منه إنساناً حقاً، وعالماً حقاً، وما أحوجنا اليوم إلى الاستجابة لهذه الدعوة.

ب ـ مفهوم المعرفة البشرية ومراتب فضلها:

تعنى المعرفة البشرية عند ابن القيم بالكشف عن حقائق الأشياء وتبين مراتبها، يقول رحمه الله في معرض وصفه لكل من العلم والجهل: (. . . إن العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة والنور، والخير كله سببه النور والحياة، فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها)[1].

والمعرفة البشرية هي نتائج (العمليات العقلية التي يقوم بها الإنسان في سبيل تكوين مدركاته ومفهوماته وتصوراته ومعلوماته عن الأشياء المحيطة به)[2]، وهذه العمليات هي: الإدراك، والتذكر، والتمييز بين الأشياء، والاستقراء، والمقارنة، والاستنباط، والحكم والتفكر.

لقد عرفنا أن المعرفة عند ابن القيم عطاء من الله للإنسان ونعمة عليه لذا فهو يعبر عنها بالهداية ويرى أن مراتب (الهداية) الخاصة والعامة عشر مراتب وهي:

١ ـ (المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه، وهذه أعلى مراتبها كما كلم موسى بن عمران صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾[3].

٢ ـ المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[4].

---

(١) المفتاح، ابن القيم ٥٣/١.
(٢) انظر مقدمة في الفلسفة الاسلامية. الشيباني ص ١٢٥
(٣) سورة النساء /١٦٤.
(٤) سورة النساء /١٦٣.

٣ ـ المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه، فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء . .

٤ ـ المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث، وهذه دون مرتبة الوحي الخاص. . . كما كانت لعمر رضي الله عنه كما قال النبي ﷺ: «إنه كان في الأمم قبلكم محدّثون، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب». . والمحدث: هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء فيكون كما يحدث به[1]. . . وابن القيم يرفض كل ما يقوم على الخيالات والجهالات من أخبار فيورد في ذلك عن شيخه رحمه الله قوله: (. . . وأما ما يقوله كثيرمن أصحاب الخيالات والجهالات« حدثني قلبي عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: «حدثني قلبي عن ربي» كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به وذلك كذب. .)[2].

٥ ـ المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام قال تعالى: **﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ، فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا. . ﴾**[3]، فذكر هذين النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالعلم والحكمة، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة. . .

٦ ـ المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام: وهو تبين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه. .

٧ ـ المرتبة السابعة: البيان الخاص وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء. .

٨ ـ المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع قال الله تعالى: **﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ**

---

(١) مدارج السالكن . ابن القيم ١/٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠ . والحديث جاء بلفظ آخر في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ك ٤٤ رقم الحديث ٢٣ . ط ٢ سنة ١٩٧٢ م دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/٤٠.

(٣) سورة الانبياء /٧٨، ٧٩.

خَيْـراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَـوَلَّواْ وَّهُم مُّعْـرِضُونَ﴾[1]. . . وهـذا الإسماع أَخصُّ من إسماع الحجة والتبليـغ، فإن ذلـك حاصـل لهم، وبه قـامت الحجة عليهم. .

٩ ـ المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام قال تعالى ﴿وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا، فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْـواها﴾[2] . . . وقـد جعل صـاحب المنازل[3] الإلهـام هـو مقـام المحـدثين. . قلت التحديث أخص من الإلهـام. . فإن الإلهـام عـام للمؤمنين بحسب إيمانهم. . . فأما التحديث فالنبي ﷺ قال فيه: «إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر» يعني من المحدثين، فالتحديث إلهام خـاص وهو الـوحي إلى غير الأنبياء.

١٠ ـ المرتبة العاشرة: الرؤيا الصادقة وهي من أجزاء النبوة. .)[4].

ج ـ مصادر المعرفة البشرية وأدوات اكتسابها:

إن الحديث في هذا المبحث قد يتشابه مع ما ذكر في المبحث قبل عنـد ذكر مراتب الهداية، وهذا التشابه لا يمنع من أن نذكر مصادر المعرفة البشريـة بشيء من التفصيـل؛ ولأن من هذه المصـادر النبوات والـرسالات السمـاويـة، والنور الذي يقـذفه الله في قلب المؤمن والـرؤى، والإلهام، والحـواس. وابن القيم يذكر مصادر المعرفة التي نلخصها فيما يأتي:

١ ـ العلم والمعـرفة اللذان يحصـلان عن طريق الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسلام، يقول في ذلـك: (. . . فلولا النبوات لم يكن في العـالم علم نافـع البتة)[5]، وهذا العلم حاجة الناس إليه ضرورية جـداً، يقول رحمـه الله: (إن

(١) سورة الأنفال /٢٣.

(٢) سورة الشمس /٧، ٨.

(٣) منازل السائرين، للهروي، وعلى هذا الكتاب بني كتابه (مدارج السالكين من منازل «إياك نعبد وإيـاك نستعين» أ. هـ من «موارد ابن القيم في كتبـه» بكر عبـدالله أبو زيـد. المكتب الاسلامي بيروت ط ١ ـ ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ص ١١٧.

(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ١ /٤١ إلى ٥٠ باختصار.

(٥) المفتاح، ابن القيم ٢ /١١٨.

الحاجة إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ضرورية، بل هي في أعلى مراتب الضرورة)[1]، ثم ذكر رحمه الله أن الله أنزل على رسوله ﷺ وحيين، وأوجب سبحانه الإيمان بهما والعمل بمقتضاهما، فقال: (... الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما، وهما الكتاب والحكمة، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾)[2].

٢ ـ النور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، يكشف به حقائق الأمور، ويجعله ناطقاً بالحكمة، يقول رحمه الله: (... قال بعض السلف: يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور)[3].

٣ ـ الرؤى والإلهام: يقول في ذلك: (... فتأمل من رأى صاحباً له أو قريباً أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا، أو أخبره بمالٍ دفنه، أو حذره من أمر يقع أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال، أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله، إلى كذا وكذا فيقع كما أخبر، أو أخبره بخصب أو جدب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له، فوقع كما أخبره)[4]، ثم يفصل الحديث في الرؤيا ويبين أقسامها، فيقول: (... فإن الرؤيا على ثلاثة أنواع: رؤيا من الله، ورؤيا من الشيطان، ورؤيا من حديث النفس)[5].

ويقسم أيضاً الرؤيا التي من الله أقساماً: (منها: إلهام يلقيه الله سبحانه في قلب العبد، وهو كلام يكلم به الرب عبده في المنام.. ومنها: مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها، ومنها: التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله

---

(١) المفتاح. ابن القيم ٢/١٢٤.

(٢) الروح، ابن القيم ص ٧٥، سورة النساء /١١٣.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/٥٤.

(٤) الروح، ابن القيم ص ٢٩.

(٥) المرجع السابق ص ٢٩.

وأقاربه وأصحابه وغيرهم. . . ، ومنها: عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له، ومنها: دخول روحه الجنة ومشاهدتها وغير ذلك. .)[١].

٤ ـ تجرد النفس، حيث يطلعها الله تعالى بهذا التجرد على بعض العلوم والمعارف التي لا تحصل بدونه، يقول رحمه الله: (. . . فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد. . .)[٢]، وابن القيم يرد على القائلين أن العلوم كلها كامنة في النفس، وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنها مطالعتها[٣]، فيقول: (. . . لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذي بعث به رسوله، وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية، والأمم الخالية، وتفاصيل المعاد، وأشراط الساعة، وتفاصيل الأمر والنهي، والأسماء والصفات والأفعال وغير ذلك مما لا يعلم إلا بالوحي)[٤]، ثم بين رحمه الله أن هذا التجرد يحصل للنفس المطيعة لله عز وجل: (. . . أكثر مما يحصل للنفس المنغمسة في الشواغل البدنية)[٥].

٥ ـ الحواس الخمس التي ركبها الله عز وجل في الإنسان مقابل المحسوسات الخمس. يقول رحمه الله: (. . . ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمساً في مقابلة المحسوسات الخمس، ليلقى خمساً بخمس، كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة، فجعل البصر في مقابلة المبصرات، والسمع في مقابلة الأصوات، والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفات، والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات، واللمس في مقابلة الملموسات، فأي محسوس بقي بلا حاسة، ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة. . .)[٦].

---

(١) الروح. ابن القيم ص٢٩.
(٢) المرجع السابق ص ٣٠.
(٣) انظر المرجع السابق ص ٣٠.
(٤) المرجع السابق ص ٣٠.
(٥) المرجع السابق ص ٣٠.
(٦) المفتاح، ابن القيم ١/٢٦٤.

وإذا كانت بعض النظريات التربوية(تقرر أن الحواس نوافذ العلم)[1] فإن ابن القيم قد سبق هذه النظريات بقرون طويلة حيث بين أن الحواس هي كالمصابيح يشرف منها الإنسان إلى معرفة الأشياء. فقال رحمه الله: (... وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء)[2]، ونظريته هذه تفوق النظريّات الحديثة وتفضلها في أنها لم تقصر العلم على المحسوسات فقط. كما أن نظرية المعرفة عنده ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بالله عز وجل الواهب لهذه الحواس والمعطي لها خواصها المتميزة، فنستمع إلى قوله: (... كيف جعلها الله في الرأس..) الخ، وهذا هو أسلوبه رحمه الله في تعميق الإيمان بالله عز وجل.

وابن القيم يرى أن هذه الحواس قد أعينت بمخلوقات أخرى منفصلة عنها تساعدها في كسب العلم والمعرفة، وبدونها لا يمكن أن تؤدي وظائفها، يقول رحمه الله: (... ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخر منفصلة عنها تكون واسطة في إحساسها، فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره، فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئاً. وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو، ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ثم تقلبه إلى القوة السامعة، ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئاً. وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولاها لم نشم شيئاً. وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الزائقة[3] طعوم الأشياء، ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ولا مالح ولا حريف؛ لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به

(١) نظرية جون لوك: انظر التربية مادتها ومبادئها الأولية، تأليف ت. ب. نن. ترجمة صالح عبد العزيز شحاته. مراجعة محمد عطية الابراشي مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦١ م مطبعة السعادة ص ١٠٧.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٢٦٤.

(٣) هكذا، وهو تصحيف والصواب «الذائقة» بالذال بدل الزاي.

مقصوده. وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شيء من خارج بخلاف غيرها من الحواس، بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها لأنّها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة فلم تحتج إلى واسطة)[١].

وإذا تقرر أن الحواس من أدوات كسب العلم والمعرفة، فهي متفاوتة فيما بينها أشد التفاوت، فحاسة السمع في نظر ابن القيم هي أهم هذه الحواس، بل هي أهم من حاسة البصر، يقول رحمه الله عمن فقد حاسة سمعه: (. . . فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة، وانفتحت له طرق الشهوات التي يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها، فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر)[٢]، والسمع والعقل عند ابن القيم هما أصل العلم. يقول في ذلك: (. . . السمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال. . .)[٣].

وجهات العلم عند ابن القيم ثلاث: العقل والسمع والبصر، ذكر ذلك في معرض شرحه لقول الله عز وجل: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾**[٤]، حيث قال: (. . . فأخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث: وهي العقل والسمع والبصر)[٥].

وابن القيم يشير إلى المعاني التي تفهم من إطلاق كلمة السمع، فيقول: (. . . يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/٢٦٤، ٢٦٥.
(٢) المرجع السابق ١/٢٦٥.
(٣) المرجع السابق ١/٥٩.
(٤) سورة الأعراف / ١٧٩.
(٥) المفتاح، ابن القيم ١/٥٩.

والإجابة، والثلاثة في القرآن، فمن الأول قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾... والثاني: سمع الفهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم... والثالث: سمع القبول والإجابة، كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي قابلون مستجيبون)[1].

ويرى ابن القيم أن الحواس جميعها ـ ومنها حاسة السمع ـ مرتبطة بالقلب ارتباطاً وثيقاً يمدها بقوة معنوية، تهيؤها لكسب العلم والمعرفة، فمتى كانت قابلة للقيام بهذه المهمة استفادت من هذه القوة وأدّت وظيفتها خير أداء. يقول رحمه الله: (... إن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس، وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة، وأعصاب تكون حاملة لها، فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف إلا على قبولها، واستعدادها وإمداد القلب لا على مجار وأعصاب...)[2].

٦ ـ التجربة البشرية: يقول رحمه الله: (... وجعل لكل قوم عادة وعرفاً في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء حتى إن كثيراً من أصول الطب إنما أخذت عن عوائد الناس وعرفهم وتجاربهم)[3].

د ـ أنواع المعرفة البشرية وتفاوت فضلها:

ليست أنواع المعارف والعلوم عند ابن القيم في درجة واحدة من الفضل بل هي متفاوتة فأهم العلوم والمعارف وأشرفها وأفضلها في نظر ابن القيم معرفة الله عز وجل. يقول في ذلك: (... وأجل المقاصد معرفة الله...)[4]، وهذه المعرفة: (... أجل سعادة الدنيا والآخرة)[5]، وابن

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٧٩، سورة المجادلة /١، سورة الأنفال /٢٣، سورة التوبة /٤٧.

(٢) المرجع السابق ١/١٩٥.

(٣) المرجع السابق ٢/٢.

(٤) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٩٣.

(٥) المرجع السابق ص ٩٣.

القيم رحمه الله يربط كل العلوم والمعارف بهذه المعرفة، وذلك ما يميز نظرية المعرفة لديه، بربط كل العلوم بالإيمان بالله عز وجل، يقول في ذلك: (... وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها...)[1]، وهذه هي نظرة المربِّي المسلم ذي الشخصية المتميزة الذي يجعل للإيمان بالله نصيباً في جميع العلوم والمعارف، وابن القيم يؤكد هذا المعنى ويزيده وضوحاً ببيان تفاوت هذه العلوم والمعارف بحسب إفضائها إلى معرفة الله أو بعدها عنها. فيقول: (... وتفاوت العلوم في فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة وبعدها، فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه)[2]، ويقول في مكان آخر: (... وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها، فهو أصلها كلها)[3] ثم يجري نسبة بين هذه المعرفة وبين غيرها من المعارف. فيقول: (... ونسبته [العلم بالله][4] إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات)[5].

ومن أنواع العلوم والمعارف التي وهبها الله للإنسان ماله علاقة بمصالح الناس في معاشهم ودنياهم. يقول ابن القيم في ذلك: (... وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجتهم)[6]، ثم يعدد رحمه الله أنواع العلوم والمعارف التي يحتاجها الناس، فيقول: (... كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والغراس وضروب الصنائع واستنباط المياه وعقد الأبنية وصنعة السفن واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها وتركيب الأدوية وصنعة الأطعمة ومعرفة ضروب الحيل في صيد الوحش والطير ودواب الماء والتصرف في وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير ذلك مما فيه قيام معايشهم)[7].

---

(١) عدّة الصابرين. ابن القيم ص ٩٣.
(٢) المرجع السابق ص ٩٣.
(٣) المفتاح، ابن القيم ١/٨٦.
(٤) زيادة للإيضاح.
(٥) المفتاح، ابن القيم ١/٨٦.
(٦) المرجع السابق ١/٢٨٢.
(٧) المرجع السابق ١/٢٨٢.

وهناك علوم لا يحتاجها البشر، ولا مصلحة لهم فيها، وليس لديهم القدرة على كسبها فالله سبحانه وتعالى منعهم إيّاها كما يقول ابن القيم: (. . . ثم منعهم سبحانه علم ما سوى ذلك مما ليس في شأنهم، ولا فيه مصلحة لهم، ولا نشأتهم قابلة له كعلم الغيب، . . . فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه، ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد في أكثر أمره)[1].

ويرى ابن القيم أن من الواجب على ولي الأمر أن يلزم بعض الناس القيام بتعلم بعض الصناعات وممارستها، لأن الناس بحاجة إليها، فيقول رحمه الله: (. . . ومن ذلك أن يحتاج الناس إلى صناعة طائفة كالفلاحة والنساجة والبناء وغير ذلك، فلولي الأمر أن يلزمهم بذلك بأجرة مثلهم، فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بذلك، ولهذا قالت طائفة من أصحاب أحمد والشافعي: أن تعلم هذه الصناعات فرض على الكفاية لحاجة الناس إليها)[2]، وهذا من ابن القيم تأسيس لما يسمى اليوم بالتعليم المهني أو التعليم الفني، وهذا سبق يسجل له رحمه الله.

وابن القيم يشير إلى تقسيم العلوم إلى قسمين رئيسيين، قسم منها يعده فرض عين يفصل القول فيه ويطيل، وقسم آخر يعده فرضاً على الكفاية لكنه يرى عدم وجود ضابط له، يقول رحمه الله بشأن تقسيم العلم: (. . . ضرب منه فرض عين لا يسع مسلماً جهله، وهو أنواع: النوع الأول: علم أصول الإيمان الخمسة. . . فإن من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان، ولا يستحق اسم المؤمن. . فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها، النوع الثاني: علم شرائع الإسلام واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء. . . النوع الثالث: علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الشرائع والكتب الإلهية وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا**

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٢٨٢.

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية. ابن القيم ص ٢٢٨.

حَـرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَـرَ مِنْهَـا . . ﴾ الآية . . . النـوع الرابـع : علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس، . . . وأما فرض الكفاية فـلا أعلم فيه ضابطاً صحيحاً، فإن كلَّ أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضاً . .)[1].

وابن القيم يـرى أن أهم معرفـة وأفضلها مـا جاءت بـه رسـل الله عليهم الصلاة والسلام، وهذه المعرفة أغنت أتباعهم عن غيرها.

وابن القيم يشيد بالجهود العلمية للصحـابة وينفي دعـوى من يزعم أنهم عوام وجهلة. فيقول: (. . . كيف يُدعى في أصحاب نبينـا أنهم عوام، وهـذه العلوم النافعة المبثوثة في الأمة على كثرتهـا واتساعها وتفنن ضروبهـا إنما هي عنهم مأخوذة، ومن كلامهم وفتاويهم مستنبطة)[2].

ثم يـذكر نمـوذجاً واحـداً من صحابـة رسول الله ﷺ، ويشيـر إلى سعـة علمه وعمق ثقافته، وتنوع فنون المعرفة التي أخذ منهـا بنصيب، فيقول: (. . وهـذا عبدالله بن عبـاس رضي الله عنهما كـان من صبيانهم وفتيـانهم وقد طبق الأرض علماً، وبلغت فتاويه نحواً من ثـلاثين سفراً، وكـان بحراً لا ينـزف، لو نـزل بـه أهـل الأرض لأوسعهم علمـاً، وكـان إذا أخـذ في الحـلال والحـرام والفـرائض يقول القـائل لا يحسن سـواه، فإذا أخـذ في تفسير القـرآن ومعانيـه يقول السامع لا يحسن سواه، فإذا أخذ في السنة والروايـة عن النبي ﷺ يقول القـائل لا يحسن سـواه، فإذا أخـذ في القصص وأخبار الأمم وسيـر المـاضين فكذلك، فإذا أخذ في أنساب العرب وقبائلها وأصولها وفروعها فكـذلك، فـإذا أخذ في الشعر والغريب فكذلك)[3]، وإذا كان هذا الكلام يـوهم بأن الإلمـام بجميع العلوم أو الإحاطة بأكثـرها أفضـل من التخصص في بعضها، فـإن ابن القيم يزيل هذا الوهم، فيذكر: (أن الرجل يكون إماماً في الحساب وهو أجهل خلق الله بالطب والهيئـة والمنطق، ويكـون رأساً في الـطب ويكون من أجهـل

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٥٦، ١٥٧. سورة الأعراف /٣٣.

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم ص ٢٢٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٩.

الخلق بالحساب والهيئة، ويكون مقدماً في الهندسة وليس لديه شيء من قضايا الطب)[1].

وابن القيم يذكر أثراً للشافعي يتضمن أنواعاً من العلوم، ولكل نوع فائدة تختلف عن فائدة نوع آخر. يقول رحمه الله: (... وقال المزني: سمعت الشافعي يقول: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل قدره، ومن تعلم اللغة رق طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته)[2].

وابن القيم يورد قصة مفادها أن كسب أنواع من العلوم يورث الرجل مهابة ووقاراً، وإذا أضيف ما يستفاد من هذه القصة مع ما جاء في الأثر السابق عن الشافعي نتأكد أن لكل نوع من أنواع العلوم فائدة ومنفعة، والقصة التي يوردها ابن القيم تحكي أن أحد خلفاء بني العباس كان يلعب الشطرنج مع جليس له، فدخل عليه عمه فغطى الرقعة: (... فلما جلس قال له يا عم: هل قرأت القرآن؟ قال: لا، قال: هل كتبت شيئاً من السنة؟ قال: لا، قال: فهل نظرت في الفقه واختلاف الناس؟ قال: لا. قال: فهل نظرت في العربية؟ وأيام الناس؟ قال: لا. قال: فقال الخليفة: اكشف الرقعة، ثم أتم اللعب وزال احتشامه وحياؤه منه، وقال له ملاعبه: يا أمير المؤمنين تكشفها ومعنا من تحتشم منه، قال: اسكت فما معنا أحد)[3]، وهذه القصة لو ثبتت صحتها ففيها بعض المحاذير: منها: أن الداخل عم الخليفة وينبغي التأدب مع العم لأنه بمنزلة الأب، ولقد قال ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»[4]، كما أنه قد يكون كبير السن والتأدب مع الكبير مما حث عليه الإسلام، ولكن مع وجود هذه المحاذير يستفاد منها أن كسب أي نوع من أنواع العلوم يفيد صاحبه

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٢١١.

(٢) المرجع السابق ١/١٦٥.

(٣) المرجع السابق ١/١٦٧.

(٤) رواه مسلم، في كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، ٣/٦٨.

ويرفع من قدره ويظهر له قيمة عند الخاص والعام، وفي هذا أكبر تشجيع على طلب العلم وكسبه والسعي في تحصيله.

هـ ـ تكامل العلوم الشرعية والعقلية:

إذا كانت العلوم الدينية هي المصدر الأساسي للمعرفة الحقة وهي التي تحقق للإنسان السعادة في الدارين، فإن هذه العلوم في نظر ابن القيم تتكامل مع العلوم العقلية؛ لأنه لا يوجد اختلاف بين حقيقة علمية ونص شرعي منزل، يقول رحمه الله، ويؤكد عدم تعارض العقل الصريح مع النقل الصحيح: (. . . لا تجد ولو عمرت عمر نوح مسألة واحدة أصلاً اتفق فيها العقلاء كلهم على خلاف ما جاءت به الرسل في أمر من الأمور البتة، فالأنبياء لم تأت بما يخالف صريح العقل. . .)[1]، وإذا توهم شخص بأن هناك اختلافاً فعليه أن يمعن النظر؛ لأن مرد هذا الاختلاف الموهوم إلى أحد سببين: إما أن يكون خطأ في تقرير الحقيقة العلمية، مع أنها نظرية لم تثبت صحتها أو ثبت بالفعل خطأ هذه النظرية، مثل نظرية دارون في التطور، وإما خطأ في تفسير النص الشرعي، فمثلاً ثبت بحقائق علمية أن الأرض كروية الشكل، فيأتي من يفسر قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَاهَا﴾[2] بقوله بسطناها، وهذا خطأ لأنها لو كانت مبسوطة لكانت على شكل مستوٍ، فيسير الإنسان على ظهرها حتى يجد في النهاية حافّةً ولا يجد أرضاً، ولا يتأتى امتدادها إلا إذا كانت كروية الشكل، فحيث ما اتجه الإنسان فإنه يجد أمامه أرضاً ممتدة، وخلاصة القول إن الحقائق العلمية التي هي من ثمار العقول البشرية لا تتناقض مع شرع الله المنزل بل بينهما تكامل وترابط، ولا اختلاف بينهما كما ذكر ابن القيم.

ويرى ابن القيم أن الشرائع كلها في أصولها مركوز حسنها في العقول، يقول رحمه الله: (. . . الشرائع كلها في أصولها وإن تباينت متفقة مركوز

---

(١) تحفة المودود، ابن القيم، ص ٢٦٤.

(٢) سورة الحجر / ١٩.

حسنها في العقول...)[1]، لكن العقول البشرية لها حدود لا تستطيع مجاوزتها فتحتاج في بعض المواقف إلى معرفة الأحكام، وتخفى عليها حكمة الشرع في بعض المواقف، فشرع الله هو الذي يوضح ما خفي عليها، مع أن ما استحسنته الشريعة أو استقبحته فأمره مستقر لدى العقول السليمة والفطر المستقيمة، فتوضيح الشرع زاد الأمر نوراً على نور وبصيرة على بصيرة، يقول ابن القيم في معرض بيان عدم مكافأة دم الكافر لدم المؤمن، ومناقشته للقضية من ناحية عقلية: (... فقد أدى نظر العقل إلى أن دم عدو الله الكافر لا يساوي دم وليه ولا يكافيه أبداً وجاء الشرع بموجبه فأي معارضة ههنا وأي حيرة إن هو إلا بصيرة على بصيرة ونور على نور)[2].

وإذا كانت العقول قاصرة في طبيعتها وتكوينها، وتقف عاجزة في كثير من الأحيان أمام بعض المواقف، فإن الرسل قد جاءت بما لا تدركه هذه العقول، ويقسم ابن القيم ما جاءت به الرسل بالنسبة للعقل إلى ثلاثة أقسام: (... قسم شهد به العقل والفطرة، وقسم يشهد بجملته ولا يهتدي لتفصيله، وقسم ليس في العقل قوة إدراكه)[3]، وهناك قسم رابع وهو ما ترفضه هذه العقول لأنه من الخرافة والأوهام، ولا صلة له بأي نوع من أنواع العلوم، فإن ما جاءت به الرسل ترفضه وتبرأ منه يقول رحمه الله: (... وأما القسم الرابع وهو ما يحيله العقل الصريح، ويشهد ببطلانه فالرسل بريئون منه)[4]، وابن القيم رحمه الله يسعى إلى هدم منهج المخرفين والمشعوذين والدجالين، الذين ليس لديهم إلا الحدس والتخمين فيستفهم مستنكراً عليهم بقوله: (... فأين العلم المتلقى من الوحي النازل إلى الظن المأخوذ عن الرأي الزائل؟ وأين العلم المأخوذ عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عز وجل، إلى الظن المأخوذ عن رأي رجل لم يستنر قلبه بنور الوحي طرفة عين، وإنما

---

(١) المفتاح. ابن القيم ٢/٢.

(٢) المرجع السابق ٢/١٠٠.

(٣) تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٦٤.

(٤) المرجع السابق ص ٢٦٤.

معه حدسه وتخمينه)[1]، فـابن القيم يريـد بهذا القـول أن يوضـح الفرق بين الحقائق العلمية التي استنتجتها العقول البشـرية، والأوهـام والخيالات التي لا تقوم على أي مستند من حجة أو برهان كما يبين منزلة الشـرع وموقف العقـول السليمـة مما جـاء فيه، وأن هـذا الشرع قـد جاء بمـا يوافقهـا وما اتفقت على حسنه، ويزيد على ذلك ببيان ما لا تدركه.

و ـ تنقية المعرفة من الأوهام:

يحـذرنا ابن القيم من الأخـذ بأقـوال المتكلمين التي تبتعد في كثيـر من الأحيان عن الحق والصواب، كما يحذر من مقارنتها بما جاءت بـه الرسـل من الحق الذي لا يحمل إلا الصواب، يقول رحمـه الله: (. . . ولما عـربت كتب الفلاسفة صار كثير من النـاس إذا رأى أقوال المتكلمين الضعيفـة، وقد قـالوا: إن هذا هو الذي جاء بـه الرسـول ﷺ قطع القنـطرة وعدا إلى ذلـك البر وكـل ذلك من الجهل القبيح والظن الفاسد أن الحق لا يخرج عن أقوالهم، وما أكثر ما يذهبون في المسائل التي هي حق وصواب إلى خلاف الصواب)[2]، فـابن القيم مـربٍّ واعي الفكر متفتـح الذهن، لا يـرى الحجر على العقـول والأفكار من أن تأخذ من علوم الآخريـن؛ لأن العلم حق مشاع بين البشـر، لكن ينادي بإمعان النـظر والأخذ منـه بما يحقق المصـالح في الـدنيا، ثم يصبـغ بالصبغـة الإلـهية كما مـر بنـا. فحـركـة التعـريب التي سبقت عصـر ابن القيم كـان من سلبياتها ما تركته من آثار على النفـوس بسبب الانبهار الـذي سيطر على بعض العقول، وأورثها فقدان التمييز بين مـا هو حق وصـواب، وما هـو باطـل، فإذا أردنا اليوم الاستفادة من علوم الغرب فلا ضير علينا إذا لاحظنا الأخذ منها بعين البصيرة والوعي وبإدراكنا المميز بين ما هو حق وصواب، وما هو متعـارض مع عقيـدتنا ليتـرك أو يعدّل، أو غيـر متعارض فيؤخـذ به ويستفـاد منه، وابن القيم ينتقـد بعض الذين تـأثروا من حـركة التعـريب تلك، لا سيما الفلاسفة الذين

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٦٤.

(٢) المفتاح، ابن القيم ١/٢٨٦.

ضلوا الطريق، وانحرفوا مع ظنهم أنهم يحسنون صنعاً. فيقول: (. . . وهؤلاء يجعلون الشرائع من جنس الأخلاق الفاضلة والسياسات العادلة ولهذا رام فلاسفة الإسلام الجمع بين الشريعة والفلسفة، كما فعل ابن سينا والفارابي وأضرابهما وآل بهم إلى أن تكلموا في خوارق العادات والمعجزات على طريق الفلاسفة. . .)[1].

(١) المفتاح، ابن القيم ٢/١١٩.

الفصل الثاني

عوامل النجاح في تقديم المحتوى وطريقة تلقيه كما يراها ابن القيم

١ ـ تمهيد .

٢ ـ المنهج .

٣ ـ آداب المربِّي .

أ ـ الآداب السلوكية للمربِّي .

ب ـ آداب المربِّي مع طلابه .

جـ ـ آداب المربِّي مع الناس عامة .

٤ ـ آداب طالب العلم .

أولاً ـ الآداب السلوكية .

ثانياً ـ الصفات العلمية لطالب العلم .

ثالثاً ـ آداب طالب العلم مع أستاذه .



عوامل النجاح في تقديم المحتوى وتلقيه كما يراها ابن القيم

تمهيد:

بعد أن تحدثنا في الفصل السابق عن المحتوى العلمي والمعرفي، فعرفنا رأي ابن القيم في أهمية العلم والمعرفة، وإشادته بشرف العلم، وذمه للجهل، وبيان حاجة الفرد والمجتمع إلى العلم، وعرفنا نوعية العلم الذي ينادي به، ويرى أنه سبب في سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وذمه للتقليد الذي يحجر على العقول ويعطل دورها، وما هو مفهوم المعرفة البشرية ومراتب فضلها عنده، وما هي مصادرها الأساسية وما أنواعها، وبعد أن بين كيفية تكامل العلوم الشرعية والعقلية وبعد أن ذكرنا تنبيهه بشأن تنقية المعرفة من الأوهام. بعد هذا كله نريد أن نعرف الآن عوامل النجاح في تقديم هذا المحتوى وكيفية تلقيه كما يراها ابن القيم.

إن عناصر العملية التربوية ثلاثة: أولها المنهج بمفهومه الشامل، وثانيها المعلم الذي يتفهم هذا المنهج ويربي به أفراداً مؤمنين، وثالثها: الطالب الذي يتلقى هذا المنهج ويستفيد منه تربوياً وعلمياً، وفي هذا الفصل سنتناول هذه العناصر الثلاثة بالحديث بشكل مختصر فنبين المنهج الأصيل الذي ينادي به ابن القيم وأهمية الدليل فيه، ونذكر آداب المربِّي السلوكية وآدابه مع طلابه وآدابه مع الناس عامة، كما نذكر آداب طالب العلم السلوكية، وكيفية تعامله مع العلم، وآدابه مع أستاذه ومعلمه، سنتحدث عن كل هذا كما جاء عن ابن القيم رحمه الله، فمن الله نستمد العون ومنه نستلهم الرشد فهو حسبنا ونعم الوكيل.

المنهج:

إن ابن القيم يهدف هدم المنهج القائم على الأوهام والخيالات، والمبني على البدع والضلالات، وينادي بمنهج علمي أصيل. فهو يقول مثلاً بشأن الطيرة: (... فالطيرة باب من الشرك، وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، يكبر ويعظم شأنها على من أتبعها نفسه واشتغل بها وأكثر العناية بها، وتذهب وتضمحل عمن لم يلتفت إليها ولا ألقى إليها باله، ولا شغل بها نفسه وفكره، واعلم أن من كان معتنياً بها قائلاً بها، كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه)[1].

ويقول في بيان منهج أهل البدع: (... الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة...)[2]، أنهم: (... مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهّال الناس بما يشبهون عليهم)[3]، ويقول عن العلم المستمد من المنهج السليم أنه: (... العلم الموروث عن خاتم المرسلين ورسول رب العالمين، الذي لا نجاة لأحد إلا به، ولا فلاح له في داريه إلا بالتعلق بسببه، الذي من ظفر به فقد فاز وغنم، ومن صرف عنه فقد خسر وحرم، لأنه قطب السعادة الذي مدارها عليه، وآخية الإيمان الذي مرجعه إليه، فالوصول إلى الله وإلى رضوانه بدونه محال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال، وكيف يوصل إلى الله من غير الطريق التي جعلها هو سبحانه موصلة إليه، ودالة لمن سلك فيها عليه، بعث رسوله بها منادياً، وأقامه على أعلامها داعياً، وإليها هادياً! فالباب عن السالك في

---

(١) المفتاح، ابن القيم ٢/١٣٠، ٢٣١.

(٢) أعلام الموقعين. ابن القيم ١/٩.

(٣) المرجع السابق، ١/٩.

غيرها مسدود وهو عن طريق هداه وسعادته مصدود، بل كلما ازداد كدحاً واجتهاداً، ازداد من الله طرداً وإبعاداً، ذلك بأنه صدف عن الصراط المستقيم، وأعرض عن المنهج القويم ووقف مع آراء الرجال، ورضي لنفسه بكثرة القيل والقال، وأخلد إلى أرض التقليد. .)[1].

وهذا المنهج السلفي الذي ينادي به ابن القيم ولا يبغي به بديلاً يتطلب كما يقول رحمه الله: (. . . الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان وذلك بثلاثة أشياء: الأول: أن لا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس والذوق، والسياسة، فالأول للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وعزلنا النقل، إما عزل تفويض، وإما عزل تأويل، والثاني: للمتكبرين المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص ولم نلتفت إليه، والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد، فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق والحال، ولم يعبأوا بالأمر، والرابع للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة، فهؤلاء الأربعة هم أهل الكبر. والتواضع: التخلص من ذلك كله. الثاني: أن لا يتهم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة أو ناقص الدلالة أو قاصرها أو أن غيره كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه وليعلم أن الآفة منه والبلية فيه. .

الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلاً البتة، لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله)[2].

---

(١) تهذيب سنن أبي داود، ابن القيم، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد حامد الفقي سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م دار المعرفة بيروت لبنان ١ /٥، ٦.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٢ /٣٣٤، ٣٣٥.

وهذا المنهج الذي رسمه ابن القيم، من أهم خصائصه ما يأتي[1]:

١ ـ الاعتماد على الأدلة من الكتابّ والسنة.

٢ ـ تقديم أقوال الصحابة رضي الله عنهم على من سواهم.

٣ ـ السعة والشمول.

٤ ـ حرية الترجيح والاختيار.

٥ ـ الاستطراد وطول النفس في الكتابة.

٦ ـ مظهر الانطباع بتفهم محاسن الشريعة وحكمة التشريع.

٧ ـ عنايته بعلل الأحكام ووجوه الاستدلال.

٨ ـ الحيوية والمشاعر الفياضة بأحاسيس مجتمعة.

٩ ـ الجاذبية في أسلوبه وبيانه.

١٠ ـ حسن الترتيب والسياق.

١١ ـ ظاهرة التواضع والضراعة والابتهال.

١٢ ـ التكرار[2].

والمنهج العلمي السليم هو الذي يعتمد على البراهين الساطعة والحجج والبينات، وهناك فرق يبينه ابن القيم بين الحجج والبينات فيقول رحمه الله: (. . . المقصود الفرق بين الحجج والبيِّنات، فنقول الحجج الأدلة العلمية، والبينات جمع بينة، وهي صفة في الأصل يقال: آية بينة، وحجة بينة، والبينة اسم لكل ما يبين الحق، من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي)[3]، وهذا يدل أن البينة مفهومها أوسع من الحجة، لأن الحجة هي الدليل العلمي، والبينة كل ما يبين الحق من علامة أو أمارة أو دليل علمي.

وابن القيم يرى أن للعلم المدعوم بهذه الحجج وتلك البينات سلطاناً على القلوب والأرواح أقوى من سلطان النفوذ والملك والقوة والجبروت، لأنه

---

(١) انظر التقريب لفقه ابن قيم الجوزية. بكر بن عبدالله أبو زيد القسم الأول ص ٧٠.

(٢) التقريب لفقه ابن قيم الجوزية، بكر بن عبدالله أبو زيد. القسم الأول ص ٧١ إلى ١٠٥.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/١٤٦.

يأسر القلوب بالدليل، أما سلطان اليد فإنما تنقاد به الأبدان دون القلوب والأرواح. فيقول رحمه الله: (... إن الله سبحانه سمى علم الحجة سلطاناً، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن)[1].

وهذا المنهج العلمي الذي ينادي به هذا الإمام السلفي، والذي يجعل معتمده الدليل والبرهان، المستمد من الوحيين، كتاب الله الكريم وسنة نبيه الأمين ﷺ أحد نوعي الجهاد بل هو جهاد الخاصة من الأنبياء والرسل والعلماء، يقول ابن القيم رحمه الله في الجهاد بالعلم: (... فالجهاد بالعلم والحجة جهاد أنبيائه ورسله وخاصته من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والاتفاق)[2].

وهذا النوع من العلم والمعرفة نجده في القرآن حيث اعتمد في عرض المسائل والقضايا على ذكر الحجج الدامغة والبراهين الساطعة، التي تبطل الشبه الفاسدة والأفكار المنحرفة. يقول ابن القيم: (... وإذا تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكراً وافياً اطلعت فيه من أسرار المناظرات وتقرير الحجج الصحيحة وإبطال الشبه الفاسدة وذكر النقض والفرق والمعارضة والمنع[3] على ما يشفي ويكفي لمن بصره الله وأنعم عليه بفهم كتابه)[4].

إن ابن القيم ينادي بأخذ الفكرة الصحيحة المدعومة بالدليل والبرهان من أي جهة كانت، لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها فالمسلم الواعي هو الذي يفرق بين الفكرة والشخص، فالفكرة الصحيحة

---

(١) المفتاح. ابن القيم ١/ ٥٩.

(٢) القصيدة النونية، ابن القيم، دار المعرفة بيروت لبنان ص ٥.

(٣) يشير إلى مصطلحات في علم الجدل والمناظرة. انظر كتاب آداب البحث والمناظرة. محمد الأمين الشنقيطي. ص ٥٥، ٦٣.

(٤) بدائع الفوائد. ابن القيم جـ ٢ ص ١٣٠.

يؤمن بها ويعتمد عليها وإن صدرت من ألدِّ أخصامه، كما أنه يرفض الرأي الموهوم والفكرة الخاطئة التي لا تعتمد إلا على الأوهام والخيالات مهما كان مصدرها حتى ولو كانت من أخص أصدقائه. وابن القيم يذكر طائفة من الناس ترد أقوال الخصوم مع أنها صدق وعدل وينتقد هذه الطائفة في موقفها هذا، فيقول: (. . . والطائفة الثانية رأت مقابلة هؤلاء برد كل ما قالوه من حق وباطل، وظنوا أن من ضرورة تصديق الرسل رد ما علمه هؤلاء بالعقل الضروري، وعلموا مقدماته بالحس فنازعوهم فيه، وتعرضوا لإبطاله بمقدمات جدلية لا تغني عن الحق شيئاً)[1]، فهو ينكر الجدل العقيم الذي لا يعتمد فيه الدليل والبرهان، ولا يرى الاعتماد عليه في نصرة الحق، وهذا يدل على أنه ينادي بالمنهج العلمي المعتمد على الأدلة والبراهين، وفي هذا العلم وحده كشف للحقائق وتمييز الحق من الباطل، وما أحوج أصحاب الحق في كشف زيف المزيفين ورد شبه المبطلين إلى هذا المنهج، وما أحوجهم إلى معرفة ما مع خصومهم من علم باطل مبني على الخيالات والأوهام، وتقليد أعمى وتعصب لأقوال الرجال، يقول ابن القيم: (. . . وأما أدلة هؤلاء فخيالات وهمية وشبه عسرة المدرك بعيدة التحصيل متناقضة الأصول غير مؤدية إلى معرفة الله ورسله والتصديق بها، مستلزمة للكفر بالله وجحد ما جاءت به رسله، وهذا لا يصدق به إلا من عرف ما عند هؤلاء، وعرف ما جاءت به الرسل، ووازن بين الأمرين فحينئذ يظهر له التفاوت، وأما من قلدهم وأحسن ظنه بهم ولم يعرف حقيقة ما جاءت به الرسل فليس هذا عشه بل هو في أودية هائم حيران ينقاد لكل حيران)[2].

وإذا كان الحق الواضح هو الذي يعرف بالدليل والبرهان، فإن أتباع هذا الحق قليل إذا قورنوا بغيرهم، لأن الدليل والبرهان لا يطلبهما كثير من الناس، والحق لا يعرف بالكثرة لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ

---

(١) المفتاح، ابن القيم ٢/٢١٢.

(٢) المرجع السابق ٢/٢١١، ٢١٢.

النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(١). ويقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(٢)، يقول ابن القيم في ذلك: (... وأكثر الخلق ترى نفوسهم مطيعة للأوهام الكاذبة مع علمهم بكذبها، وأكثر إقدام الخلق وإحجامهم بسبب هذه الأوهام، فإن الوهم عظيم الاستيلاء)(٣).

وابن القيم يرى أن التعصب للرأي، واتباع الهوى وتقديمهما على الشرع والعقل أصل كل فتنة، يقول رحمه الله: (... وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل، فالأول أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة)(٤).

آداب المربِّي:

هناك صفات للمربِّي الناجح لو توفرت لأدى مهمته على الوجه الأفضل والأكمل، منها ما له علاقة بالجانب السلوكي له، ومنها ما له علاقة بطلاب العلم ودارسيه، ومنها ما له علاقة بعموم الناس.

الآداب السلوكية للمربِّي:

يحذر ابن القيم المربِّي من الانغماس في ملذات الحياة الدنيا، لأن الدنيا تسحر قلوب العلماء والمربين. يقول رحمه الله: (... قال الإمام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: اتقوا السحارة، اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء)(٥).

وعلى العالم والمربِّي أن يكون مجاهداً في سبيل العلم بالحجة والبيان لأن هذا الجهاد لا يطيقه إلا القليلون من أتباع الرسل، يقول ابن القيم: (... ولهذا كان الجهاد نوعين، جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير،

---

(١) سورة يوسف /١٠٣.

(٢) سورة سبأ /١٣.

(٣) المفتاح، ابن القيم ٢/٤٧.

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/١٦٧.

(٥) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٨٦.

والثاني الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة)[1].

وحسن السمت والفقه في الدين من علامات الإيمان، ومن الصفات الأساسية للمربِّي، يقول ابن القيم: (... فإن حسن السمت والفقه في الدين من أخص علامات الإيمان)[2].

ودعوة الناس إلى الهدى، والصبر على الأذى في ذلك، وإحياء القلوب بالعلم والقرآن من صفات المربّين وأهل الفضل والعلم أورد ابن القيم جزءاً من خطبة لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جاء فيها ذكر هذه الصفات. (... الحمد لله الذي أمتن على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى، ويحيون بكتاب الله أهل العمى)[3].

ويحذر ابن القيم من الإقدام على الفتيا، لأن التحرج منها من صفات العلماء الحقيقين والمربين من سلف هذه الأمة وأئمتها. يقول رحمه الله: (... قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم المسألة، فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول، ما منهم من أحد إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا)[4]، ولا يعني التحرج من الفتيا أن يكتم العالم ما معه من علم بل عليه تعليمه غيره وتبليغه إيّاه للناس، ولقد كان سلف الأمة يعلمون الأمة ويربون الناس على منهج الإسلام، فلا يكتمون ولا يتوانون كما أنهم لا يتكلمون بما لا يعلمون. يقول ابن القيم: (... قال ابن مسعود رضي الله عنه، من كان عنده علم فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل: «الله أعلم» فإن الله قال لنبيه:

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/ ٧٠.
(٢) المرجع السابق ١/ ٧٥.
(٣) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن القيم ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم جـ ١ ص ٢٧٥، ٢٧٦.

﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1].

وليس عيباً أن يقول العالم أو المربِّي عن شيء لا يعرف الحكم فيه لا أدري، وهذا المبدأ ينبغي للمربِّي أن يغرسه في نفوس طلابه ويربيهم على ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[2]، يقول ابن القيم: (. . . قال مالك: . . . سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده «لا أدري» حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفزعون إليه)[3].

والمربِّي الجيد هو الذي يعرف قدر نفسه، فلا ينخدع بما يقال عنه، ولا يركن لثناء أحد عليه، ولا يدخله الفخر والغرور بما يرى من كثرة الناس حوله، وإذا رأى من جلسائه من يعطيه أكبر من حجمه ينبهه لذلك. يقول ابن القيم: (. . وذكر أبو عمر عن القاسم بن محمد أنه جاءه رجل فسأله عن شيء فقال القاسم: لا أحسنه، فجعل الرجل يقول: إني دفعت إليك لا أعرف غيرك، فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي، والله لا أحسنه)[4] ولكن الرجل لا يتركه بل يحاول أن يستخرج منه الفتوى. فيقول القاسم: (. . . والله لأن يقطع لساني أحب إليّ من أن أتكلم بما لا أعلم)[5].

وهذا المبدأ أعني التورع عن الفتيا والحذر من الإقدام عليها مبدأ سار عليه العلماء من رعيل هذه الأمة. يقول ابن القيم: (. . . وقال عبد الرحمن بن مهدي: جاء رجل إلى مالك يسأله عن شيء أياماً ما يجيبه، فقال: يا أبا عبد الرحمن إني أريد الخروج وقد طال التردد إليك، فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه، وقال: ما شاء الله، يا هذا إني إنما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير،

---

(١) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٨٥، سورة ص / آية ٨٦.

(٢) سورة الإسراء /٣٦.

(٣) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٨٦..

(٤) بدائع الفوائد. ابن القيم ١/٢٧٦.

(٥) المرجع السابق ١/٢٧٦.

ولَسْتُ أُحْسِـينُ مسألَتَك هــــذه)[1].

ومن صفات المربِّي التثبت فيما يعرض عليه من مسائـل وقضايـا قبل أن يجيب عنها أو يتحدث فيهـا، وهذا المبـدأ عرفـه العلماء الأوائـل وساروا على نهجه. يقول ابن القيم: فيما يرويه عن أحد العلماء(. . . وكان أيوب إذا سأله السـائل قـال له: أعـد، فإن أعـاد السؤال كما سـأله عنـه أولاً أجابـه، وإلا لم يجبـه، وهذا من فهمـه وفطنتـه رحمه الله، وفي ذلـك فوائـد عديـدة: منها أن المسألة تزداد ضوحاً وبيانـاً بتفهم السؤال، ومنها: أن السـائل لعله أهمـل فيها أمراً يتغير به الحكم، فإذا أعادها ربما بينه لـه، ومنها: أن المسؤول قـد يكون ذاهلاً أولاً ثم يحضر ذهنه بعد ذلك، ومنها أنه ربما بان له تعنت السـائل وأنـه وضع المسألة، فإذا غير الســؤال وزاد فيه ونقص فربما ظهر له أن المسـألة لا حقيقة لها وأنها من الأغلوطات أو غير الواقعـات التي لا يجب الجواب عنهـا، فإن الجواب بالظن إنما يجوز عنـد الضرورة، فـإن وقعت المسألـة صارت حـال ضرورة، فيكون التوفيق إلى الصواب أقرب)[2].

وباستعراض التاريخ نجـد أن علماءنـا على جانب كبيـر من هذا الـورع والتحرج، ولقد كان خوفهم شديداً من أن يفتوا بغير علم، ولقد كان اهتمامهم يصوب إلى توضيـح الأحكام وبيـان ذلك للنـاس بالـدليل الـواضح والبـرهان، وكانوا يطيلون النظر في المسائل العلمية بعين البصيرة الـواعية، يـذكر لنـا ابن القيم موقف بعض العلماء ممن عرضت عليه مسألة، وأطال النظر فيهـا أيامـاً. فيقول رحمه الله (. . . وجاء رجل إلى سحنون يسألـه عن مسألـة، فأقـام يتردد إليه ثلاثة أيام، فقال مسألتي أصلحك الله اليوم ثلاثة أيام، فقال له: وما أصنع بمسألتك، مسألتك معضلة وفيها أقاويـل، وأنا متحيـر في ذلك، فقـال: وأنت أصلحك الله لكل معضلة، فقال سحنون: هيهات يا ابن أخي ليس بقولك هذا أبذل لحمي ودمي للنار، ومـا أكثر مـا لا أعرف، إن صبـرت رجوت أن تنقلب

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم ١/٢٧٦، ٢٧٧.

(٢) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٨٧.

بمسـألتك، وإن أردت أن تمضي إلى غيـري فـامض تجب في مسـاءلتـك في ساعة، فقال: إنما جئت إليك، ولا استفتي غيرك، قال (فاصبر ثم أجـابه بعد ذلك)[1].

ومن صفات المربِّي الجـديـر أنـه لا يكتفي بما وصـل إليه من علم، بـل يـطلب المزيـد منه، ويتحمـل المشاق في سبيله، ويـرحل في طلبـه يقول ابن القيم وهـو يروي لنـا غزارة علم أسـلافنا، ومـدى حـرصهم على طلب العلم: (. . . وقال مسروق: قال عبد الله: ما أنزلت سـورة إلا وأنا أعلم فيمـا نزلت، ولو أني أعلم أن رجلاً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل والمطايا لأتيته)[2].

وسعة العلم تعطي المربِّي مكانة علمية عـالية وتـزيد نفعـه للناس عـامة وطلاب العلم على وجه الخصوص فيتسع مجلسه لطلاب العلم على اختـلاف تخصصـاتهم ويسعهم جميعاً بعلمـه وحلمه، ويشفق على كـل منهم. يقول ابن القيم واصفـاً مجلس أحد علمـاء الصحابـة وهو ابن عبـاس رضي الله عنهما: (. . . وقـال عـطاء بن أبي ربـاح: مـا رأيت مجلسـاً قط أكـرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقهاً، وأعظم جفنة، إن أصحاب الفقـه عنده، وأصحـاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر، يصدرهم كلهم في واد واسع)[3].

ومن أهم صفـات المـربِّي أن يعمل بعلمه، لأنـه يعلم من هم بين يـديـه بسلوكه وعمله ويربيهم على الخير والصلاح قبل قوله وكلامـه. يقول ابن القيم رحمه الله: (. . . من لم يعمل بعلمه لم يكن مهتدياً، كما في الأثر «من ازداد علماً، ولم يزدد هدى لم يزدد من الله تعالى إلا بعداً»)[4].

كما أورد رحمه الله حديثاً: («عن النبي ﷺ أنـه قال: أشـد الناس عـذاباً

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم ١/٢٧٧.

(٢) هداية الحيارى، ابن القيم ص ٢٣٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٣.

(٤) إغـاثـة اللهفـان، ابن القيم ٢/١٧٠، وهـو حـديث ضعيف جداً أخرجـه الـديلمي في مسنـد الفردوس عن علي. ضعيف الجامع الصغير، الألباني ٥/١٦٠، رقم ٥٤٠١.

يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»)[1].

وابن القيم المربِّي الكبير والعالم السلفي يعرف حق المعرفة الواجب الخطير الذي يقوم به المربِّي في المجتمع، ومسؤولية تبليغ دعوة الله لجميع الناس، فيضع له من الصفات ما يكون له عوناً في أداء هذه المهمة وتبليغ هذه الدعوة. فيقول: (. . . ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ، والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق: فيكون عالماً بما يبلغ، صادقاً فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضيّ السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله)[2].

والعالِم المربِّي صلة بين الرسول والأمة، يبلغ منهج الله للناس، ويبذل وسعه في تعليمهم إيّاه، ولا يأخذ منهم أجراً على ذلك، فمن كان بهذه المثابة فهو الذي تستغفر له كل الخلائق، أما من يقصر في تعليم الناس هذا العلم أو يشتري به عرضاً من الدنيا فإنه يأتي يوم القيامة وقد أُلجم بلجام من نار. يقول ابن القيم: (. . . قال ابن عباس رضي الله عنهما: علماء هذه الأمة رجلان: فرجل أعطاه الله علماً فبذله للناس، ولم يأخذ عليه صفداً[*] ولم يشتر به ثمناً، أولئك يصلي عليهم طير السماء وحيتان البحر ودواب الأرض والكرام الكاتبون، ورجل آتاه الله علماً فضن به عن عباده وأخذ به صفداً واشترى به ثمناً، فذلك يأتي يوم القيامة يلجم بلجام من نار)[3].

ومن صفات هذا المربِّي الفاضل أنه واضع خشية الله نصب عينيه، ولقد أخبر الله تعالى عن العلماء: (أنهم أهل خشيته، بل خصهم من بين الناس

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٧٦، والحديث ضعيف جداً رواه (طص، عد، هب) عن أبي هريرة. انظر ضعيف الجامع الصغير. الألباني ١/٢٨٠ رقم ٩٦٨.

(٢) أعلام الموقعين، ابن القيم ١/١٠.

(*) الصفد: العطاء. انظر القاموس المحيط، الفيروزآبادي. مادة (صفده).

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/٦٢، ٦٣.

بـذلـك، فقـال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(١).

وابن القيم يـرى أن مهمة العـالم المربِّي تنقيـة العلم من شوائبـه. يقول رحمه الله: (... عن النبي ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عـدوله ينفـون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»)(*)(٢).

وإذا أحـدقت الفتن، وادلهمت الخطوب واستحكم الهـوى على النفوس وطغت رغائب الدنيا على القلوب، فإن أشرف العلماء من يفر بدينه من ذلك ولا يسلم قياده لداعي الهـوى، يقول ابن القيم: (... أشـرف العلمـاء من هـرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده على الهوى)(٣).

وإذا بعد العالم المربِّي عن الخيانة فإنه يعطي بصيـرة في دينه وصـلاحاً في أمره وتنقاد له النفوس وتستجيب له القلوب ويتأثـر به النـاس أما من كـانت الخيـانة صفتـه وقلة الأمانـة دأبـه فـإنـه يسلب نـور العلم ويفقـد التـأثيـر على النفوس. يقول ابن القيم: (... وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خـان الرجـل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد ـ أو قال نسيه ـ، فقـال الشيخ: هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم)(٤).

ومن الصفـات التي تعين العالم والمـربِّي في عملهمـا عشقهمـا للعلم.

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٥١، سورة فاطر /٢٨.

(*) وهذه الصفة التي يذكرها ابن القيم يدرجها المربّون المعاصرون في وظائف المـدرسة بعنـوان: التطهير والتصفيـة ولها منـزلة كبيـرة في التربيـة الإسلاميـة التي تهتم بنفي الشوائب والبـدع عن تراث النبوة.

(٢) المفتاح. ابن القيم ١/٤٨ والحديث رواه (فر) للديلمي في مسند الفردوس من كنوز الحقائق. المناوي ٢/١٩٧. ط ٤ سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م. مكتبـة ومطبعـة / مصطفى البـابي الحلبي بمصر.

(٣) روضة المحبين، ابن القيم ص ٤٨١.

(٤) المرجع السابق ص ٤٨٠.

يقول ابن القيم: (... فالعالم يبلغ في العلم بحسب عشقه له...)[1]، واشتغال العالم بالعلم وتعليمه لغيره ودراسته وتحصيله بجانب أنه يزيد من ثروته العلمية فهو عبادة لله عزّ وجلّ، يقول ابن القيم خلال تعداده وجوه فضل العلم وشرفه: الوجه الحادي والخمسون بعد المائة: (... إن العالم مشتغل بالعلم والتعليم، لا يزال في عبادة، فنفس تعلمه وتعليمه عبادة. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يزال الفقيه يصلي»، قالوا: وكيف يصلي؟ قال: «ذكر الله على قلبه ولسانه»، ذكره ابن عبد البر، وفي حديث معاذ مرفوعاً وموقوفاً «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح»)[2].

والعالم المربِّي الذي حماه الله من الزيغ وأبعده عن شهوات الدنيا يجب عليه أن يحمد الله على ما أعطاه ويشكره على ما أولاه، يقول ابن القيم: (... وقال ابن أبي الدنيا بلغني من بعض العلماء أنه قال: ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما زوى عنه من شهوات الدنيا، كما يحمده على ما أعطاه.. فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه)[3].

وابن القيم يذكرنا بجانب من نظام التدريس أو نظام الدرس فهو يرى أنه يجدر بالعالم أن يفتتح درسه بحمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ، لأن هذا مفتاح الخير وسبب في سداد الرأي وإصابة القول، وعليه أن يختتم مجلسه ودرسه بدعاء رسول الله الذي تعلمه أصحابه منه ثم يصلي ويسلم عليه، فيقول رحمه الله: (... فحقيق بالمبلغ عن رسول الله ﷺ الذي أقامه الله في هذا المقام أن يفتتح كلامه بحمد الله تعالى، والثناء عليه، وتمجيده والاعتراف له بالوحدانية، وتعريف حقوقه على العباد ثم بالصلاة على رسول الله ﷺ، وتمجيده والثناء عليه وأن يختمه أيضاً بالصلاة عليه ﷺ)[4] بعد أن يدعو بالكلمات التي (... قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى

(١) روضة المحبين. ابن القيم ص ١٧٨.

(٢) المفتاح، ابن القيم ١/١٧٧.

(٣) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٠٨.

(٤) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن القيم ص ٢٤٩.

يـدعو [بهـا] ألا وهي. . «اللهـم اقسم لنا من خشيتـك ما تحـول به بيننـا وبين معصيتـك، ومن طاعتـك ما تبلغنـا به جنتـك، ومن اليقين ما تهـون بـه علينـا مضار(*) الدنيا. . »[1].

آداب المربِّي مع طلابه:

إن المربِّي الفاضل والعالم الجليل يعد مشعل هداية للخاصة من طلاب العلم والعـامة من النـاس، فهو يفيـد طلاب العلم بمـا يلقيه عليهم من دروس علمية وتوجيهات تربـوية، كمـا أنه ينفـع الناس ويحـل مشاكلهم ويجيب على مسـائلهم ويعلم الجاهـل منهم، فمن صفاتـه مع طـلابه وتـلاميـذه التـودد إلى الصغير منهم وملاعبته وملاطفته وتكنيته لإعـطائه الثقـة بنفسه وإدخـال الفرحـة إلى قلبه أسوة بـرسول الله ﷺ، المـربِّي الأعظم، يقـول ابن القيم: (. . . في الصحيحين من حديث أنس قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، وكان النبي ﷺ إذا جاء يقول له: يا أبا عميـر ما فعـل النغير، نغر كـان يلعب به، قـال الراوي: أظنـه كان فـطيماً. . . والتكنيـة نوع تكثير وتفخيم للمكنى وإكرام له، كما قال:

أكنيـه حين أنـاديــه لأكـرمــه ... ولا ألقبــه والسـوأة اللقب)[2]

والمربِّي الناجح هو الذي ينفذ وصية رسول الله ﷺ في الاهتمام بطلاب العلم. يقول ابن القيم: (. . . إن النبي ﷺ أوصى بطلبة العلم خيراً ومـا ذاك إلا لفضـل مـطلوبهم وشـرفـه. . . ، فقال: «إن النـاس لكم تبـع، وإن رجـالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»)[3].

(*) في الترمذي: مصيبات ٥/٥٢٨.

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص ١٢٤، والحديث رواه الترمذي كتاب الدعوات رقم الباب ٨٠. رقم الحديث ٣٥٠٢، ٥/٥٢٨.

(٢) تحفة المودود، ابن القيم، ص ١٣٤ ـ ١٣٥. والحـديث صحيح رواه (م، د ـ عن أنس). من صحيح الجامع الصغير وزيادته، الألباني ٤/١٩٩، رقم الحديث ٤٥٠٨.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/٧٦ والحديث رواه الترمذي في كتاب العلم باب مـا جاء في الاستيصـاء بمن يطلب العلم رقم ٢٦٥١، ٥/٣٠.

ولقد عرف علماء السلف وصية رسول الله هذه وفهموها وكانوا أمناء في تنفيذها، يقول ابن القيم: (حدثنا قتيبة حدثنا روح بن قيس عن أبي هرون العبدري . . . فكان أبو سعيد الخدري إذا رآنا قال: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ)[1]. ومن تمام تنفيذ هذه الوصية أن يشوق المربِّي طلابه إلى الجنة ويحثهم على العمل، يقول ابن القيم: (. . . وقال ربيعة بن كلثوم نظر إلينا الحسن ونحن حوله شباب فقال: «يا معشر الشباب أما تشتاقون إلى الحور العين»)[2].

ودور المربِّي لا يقتصر على تلقين المعلومات والاكتفاء في الناحية التعليمية بجانبها النظري، بل إنه يشمل هذا ويشمل المتابعة العملية في تصرفات طلابه وسلوكهم حتى أثناء جلستهم عند التعليم. يقول ابن القيم: (. . . وأما مذهب طاهر فإنه يجلس متربعاً متصدراً، ويأمر تلامذته بالجلوس على الرجل اليسرى، والاتكاء على اليسار)[3]، وهذا أثناء تعليمهم الرماية.

وعلى المربِّي أن يعدل بين طلابه حتى في تدريسه لهم، فلا يقدم أحداً على غيره بأكثر من درسين. يقول ابن القيم: (. . . إن الطالب المتعلم إذا سبق غيره إلى الشيخ ليقرأ عِليه لم يقدم بدرسين إلا أن يكون كل منهم يقرأ درسين)[4]، وفي هذا حث لطلاب العلم على المبادرة إلى الدرس والمثابرة عليه والاهتمام به وفيه أيضاً توجيه للمعلم بأن لا يفضل أحداً من طلابه على غيره لكن لو كان هناك فروق بينهم ينبغي له مراعاتها، لأن الله ميز بين البشر وجعل لكل إنسان من القدرات والإمكانيات ما يختلف به عن غيره.

وإذا لاحظ المعلم سمات النجابة على أحد تلامذته، وظهرت عليه علامات قبوله للعلم فينبغي أن يشجعه على ذلك وأن يستمع منه ما يجيب به

---

(١) المفتاح ابن القيم ١/ ٧٦.
(٢) حادي الأرواح، ابن القيم، ص ١٦٨.
(٣) الفروسية، ابن القيم ص ١٥٥.
(٤) المرجع السابق ص ١١٤.

عن مسائل العلم التي تخفى عليه هو. يقـول ابن القيم: (. . . إن بعض أهل العلم سئل عن مسألة، فقال: لا أعلمهـا، فقال أحـد تلامـذته: أنـا أعلم هذه المسـألـة فغضب الأستـاذ وهم بـه، فقــال لـه: أيهــا الأستـاذ لست أعلم من سليمان بن داود، ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولست أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ فلم يغضب عليه ولم يعنفه)[1].

وشفقـة المربِّي بتـلاميـذه لا تمنعـه من تـأديبهم إذا دعت الضـرورة إلى ذلـك، يشير إلى هـذا ابن القيم في معرض حـديثه عمـا يسمى قفلة الأصابـع الثلاث من اليد اليمنى عند الرمي بـالقوس، وذكـره أسلوب حذاق الـرماة مـع تلامذتها أن يجعلوا في أكفهم صنجة صغيـرة، ويقفوا[2] عليهـا، فإن سقـطت من كف أحدهم أدبه عليها. .)[3].

وإذا كانت التربيـة السليمة تبيـح التأديب للطالب فـإن هذا التـأديب إنما يكـون بقدر وأن لا يتجـاوز المعقول، فـإذا كان التـأديب معقـولاً وتضـرر منـه الطالب فلا ضمان على المعلم، لأنه في نظر ابن القيم مأذون له في التأديب، يقول رحمه الله: (. . . إذا بطَّ [الطبيب][4] من عاقل أو غيره ما ينبغي بطه في وقته، على الوجه الذي ينبغي، فتلف به لم يضمن. وهكذا سـراية كـل مأذون فيه لم يتعد الفاعل في سببها: كسراية الحد بالاتفاق، وسـراية القصـاص. . . وسراية التعزير، وضرب الرجل امرأتـه، والمعلم الصبي. . .)[5]، ويتضح من هـذا القول أن الجمهـور لا يرى الضمـان على المعلم إذا أدب تلميـذه، فـإن كانت التربية الحديثة اليوم لا تجيز العقوبة البدنية، فمبادئهـا من وضع البشر، وما كل ما يقولـه البشر حقـاً وصوابـاً، لكن الحق والصواب هـو ما يقـرره رب

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٧٣، سورة النمل /٢٢.

(٢) هكذا، ولعله تصحيف والصواب «يقفلوا» انظر الفروسية. ابن القيم، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت لبنان تصحيح السيد عزت العطار الحسيني ص ١٢١.

(٣) الفروسية، ابن القيم ص ١٦٥.

(٤) زيادة للإيضاح.

(٥) الطب النبوي، ابن القيم ص ١١٠.

البشر وخالقهم والذي يعلم مصالحهم حيث يقول: ﴿وَٱلَّـٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾[1] فجعل سبحانه الضرب عند الضرورة وسيلة من وسائل التأديب، لكن ينبغي أن يكون هذا الضرب غير مبرح لا يكسر عظماً ولا يريق دماً، ولقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «مروا أولادكم بالصلاة أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع»[2]، نلحظ من قوله ﷺ هذا جعل الضرب وسيلة من وسائل التأديب.

آداب المربِّي مع الناس عامة:

إن العالم المربِّي في رأي ابن القيم يرشد الناس إلى مواضع رضا الله، ويحذرهم من أسباب سخطه ويبين ما لهم إذا أطاعوه وما عليهم إنْ أسخطوه، فعليه أن يشعر بعظم المسؤولية المناطة به، يقول رحمه الله في ذلك: (. . . قال ابن المنكدر: العالم بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل بينهم)[3]، فهذه مسؤولية عظيمة يحتاج العلماء لأدائها أن يسيروا على هدى الأنبياء، لأنهم ورثة لهم في هذا العلم، فيجب أن يهتدوا بهداهم من استقامة السيرة، والصبر على أداء هذه المهمة، ومقابلة إساءة الناس بالصفح والاحسان، والرفق بهم ودعوتهم إلى مرضاه الله عزّ وجلّ، يوصي ابن القيم العلماء بـ (سلوك هدى الأنبياء وطريقتهم في التبليغ، من الصبر والاحتمال، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان والرفق بهم، واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق، وبذل ما يمكن من النصيحة لهم)[4].

---

(١) سورة النساء /٣٤.

(٢) الحديث رواه أبو داود، في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ـ جـ ١ ص ١٣٣.

(٣) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٨٦.

(٤) المفتاح، ابن القيم ١/٦٦.

وهذه المهمة التي يقوم بها العالم تجعل له مزية على غيره من الناس، لأنه يعلم الخلق ما لهم وما عليهم، ويبين لهم كيف يتعاملون مع خالقهم ومع أنفسهم ومع الحيوانات والمخلوقات حولهم، فبهذا أكرمهم الله وجعل جميع المخلوقات تستغفر لهم يقول في ذلك ابن القيم رحمه الله: (... إن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ويعرفهم ما يحل منها وما يحرم، ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها، وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وأرفقها بالحيوان)[1].

وإذا كان للعالم المربِّي هذه المسؤولية الخطيرة، فعمله إذاً في الوسط الاجتماعي والناس في المجتمع البشري متفاوتون في قدراتهم العقلية ومدى فهمهم واستيعابهم للأمور، فعليه أن يخاطبهم على قدر عقولهم، ولقد استشهد ابن القيم بأثر لعلي رضي الله عنه على هذا المعنى، فقال: (... قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»)[2] كما استشهد بأثر لابن مسعود رضي الله عنه، فقال: (... وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»)[3].

والعالم الذي يقوم بتعليم الجاهل يمارس بعض عمل الأنبياء، فشعوره بهذا يجعله يزاول مهنة التربية والتعليم بروح إيجابية فعالة، وبهمة لا تفتر ونشاط لا ينقطع، ولقد استشهد ابن القيم رحمه الله بحديث جاء فيه بيان فضل من يقومون بتعليم الجاهل وتفقيهه، وتشجيع رسول الله ﷺ لهم وجلوسه معهم، فقال رحمه الله: (... عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان، مجلس

---

(١) المفتاح ابن القيم ١/٦٥.

(٢) روضة المحبين، ابن القيم ص ٣٠٦، والأثر رواه البخاري في كتاب العلم باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا ١/٣٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٦.

يتفقهون، ومجلسٍ يدعـون الله تعالى، فقـال: «كلا المجلسين خير، أما هؤلاء فيدعون الله، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهـل، هؤلاء أفضل، بـالتعليم أرسلت»، ثم قعد معهم)[1].

والعالم المربِّي الماهر في عمله لديه فراسة صـادقة يستـطيع بهـا التمييز بين الناس ومعرفـة مستوى علمهم وفقههم من خـلال أسئلتهم التي يطرحـونها عليه، ولقد أورد ابن القيم قولاً لابن عباس يشير إلى هذا المعنى، فقال رحمه الله: (. . . وقـال ابن عباس رضي الله عنهمـا ما سـألني أحـد عن مسـألـة إلا عرفت أنه فقيه أو غير فقيه)[2].

والعالم لا يصل إلى درجة العلماء في نظر ابن القيم إلا إذا كان له لسان سؤول، وقلب عقول، فيسأل عما لا يعلم ويفكر فيما يسمع، فينال بذلك حظاً وافـراً من العلم. يقول رحمـه الله في وصفه لغـزارة علم ابن عباس رضي الله عنهمـا: (. . . قيل لـه [ابن عباس][3] أنّى أصبتَ هـذا العلم؟ قال: «بلسـان سؤول، وقلب عقول». . .)[4].

إنّ ما أوردناه من آداب المعلم التي نبـه عليها ابن القيم ممـا نحتاج إليـه في إعـداد المعلمين، لأن مهمة كليـات التربيـة ومعاهـد المعلمين هي: جعل طلاب هذه المعاهد أهلاً لتولي المهام التعليمية والمسؤولية التربوية لأجيـالنا. فما أحرانا أن نراجع خططنا ومناهجنا في المؤسسات المشار إليها على مـا في

---

(١) المفتـاح، ابن القيم ١/٧٧، والحديث روى مثله الـدارمي، قـال: «عن عبـدالله بن عمـرو أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده، فقال: كلاهما على خير واحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبـون إليه، فـإن شاء أعـطاهم وإن شاء منعهم، وأمـا هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم، ويعلمون الجاهل، فهم أفضـل وإنما بعثت معلمـاً قال ثم جلس فيهم» أ. هـ من سنن الـدارمي، باب فضـل العلم والعالم ١/٩٩. طبعـة دار إحياء السنـة النبويـة، طبع بعنـاية محمد أحمد دهمان.

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم ص ٢٣٣.

(٣) زيادة للإيضاح.

(٤) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم ص ٢٣٣.

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم اجتهادات علمائنا والمربين فينا كابن القيم وغيره، وهذا لا يعني أن نغفل الاستفادة أيضاً مما عند الآخرين.

آداب طالب العلم:

لطالب العلم الجيد صفات وأخلاق تعينه على طلبه وتحصيله، منها ما يتعلق بجوانب سلوكه، ومنها ما له علاقة بتعامله مع العلم، ومنها ما يتعلق بتعامله مع أستاذه ومربيه. وقد عني ابن القيم بهذه الأمور التي نعرض رأيه فيها فيما يأتي:

أولاً ـ الآداب السلوكية:

إذا أراد طالب العلم الكمال فيه فعليه الابتعاد عن المعصية وغض طرفه عن المحرم، بذلك يفتح طرق العلم لنفسه. يقول ابن القيم عن غض البصر إنه: (... يفتح له طريق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات، وانكشفت له بسرعة ونفذ من بعضها إلى بعض، ومن أرسل بصره تكدر عليه قلبه وأظلم وانسد عليه باب العلم وطرقه) [١].

وليحذر طالب العلم من ارتياد أماكن اللهو ومنتديات السوء، لأنه قد يصل في العلم درجة كبيرة وينال من الحكمة الشيء الكثير وينفتح قلبه لذلك، لكنه بمجرد مروره على هذه الأماكن يختلط عليه العلم وتتوارى عنه الحكمة. يقول ابن القيم: (... وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شيء له، ثم يمر بباطل ولهو من غناء أو شبهة أو زور أو غيره فيصغي إليه، ويفتح له قلبه حتى يتأدى إليه فيتخبط عليه ذلك الذي سمعه من العلم والحكمة، ويلتبس عليه الحق بالباطل) [٢].

وللبدع ضرر خطير على القلب فإنها تلوثه حتى لا يعي معاني العلم ولا

---

(١) روضة المحبين، ابن القيم ص ١٠٢.

(٢) الروح، ابن القيم ص ١٠٤.

يفهمه كما ينبغي، فالقلوب المتلوثة بالبدع لا تدرك معاني كتاب الله، فلا حظَّ في فهمه إلا للقلوب الطاهرة، يقول ابن القيم بشأن القرآن: (... لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي)(1).

وعلى طلاب العلم في رأي ابن القيم الحرص على وقتهم، وعدم صرفه في المهاترات الفارغة والهذيانات الباطلة التي لا فائدة منها، يقول رحمه الله: (... فالأولى بأهل العلم الإعراض عن الاشتغال بدفع هذه الهذيانات)، (2) وعليهم أن لا يقولوا بشيء إلا وعندهم فيه علم ولا يتماروا ولا يضربوا كتاب الله بعضه ببعض. يقول رحمه الله: (... سمع النبي ﷺ قوماً يتمارون في القرآن فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، ولا يكذب بعضه بعضاً) (3).

ومن صفات طالب العلم عند ابن القيم أن لا يتكلم إلا إذا ظهرت له الحقيقة، واتضحت له المسألة، ولا يعيبه ولا ينقص من قدره أن يقول فيما لا يعلم: الله أعلم، قال ﷺ: (... « فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه » فأمر من جهل شيئاً من كتاب الله أن يكله إلى عالمه ولا يتكلف القول بما لا يعلمه) (4).

وفي هذا إرشاد وتوجيه من هذا المربِّي الفاضل لطلاب العلم أن يتحلوا بروح الصدق والأمانة العلمية ومعرفة قدر النفس، وعدم التظاهر أمام الآخرين بغير الحقيقة، وما يقرره ابن القيم في هذا سبق أن قرره ونادى به علماء

---

(1) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، دار الكتب العلمية ص ١٤٣.

(2) الروح، ابن القيم ص ١٣٥.

(3) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٨٤، والحديث رواه أحمد في مسنده ٢/١٨١. بألفاظ متقاربة.

(4) المرجع السابق ٢/١٨٤، وهذا من حديث رواه أحمد في مسنده ٢/١٨٥.

السلف: (... قال أبو إسحاق: قال علي: كلمات لو رحلتم المطي فيهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن، لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم) [١].

وإذا كان التكاثر بالمال والجاه وحظوظ الدنيا مذموماً شرعاً فأسوأ منه التكاثر بالعلم والمباهاة به والتفاخر، يقول ابن القيم محذراً طلاب العلم من التكاثر بالعلم والتفاخر به: (... فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثراً وتفاخراً، وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها) [٢].

وليعلم طالب العلم أن مجرد العلم لا يرفعه إلا إذا قرن علمه بالعمل. يقول ابن القيم في تفسير قول الله عز وجل ﴿... **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا**﴾[٣]: (ففي ذلك دليل على أن مجرد العلم لا يرفع صاحبه، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها، فالرفعة بالعلم قدر زائد على مجرد تعلمه)[٤].

وإذا رغب طالب العلم صون العلم وحفظه فعليه المبادرة بالعمل به. يقول ابن القيم: (... قال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به، وقال بعض السلف أيضاً: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل، فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته، وترك العمل به إضاعة له فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل) [٥].

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٦٨.

(٢) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٤٢.

(٣) سورة الأعراف /١٧٦.

(٤) روضة المحبين، ابن القيم ص ١٩٤.

(٥) المفتاح، ابن القيم ١/١٧٢.

وإذا كان سوء الفهم المقترن بسوء القصد أصل كل بدعة وضلالة وسبب الخطأ في الأصول والفروع، فعلى طالب العلم أن يكون جيد الفهم سليم القصد ليبتعد عن تلويث القلب بالبدع وانحراف الفكر بالضلال. يقول ابن القيم: (. . . بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هي أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إن اضيف إليه سوء القصد) [1].

وإذا كانت الحكمة ضالة المؤمن أنىّ وجدها فهو أحق بها فهذه الصفة حريّ بطالب العلم أن يتصف بها، فيكون طالباً للحقيقة ساعياً لها، يتقبلها من أي مصدر كانت، كما عليه أن يبتعد عن التعصب لأقوال الرجال، يقول ابن القيم: (. . . ولهذا يورد على بعض العوام مسألة عقلية جلية فيقبلها فإذا قلت هذا مذهب الأشعري أو المعتزلي أو الظاهري أو غيره نفر عنه إن كان سيىء الاعتقاد فيمن نسبتها إليه، وليس هذا طبع العامي بل طبع أكثر العقلاء المتوسمين بالعلم، إلا العلماء الراسخين الذين أراهم الله الحق حقاً وقواهم على اتباعه) [2].

وإذا كان طالب العلم له أفضلية، وجزاء طالب العلم هو أن ييسر الله له طريقاً إلى الجنة، فحريّ بطالب العلم أن يتذكر هذا الثواب العظيم ليكون له دافعاً إلى الطلب والتحصيل، يقول ابن القيم: (. . . من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (. . . من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم) [3].

ثانياً ـ الصفات العلمية لطالب العلم:

طالب العلم بعيد عن التكبر لا يمنعه الحياء من أن يتفقه في الدين،

---

(١) الروح، ابن القيم ص ٦٣.

(٢) المفتاح، ابن القيم ٢/ ٤٧.

(٣) المرجع السابق ١/ ٦٣. وهذا الحديث جزء من حديث رواه البخاري في كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل ١/ ٢٣، ٢٤.

ولا يفتر عن التردد على العلماء، يسعى وسعه في طلب العلم وتحصيله . .[1]

وللسؤال في نظر ابن القيم قيمة علمية كبيرة لا سيما إذا أضيف إليه حسن الإصغاء يقول رحمه الله: (. . . ومفتاح العلم حسن السؤال، وحسن الإصغاء)[2] فهو بهذا يحث طالب العلم على أن يحسن السؤال إذا سأل، ويحسن الإصغاء إذا استمع . هاتان الصفتان تكسبان صاحبهما علماً غزيراً .

وابن القيم يرى أن بعض الأخلاق الذميمة كالتملق والذل وترك الحياء تحمد في طلب العلم ولا تذم، فلو تحلى بها طالب العلم فلا حرج عليه ولا بأس. يقول رحمه الله: (. . . إن كثيراً من الأخلاق التي لا تحمد في الشخص بل يذم عليها، تحمد في طالب العلم كالملق وترك الاستحياء والذل والتردد على أبواب العلماء ونحوها، قال ابن قتيبة جاء في الحديث: «ليس الملق من أخلاق المؤمنين إلا في طلب العلم»، وهذا أثر عن بعض السلف، وقال ابن عباس [رضي الله عنهما] (*) ذللت طالباً فعززت مطلوباً، وقال: وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار، إن كنت لأقيل عند باب أحدهم ولو شئت أذن لي، ولكن ابتغي بذلك طيب نفسه)[3].

ويوصي ابن القيم طالب العلم على أن يحرص على تعلم ما يجهله ولا يستحي من ذلك، ولا يستحي إذا سئل عن شيء لا يعرفه أن يقول لا أعلم فعليه أن يتعلم ما لا يعلمه، لأن العلم بالتعلم، وكذلك الفقه بالتفقه فيقول رحمه الله: (. . . عن علي رضي الله عنه قال: خمس إذا سافر فيهن رجل إلى اليمن كن فيه عوضاً عن سفره: لا يخشى عبد إلا ربه ولا يخاف إلا ذنبه ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم)[4] .

---

(١) انظر المفتاح، ابن القيم ١/١٦٨.

(٢) حادي الأرواح، ابن القيم ص ٥٤ .

(*) زيادة من الباحث.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/١٦٨ .

(٤) أعلام الموقعين، ابن القيم ٢/١٨٥ .

وابن القيم يوصي طالب العلم أن يرحل في طلبه إذا رأى المصلحة في ذلك، لأن أمر هذه الرحلة محمود، ولقد رحل نبي من أنبياء الله لطلب العلم وكابد وتحمل المشاق في هذه الرحلة حتى التقى برجل تعلم منه ثلاث مسائل، وهذا النبي هو موسى عليه السلام، يقول ابن القيم بشأن لقاء موسى الخضر: (... فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه، وقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه، وقال: ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدَاً﴾ فلم يجيء ممتحناً ولا متعنتاً وإنما جاء متعلماً مستزيداً علماً إلى علمه) [1]، وهذه الرحلة دفعه إليها إخبار الله إيّاه أن هناك من هو أعلم منه، فأراد أن يتعلم من علمه، وفي هذا توجيه لطالب العلم أن يبحث عن ذوي الاختصاصات العلمية من العلماء ليستفيد منهم، وهذا ما يوصي به ابن القيم حيث يقول: (... ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها... فإنه إلى الإصابة أقرب...) [2].

ولا يفوت ابن القيم أن يذكّر طالب العلم الذي يرتحل ويتحمل مشاق الرحلة ووعثاء السفر أن يبتغي بعمله وجه الله عز وجل، وأن يخبر العالم بالهدف من مجيئه كما أن على العالم أن يرحب به ويبشره بمثوبة الله له ورضا الملائكة وحبهم لما يطلبه. فيقول رحمه الله: (... وفي السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال، قال: قلت يا رسول الله: إني جئت أطلب العلم، قال: «مرحباً بطالب العلم، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها، فيركب بعضها بعضاً، حتى تبلغ سماء الدنيا من حبهم لما يطلب») [3]

ولأهمية الرحلة في طلب العلم يقول ابن القيم في معرض رده على الجهمية والمعطلة: (... ولو نعلم أن في الأرض من يقول ذلك ويقوم به تبلغ إليه أكباد الإبل، اقتدينا في السير بموسى عليه السلام في سفره إلى

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٥٥، سورة الكهف /٦٦.

(٢) الطب النبوي، ابن القيم ص ١٠٥.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/٦٤.

الخضر وبجابر بن عبد الله رضي الله عنهما في سفره إلى عبد الله بن أنيس لسماع حديث واحد) (*) (١) .

ويبين ابن القيم أن من الصفات الأساسية في طالب العلم بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية. يقول رحمه الله: (... وأما سعادة العلم فلا يورثك إيّاها إلا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية) (٢) .

ولقد أوصى ابن القيم طلاب العلم بالأخذ بمراتبه من السماع والفهم والتعاهد والتبليغ. فيقول: (... فإن النبي ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه، وهذه هي مراتب العلم، أولها وثانيها سماعه وعقله، فإذا سمعه وعاه بقلبه أي عقله واستقر في قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يخرج منه وكذلك عقله، فهو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب، ولهذا كان الوعي والعقل قدراً زائداً على مجرد إدراك المعلوم، المرتبة الثالثة تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب، المرتبة الرابعة تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده) (٣)، وهذا يدل أن عملية التعلم أخذ وعطاء تفاعل وبناء.

ويوصي ابن القيم طالب العلم أن يفتش عنه ويبحث فيه ويكتبه حتى ينال حظه منه فيستفيد القلب منه والجوارح، لأنه من أفضل الأعمال. يقول رحمه الله: (... ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال) (٤).

ومن الأدب في نظر ابن القيم أن يحرص الطالب عند مجالسة العلماء

(*) أورده البخاري في كتاب العلم باب الخروج في طلب العلم: «... ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس في حديث واحد» ١/ ٢٥.

(١) الصواعق المرسلة، ابن القيم ص ١٥٥.

(٢) المفتاح، ابن القيم ١/ ١٠٨.

(٣) المرجع السابق ١/ ٧١، ٧٢.

(٤) المرجع السابق ١/ ١٧٨.

على أن يسمع أكثر من أن يتكلم، يقول رحمه الله في وصيته لطالب العلم: (. . . إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول) [1]

ويرى أن على طالب العلم إمعان النظر في النصوص وفهمها على مراد الشارع وعدم تحميلها ما لا تحتمل، وعدم التقصير بها عن مرادها. يقول رحمه الله: (. . . فأعط ألفاظ رسول الله ﷺ حقها ونزلها منازلها يتبين لك المراد. . .) [2]، كما يقول: (. . . فلا يحمّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصّر به عن مراده، وما قصده من الهدى والبيان) [3]، وفي هذا إشاعة للروح العلمية الأصيله التي تلتزم الأمانة في النقل والصدق في الخبر والدقة في الفهم والإخلاص في النية، كما يشير إلى أن هناك منهومين لا يشبعان: طالب العلم، وطالب المال، فإذا كان النهم في المال والتكالب على الدنيا مذموماً، فإن النهم في العلم أمر مطلوب، فابن القيم يذكر حديث أبي هريرة الذي يرفعه إلى النبي ﷺ والذي جاء فيه: («. . . قال: [أي موسى] (*) أي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم، يجمع علم الناس إلى علمه». . . فأخبر في هذا الحديث أن أعلم عباده الذي لا يشبع من العلم، فهو يجمع علم الناس إلى علمه لنهمته في العلم وحرصه عليه) [4].

كما يرى رحمه الله أن على طالب العلم الحريص عليه أن يحافظ على العلم من آفاته التي أوردها عن النسابة البكري، والتي يقول فيها: (. . . إن للعلم آفةً، ونكداً وهجنةً، فآفته نسيانه، ونكده الكذب فيه وهجنته نشره عند غير أهله) [5] .

وإذا كان العلم لا يناله إلا من يعطيه كل وقته، فحريّ بطالب العلم

---

(1) المفتاح، ابن القيم ١/١٦٩.
(2) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٢١٩.
(3) الروح، ابن القيم، ص ٦٢.
(*) زيادة من الباحث.
(4) المفتاح، ابن القيم ١/١٥٩.
(5) المرجع السابق ١/١٦٨، ١٦٩.

ـ في نظر ابن القيم ـ أن يصرف كل وقته في طلبه وتحصيله، وأن يكون عاشقاً له، لا يشغله عنه أي شاغل، يقتني من كتب العلم ما يكون له عوناً في الطلب والتحصيل يقول رحمه الله مشيراً إلى هذا: (. . . وأما عشاق العلم فأعظم شغفاً به وعشقاً له من كل عاشق بمعشوقه، وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر، وقيل لامرأة الزبير بن بكار أو غيره هنيئاً لك إذ ليست لك ضرة، فقالت: والله لهذه الكتب أضر عليّ من عدة ضرائر)[1]، والأخبار التي يرويها ابن القيم عن علماء السلف الذين يصرفون كل وقتهم للعلم والتي تعد نبراساً لطلاب العلم اليوم أكثر من أن تحصى، لكن نذكر منها على سبيل المثال ما رواه عن عبد الرحمن بن تيميه أخي شيخه عن أبيه: (. . . قال: كان الجد إذا دخل الخلاء يقول لي اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع)[2]، ثم قال رحمه الله: (. . . وأعرف من أصابه مرض من صداع وحمى وكان الكتاب عند رأسه فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك، فقال: إن هذا لا يحل لك فإنك تُعين على نفسك، وتكون سبباً لفوات مطلوبك) [*]

وابن القيم يرى أن الاستمرار على طلب العلم والمثابرة عليه وقضاء العمر فيه يكسب طالب العلم المتصف بهذه الصفة منزلة الشهيد، واستشهد رحمه الله على هذا بأثر عن بعض الصحابة فقال: (. . . وجاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد) [٢] .

---

(١) روضة المحبين، ابن القيم ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق ص ٧٠.

(*) فسلف هذه الأمة كانوا يشغلون جميع أوقاتهم في طلب العلم ودراسته والاستماع إليه والنظر فيه في حال الصحة والمرض، وحال الفراغ والشغل، لا يشغلهم عنهم شاغل، ولا يلهيهم عنه لهو باطل لذا ورثوا لنا هذا التراث العلمي بجهدهم المضني وأفكارهم النيرة، فما أحرى خلفهم اليوم أن يسيروا على نهجهم إن أرادوا لأنفسهم العز والتمكين والسير في مقدمة القافلة البشرية.

(٣) روضة المحبين، ابن القيم ص ٧٠.   (٢) المفتاح، ابن القيم ١/ ٧١.

والاشتغال بالعلم والكتابة والتأليف فيه يكسب الطالب بلاغة في القول وفصاحة في اللسان، يذكر ابن القيم أن أحد العلماء سئل: (... متى يكون الفتى بليغاً؟ قال: إذا صنف كتاباً...) [١].

ثالثاً ـ آداب طالب العلم مع أستاذه:

يحتاج طالب العلم إلى ملازمة شيخ والاستفادة منه، لأن العلم سنة متبعة، يؤخذ من أفواه الرجال، ومن أخذه من بطون الكتب أخذ ما لا ينجيه غداً يوم القيامة ويقال من كان دليله كتابه فخطؤه أكثر من صوابه.

والرأي عند ابن القيم أن طالب العلم إذا لازم شيخاً فعليه أن يأخذ بإرشاداته وتوجيهاته، يروي ابن القيم قولاً لوهب بن منبه جاء فيه: (كنت عند مالك بن أنس فحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه، وأنظر في العلم بين يديه، فجمعت كتبي وقمت لأركع[٢] فقال لي مالك: ما هذا؟ قلت: أقوم إلى الصلاة، فقال: إن هذا لعجب!! ما الذي قمت إليه أفضل من الذي كنت فيه إذا صحت فيه النية)[٣].

وابن القيم يرى أنه يجب على طالب العلم التلطف في السؤال وعدم مماراة العالم، وأن يحرص على الإصغاء له والاستماع منه، يقول رحمه الله: (... وذكر عبد الله بن أحمد في كتابه العلل، قال: كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس فكان يخزن علمه عنه، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له في السؤال فيعزه بالعلم عزاً، وقال ابن جريج لم استخرج العلم الذي استخرجته من عطاء إلا برفقي به، وقال بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول)[٤]، وفي هذا بيان لأهمية التأدب مع المعلم والتلطف معه، ليكون هذا سبباً في استحراج ما

(١) روضة المحبين، ابن القيم ص ١٧٥.

(٢) أي لأصلي النافلة.

(٣) المفتاح، ابن القيم ١/١٧٧.

(٤) المرجع السابق ١/١٦٩.

عنده من علم. وإذا كان من واجب الطالب التأدب مع معلمه، فلا تعتبر مفاوضته له خروجاً عن هذا الأدب، وقد كان ابن القيم يفاوض أستاذه ابن تيمية رحمهما الله ذكر هذا عن نفسه خلال قوله: (... فكان بعض السلف الصالح يتصدق بين يدي الصلاة والدعاء إذا أمكنه، ويتأول هذه الأولوية، ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية يفعله ويتحراه ما أمكنه، وفاوضته فيه، فذكر لي هذا التنبيه والإشارة) [1].

ونحن إذ نورد هذه الآداب التي ينبه عليها ابن القيم رحمه الله لابد أن ننظر في أحوال طلابنا اليوم نظرة تقويم، فهل هم آخذون أنفسهم بهذه الآداب المستقاة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والتي لا حياة للعلم وطلابه إلا بها؟ ولا بد أن نسأل هل يهتم المربون والمعلمون والمدرسون والأساتذة بتوجيه أبنائنا إلى هذه الآداب وبنائها في نفوسهم؟

---

(١) المفتاح، ابن القيم ٢/٣٣.



الفصل الثالث

توجيه المؤسسات التربوية

١ ـ تمهيد.
٢ ـ الأسرة مؤسسة تربوية.
ـ العلاقة بين الزوجين.
ـ الحضانة.
ـ الطفولة.
ـ المسؤولية التربوية.
ـ المسؤولية التعليمية.
٣ ـ المسجد مؤسسة تربوية.
٤ ـ مجالس العلماء ودورها التربوي.
٥ ـ المدرسة مؤسسة تربوية.

توجيه المؤسسات التربوية

١ ـ تمهيد:

إن التربية التي ينادي بها ابن القيم ـ تلك التربية التي وضحت معالمها، واستمدت من منهج الله الصافي ومعينه الذي لا ينضب: كتاب الله الكريم وسنة نبيه الأمين ﷺ ـ هي تربية إيجابية وفعّالة، تربي الفرد وتجعله يتكيف مع الوسط الاجتماعي المؤمن الذي يعيش فيه، وتحدد مسؤوليات كل مؤسسة اجتماعية تجاه هذه التربية، فالأسرة لها دور في التربية، تصبغ الفرد بصبغة معينة ذات نمط يحدده سلوك كل من الأبوين والإخوة وأفراد الأسرة عامة، فالفرد في هذه الأسرة يتأثر ويؤثر، يأخذ ويعطي. وكذلك المسجد له دور تربوي هام في تربية أفراد المجتمع، ودور تعليمي بالغ الأهمية في تعليمهم وتثقيفهم، ولقد عرّفنا نبيُّ الرحمة ومعلم البشرية أهمية هذا الدور بسنته العملية فكان أول عمل تنفيذي بعد الهجرة بناؤه للمسجد، ليكون مكاناً للعبادة. ومنتدى للشورى، ومدرسة للتربية، ثم أعقب هذه بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

وفي العصور الزاهرة لأمة الإسلام كان للمسجد دوره الإيجابي والفعّال في التربية والتعليم، قبل أن تنقل منه أعماله ومسؤولياته إلى أماكن أخرى. أما عندما جرد من كثير من مهامه فإن رسالته قد تعطلت، وأصبح فقط مكانا لإقامة الصلاة، يفتح قبلها بدقائق، ثم تقفل أبوابه، ويحكم إغلاقها بعد الصلاة مباشرة. عندما أصبح المسجد بهذه المثابة أصبح أفراد المجتمع كقطيع الأغنام في الليلة الشاتية المطيرة، وأصبحنا نسمع بين الفينة

والأخرى مؤتمرات تعقد باسم رسالة المسجد ونحن نرجو خير هذه المؤتمرات ونخشى أن تكون صيحة لا تجاوز الألسن والآذان، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

ولا ننتظر العزة في الدنيا والتمكين في الأرض والرفعة عند الله إلا إذا عرفنا لهذه المؤسسة دورها التربوي ورسالتها العلمية، وهيأنا لها المناخ المناسب لأداء هذا الدور.

ومجالس العلماء لها دور في عملية التربية والتعليم.

وإننا في هذا الفصل سنتناول بإذن الله تعالى بيان الدور التربوي لهذه المؤسسات كما جاء في فكر ابن القيم، فعلى الله اعتمادنا وعليه التوكل فهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

٢ ـ الأسرة مؤسسة تربوية:

يرى ابن القيم أن للأسرة دوراً تربوياً هاماً فهي المحضن الأول للطفل، حملته الأم جنيناً في بطنها تسعة أشهر ورعته طفلاً، ونشَّأته يافعاً، والأسرة الواعية المثقفة التي تعرف مسؤوليتها تحرص على أن تعده ليكون رجل الغد وباني المستقبل.

وتتضمن هذه الفقرة: نوعية العلاقة الرابطة بين الزوجين، ومهمة الأسرة في فترة الحضانة، ومسؤوليتها في فترة الطفولة، ومسؤوليتها التربوية والتعليمية في فكر ابن القيم.

العلاقة بين الزوجين:

للزواج في نظر ابن القيم مقاصد هامة وعظيمة، منها تكثير سواد الأمة، لأن أمة الإسلام أمة مجاهدة صاحبة رسالة وحاملة دعوة، فهي بحاجة إلى تكثير سوادها لتعوض ما تفقده من رجالها في ميدان الجهاد. يقول رحمه الله: (. . . إن كثرة العيال ليس أمراً محذوراً مكروهاً للربّ تعالى، كيف وخير هذه الأمة أكثرها نساء. وقد قال النبي ﷺ: «تزوجوا

الودود الولود فإني مكَاثر بكم الأمم»، فأمر بنكاح الولود ليحصل منها ما يكاثر به الأمم يوم القيامة) [(١)].

الحضانة:

يرى ابن القيم رحمه الله أن حق الولد على أبويه يبدأ من أول أيام ولادته فمن حقه أن يختار له اسماً، واختيار الاسم للأب. يقول رحمه الله: (... وأن الأبوين إذا تنازعا في تسمية الولد فهي للأب) [(٢)]، ويقول أيضاً: (... فالتعريف كالتعليم والعقيقة وذلك إلى الأب لا إلى الأم، وقد قال النبي ﷺ: «ولد لي الليلة مولود فسميته باسم أبي إبراهيم») [(٣)]، وفي هذا بيان اهتمام الأسرة بهذا الطفل من أول أيام حياته. ومن توجيهات ابن القيم التربوية تأكيد حسن اختيار اسم هذا الطفل، والاسترشاد بهدي رسول الله ﷺ في ذلك، ولقد عقد رحمه الله فصلاً في كتاب تحفة المودود، بعنوان: «الفصل الثاني فيما يستحب من الأسماء وما يكره منها») [(٤)] أورد فيه أحاديث أبي الدرداء، وابن عمر، وجابر، وأبي وهب الجشمي رضي الله عنهم، وقد بسط القول في بيان الحكم النفسية والتربوية المترتبة على حسن اختيار اسم المولود، كما ذكر الآثار السيئة لسوء اختيار الاسم [(٥)].

ومن التوجيهات التربوية التي يسديها ابن القيم للأم الاهتمام بالوليد الصغير الذي يحتاج إلى الرعاية الدائمة والملاحظة المستمرة، فيقول: (وينبغي أن لا يهمل أمر قماطه ورباطه ولو شق عليه، إلى أن يصلب بدنه، وتقوى أعضاؤه، ويجلس على الأرض، فحينئذ يمرن ويدرب على الحركة

---

(١) عدة الصابرين، ابن القيم ص ١٢٨. والحديث روى قريباً منه أحمد «عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة وينهى عن التبتل نهياً شديداً ويقول: «تزوجوا الودود الولود إني مكاثرالأنبياء يوم القيامة» مسند أحمد ١٥٨/٣.

(٢) تحفة المودو.، ابن القيم ص ١٣٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٣٥، والحديث رواه أحمد في مسنده. ١٩٤/٣.

(٤) انظر المرجع السابق ص ١١١.

(٥) انظر تحفة المودود، ص ١١٤، ١١٦، ١١٧.

والقيام قليلاً قليلاً إلى أن يصير له ملكة وقوة يفعل ذلك بنفسه) [١] .

وإذا كانت هذه التوجيهات لها علاقة بتربية الطفل جسمياً، فإن ابن القيم ينادي أيضاً برعاية صحته النفسية، لذا يوصي الأم وهي أول مسؤول عن تربية الطفل. فيقول: (. . . وينبغي أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه، من الأصوات الشديدة الشنيعة والمناظر الفظيعة والحركات المزعجة) [٢] .

ولا يكتفي بذلك بل يذكر الضرر من مثل هذا على صحة الطفل النفسية. فيقول: (. . . فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها فلا ينتفع بها بعد كبره) [٣] ، وإذا تعرض الطفل لشيء من ذلك، فإن ابن القيم يوصي باتخاذ التدابير اللازمة للوقاية من الأضرار النفسية على الطفل. فيقول: (. . . فإذا عرض له عارض من ذلك فينبغي المبادرة إلى تلافيه بضده وإيناسه بما ينسيه إيّاه، وأن يلقم ثديه في الحال ويسارع إلى رضاعه ليزول عنه ذلك المزعج له، ولا يرتسم في قوته الحافظة فيعسر زواله، ويستعمل تمهيده بالحركة اللطيفة إلى أن ينام فينسى ذلك) [٤] .

كما أنه يوصي بعدم إهمال التصرف تجاه هذا الموقف، لأن في الإهمال ضرراً بالصحة النفسية للطفل. فيقول: (. . . ولا يهمل هذا الأمر فإن في إهماله إسكان الفزع والروع في قلبه، فينشأ على ذلك، ويعسر زواله ويتعذر) [٥] .

إن هذه التوجيهات التربوية قيمة ولو اتبعها المسؤولون عن الطفل في تربيتهم إيّاه لعاش في صحة نفسية وأمن نفسي بعيداً عن القلق والاضطراب.

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

ذاكـرتـه سليمـة من الخلل، وعقله واعٍ مـدرك. وهي تـدل على عمق الفكـر التربوي لهذا المربِّي السلفي.

ومن توجيهاته كذلك أنه يطمئن الأبوين حـال بكاء الـطفل، ويـذكرهـم، بما قد يجهلانه من الفوائد في بكـائه. فيقـول: (... ولا ينبغي أن يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه، ولا سيما لشربه اللبن إذا جاع، فإنه ينتفع بذلك البكاء انتفاعاً عظيماً، فإنـه يروض أعضـاءه، ويوسـع أمعاءه، ويفسـح صدره، ويسخن دماغه، ويحمي مزاجه ويثير حرارته الغريزية، ويحرك الطبيعة لدفع ما فيها من الفضول، ويدفع فضلات الدماغ من المخاط وعيره)[1].

وابن القيم رحمـه الله يبين أن الرضـاع حق للطفـل على أبـويـه حـولين كاملين، فإذا تشاورا ورأيا أن المصلحة في فطامه قبل هذه المدة فلهمـا ذلك، كما أن من حق الأب في حال الخلاف مع الأم أن يسترضع له أخرى غيرها إن كـانت مصلحة الـطفـل في ذلـك. يقـول رحمـه الله في شـرح قـولـه تعـالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[2]: (... فـدلت الآية على عـدة أحكام: أحـدها: أن تمـام الرضـاع حولان[*]، وذلك حق للولد، إذا احتاج إليه ولم يستغن عنه وأكدهمـا بكاملين لئـلا يحمل اللفظ على حـول وأكثـر، وثـانيهمـا: أن الأبـوين إذا أرادا فـطامـه قبـل ذلـك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك، وثالثهـا: أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك وإن كرهت الأم، إلا أن يكون مضاراً بها أو بولـدها فـلا يجاب إلى ذلـك، ويجوز أن تستمـر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر)[3].

وتتتابع توجيهات هذا المربِّي إلى الأمّ، فيبين لها الطريقة المثلى لفطامـه

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٣٢.

(٢) سورة البقرة /٢٣٣.

(*) في المطبوع حولين والصواب ما أثبتناه. والله أعلم.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

وأن يكون بالتدريج، ويحذرها من مفاجأته بالفطام. فيقول: (... وينبغي للمرضع إذا أرادت فطامه أن تفطمه على التدريج ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة، بل تعوده إيّاه وتمرنه عليه لمضرة الانتقال عن الإلف والعادة مرة واحدة)[1].

ثم يبين لها أضرار الانتقال المفاجيء وآثاره على الصحة النفسية للطفل، وهو ينظم طريقة الفطام باختيار الوقت المناسب لذلك. فيقول: (.. وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً في الحر والبرد، وقد تكامل نبات أسنانه وأضراسه وقويت على تقطيع الغذاء وطحنه، ففطامه عند ذلك الوقت أجود له. ووقت الاعتدال الخريفي أنفع في الفطام من وقت الاعتدال الربيعي، لأنه في الخريف يستقبل الشتاء، والهواء يبرد فيه والحرارة الغريزية تنشأ فيه وتنمو، والهضم يزداد قوة وكذلك الشهوة)[2].

وابن القيم رحمه الله يوضح أن هناك تغيرات تطرأ على الطفل عند نبات أسنانه. وهذه التغيرات غير مزعجة ولا مخيفة فهو يطمئن الأبوين ويوصيهما بأن لا ينزعجا. فمِا يحصل أمر طبيعي. يقول: (... ويتغير حال المولود عند نبات أسنانه ويهيج به القيء والحميات وسوء الأخلاق، ولا سيما إذا كان نباتها في وقت الشتاء والبرد، أو في وقت الصيف وشدة الحر، وأحمد أوقات نباتها: الربيع والخريف، ووقت نباتها لسبعة أشهر وقد تنبت في الخامس، وقد تتأخر إلى العاشر)[3] وابن القيم يوضح نوعية التدبير الذي يلائم الطفل في هذه المرحلة، فيوصي المسؤولين عن تربيته. فيقول: (... فينبغي التلطف في تدبيره وقت نباتها، وأن يكرر عليه دخول الحمام)[4]، ويصف لهم نوعية غذائه وعلاجه الملائمين له. فيقول: (... وأن يغذى غذاء يسيراً، فلا يملأ

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٣٥.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٥.
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٣.
(٤) المرجع السابق ص ٢٣٣.

بطنه من الطعام، وقد يعرض له انطلاق البطن، فيعصب بما يكفيه مثل عصابة صوف عليها كمون ناعم، وكَرَفْسْ[1] وأنيسون، وتدلك نثته بما تقدم ذكره (بالزبد والسمن)[2]. .)[3].

ويستمر ابن القيم في ذكر وصاياه التربوية وتوجيهاته القيمة لأبوي الطفل فيطمئنهما. ويقول: (. . . ومع هذا فانطلاق بطنه في ذلك الوقت خير له من اعتقاله، فإن كان بطنه معتقلاً عند نبات أسنانه فينبغي أن يبادر إلى تليين طبيعته، فلا شيء أضر على الطفل عند نبات أسنانه من اعتقال طبيعته ولا شيء أنفع له من سهولتها باعتدال)[4].

ثم يذكر دواء يلين البطن ويسهله. فيقول: (. . . وأحمد ما تلين به عسل مطبوخ يتخذ منه فتائل ويحمّل بها، أو حبق[5] مسحوق معجون بعسل يتخذ منه فتائل كذلك)[6].

كما يوجه إرشاداته الطبية إلى المشرفين على تربية الطفل. فيقول: (فإذا حضر وقت نبات الأسنان فينبغي أن يدلك لثاهم كل يوم بالزبد والسمن ويمرخ خرز العنق تمريخاً كثيراً)[7]، ويحذر رحمه الله من تمكين الأطفال من تناول الأشياء الصلبة، لأنها تفسد الأسنان وتلحق بها الضرر في هذه الفترة بالذات. يقول رحمه الله: (. . . ويحذر عليهم كل الحذر وقت نباتها إلى حين تكاملها وقوتها من الأشياء الصلبة، ويمنعون منها كل المنع، لما في التمكين منها من تعريض الأسنان لفسادها وتعويجها وخللها)[8].

---

(١) نبات يشبه البقدونس حجمه أكبر منه طيب النكهة.

(٢) انظر تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٣٢.

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٣.

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٤.

(٥) الحبق: نبات طيب الرائحة، انظر حاشية تحفة المودود. ص ٢٣٤.

(٦) المرجع السابق ص ٢٣٤.

(٧) المرجع السابق ص ٢٣٢.

(٨) المرجع السابق ص ٢٣٢.

وابن القيم يوصي المرأة المرضع أن تلطف طعامها وشرابها، لأن المصلحة في هذا تعود على الطفل الذي يتغذى من لبنها. فيقول: (... وينبغي للمرضع في ذلك الوقت تلطيف طعامها وشرابها وتجتنب الأغذية المضرة)[1].

وابن القيم يعلم أن من يتولى تربية الطفل وحمله قد يقع على ثيابه شيء من بوله وريقه، فهو يوضح رحمه الله حكم الإسلام في أمر بول الغلام إذا أصاب ثوب من يحمله ويربيه، ويبين أنه يكتفى بنضح الماء عليه رفعاً للحرج. إلا بول الجارية فيغسل. يقول رحمه الله: (... مضت السنة من رسول الله ﷺ: بأن يرش بول الصبي الذي لم يطعم الطعام، ويغسل بول الجارية طعمت أو لم تطعم..)[2].

أما فيما يتعلق بريقه وهو مما يصعب الاحتراز منه فرأي ابن القيم أنه طاهر. يقول: (... هذه المسألة مما تعم به البلوى وقد علم الشارع أن الطفل يقيء كثيراً ولا يمكن غسل فمه، ولا يزال ريقه ولعابه يسيل على من يربيه ويحمله، ولم يأمر الشارع بغسل الثياب من ذلك، ولا منع من الصلاة فيها، ولا أمر بالتحرز من ريق الطفل، فقالت طائفة من الفقهاء: هذا من النجاسة التي يعفى عنها للمشقة والحاجة كطين الشوارع والنجاسة بعد الاستجمار، ونجاسة أسفل الخف والحذاء بعد دلكهما بالأرض... وقال شيخنا وغيره... بل ريق الطفل يطهر فمه للحاجة)[3]. ثم بسط الأدلة على هذا الرأي.

ويرى ابن القيم أن من صحة الطفل أن تمتنع المرضع من إرضاعه إذا حملت لأن في استمرار رضاعه إضعافاً لصحته. يقول رحمه الله: (... فمتى حملت المرضع فمن تمام تدبير الطفل أن يمنع منها، فإنه متى شرب من

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٦.

(٣) المرجع السابق ص ٢١٨.

ذلك اللبن الرديء قتله أو أثَّر في ضعفه تأثيراً يجده في كبره)[1].

والتوجيهات التربوية لا تنقطع من هذا المربِّي فهو يحذر من تكليف الطفل بالمشي قبل أوانه. فيقول: (... ومما ينبغي أن يحذر أن يحمل الطفل على المشي قبل وقته)[2]، ثم يعلل ذلك بقوله: (... لما يعرض في أرجلهم بسبب ذلك من الانفتال والاعوجاج بسبب ضعفها وقبولها لذلك)[3].

ويوصي لصحة الطفل بعدم حبس ما يحتاج إلى إخراجه من قيء وبول، ويوصي بعدم منعه الضروريات التي يحتاجها كالنوم والشرب والطعام. يقول رحمه الله: (واحذر كل الحذر أن تحبس عنه ما يحتاج إليه من قيء أو نوم أو طعام أو شراب أو عطاس أو بول أو إخراج دم، فإن لحبس ذلك عواقب رديئة في حق الطفل والكبير)[4].

الطفولة:

يرى ابن القيم أن مسؤولية الأسرة التربوية لا تقف عند حد الحضانة بل تستمر إلى مرحلة الطفولة وما بعدها، لأن الأسرة كما ذكرنا من قبل هي المحضن الذي ينشأ فيه الطفل ويترعرع ويشب، فعملية التربية والتوجيه والتدبير والتعليم تبدأ في مرحلة الطفولة من أول وقت التكلم، فتسهيلاً للكلام يوصي ابن القيم بدلك لسان الطفل بالعسل والملح الأندراني، لأن في هذا ذهاباً للرطوبة الثقيلة من اللسان. يقول رحمه الله: (... فإذا قربوا من وقت التكلم وأريد تسهيل الكلام عليهم فليدلك ألسنتهم بالعسل والملح الأندراني، لما فيهما من الجلاء للرطوبات الثقيلة المانعة من الكلام)[5].

وعند بدء الكلام يوصي رحمه الله بتلقين الطفل كلمة الإخلاص فيقول:

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٣٩.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٧.
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٧.
(٤) المرجع السابق ص ٢٣٧.
(٥) المرجع السابق ص ٢٣١.

(. . . فإذا كان وقت نطقهم فليلقنوا: لا إلـه إلا الله محمد رسـول الله، وليكن أول ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه وتوحيـده، وأنه سبحـانه فـوق عرشـه ينظر إليهم ويسمع كلامهم، وهو معهم أينما كانوا)[1].

ويحذر ابن القيم من ترك الطفل لهواه فيملأ بطنه من الـطعام ويكثـر من الشـراب، ويوصي رحمـه الله بأن يعـطوا دون شبعهم ليجـود هضمهم وتصـح أجسادهم. يقول رحمه الله: (. . . ومن سوء التـدبير لـلأطفال أن يمكنـوا من الامتلاء من الطعام وكثرة الأكل والشرب، ومن أنفع التدبيـر لهم أن يعطوا دون شبعهم ليجـود هضمهم وتعتدل أخـلاطهم وتقل الفضـول في أبـدانهم وتصـح أجسادهم، وتقل أمراضهم لقلة الفضلات في المواد الغذائية)[2].

ويوصي ولي أمر الطفل أن يلاحظ ملبسه كما يلاحظ غـذاءه، لأن بعض الألبسة تخنث طبعه، وترقق نفسه وتجعله إلى الأنـوثة أقـرب، لذا فهـو يوصي وليه. فيقول: (. . . ويجنبه لبس الحرير فإنه مفسد لـه ومخنث لطبيعتـه، كما يجنبه اللواط وشرب الخمر والسرقـة والكذب، وقـد قال ﷺ: «يحـرم الحريـر والذهـب على ذكور أمتي، وأحـل لإناثهم» والصبي وإن لم يكن مكلفـاً فوليـه مكلف، لا يحل له تمكينه من المحرم، فإنه يعتاده ويعسر فطامه عنه)[3].

ويوصي ابن القيم بإشـاعة العـدل بين الأولاد، ويرى أن: (. . . العـدل واجب في كل حال)[4]، ثم يذكر حديثاً لأنس جـاء فيه: (. . . أن رجـلاً كان جـالساً مـع النبي ﷺ فجاء بُنيّ لـه فقبله وأجلسه في حجـره، ثم جـاءت بُنَيَّـةٌ فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ﷺ: «فما عدلت بينهما» وكـان السلف يستحبون أن يعدلوا بين الأولاد في القبلة)[5].

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٣١.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٦.

(٣) المرجع السـابق ص ٢٤٣. والحديث رواه الترمذي بلفظ «حـرم لباس الحـرير والـذهب على ذكور امتي وأحل لإناثها» كتاب اللباس باب ما جاء في الحرير والذهب ٤/٢١٧.

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٨.

(٥) المرجع السابق ص ٢٢٩.

فالعدل بين الأولاد يعطيهم الثقة بالنفس ويمنحهم الصحة النفسية[1].

هذا ما وصلت إليه التربية الحديثة. لكن التربية الأصيلة التي ينادي بها ابن القيم عرفت ذلك من قبلها، فهو بذكر هذا المبدأ يعيدنا إلى أصول التربية الإسلامية ألا وهي كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

ومما يدل على اهتمامه بهذا المبدأ أنه عقد في كتابه (تحفة المودود) فصلاً بعنوان (في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم)[2].

- **المسؤولية التربوية:**

يرى ابن القيم رحمه الله أن مسؤولية التربية تقع على الآباء داخل الأسرة وخارجها، ولقد أورد رحمه الله مجموعة من الأحاديث والآثار تبين هذه المسؤولية، منها:

(عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «افتحوا على صبيانكم أول كلمة بلا إله إلا الله..» وعن النبي ﷺ قال: «ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن». ..... «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قالوا: يا رسول الله قد علمنا ما حق الوالد، فما حق الولد؟ قال: «أن يحسن اسمه ويحسن أدبه..» قال رسول الله ﷺ: «من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه فإن بلغ ولم يزوجه فأصاب إثماً فإنما إثمه على أبيه»[3]. وإسناده منقطع، وفي بعض رجاله كلام). ا. هـ. من تحفة المودود. ص ٢٢٦.

---

(١) جاء في كتاب الصحة النفسية د. عبد العزيز القوصي. ط ٧ سنة ١٩٦٠ م، مكتبة النهضة المصرية، ما نصه: (... المساواة في المعاملة قدر الإمكان شرط أساسي لإعادة الثقة في البيئة المحيطة وإعادة الثقة في الذات).

(٢) تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٢٤.

(٣) انظر تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٢٤ إلى ٢٢٦، والأحاديث ـ حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «افتحوا على صبيانكم...» هو جزء من حديث ذكره السيوطي في (الجامع الكبير) ونسبه للحاكم في تاريخه، والبيهقي وقال: قال البيهقي: غريب. حاشية تحفة المودود ص ٢٢٤.

=

ففي الحديث الأول وجه الرسول ﷺ الآباء والمربين بأن يجعلوا أول كلمة ينطق بها الطفل هي كلمة الإخلاص، لأن فطرة الطفل في هذه المرحلة من مراحل عمره نقية صافية. فإذا أُسمعت كلمة الإخلاص والتوحيد فإنها تزداد نقاء وصفاء، لأن اللسان قد نطق. بما يناسب خلقتها الأولى، فتعويد لسان الطفل على النطق بهذه الكلمة وتدريبه عليها ينمي الجانب الإيماني عنده ويحفظ فطرته من الانحراف فهذا أسمى هدف تسعى إليه التربية.

أما الحديث الثاني فيوضح أن أعظم ما يقدمه الوالد لولده التربية السليمة والخلق الفاضل والأدب الرفيع، وفي هذا التوجيه النبوي حث للآباء على تأديب أبنائهم وتربيتهم.

أما الحديثان الثالث والرابع فقد جاء فيهما بيان حق الولد على والده، فمن حقه أن يختار له اسماً حسناً، وخير الأسماء ما يعبده لله، كعبد الله وعبد الرحمن، فإذا نشأ الطفل وعلم أنه عبد لله، عرف ما تقتضيه هذه العبودية من طاعة لربه وخالقه، وفي هذا من إيقاظ الفطرة وتنبيهها ما لا يخفى على المربِّي الحاذق، ومن حقه أيضاً أن ينال من الأدب أحسنه ومن الخلق أفضله، ومن حقه أيضاً على وليه أن يزوجه إذا بلغ وأن لا يتهاون في ذلك لئلا يقع في إثم أو معصية.

ومن الآثار التي أوردها ابن القيم والتي تدل على أن مسؤولية التربية والتعليم تقع أول ما تقع على الأب، ما ذكره عن سفيان الثوري حيث قال: «ينبغي للرجل أن يكره ولده على طلب الحديث، فإنه مسؤول عنه، وقال: إن هذا الحديث عزٌّ؛ من أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها». وما ذكره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أدب ابنك، فإنك مسؤول عنه، ماذا أدبته وماذا علمته؟ وهو مسؤول عن برك وطواعيته لك»[1]، ففي الأثر

= رواه الترمذي في البر، باب ما جاء في أدب الولد برقم ١٩٥٢. ٤/٣٣٨ لكن بزيادة «من نحلٍ» قبل «من أدب حسن».

(١) انظر تحفة المودود، ابن القيم ص ٢٢٤ إلى ٢٢٦.

الأول توجيه للأب أن يعلم ولده الحديث ولو أكرهه على ذلـك، لأن في تعليم الحـديث فوائـد جمة في الـدنيا والآخـرة، وفي الأثر الثـاني حث لـلأب على تأديب ابنه وتعليمه، لأنه المسؤول عن ذلك والله سبحانه سيحاسبه عليه.

وابن القيم يؤمن بمبدأ الفروق الفـردية بين النـاس، لذا يـوصي ولي أمر الطفل أن يختبر قدرته على التعلم، فإن كان لديـه استعداد لـطلب العلم وجه إليه، وإن لم يكن مهيأ له وجهه توجيهاً مسلكياً يلائم قـدراته العقليـة وملكاتـه الذهنية. يقول رحمه الله: (... ومما ينبغي أن يعتمد حـال الصبي، وما هـو مستعد له من الأعمال، ومهيأ له منها، فيعلم أنـه مخلوق له، فـلا يحمله على غيره، ما كان مأذوناً فيه شرعاً فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد لـه لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيأ له)[1].

وابن القيم يعرف دور الأسرة الخطير والهام في تربية الطفل فيوصي ولي أمـره بحمايتـه وحفظه من أن تتسـرب إليه الأخـلاق السيئة كـالأثـرة والحـرص والشح إلى غير ذلـك، وفي المقـابـل يـوصيـه أن يغـرس في نفسـه الأخـلاق الفاضلة كالإيثار والبذل والعطاء، فهو بهـذا ينادي بمـا يسمى بأسـلوب التخلية والتحلية، فيقول: (... وينبغي لوليه أن يجنبـه الأخذ من غيـره غايـة التجنب فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة ونشأ بأن يأخذ لا بأن يعطي، ويعوده البذل والإعـطاء، وإذا أراد الولي أن يعـطي شيئاً أعـطاه إيّاه على يـده ليذوق حـلاوة الإعطاء)[2].

وإذا كانت القدوة وسيلة من وسـائل التـربية فـابن القيم يحث الآباء بـأن يكونوا على جانب كبير من الاستقامة في السلوك، ليربوا أبناءهم بلسان الحـال قبـل لسان المقـال فـإن فعلوا ذلـك سعـد الأبنـاء بـالعيش معهم واستفادوا من استقـامتهم وأثرت فيهم فِعَـالُهم، وإن فرطـوا حرمـوا أنفسهم من بـر أبنـائهم، وحرموا أبناءهم السعادة ببـرهم. قال رحمـه الله: (... فما أفسـد الأبناء مثـل

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤١.

تغفل الآباء وإهمالهم واستسهالهم شرر النار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمد العدو الشديد العداوة مع عدوه وهم لا يشعرون، فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرضه لهلاك الدنيا والآخرة وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها، وإعراضهم عما أوجب الله عليهم من العلم النافع والعمل الصالح)(١)(*).

وإذا كانت العبادة؛ الفرائض والنوافل جميعها وسيلة من وسائل تربية الإيمان وتهذيب السلوك، فإن ابن القيم يعرف الدور الهام لهذه الوسيلة فهو يوصي ولي أمر الطفل أن يعوّده على قيام الليل، لأن في قيام الليل فوائد عظيمة. فيقول: (. . . ويعوده الانتباه آخر الليل، فإنه وقت قسم الغنائم، وتفريق الجوائز، فمستقل ومستكثر ومحروم، فمتى اعتاد ذلك صغيراً سهل عليه كبيراً)(٢)، فقيام الليل يحتاج إلى تعويد وممارسة، فقد يصعب على النفس أول الأمر، ويكون شاقاً عليها، لكنه بالدربة والتعويد يصبح أمراً ميسوراً.

وابن القيم المربِّي الفاضل يوصي الأب بتربية ابنه وتعليمه وحمله على العمل بما علمه، ولو اضطره الأمر أن يقسو عليه بالضرب وغيره ففي هذا رحمة منه لولده، كما ينهى أباه من تمكينه من شهواته التي تعود بالضرر عليه، والأخذ بهذه الوصية، وذلك التحذير والوقوف عندهما من مصلحة الطفل، لأن الإهمال فيهما يضر بمصالحه عاجلاً أو آجلاً. يقول رحمه الله: (. . . فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه فهذه رحمة مقرونة

---

(١) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(*) لقد ورد بعض ما جاء في هذا الفصل في مكانه الطبيعي من التربية الجسمية وإنما احتيج إلى ذكره هنا لمكانته في وظائف الأسرة التربوية عند ابن القيم.

(٢) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤١.

بجهل. .)[1]، وهذا التوجيه يبين أن الضرب وسيلة من وسائل التربية، لكن يجب التعامل مع هذه الوسيلة بتعقل واتزان، والبعد بها عن الإضرار بالطفل لأن الهدف منها التأديب لا الانتقام، لأن كل شيء يزيد على حده ينقلب إلى ضده.

ومن المناسب أن نختم الحديث في هذا المبحث باستشهاد ابن القيم بحديث رسول الله ﷺ الذي يبين مسؤولية الأب والأم في التربية في الباب الذي عقده بعنوان: «الباب الخامس عشر. في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم»: (. . . عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير راع على الناس وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته [ومسؤول عن رعيته][2] وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم. .»)[3].

المسؤولية التعليمية:

للأسرة في نظر ابن القيم مسؤولية في التعليم، فالمرأة تمارس التعليم ولكن بوضع ضوابط وضمانات تكفل سلامة المجتمع من الفتنة وكرامة المرأة من الخدش، وفي هذا اعتراف بمكانة المرأة في الأسرة والمجتمع وأنها دعامة الأسرة الأساسية فإذا كانت عارفة بما لها وما عليها مدركة لبعض الأساليب التربوية التي تجعلها تساهم في تربية أفراد أسرتها ليكونوا أفراداً صالحين في المجتمع، فإنها بهذا الدور تؤدي مهمة عظيمة تنعكس ثمارها على الأسرة والمجتمع على حد سواء ولقد لفت نظرنا ابن القيم إلى أن بيوت رسول الله ﷺ كانت منارات هدى ووسائط للتربية والتعليم، فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ما سألها أصحاب رسول الله ﷺ عن حديث إلا وجدوا عندها

---

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/١٧٤.

(٢) في المطبوع دون هذه الزيادة.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود. ابن القيم ص ٢٢٦، والحديث رواه البخاري في مواضع منها: كتاب الجمعة. باب الجمعة في القرى والمدن بشيء من تغيير في بعض الألفاظ ١/١٥٩، ١٦٠.

فيه خبر. يقول رحمه الله: (... وقيل لمسروق: كانت عائشة تحسن الفرائض؟ قال: والله لقد رأيت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض. وقال أبو موسى: ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً)[1].

ويرى ابن القيم أن المرأة المسلمة في الأسرة، المسلمة تعلم أفراد أسرتها وتثقفهم، يقول رحمه الله: (... قال عروة بن الزبير: ما جالست أحداً قط أعلم بقضاء ولا بحديث الجاهلية، ولا أروى للشعر، ولا أعلم بفريضة ولا طب، من عائشة [رضي الله عنها](*) وقال عطاء: كانت عائشة أعلم الناس وأفقه الناس)[2].

نلحظ من سيرة أم المؤمنين التي أورد جزءاً منها ابن القيم أن تعليم المرأة وعمق التخصصية العلمي لا يكون مبرراً لخروجها من بيتها ومزاحمتها لغيرها في المجالات التخصصية العلمية في الوسط الاجتماعي للرجال، لكنها تعلم بنات جنسها، أو تعلم الرجال من أولاد أسرتها، أو تعلم رجالاً موثوقاً فيهم من وراء حجاب، فلا بأس بذلك ولا حرج إن شاء الله.

٣ ـ المسجد مؤسسة تربوية:

للمسجد أهمية بالغة في نظر ابن القيم، فهو مكان للعبادة ومدرسة للتربية والتثقيف والتعليم، وهو قاعدة حربية تعقد الألوية للجيوش فيه وتنطلق السرايا منه، وهو دار للرعاية الاجتماعية ومصح للنفوس البشرية والأبدان، ومهام المسجد أعظم من هذا بكثير، فعندما كان يزاول مهامه ويؤدي مسؤولياته كانت الأمة بخير وإلى خير، وانطلق منه رجال الدعوة وحراس الدين يحملون هذا الخير للبشرية جمعاء، فشاع الأمن والرخاء كل أرض وطئتها أقدامهم، فسمعنا القائل منهم يقول: جئنا لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله،

---

(١) هداية الحيارى، ابن القيم ص ٢٣٢.

(*) زيادة من الباحث.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٤.

ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، أما عندما نقل كثير من هذه المهام عن هذه المؤسسة التربوية وجردت من بعض مسؤولياتها فإن الحال ما نشاهده اليوم من كثرة المساجد وقرب بعضها من بعض وإتقان بنائها وزخرفة أشكالها، لكنها شكل بلا مضمون ومنظر بلا جوهر، ومما يدل على أن المسجد في عصوره الزاهرة كان بمثابة مدرسة تربوية ما أورده رحمه الله (. . . عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيراً، أو ليعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له»)[1].

ويرى ابن القيم أن مهمة التربية والتعليم من أفضل ما يمارس في المسجد، فكان بجانب مجالس العلم فيه مجالس للذكر والدعاء وكلها خير. إلا أن أفضلها مجالس التربية والتعليم. ولقد أورد رحمه الله حديثاً: (. . . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. قال: خرج رسول الله ﷺ، فإذا في المسجد مجلسان: مجلس يتفقهون، ومجلس يدعون الله تعالى، يسألونه. فقال: «كلا المجلسين إلى خير، أما هؤلاء فيدعون الله، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل. هؤلاء أفضل، بالتعليم أرسلت»، فقعد معهم)[2].

ولقد أوضح لنا ابن القيم أن السلف عرفوا لهذه المؤسسة التربوية مسؤوليتها فكانوا يعقدون فيها مجالس العلم والتعليم. يقول رحمه الله: (وكان لجابر بن عبد الله حلقة في مسجد رسول الله ﷺ يؤخذ عنه العلم)[3].

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/١٢٣، والحديث رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ٢/٣٥٠.

(٢) المرجع السابق ١/٧٧. والحديث روى بمثله الدارمي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. انظر سنن الدارمي، باب فضل العلم والعالم ١/٩٩. طبعة دار إحياء السنة النبوية، طبع بعناية محمد أحمد دهمان.

(٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم ص ٢٣٦.

٤ ـ مجالس العلماء ودورها التربوي:

إن مجالس العلماء هي مجالس الذكر والتعليم والتربية وهي التي تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة.

أما مجالس الغفلة واللهو فهي مجالس الشياطين وهي بعيدة عن الرحمة والغفران، لا تقربها الملائكة ولا تدنو منها. يقول ابن القيم: (.. أخرجا في الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة فضلاً عن كتاب الناس، يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم»)[1] فالله سبحانه يقول لملائكته (... فأشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم، فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم)[2].

ومن فوائد هذه المجالس أنه لو لم يكن بها إلا رجل واحد يحمد الله ويذكره، فإن حوائج كل من بذاك المجلس تقضى، يقول ابن القيم: (... وقال ابن زيد: إنه ليكون في المجلس الرجل الواحد يحمد الله عزّ وجلّ فيقضي لذلك المجلس حوائجهم كلهم)[3].

ومجالس العلماء فيها للإنسان الخير والفلاح، لأنه يسمع ما يخوف من عذاب الله عزّ وجلّ، فيكون بذلك وجلاً خائفاً، يحذر من معاصي الله، فتكون نتيجة ذلك أمنه يوم الوعيد. يقول ابن القيم: (... وسأل رجل الحسن فقال:

---

(١) و (٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب. ابن القيم ص ٦٨، ٦٩ والحديث صحيح رواه (ق، حم ـ عن أبي هريرة) من صحيح الجامع الصغير وزيادته. محمد ناصر الدين الألباني. ١/٢٣٣، ٢٣٤، رقم ٢١٦٩. لفظ البخاري في كتاب الدعوات. باب فضل ذكر الله عز وجل ٤/١١٤: (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يتلمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم..).

(٢) عدة الصابرين. ابن القيم ص ١١٣.

يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تنقطع؟ فقال: والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف)(١).

ومن مجالس الخير تلك المجالس التي كان يجلسها أصحاب رسول الله ﷺ يعلمون فيها الناس ما يحتاجونه في أمر دينهم ودنياهم. يقول ابن القيم في وصف هذه المجالس: (. . . وقال مالك عن نافع: كان ابن عباس، وابن عمر [رضي الله عنهم](*) يجلسان للناس عند قدوم الحاج وكنت أجلس إلى هذا يوماً وإلى هذا يوماً، فكان ابن عباس يجيب ويفتي في كل ما يسأل عنه وكان ابن عمر يرد أكثر مما يفتي)(٢).

٥ ـ المدرسة مؤسسة تربوية:

لقد كان للمدرسة نشاط تربوي وتعليمي بارز في عصر ابن القيم، ولقد وجدت عدة مدارس بدمشق زمن ابن القيم، كالمدرسة الصدرية التي درس بها، والجوزية التي كان أبوه ـ رحمهما الله ـ قيّماً عليها، والتي أم هو الصلاة بها، والمدرسة الظاهرية التي كان بها فقراء الحنفية والشافعية والمدرسة العادلية وهي بداخل دمشق(٣)، ومدارس أخرى كثيرة.

ومما يدل على دور المدرسة التربوي في ذاك العصر مشاركة هذا المربِّي السلفي بهذه المدارس. وكانت المدرسة الجوزية على سبيل المثال مصدر إشعاع علمي وتوعية ثقافية للمسلمين في ذلك العصر.

---

(١) الجواب الكافي، ابن القيم، ص ١٥، ١٦.

(*) زيادة من الباحث.

(٢) هداية الحيارى. ابن القيم ص ٢٣٦.

(٣) انظر ابن قيم الجوزية. جهوده في الدرس اللغوي د/ طاهر سليمان حموده. دار الجامعات المصرية ص٢٢، ٢٣.

الخاتمة

وتشتمل على:

أولاً: الخلاصة.
ثانياً: النتائج.
ثالثاً: التوصيات.
رابعاً: ما نستفيده من فكر ابن القيم التربوي في تربيتنا المعاصرة.



الخلاصة:

بعد هذه الجولة في تراث ابن القيم، وضح فكره التربوي الأصيل، وبانت أهم المعالم لنظريته التربوية، من حيث النظرة إلى الإنسان الذي هو محور العملية التربوية. فالله سبحانه لم يخلقه عبثاً، بل خلقه لغاية شريفة ألا وهي عبادته وحده دون سواه، وقد خلق سليم الفطرة، متميزاً بخصائص لا تتوافر في غيره من المخلوقات وأنه عبارة عن مجموع الروح والعقل والبدن، وأنه مزود بأدوات كسب العلم من السمع والبصر والفؤاد وغير ذلك.

والتربية عنده تحرص على إيجاد نموذج خاص من الإنسان، ألا وهو الإنسان الصالح المحب للخير الداعي إليه الساعي في سبيله، المتحمل للأذى في طريق الدعوة إليه المحقق للعبادة قولاً وعملاً واعتقاداً السالك طريق العلم النافع، الحريص على العمل الصالح الملتزم بالاتباع، الرافض للابتداع، المتحلي بالإخلاص وصدق النية في كل أمر من أمور حياته، المتحلي بالأخلاق الفاضلة، الذي يضع حسناته خلف ظهره، وسيئاته نصب عينه.

كما تحرص هذه التربية على تكوين المجتمع الفاضل الذي تسوده السعادة والأمن، والعلماء في هذا المجتمع هم القائمون بمهمة التربية، ويحثون الناس على العمل والسلوك الأقوم، والناس في هذا المجتمع إن استخدموا ما وهبهم الله من أدوات كسب العلم فيما خلقت له سعدوا، وإن عطلوها شقوا.

ومن الأدواء والأمراض الصارفة للأفراد والمجتمعات عن سر سعادتهم:

الغفلة والبطالة والكسل؛ الغفلة المضادة للعلم، والبطالة المضادة للعزيمة والعمل. وللبشر مراتب كمال يتفاوتون فيها: فأعلى هذه المراتب للنبيين، ثم يليهم الصديقون، ثم الشهداء والصالحون، والمربون والمعلمون الذين يدعون إلى الخير ويحرصون عليه هم من زمرة الصالحين.

ومن حيث مفهوم التربية يرى أنها تتناول معنيين: أحدهما علم المربِّي، فيجب عليه تفقده وصونه وحفظه كما يحفظ صاحب المال ماله، والآخر تربية الناس وتعليمهم به، وذلك بالتدرج بهم من صغاره إلى كباره.

ومسؤولية التربية تقع على الآباء والمربين والمسؤولين عن تربية الطفل ورعايته، هذا فيما يتعلق بالتنشئة الاجتماعية في الأسرة أما تربية الأمة فهي مسؤولية الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، والعلماء والمربون ورثة لهم في هذا.

وللتربية غاية شريفة ألا وهي تعبيد الناس لخالقهم، والمحافظة على فطرهم ولها أهداف كثيرة متعددة منها: المحافظة على الصحة البدنية للمربَّى والاعتناء بأمر خلقه، وسلامة فكره، وكشف مواهبه، وتوجيهها.

أما وسائل هذه التربية فكثيرة منها: الترغيب في كسب العلم، وغرس حبه في النفس والنهم الشديد في تحصيله، وصرف الوقت في طلبه، وعدم الاكتفاء بشيء قليل منه، ومن وسائلها أيضاً التدريب والتعويد، والأخذ بأسلوب التخلية والتحلية، ووجود القدوة الصالحة، والملاحظة المستمرة للمربَّى وعدم تمكينه من تعاطي ما يضره جسمياً وفكرياً وخلقياً، وحمله على مزاولة العبادة. والتربية التي ينادي بها ابن القيم ربانية المصدر... لكن التربية لا تخلو من عوائق تعترض طريقها وتعرقل سيرها، من هذه العوائق الكسل والبطالة، وحب الدعة والراحة، وفقدان القدوة الصالحة الموجهة، وإهمال المربَّى وعدم الاعتناء به، والسماح له بمخالطة الأشرار من الأصحاب، وإطلاق العنان للنفس في الشهوات والملذات، وعدم كشف القدرات وتوجيهها الوجهة الصالحة فهذه العوائق وأمثالها تعرقل التربية في

سيرها، وتحرم الفرد والمجتمع ثمارها، وهذه الثمار منها ما يعود على المربِّي من النفع والخير والأجر بعد الموت صدقة جارية عليه، فالله سبحانه يتجاوز عن سيئاته ويعظم له حسناته، وهو في عبادة مستمرة طالما أنه يقوم بنشر العلم وتربية الخلق، وهو عدل ثقة بشهادة رسول الله ﷺ له، والمربُّون وكلاء وأمناء على دين الله، وهذه لا شك مسؤولية عظمى وشرف وذخر لهم، وطالب العلم يكسب جرأة في الحق وثقة بالنفس، ونجاة من الضرر، وطلبه للعلم يكسبه نوراً في قلبه ويكون حياً عن الله واعياً، ولديه بضاعة لا يعدلها من حطام الدنيا شيء، وينال طالب العلم العز في الدنيا والذخر في الآخرة، لأن العلم يزيد الشريف شرفاً ويرفع من قدر الوضيع.

ومن حيث تعدد جوانب هذه التربية، فمنها: التربية الإيمانية: وهي تلك الجهود التي يقوم بها المربِّي في المحافظة على إيمان المربَّى بحيث يتوافق ما يكنه بقلبه ويعتقده مع ما يعمله بجوارحه، وغاية هذه التربية إيجاد الإنسان الصالح، وهي تعتمد على الأدلة والبراهين المتوفرة على صفحة الوجود وتهدف إلى حفظ اللسان والجوارح وخطرات القلب عن كل ما يسخط المولى عز وجل، وتكميل المربَّى من جانبه العبادي، وجعل جميع حركاته سائرة وفق مرضاة الله، ولهذه التربية عدة وسائل، منها الوسائل البنائية كالنظر في دلائل القدرة الإلٰهية الماثلة في الآيات الكونية، وآياته في الأنفس، ولفت النظر إلى ظاهرة الموت ومزاولة الشعائر التعبدية من حيث هي وسيلة من وسائلها، ومنها الوسائل الوقائية، كالشعور بحب العبد لربه وخالقه، وحب كل ما يحبه، والعمل الدؤوب على مرضاته، ومعرفة الأعداء الحقيقيين للعبد من النفس والهوى والشيطان، والحذر من ضعف البصيرة، وسيطرة الكبر على النفس، والابتعاد عن جميع المناهي التي تسخط الله عز وجل والتحلي بالصبر، ومنها الوسائل العلاجية، كالتوبة من الذنب والاستغفار، والإنابة والإخبات إلى الله عز وجل، والهجرة إليه، ومعالجة النفس بالصبر والشكر.

ومن ثمار هذه التربية: نيل ثواب الله تعالى، ورضوانه والتمتع بنعيم

الجنة كما أن من ثمارها انشراح الصدر وطيب العيش، ونضرة الوجه، وسماحة الطبع، وسلامة القلب وطمأنينته، وسعادة في الدنيا والآخرة. ومرافقة الملك للمؤمن، وابتعاد الشيطان عنه، وفرح القلب وطربه، وسلامة الفطرة وحمايتها. والتي منها التربية الروحية: فالروح جسم مخالف في ماهيته لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني، ينفذ في جوهر الأعضاء... وللروح معان متعددة منها الوحي، والقوة والثبات، وتطلق على أمين الوحي، وعلى الروح التي سأل اليهود عنها، وعلى عيسى ابن مريم عليه السلام. ومن خصائص الروح سرعتها وقوة نفاذها وتنقلها، والأرواح يتميز بعضها عن بعض، فروح فرحة منشرحة، وأخرى منقبضة معقدة، وثالثة خيرة وأخرى شريرة، والروح والنفس شيء واحد، والنفس منها أمّارة بالسوء، ولوامة ملومة، ولوامة غير ملومة، ومطمئنة. والروح تمرض وتنتكس وتعود إلى أسفل سافلين، ومن أخطر أمراضها مرض الشهوة، ومرض الشبهة، والغفلة عن المصير المحتوم... وعلاج هذه الأمراض باليقظة التي تعتبر علاجاً من مرض الغفلة، وبالقوة والبصيرة التي تدفع الأسقام وتعالج الأمراض... وبالقرب من الخالق بتقواه والمخافة منه... وبتلاوة القرآن وذكر الله..

وإذا عولجت الروح من أمراضها فإنها تعيش في صحة نفسية وأمن وطمأنينة وتتخلص من القلق والاضطراب والتشتت والحيرة... أما عن تربية الروح فتكون بالإيمان المطلق بكل ما أخبر عنه الباري جل وعلا... ورياضتها بالتعلم والتأدب. والفرح والسرور والصبر والثبات والإقدام والسماحة وفعل الخير حتى ترتاض وتألف ذلك، ومن أنجع الوسائل في تربية الروح قيام الليل، ومحاسبة النفس في كل ليلة، والتأمل في مخلوقات الله وتعظيم أوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.

ومن ثمار هذه التربية: أنها تجعل النفس أشرف النفوس على الإطلاق وتعطي الحصانة من كيد النفس الأمارة بالسوء وتنجي العبد من عذاب الله ومقته وأليم عقابه، وتنال الروح حظاً وافراً من الأنس والفرح والسرور، وتكون

مهيأة للعروج إلى الملأ الأعلى، بما يعود عليها من أثر الأعمال الصالحة.

ومنها التربية الفكرية: وهي تلك الجهود التي تبذل في تنمية الفكر وتوسيع أفقه ومداركه، سواء كانت مبذولة من مربٍّ يشرف على هذا اللون من التربية، أو كانت عبارة عن مجهود ذاتي من الشخص في تربية فكره.

ولتربية الفكر وسائل متعددة منها: النظر في مخلوقات الله سبحانه، والنظر في آياته المتلوة وشرعه المنزل، والتأمل في محاسن الشريعة، والاستقامة على أمر الله عز وجل، والحذر من المعاصي التي تطمس نور البصيرة للعبد، والحذر من التقليد الأعمى الذي يعطل دور العقل، واختيار وقت مناسب للتفكير، بحيث يكون حال سكون البدن، وذهاب شواغله، وصوارفه، وهناك ثمار للفكر منها:

١ - أنه سبب في حصول الإيمان.

٢ - يكشف عن حقائق الأمور.

٣ - يفرق بين الوهم والخيال والحقيقة.

٤ - يكف النفس عن المحارم.

٥ - وهو أصل كل طاعة.

٦ - وبه صلاح القلب.

٧ - وهو مفتاح كل خير.

٨ - يورث القلب قدرة على كسب العلم والمعرفة.

ومنها التربية العاطفية: وهي التي تسعى إلى جعل الفرد موجهاً كل أحاسيسه وعواطفه ومشاعره لله عز وجل، فيصرف حبه كله لله ولكتابه ولرسوله ﷺ فيحب لله ويبغض في الله، ويغضب إذا انتهكت محارم الله عز وجل، والحب من أعمال القلوب، والمحبة ثلاثة أنواع: فأفضلها محبة الله والمحبة في الله، ومحبة الاتفاق في دين أو مذهب أو نحلة أو قرابة أو صناعة أو أمر ما، ومحبة لنيل غرض من أغراض من المحبوب. . .، وهذا النوع الأخير محبة عرضية زائلة تزول بزوال سببها، فالمحبة منها ما هو دائم باق، ومنها ما

هو زائل عارض. . . والمحبة لله وفي الله تؤدي إلى سلامة العقيدة، خلافاً للمحبة الشركية وهي المحبة مع الله.

ومحبة الله يمكن الوصول إليها بالمداومة على ذكر الله وشكره وحسن عبادته والخوف من عذابه، ومحبة الله تورث السعادة والأمن في النفس خلافاً للمحبة الضارة التي تورث المقت والعقوبة والسخط من الله سبحانه وتعالى. . . وتترك آثاراً سيئة على الفرد والأسرة والمجتمع.

ومنها التربية الخلقية: التي تحرص على أن يتحلى المربَّى بالأخلاق الفاضلة، ويبتعد عن الأخلاق الدنيئة، كي يتمتع بالسعادة في الدنيا والآخرة وهي التي تكسب العلم والمعرفة اللذين يريان العبد مواضع الخير وطرقه ومسالكه وسبله ويكشفان له عن سبل الشر ومجالاته، والحديث في التربية الخلقية يتناول عموميات الأخلاق التي تعني هدي هذا الدين في جميع المجالات كما تتناول مفردات الأخلاق من البر والصلة والصدق والأمانة والصبر والشكر وغير ذلك. وفكر ابن القيم التربوي تناول عموميات الأخلاق ومفرداتها.

والمربَّى في أمس الحاجة إلى التربية الخلقية ليستقيم أمره ويصلح حاله ويشعر بالأمن والسعادة، والأخلاق الفاضلة تتميز عن الأخلاق الدنيئة بما فيها من حسن وخير تهتدي إليه العقول السليمة والفطر المستقيمة، كما أن الأخلاق الدنيئة تختلف عنها بما تحويه من قبح وشر تعرفه تلك الفطر وتلك العقول.

والتربية الخلقية ضرورة بشرية فالفرد بحاجة إليها لإقامة علاقة بينه وبين خالقه وبينه وبين الناس، وهذه التربية لها أساليب منها:

١ ـ وجود القدوة الصالحة.

٢ ـ إشراك الناشئ في مزاولة بعض الأخلاق كالإيثار والبذل والعطاء.

٣ ـ التدريب والتعويد على الأخلاق.

٤ ـ مدح الأخلاق الفاضلة والثناء على من يتحلى بها على مسمع من المربَّى.

وأساس الأخلاق عند المسلم هو تقوى الله وطلب مرضاته، خلافاً لغير المسلم الذي يكون أساس الأخلاق عنده المصلحة الذاتية المحضة.

ومنها التربية الاجتماعية التي تبين البناء الاجتماعي والشعور الاجتماعي والحقوق الاجتماعية وكيفية تأثر الفرد بالوسط الاجتماعي. وتأثر الطفل بهذا الوسط ونوعيـة العلاقة الرابطة بين أفراد المجتمع واستفادة هؤلاء الأفراد بالعبادات الجماعية وصفات المجتمع القوي.

ومنها التربية الإرادية، فالإرادة هي الداعية والمحركة إلى العمل، فالسعادة مبنية على أصلين هما: العلم والإرادة. . . والناس بالنسبة لهذين الأصلين أنواع: منهم من استكمل العلم واستكمل الإرادة فهؤلاء في أعلى الدرجات وهم أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومنهم من حرم هذا وحرم هذا فهؤلاء شرار الخلق، ومنهم من استفتح باب العلم وأغلق عنه باب الإرادة فهم شر من الجهال، ومنهم من أعطي إرادة قوية لكن افتقد العلم، فإن يسر الله له من يرشده ويوجهه فاز وسعد.

وضعف الإرادة يفقد الإنسان كماله اللائق به ويلحقه بالحيوانات والدوابّ. كيف لا وقد تعوذ رسول الله ﷺ من العجز والكسل. إن كمال الإرادة في كمال المراد، فإذا كان المراد كاملاً ارتفعت الإرادة وعلت الهمة، وإن كان المراد دون ذلك فالهمة منحطة والإرادة متقاعسة.

وللتربية الإرادية وسائل منها: محبة الشيء المراد، لأن المحبة دافع قوي في الوصول إلى المراد المحبوب، وتحمل المشقة في الوصول إليه والصبر على ذلك، وتعويد النفس على الجدّية في الأمور والاجتهاد فيها، وتذكر النتائج الطيبة وثمار الجهد والعمل من الدوافع القوية للإرادة والعزيمة.

ومنها التربية البدنية: وهي تعني تربية البدن بالغذاء والعلاج والحركة. . فالغذاء يجب الاهتمام به من حيث النوع والكم، والعلاج يكون بالغذاء، وبالدواء البسيط، ثم بالدواء المركب، وأفضل أنواعه النوع الأول، وأخطره

النوع الثالث، والحركة وسيلة جيدة لتربية البدن لكن يشترط فيها اجتناب الإسراف، وأن تكون في وقت مناسب للجسم، وهي وسيلة لطاعة الله عز وجل وليست غاية في ذاتها، والتربية الرياضية لها آداب منها:

١ ـ أن يكون الرياضيون دائمي الشكر والذكر لله.
٢ ـ تعلوهم السكينة والوقار.
٣ ـ ذوي أخلاق إسلامية فاضلة.
٤ ـ يسألون الله التوفيق والسداد في نشاطهم.
٥ ـ لا يبكتون خصومهم ولا يحقرونهم ولا يضحكون منهم.

ومنها التربية الجنسية: وهي تلك التوعية التي تقي المسلم من الانحراف الجنسي حتى يصان عن الحرام ويستغني بالحلال عنه. فمن التوعية في هذا الجانب:

١ ـ معرفة قيمة المني وأنه لا ينبغي إخراجه إلا في طلب الذرية الصالحة.

٢ ـ من استحكمت عليه قوة الشهوة ولم يستطع الزواج فالصوم علاج له.

٣ ـ البعد عن الإفراط الجنسي لأنه ضار بالصحة.

أما عن وسائل التربية الجنسية فهي متعددة منها: الوسائل الوقائية:

١ ـ بيان ما في الزنا واللواط من خطر كبير وضرر بالغ.

٢ ـ التحذير من إطلاق النظر في المحرم، وبيان أنه سهم من سهام إبليس.

٣ ـ استشعار مراقبة الله عز وجل.
٤ ـ ملاحظة النظر والفكر والنطق وعدم الخوض بها في المحرمات.
٥ ـ حفظ الخطوات والحذر من السير في المحرمات.

٦ ـ شغل القلب بذكر الله والتفكر في عظمته.

٧ ـ معرفة أن النصر على النفس يكون بتقوى الله والصبر عن المعصية والثبات على الطاعة، والمصابرة على ذلك والمرابطة. وفي هذا فرح للقلب وسرور للروح.

٨ ـ عدم تمكين المربّى من الشهوات المحرمة لا سيما شهوتي الفرج والبطن.

٩ ـ إشغال وقت الفراغ بكل مفيد وصالح، لأن العطالة رأس الفساد.

١٠ ـ عدم غشيان أماكن اللهو والغناء والباطل.

١١ ـ حماية الناشئ من تخنث الطبع وفساد الخلق.

١٢ ـ عدم إثارة الناشئ جنسياً، وعدم ممارسة الجماع على مرأى منه.

١٣ ـ الاهتمام بالجانب الإيماني وتعويد المربّى ممارسة الشعائر التعبدية.

الوسائل العلاجية:

١ ـ حسم مادة قوة الشهوة بتقليل الغذاء وكسر حدة النفس بالصوم.

٢ ـ قصر لجام الطرف.

٣ ـ تسلية النفس بالمباح البديل عن الحرام.

٤ ـ التفكير في المفاسد الدنيوية التي تلحق الإنسان بارتكاب المحرم بجانب ما يلحق به من ضرر في آخرته.

٥ ـ التفكير في مقابح الصورة التي يريد الاتصال بها.

٦ ـ معالجة الروح بالعبادة وتقوية باعث الدين.

أما عن المحتوى العلمي والمعرفي فإن ابن القيم يرى أن المعرفة البشرية تعني الكشف عن حقائق الأشياء وتبين مراتبها، وأهم ما يميز نظرية المعرفة عنده أنها تجمع بين الأصالة وروح التجديد، فهي تستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا تمنع من الأخذ من مصادر أخرى، إذا لم تصطدم مع ما أخذ من هذين الأصلين.

وللعلم أهمية عظمى عند ابن القيم، لذا بنى أهم كتاب من كتبه وهو «مفتاح دار السعادة» على أصلين أحدهما العلم الذي تحدث فيه عن بيان فضلة وشرف حامليه بأكثر من مائة وثلاثة وخمسين وجهاً، والأصل الثاني الإرادة. والحاجة إلى العلم ضرورية لكل من الفرد والمجتمع، فبالعلم تتحقق السعادة للأفراد والمجتمعات.

ومصادر المعرفة البشرية متعددة فأهمها وأولها وأساسها الوحي المنزل على رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، ثم النور الذي يقذفه الله في قلب عبده المؤمن، والرؤى والإلهام، والحواس الخمس، والتجربة البشرية ما لم تصطدم مع المصدر الأول. وهناك تكامل بين العلوم العقلية والشرعية، لأنه لا تناقض بين العقل السليم والفطرة السوية والشرع المنزل.

وإذا حصل شيء من توهم التضارب بين العلوم العقلية والعلوم الشرعية فمرد ذلك إما لسوء فهم العلم الشرعي، أو لسوء خطأ في العلم العقلي بكونه باطلاً وظن أنه حق.

والعملية التربوية في نظر ابن القيم لها ثلاثة عناصر: المنهج والمعلم والطالب، فنجاح العلمية التربوية مرتكز على صلاحية المنهج وتكامله، ونجاح المعلم في عمله وذلك بأن تتوافر فيه صفات المعلم الناجح من التقوى والصلاح والصبر والمصابرة والشفقة والرحمة والمعرفة التامة لعظم رسالته. إلى غير ذلك من آداب وصفات، ونوعية الطالب الذي يتعامل مع العلم برغبة وجدّية وحب ومثابرة وطلب واجتهاد، ويتعامل مع معلمه بأدب واحترام وحب وتقدير، ويتعامل مع الناس من منطلق حبه إيصال الخير لهم.

النتائج:

لقد أوصلنا البحث إلى استخلاص بعض النتائج الهامة، التي منها:

١ ـ وضوح النظرية التربوية لابن القيم وأصالتها وحيوتها، فهي تتحلى بروح التجديد، فتجمع بين الأصالة والمعاصرة، لأنها مستمدة من دين الإسلام الخالد وأصوله الثابتة.

٢ ـ بناء نظرية المعرفة عند ابن القيم على أساس أن السعادة لا تكون إلا بالعلم النافع المقرون بالعمل الصالح.

٣ ـ بيان أن نجاح العملية التربية مبني على سلامة المنهج وتكامله، ووجود المعلم الناجح الذي يعرف غاية هذا المنهج وأهدافه ووسائله ووجود نوعية ممتازة من طلاب العلم.

٤ ـ الإيمان بأن محور العملية التربوية هو الإنسان بروحه وعقله وبدنه.

٥ ـ أن النظرية التربوية لابن القيم تهتم بالإنسان في جميع مراحل حياته.

٦ ـ أن ابن القيم واحد ممن سبق واضعي علم النفس الحديث في بيان أن الإنسان خلق مزوداً بدوافع وغرائز، التي يسميها بواعث ومستحثات.

٧ ـ لقد سبق ابن القيم واضعي الاختبارات المسلكية والتوجيه المهني عندما حث على اكتشاف المواهب وتوجيهها الوجهة الصالحة، والتي تحقق مصلحة الفرد ومصلحة الأمة.

٨ ـ هذا العمل وأمثاله له فوائد، منها: إحياء حركة الاجتهاد التربوي الإسلامي، ذلك الاجتهاد الذي توقف منذ قرون، ونحن الآن في أمس الحاجة إليه. فكما اجتهد هذا المربِّي الكبير لعصره في ميدان التربية والتعليم فنحن بحاجة إلى اجتهاد في ميدان التربية والتعليم يستقي من الإسلام ممثلاً بالقرآن والسنة ومنضبطاً في إطار مناهج البحث العلمية.

٩ ـ وإذا كان البحث قد أوصلنا إلى هذه النتائج على النحو الذي ذكرنا، فإننا أحياناً إذا ظهر لنا عدم صحة رأي ابن القيم في قضية ما لا نسلم له بذلك، بل نرد هذا الرأي ونبين وجه الصواب فيه[١].

---

(١) انظر ص ١٦٥ من هذه الرسالة. وص ٣٧٣، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٢٩.

التوصيات:

١ ـ لم تدرس شخصية ابن القيم الدراسة الكافية، ولم يخدم تراثه العلمي بالشكل الذي يبرزه للأجيال المتلاحقة حتى يُستفاد منه، لذا أوصي أن تتبنى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فكرة إحياء تراث هذا المربِّي فتنشئ مكتبة لابن القيم رحمه الله. تحقق فيها جميع كتبه.

٢ ـ إن أفكار ابن القيم التربوية صالحة للتطبيق اليوم، لذا أوصي بأن تتولى كلية العلوم الاجتماعية الكتابة للجهات الرسمية القائمة بالتربية والتعليم في هذا البلد المبارك الطيب، بأهم المعالم لهذه النظرية التربوية، مع بيان الوسائل الجيدة للتطبيق العلمي.

٣ ـ إن ما يبرز الفكر التربوي لابن القيم، ويبين قيمته التربوية في مجالي النظرية والتطبيق هي الدراسة المقارنة بين هذا الفكر وبين الفكر التربوي الحديث، لذا أوصي بأن تتولى كلية العلوم الاجتماعية وضع دراسة مقارنة تحقق هذا.

٤ ـ دراسة منهج ابن القيم في عرض الحقائق العلمية في العلوم التجريبية والكونية، النفسية والاجتماعية عرضاً يجمع بين التحقيق العلمي والإيمان بالله واستقراء ذلك في تراثه كله.

ما نستفيده من فكر ابن القيم التربوي في تربيتنا المعاصرة:

إن الفكر التربوي لهذا المربِّي يتميز بالواقعية وإمكانية التطبيق، وهو بعيد عن المثالية المفرطة الموغلة في الخيال.

وبتتبع هذا الفكر التربوي والنظر الدقيق فيه، تبين لنا إمكانية الاستفادة منه في تربية أولادنا سواء في فترة الحضانة أو فترة الطفولة، أو في سن التعليم، أو في تربية الإيمان لديهم، أو تربيتهم فكرياً وبدنياً.

كما ظهر لنا أن ما ينادي به بعض المفكرين المسلمين اليوم من أسلمة

العلوم والمعارف، قد نادى به ابن القيم قبل اثني عشر قرناً من الزمان؛ لأنه صاحب فكر تربوي أصيل، مستمد من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، ومسترشد بسيرة السلف الصالح لهذه الأمة.

ففي تربية أولادنا:

١ - ينبغي أن نشعر بمسؤولية تربيتهم وتوجيههم، وأنهم أمانة في أعناقنا، ونتذكر على الدوام حديث رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...»[١]

٢ - فنحملهم على الأخلاق الفاضلة، ونجنبهم الأخلاق السيئة، ونبعدهم عن أماكن اللهو والباطل! ونحفظ أسماعهم من سماع الغناء والفحش، والبدع ومنطق السوء[٢].

٣ - ونربيهم بلسان الحال قبل لسان المقال، لأن الحسن عندهم ما نصنع، والقبيح ما نترك فنحرص أن نكون خير قدوة لهم، يقتدون بنا، ويترسمون هدانا في كل ما يلاحظون من فعل الخيرات وترك المنكرات. فلا نغفل توجيههم وإرشادهم؛ لأن الغفلة في التربية فساد للأبناء كما يقول ابن القيم: (... فما افسد الأبناء مثل تغفل الآباء واستسهالهم شرر النار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون مع أولادهم أعظم ما يعتمد العدو شديد العداوة مع عدوه، وهم لا يشعرون، فكم من والد حرم ولده خير الدنيا والآخرة، وعرضه لهلاك الدنيا والآخرة، وكل هذا عواقب تفريط الآباء في حقوق الله وإضاعتهم لها وإعراضهم عما أوجب الله عليهم من العلم النافع والعمل الصالح، مما حرمهم الانتفاع بأولادهم، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم...)[٣].

---

(١) انظر هذه الرسالة ص ١٦٩.

(٢) انظر هذه الرسالة ص١٧٠.

(٣) تحفة المودود. ابن القيم ص ٢٤٢، ٢٤٣.

٤ ـ ونحافظ على فطرهم من الزيغ والانحراف حتى ينشأوا سويين في عقائدهم وفطرهم: فعند تسميتهم نختار لهم من الأسماء ما يذكرهم بالعبودية لله عز وجل، فخير الأسماء عبدالله، وعبد الرحمن. فعند التسمية نحرص أن نؤذن في إحدى أذني الطفل ونقيم في الأخرى، ليسمع كلمة الإخلاص، من أول أيام حياته، وعند بدء نطقهم نحرص أن نفتح آذانهم على سماع كلمة الإخلاص، فندرب ألسنتهم على النطق بها.

٥ ـ وعلى الأم أن تحافظ على صحة الطفل فتلاحظ غذاءه وإرضاعه اللبن وحده فترة الرضاع وحتى تنبت اسنانه، كما تهتم بغذائها وتحرص أن لا تأكل ما يؤثر على صحته، لأن اللبن مستخلص من غذائها[١].

٦ ـ ولصحة الطفل وسلامة بدنه نحرص في الأشهر الثلاثة الأولى من عمره على عدم حمله والسير به، لأنه حديث عهد ببطن أمه. وينبغي أن لا يهمل أمر قماطه ورباطه إلى أن يصلب بدنه وتقوى أعضاؤه ويجلس على الأرض[٢].

٧ ـ وإذا نبتت أسنان الطفل نحرص أن نطعمه الغذاء اللين، حفاظاً على أسنانه من الفساد والالتواء[٣].

٨ ـ وينبغي ملاحظة أكله وشربه، فلا يمكن من كثرة الطعام والشراب حتى يصح بدنه وتقل أمراضه لقلة الفضلات في المواد الغذائية[٤].

٩ ـ حتى لباس الطفل ينبغي على الأب والأم ملاحظته كذلك، فيجنب لبس الحرير؛ فإنه مفسد له ومخنث لطبيعته[٥].

---

(١) انظر هذه الرسالة ص ١٧٢.

(٢) انظر هذه الرسالة ص ١٧٣.

(٣) انظر تحفة المودود ابن القيم ص ٢٣١.

(٤) انظر هذه الرسالة ص ١٧٣.

(٥) انظر هذه الرسالة ص ١٧٤.

١٠ ـ وعلى الآباء والأمهات المحافظة على فكر المربًى وعقله بإبعاده عن كل ما يضر بعقله من مسكر وغيره أو عشره من يخشى فساده أو كلامه[١].

هـذا فيما يتعلق بتـربيتهم قبل وصـولهم سن التعليم الإلزامـي، أمـا إذا وصلوا إلى هذا السن فعلينا:

١ ـ اكتشـاف مواهبهم وقـدراتهم ومهـاراتهم، فمن رأيناه منهم مستعـداً للتعليم مهيئـاً ذهنه لـذلك وجـه إلى التعليم وأرشـد إليـه، وإن لم يكن لـديـه استعداد للتعلم ورأينا أن عينه مفتوحة على صنعة من الصنائع مباحة في ذاتهـا مفيدة له ولأمته وجهناه إليها وأعناه على تعلمها. وإن رأيناه بخلاف ذلك وكـان لديه توجه إلى الفروسية راغب فيها مستعد لها، وجه إلى الفروسية وأرشد إليها وهذا هو التوجيه السديد للقدرات والمهارات[٢].

٢ ـ وتعليمهم وتوجههم إلى بذل الوسع في طلب العلم، والاستمرار في الطلب والتحصيل مدى الحياة. ونسرد لهم طرفاً من سيرة سنفنا الصالـح الذيْن كانوا يحرصون على طلب العلم مدى الحياة.

٣ ـ ونبين لهم أن النهم الشـديـد في طلب العلم وعـدم الشبـع منـه من علامات الإيمان.

٤ ـ ونوصيهم بالحرص على الاستفادة من الغير؛ لأن الرجل يكون عالماً ما طلب العلم فإذا قال: أنا عالم فقد جهل[٣].

٥ ـ ونـربيهم على حب العلم والخـوف من تصـرم العمـر دون استفـادة علمية، ونوصيهم بالسعي الحثيث في الطلب والتحصيل[٤].

٦ ـ ونحثهم على عقد النية الصـالحة عنـد طلب العلم بأن يكـون عبادة

---

(١) انظر هذه الرسالة ص ١٧٤، ١٧٥.

(٢) انظر هذه الرسالة ص ١٧٥.

(٣) انظر هذه الرسالة ص ١٧٧.

(٤) انظر هذه الرسالة ص ١٧٧.

خالصة لله عز وجل، فلا يطلبونه لحصول شهادة، أو نيل درجة علمية أو مكانة اجتماعية.

٧ ـ إن مـا أورده ابن القيم من آداب المتعلم يجعلنـا ننـظر في أحـوال طلابنا اليوم نظرة تقـويم. فهل هم آخـذون أنفسهم بهذه الآداب المستقـاة من كتـاب الله وسنة رسـوله ﷺ، والتي لا حيـاة للعلم وطلابـه إلّا بها؟ ولا بـد أن نسأل هل يهتم المربون والمعلمون والمدرسـون والأساتـذة بتوجيـه أبنائنـا إلى هذه الآداب، وبنائها في نفوسهم[١].

٨ ـ إن مهمة، كليات التربية، ومعاهد المعلمين هي: جعـل طلاب هـذه المعاهد أهلاً لتولي المهام التعليمية والمسؤولية التربوية لأجيالنا. فمـا أحرانـا أن نراجع خططنا ومناهجنا في المؤسسات المشار إليهـا على ما في كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ واجتهادات علمائنا والمـربين فينا كـابن القيم وغيره. وهـذا لا يعني أن نغفل الاستفادة أيضاً مما عند الآخرين[٢].

ومما نستفيده من فكر هذا المربِّي بجانب ما ذكر أيضاً تربية أبنائنا تربيـة إيمانية عميقة فعلينا:

١ ـ أن نحرص على تعميق الإيمان بالله عز وجـل في نفوسهم، بصـرف نظرهم إلى دلائل القدرة الإلٰهية في الآيـات الكونيـة في الأنفس والآفاق، وفي تدبر آياته المتلوة في كتابه المنزل، وكشف محاسن الشريعة الاسلامية، وأخـذ الدروس والعبر من ظاهرتي الموت والحياة التي تتكرر ليل نهار والتي هي باقية ما بقيت الحياة، لنخلص من ذلك بأن الله سبحانه وتعالى هو الخـالق والمدبـر والقوي والعزيز والقادر والحكيم والمحيي والمميت، وأنه هو المستحق للعبـادة وحده دون سواه. فله الكمال المطلق وينبغي أن يكـون كل الحب لـه، والذل والخضوع لسلطانه سبحانه وتعالى: (. . . فسبحان من له من كل ما خلق وأمر

---

(١) انظر هذه الرسالة ص ٤٩٥.

(٢) انظر هذه الرسالة ص ٤٨١.

حكمة بالغة شاهدة له، بأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين)[1].

٢ ـ ونبين لهم ثمار الإيمان بالله عز وجل، وأن الإيمان يورث صاحبه سلامة الفطرة، وفرح القلب، وصحة المعرفة، وصحة الإرادة، ومعية الملك للمؤمن، وطمأنينة النفس، وسلامة القلب، ونضرة الوجه، وانشراح الصدر، ونيل جزاء الله ورضوانه يوم الجزاء الأوفى[2].

ولتربية فكرهم:

١ ـ نحثهم على النظر والتأمل في دلائل القدرة الإلٰهية وأن الله سبحانه قد تعرف إلى خلقه بأنواع المتعرفات ونصب لهم الدلالات، وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيي عن بينة وأن الله لسميع عليم[3].

٢ ـ ونبين لهم محاسن الشريعة الإسلامية التي اتفقت عليها العقول المستقيمة والفطر السليمة، وأن هذه الشريعة جاءت بتحقيق المصلحة للعباد في العاجل والآجل.

وفي مجال الرياضة نستفيد من هذا الفكر التربوي ببيان:

١ ـ أن الرياضي المسلم ينبغي أن يكون متميزاً بشخصيته الإسلامية وهو يخالط الناس، فلا ينعزل عنهم، ولا يذوب في وسطهم الاجتماعي، بل يتحسس أدواء النفوس وعللها، ويحاول جهده معالجتها لأنه داعية خير وحامل رسالة، قائده في ذلك هدي رسول الله ﷺ القائل: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[4].

٢ ـ ونفهمهم أن الألعاب الرياضية ما هي إلا وسيلة لتقوية البدن على

---

(١) المفتاح ابن القيم ٢/٣٣.

(٢) انظر هذه الرسالة ص ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) انظر المفتاح، ابن القيم ١/١٩٧.

(٤) انظر هذه الرسالة ص ٣٤٧، ٣٤٨.

طاعة الله عـز وجل. وترويحاً عن النفس، لـذا لا يجوز ممـارسة أيّ لـون من ألوان الرياضة على أنه مهنة لكسب الرزق والاكتفاء به؛ (. . . لأن تجويز أكل المال به ذريعة إلى اشتغال النفوس به، واتخاذه مكسباً لا سيمـا وهو من اللهـو واللعب الخفيف على النفوس، فتشتد رغبتها فيه من الوجهين فأبيح في نفسه؛ لأنـه إعانـة وإجمام للنفس وراحـة لها، وحـرم أكل المـال به لئـلا يتخذ عـادة وصناعة ومتجراً)[1]. فالمسلم خلق لغاية، وأنيطت به مسؤوليـة، وهو من أمـة مسلمة صاحبـة رسالـة وحاملة دعـوة مجاهـدة في سبيل الله عـز وجل، والأمـة المجاهدة لا تعرف إلا الجد في الأمـور والحزم في المـواقف، فهي لـم توجـد لتلهـو وتلعب، وتضيع الأوقات، وتهـدر الأموال، وتبـدد الجهود، فمزاولتهـا لبعض الألعاب الرياضية المباحة والمشـروعة القصـد منها تقـوية الأبـدان على الطاعة، والترويح عن النفوس[2].

٣ ـ ونحثهم على إخلاص النية لله عند مزاولـة بعض الألعاب الرياضية؛ لأن المباحات بالبنية الصالحة تصبـح عبادات فـ : (الصـراع والعدو والسبـاحة وشيـل الأثقال ونحـوهـا فهـذا القسم رخص فيـه الشـارع بـلا عـوض، إذ فيـه مصلحة راجحة، وللنفس فيه استراحة وإجمام، وقد يكون مـع القصد الصـالح عملاً صالحاً كسائر المباحات التي تصير بالنية طاعات)[3].

٤ ـ ونـوصيهم بالتحلي ببعض الأخـلاق والآداب الإسـلاميـة، فيكـونـوا دائمي ذكر الله عز وجـل. وتعلوهم السكينة والـوقار، فلا يبكتوا خصمهم، ولا بضحكوا عليه، ولا ينـظروا إليه نـظرات ازدراء وتهكم، وعليهم أن يستفيدوا من أخطائهم، ويصلحوا من شأنهم ويحمدوا الله في حـال الإصابـة، ولا يفعلوا ما يشغـل خصمهم، أو يبرد من عـزيمته. وهذه الأخـلاق والآداب لـو تحلى بهـا الرياضيون اليوم لأثمرت لهم أخوة صادقة، ورابطة إيمانية قوية[4].

---

(١) الفروسية، ابن القيم ص ٨٥، ٨٦.

(٢) انظر، هذه الرسالة، ص ٤٠٩.

(٣) الفروسية، ابن القيم ص ٣٣. وانظر ايضاً هذه الرسالة ص ٤٠٩ .

(٤) انظر هذه الرسالة ص ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤.

وفي مجال أسلمة العلوم والمعارف يمكن الاستفادة مما كتبه ابن القيم وهو يصف الظواهر الكونية ويبين دلائل قدرة الله في المخلوقات ليخلص من ذلك إلى تقوية الإيمان وتعميقه؛ لأنه كما ذكرت سابقاً ـ صاحب فكر تربوي أصيل مستمد من الكتاب والسنة، فهو يشير في فكره هذا إلى أن العلم والمعرفة عطاء من الله، ومنة منه على عبده، لذا فهو يربط جميع العلوم بواهبها ومعطيها، وهو الله عز وجل، نستمع إليه وهو يقول: (. . . تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان، علمه ما فيه صلاح معاشه ومعاده، ومنع عنه علم ما لا حاجة له به، فجهله به لا يضر، وعلمه به لا ينتفع به انتفاعاً طائلاً، ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير. وكل ما كانت حاجته إليه من العلم أعظم، كان تيسيره إياه عليه أتم فأعطاه معرفة خالقه وبارئه، ومبدعه سبحانه. والإقرار به، ويسر عليه طرق هذه المعرفة[1].

وقال: (. . . وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجتهم، كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة. .)[2].

ومن الأمثلة التي تدل على صبغه كل العلوم بالصبغة الإلهية: هو أنه عندما يشرح البنية التشريحية للإنسان، ويذكر علم أعضاء هذا الإنسان يربط كل ذلك بالجانب الإيماني فيقول في معرض ذكر كل من القصبة الهوائية والمريء: (ومن جعل في الحلق منفذين؟ أحدهما: للصوت والنفس الواصل إلى الرئة، والآخر للطعام والشراب وهو المريء الواصل إلى المعدة وجعل بينهما حاجزاً يمنع عبور أحدهما في طريق الآخر، فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان. . .)[3]، ويقول في تحصين المخ في الجمجمة حماية له من التعرض للضرر؛ لأن تعرضه لذلك يفسد البدن كله: (. . . ومن حصن المخ اللطيف الرقيق في أنابيب صلبة من العظام ليحفظها

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٨٢.

(٢) المرجع السابق ١/٢٨٢.

(٣) المرجع السابق ١/٢٧١.

ويصونها فلا تفسد ولا تذوب؟!...)[1]، ويقول بشأن تركيب الأذن وهيئتها: (... ومن جعل داخل الأذن مستوياً كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه، وليتعذر على الهوام النفوذ إليه قبل أن يمسك، وليمسك ما عساه أن يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم..)[2]، ويقول عن ماء العينين وأنه حافظ لهما: (... ومن جعل ماء العينين مالحاً يحفظهما من الذوبان...)[3]، ويقول عن ماء الأذن وأنه حافظ لها، ومن جعل: (... ماء الأذن مراً يحفظها من الذباب والهوام والبعوض...)[4]، ويقول عن ماء الفم، من جعل: (... ماء الفم عذباً يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها...)[5] ويقول عن خلو باطن كف الإنسان من الشعر: (... ومن جعل باطن الكف غير قابل لإنبات الشعر؛ لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللمس، ولشق عليه كثير من الأعمال التي تباشر بالكف... ولهذه الحكمة سلب [الشعر][6] عن الشفتين، وكذا باطن الفم، وكذا أيضاً القدم أخمصها وظاهرها؛ لأنها تلاقي التراب والوسخ والطين والشوك، فلو كان هناك شعر لآذى الإنسان جداً، وحمل من الأرض كل وقت ما يثقل الإنسان، وليس هذا للإنسان وحده، بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها وأخليت هذه المواضع منه لهذه الحكمة)[7]، ثم قال: (أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة، وجاءت بكل صواب وكل منفعة وكل مصلحة..)[8].

---

(١) المفتاح، ابن القيم ١/٢٧١.

(٢) المرجع السابق ١/٢٧١، ٢٧٢.

(٣) المرجع السابق، ١/٢٧٢.

(٤) المرجع السابق ١/٢٧٢.

(٥) المرجع السابق ١/٢٧٢.

(٦) زيادة للايضاح.

(٧) المفتاح، ابن القيم ١/٢٧٢.

(٨) المرجع السابق ١/٢٧٢.

إن هـذه النماذج التي ذكرناهـا مما يـدخل في علم التشـريح ووظـائف الأعضاء. وله رحمه الله جولات رائعة على هذا النسق في سائر العلوم الكونية والتجريبية، النفسية والاجتماعية. فعند ذكره خصائص الهـواء الجوي نستمـع إليه وهو يقول: (... تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالـح؛ فإنـه حياة هـذه الأبدان والممسك لها من داخل بمـا يستنشق منه، ومن خـارج بما تبـاشره من روحه، فتتغذى به ظاهراً وباطنـاً وفيه تطّـرد هذه الاصـوات، فتحملها وتؤديهـا للقريب والبعيد، كالبريد والرسـول الذي شـأنه حمـل الأخبار والـرسائـل... فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكـلام بقدر ما يبلغ الحاجة، ثم يمحى بـإذن ربه فيعـود جديـداً نقياً لا شيء فيـه)[1] ونستمع إليه وهو يحدثنـا عن سير الكـواكب فيقول: (... ثم تـأمل اختـلاف سير الكواكب ومـا فيه من العجـائب... وهذه السيارة لها في سيـرها سيـران مختلفان غاية الاختلاف، سير عام يسير بها فكلها، وسير خـاص تسير هي في فلكها، كما شبهـوا ذلك بنملة تـدب على رحى ذات الشمال، والـرحى تأخـذ ذات اليمين، فللنملة في ذلك حركتان مختلفتان إلى جهتين متباينتين إحداهما بنفسهـا، والأخـرى مكـرهـة عليهـا تبعـاً للرحى يجـذبهـا على غيـر جهـة مقصدها)[2]. كما يتحدث عن ظاهرتي الخسوف والكسوف بـذات الأسلوب، ويركز على الجانب الإيماني بربط هذه الظواهر بموجدها وهو الله عز وجل[3].

ونستمع إليه في مجال الدراسات النفسية والاجتمـاعية وهـو يحدثنـا عن الدوافع لدى هذا الانسـان فيقول: (فاقتضت حكمة اللطيف الخبيـر أن جعلت فيـه [الانسـان][4] بـواعث ومستحثـات تـؤزه أزاً إلى مـا فيـه قـوامـه وبقـاؤه ومصلحته)[5].

---

(١) المفتاح، ابن القيم ٢١٦/١٠، ٢١٧.

(٢) المرجع السابق ٢١١/١.

(٣) انظر هذه الرسالة ص ٥٣.

(٤) زيادة للإيضاح.

(٥) المفتاح، ابن القيم ٢٧٦/١.

إن كلامه السابق الذي سقناه يدل على انطلاق عفوي من عالم يشعر من أعماق نفسه بأن الله واهب العلم، وهو الذي ركز في الانسان القدرة على المعرفة، فكل العلوم عطاء من الله. أما النماذج التي ذكرناها والجولات العلمية الإيمانية التي أشرنا إليها تجعلنا نقول ما أحوجنا اليوم إلى إعادة النظر فيما بين أيدينا من مناهج ومقررات وصبغها بالصبغة الإيمانية والاسترشاد برأي ابن القيم والاستفادة من جهوده الكثيرة المتنوعة في هذا المجال.

الفهـارس

- فهرس الآيَات القرآنية الكريمة
- فهرس أطراف الحديث
- فهرس الأعْلام
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس المَوْضُوعَات



فهرس الآيـــات

فهرس أطراف الحديث

فهرس الأعلام



فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم والتفاسير:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. محمد فؤاد عبد الباقي. ط ١ سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م دار الحديث. القاهرة.

٣ ـ تفسير العليّ القدير لاختصار تفسير ابن كثير. اختصره وعلق عليه محمد نسيب الرفاعي ط ٢ سنة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م. وزارة المعارف. المملكة العربية السعودية. المكتبات المدرسية.

٤ ـ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل. محمد بن أحمد بن جزي الكلبي. ط ٢ سنة ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م. دار العلم للملايين.

٥ ـ أنواع التنزيل وأسرار التأويل. البيضاوي. مكتبة الجمهورية المصرية.

ثانياً: كتب السنة:

٦ ـ صحيح البخاري. بحاشية السندي. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. دار المعرفة بيروت / لبنان.

٧ ـ صحيح مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم. دار المعرفة. بيروت / لبنان.

٨ ـ سنن الترمذي. لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة. بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. دار إحياء التراث العربي.

٩ ـ سنن ابن ماجة: أبوعبد الله محمد بن يزيد القزويني. بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

١٠ ـ سنن الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي. طبع بعناية محمد أحمد دهمان. دار إحياء السنة النبوية.

١١ ـ سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي. مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الباز للنشر والتوزيع. مكة المكرمة.

١٢ ـ تهذيب سنن أبي داود: ابن القيم تحقيق / أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م دار المعرفة. بيروت / لبنان.

١٣ ـ الموطأ: مالك بن أنس بتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي.

١٤ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل: وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. دار الفكر.

١٥ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري. ابن حجر رقم أحاديثه. محمد فؤاد عبد الباقي. إخراج وطبع مجد الدين الخطيب. المكتبة السلفية.

١٦ ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني ط ٣ سنة ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢ م. المكتب الإسلامي بيروت. دمشق.

١٧ ـ ضعيف الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني. ط ٢ سنة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م المكتب الإسلامي بيروت / دمشق.

١٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. عدد من المستشرقين سنة ١٩٦٧ م مطبعة بريل في مدينة ليدن.

١٩ ـ كنوز الحقائق في أحاديث خير الخلائق. المناوي. ط ٤ مصطفى الحلبي.

ثالثاً: كتب المعاجم:

٢٠ ـ لسان العرب: ابن منظور. طبعة مصورة عن بولاق. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٢١ ـ القاموس المحيط: الفيروزآبادي ط ٢ سنة ١٣٧١ هـ /١٩٥٢ م.

٢٢ ـ مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي. ط ١ سنة ١٩٦٧ م. دار الكتاب العربي بيروت / لبنان.

٢٣ ـ المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية ط ٢ سنة ١٣٩٢ هـ.

٢٤ ـ مختار القاموس. الطاهر أحمد الزاوي ط ١. سنة ١٩٦٧ م دار الكتاب العربي بيروت / لبنان.

٢٥ ـ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. مجدي وهبة وكامل مهندس سنة ١٩٧٩ م مكتبة لبنان.

رابعاً: كتب التراجم:

٢٦ ـ الأعلام: خير الدين الزركلي. ط ٥ سنة ١٩٨٠ م دار العلم للملايين. بيروت.

٢٧ ـ البداية والنهاية: ابن كثير. دار الفكر العربي. بيروت.

٢٨ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني ط ١ سنة ١٣٤٨ هـ. دار الطباعة المحمدية.

٢٩ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: السيوطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢ سنة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م دار الفكر.

٣٠ ـ تذكرة الحفاظ: الذهبي ط ٣ سنة ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد. الدكن الهند.

٣١ ـ الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر محمد النعيمي الدمشقي. تحقيق جعفر الحسني ط ١. سنة ١٣٦٧ هـ /١٩٨٧ م. مطبعة الترقي.

٣٢ ـ الـدرر الكامنـة في أعيان المـائة الثـامنة: ابن حجـر. تحقيق سعيد جـاد الحق. دار الكتب الحديثة.

٣٣ ـ الذهبي ومنهجه في كتابة تاريخ الاسـلام: د. بشار عـواد معروف. ط ١ سنة ١٩٧٦ م مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرية.

٣٤ ـ شذرات الذهب في أخبـار من ذهب: ابن العماد. منشـورات دار الآفاق الجديدة. بيروت.

٣٥ ـ طبقـات الشـافعيـة الكبـرى: تـاج الـدين السبكي ط ٢. دار المعـرفـة. بيروت / لبنان.

٣٦ ـ عصـر سلاطين الممـاليك ونتـاجه العلمي والأدبي. محمـود رزق سليم. سنة ١٣٨١ هـ /١٩٦٢ م مكتبة الآداب بالجماميز.

٣٧ ـ الفتـح المبين في طبقات الأصوليين. عبـد الله مصطفى المـراغي. ط ٢ ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد حنفي.

٣٨ ـ كتـاب الذيـل على طبقات الحنـابلة. ابن رجب. بتصحيح محمـد حامـد الفقي سنة ١٣٧٢ هـ /١٩٥٣ م مطبعة السنة المحمدية.

٣٩ ـ الوافي بالوفيات. الصفدي ط ٢. سنة ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م.

خامساً: الكتب التي ترجمت لابن القيم:

٤٠ ـ ابن القيم الجوزية: د / طاهر سليمان حمودة. دار الجامعات المصرية.

٤١ ـ ابن قيم الجـوزية عصـره ومنهجه: د / عبـد العظيم شـرف الدين. ط ٢ سنة ١٣٧٨ هـ/١٩٦٧ م مكتبة الكليات الأزهرية.

٤٢ ـ ابن القيم وموقفه من التفكيـر الإسلامي: د / عـوض الله جاد حجـازي. دار الطباعة المحمدية.

٤٣ ـ التقـريب لفقـه ابن قيم الجـوزيـة: بكـر عبـد الله أبـو زيـد. ط ١ سنـة ١٤٠١ هـ مطابع دار الهلال للأوفست.

٤٤ ـ موارد ابن القيم في كتبه: بكر عبد الله أبو زيد. ط ١. سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م المكتب الإسلامي بيروت.

سادساً: كتب ابن القيم:

٤٥ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية: ابن القيم. المكتبة السلفية. المدينة المنورة.

٤٦ ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين. ابن القيم. راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد. دار الجيل بيروت.

٤٧ ـ إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان: ابن القيم. نقله عن أصل مخطوط محمد بن عبد الله هشام الأنصاري. عني بتصحيحه محمد جمال الدين القاسمي. دار القلم. دمشق. بيروت.

٤٨ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ابن القيم. تحقيق محمد حامد الفقي.

٤٩ ـ بدائع الفوائد. ابن القيم. بتصحيح محمد منير عبده آغا الدمشقي الأزهري. دار الكتاب العربي بيروت. لبنان.

٥٠ ـ التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم. دار الكتب العلمية.

٥١ ـ تحفة المودود بأحكام المولود. ابن القيم. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ط ١ سنة ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م مكتبة دار البيان. دمشق.

٥٢ ـ تهذيب سنن أبي داود. ابن القيم. تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي سنة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م دار المعرفة. بيروت.

٥٣ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: ابن القيم. دار الكتب العلمية. بيروت.

٥٤ ـ جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام. ابن القيم. تحقيق طه يوسف شاهين. دار الطباعة المحمدية. القاهرة.

٥٥ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. ابن القيم. وصححه وعلق عليه محمود

حسن ربيع. ط ٢ سنة ١٣٩٢ هـ /١٩٧٢ م. مطبعة النهضة الحديثة. مكة المكرمة.

٥٦ - الروح: ابن القيم سنة ١٣٩٩/ هـ ١٩٧٩ م دار الكتب العلمية. بيروت.

٥٧ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ابن القيم. دار الكتب العلمية. بيروت / لبنان.

٥٨ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن القيم. تحرير الحساني. دار التراث.

٥٩ - الطب النبوي. ابن القيم. كتب المقدمة وراجع الأصل وصححه وأشرف على التعليقات: عبد الغني عبد الخالق سنة ١٣٧٧ هـ /١٩٥٧ م. مطبعة دار إحياء الكتب العربية القاهرة.

٦٠ - طريق الهجرتين وباب السعادتين: ابن القيم. دار الكتاب العربي بيروت / لبنان.

٦١ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين. ابن القيم. بتصحيح الناشر زكريا علي يوسف. دار الكتب العلمية. بيروت.

٦٢ - الفروسية: ابن القيم. دار التراث العربي.

٦٣ - الفوائد: ابن القيم. ط ٢ سنة ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م دار الكتب العلمية. بيروت / لبنان.

٦٤ - القصيدة النونية: ابن القيم. دار المعرفة بيروت / لبنان.

٦٥ - كتاب الصلاة وحكم تاركها وسياق صلاة النبي ﷺ من حين كان يكبر إلى أن يفرغ منها. ابن القيم. ط ٦. سنة ١٤٠٦ هـ. المطبعة السلفية. القاهرة. نشره قصي محيي الدين الخطيب.

٦٦ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة. ابن القيم. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

٦٧ ـ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: ابن القيم. اختصره الشيخ الفاضل محمد بن الموصلي. مكتبة الرياض الحديثة. الرياض.

٦٨ ـ مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن القيم. تحقيق محمد حامد الفقي دار الكتاب العربي بيروت.

٦٩ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب: ابن القيم ط ٥. سنة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م المطبعة السلفية.

٧٠ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: ابن القيم. تحقيق أحمد حجازي السقا ط ٢. سنة ١٣٩٩ هـ المكتبة القيمة.

سابعاً: كتب التربية وعلم النفس:

٧١ ـ أبعاد مطورة للفكر التربوي: نبيه يسن سنة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م. مكتبة الخانجي. القاهرة.

٧٢ ـ أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع. عبد الرحمن النحلاوي ط ١. سنة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م. دار الفكر. دمشق.

٧٣ ـ أصول علم النفس وتطبيقاته: د/ فاخر عاقل. ط ٥. سنة ١٩٨١ م دار العلم للملايين.

٧٤ ـ التربية الجنسية: محمود مهدي الاستانبولي. ط ٣ سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م المكتب الإسلامي. دمشق.

٧٥ ـ التربية العامة: رونيه أوبير. ترجمة عبد الله عبد الدايم. ط ٤. سنة ١٩٧٩ م دار العلم للملايين. بيروت.

٧٦ ـ التربية مادتها ومبادئها الأولية: سير برسي نن. ترجمة صالح عبد العزيز شحاتة سنة ١٩٦١ م مكتبة النهضة المصرية.

٧٧ ـ التربية الأخلاقية في الإسلام: د / مقداد يالجن. ط ١ سنة ١٣٧٧ هـ / ١٩٧٧ م مكتبة الخانجي. بمصر.

٧٨ ـ التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة. عبد الرحمن النحلاوي. ط ١. سنة ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢ م. المكتب الإسلامي. بيروت.

٧٩ ـ التربية الإسلامية وفلاسفتها. محمد عطية الابراشي. ط ٣ سنة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م مطبعة عيسى البابي الحلبي. بمصر.

٨٠ ـ التوجيه والإرشاد النفسي: د / حامد زهران. ط ٢. سنة ١٩٨٠ م عالم الكتب.

٨١ ـ تهذيب الأخلاق في التربية: ابن مسكويه. ط ١ سنة ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

٨٢ ـ سيكولوجية الطفل: د / مصطفى فهمي. ط ٢ سنة ١٩٥٣ م. دار مصر للطباعة.

٨٣ ـ الصحة النفسية: د / عبد العزيز القوصي. ط ٧. سنة ١٩٦٠ م مكتبة النهضة المصرية.

٨٤ ـ الفكر التربوي عند الغزالي: د / عبد الغني عبود. ط ١ سنة ١٩٨٢ م. دار الفكر العربي.

٨٥ ـ فلسفة التربية الإسلامية: د / عمر محمد التومي الشيباني سنة ١٩٧٠ م. الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان. ليبيان.

٨٦ ـ في أصول التربية وتاريخها: د / أحمد عبد الرحمن عيسى. ط ٢. سنة ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨ م. دار اللواء للنشر والتوزيع.

٨٧ ـ في أصول التربية الأصول الثقافية: محمد الهادي عفيفي سنة ١٩٧٦ م مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.

٨٨ ـ لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها: د / محمد أمين المصري. ط ٣ سنة ١٣٩٤ هـ /١٩٧٤ م دار الفكر. بيروت.

٨٩ ـ نظرات في إصلاح النفس والمجتمع: للإمام الشهيد حسن البنا. إعداد أحمد عيسى عاشور. ط ١ سنة ١٤٠٠ / ١٩٨٠ م مكتبة الاعتصام.

٩٠ ـ مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام: عبد الرحمن الباني. المكتب الإسلامي.

٩١ ـ منهج التربية الإسلامية. محمد قطب. ط ٥ سنة ١٤٠١ هـ/١٩٨٢ م دار الشروق.

٩٢ ـ الاتجاه الأخلاقي في الاسلام: د / مقداد يالجن. ط ١ سنة ١٣٩٢ هـ /١٩٧٣ م مكتبة الخانجي. بمصر.

٩٣ ـ الأخلاق الإسلامية. عبد الرحمن الميداني. ط ١. دار القلم. دمشق بيروت.

٩٤ ـ الأهداف التعليمية تحديدها السلوكي وتطبيقاته. د / نومان جرونلند. ترجمة الدكتور أحمد خيري كاظم. دار النهضة العربية. القاهرة.

ثامناً: كتب عامة:

٩٥ ـ آداب البحث والمناظرة. محمد الأمين الشنقيطي. مطبعة شركة المدنية للطباعة والنشر.

٩٦ ـ التحفة البهية والطرفة الشهية: مجموعة مختارة من عيون الأدب العربي. تحقيق لجنة إحياءالتراث العربي. في دار الآفاق الجديدة ط ١. سنة ١٤٠١ هـ /١٩٨١ م منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت.

٩٧ ـ تكملة المجموع شرح المهذب: محمد نجيب المطيعي. المكتبة السلفية.

٩٨ ـ العبودية. ابن تيمية. ط ٥ سنة ١٣٩٩ هـ. المكتب الإسلامي. بيروت.

٩٩ ـ الفتوة عند العرب. عمر الدسوقي. مكتبة نهضة مصر بالفجالة.

١٠٠ ـ كتاب الإيمان. ابن أبي شيبة. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. . . المطبعة العمومية. دمشق.

١٠١ ـ مجموع الفتاوى: ابن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن محمد قاسم. مكتبة المعارف. الرباط. المغرب.

تاسعاً: كتب اطلعت عليها ولم أقتبس منها:

١٠٢ ـ تاريخ التربية الإسلامية: د / أحمد شلبي ط ٥. سنة ١٩٧٧ م. مكتبة النهضة المصرية.

١٠٣ ـ التربية المقارنة: د / نبيل أحمد عامر صبح. ط ١ سنة ١٩٨١ م دار الثقافة للطباعة والنشر. القاهرة.

١٠٤ ـ تربية النشء في المنزل والمدرسة والمجتمع: عبد الرحمن أبي بكر الصباغ سنة ١٣٨١ هـ /١٩٦١ م.

١٠٥ ـ الرسول العربي المربي: د / عبد الحميد الهاشمي. ط ١ سنة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م دار الثقافة للجميع. سوريا. دمشق.

١٠٦ ـ كيف تكتب بحثاً أو رسالة: د / أحمد شلبي. ط ١ سنة ١٩٧٦ م. مكتبة النهضة المصرية.

١٠٧ ـ مناهج البحث في التربية وعلم النفس: د / جابر عبد الحميد جابر وأحمد خيري كاظم. ط ١ سنة ١٩٧٨ م. دار النهضة العربية.

١٠٨ ـ معالم التربية: د / فاخر عاقل. ط ٣ سنة ١٩٨٧ م. دار العلم للملايين.

١٠٩ ـ معالم في التربية: د / عجيل جاسم النشمي. ط ١ سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م. مكتبة المنار الإسلامي. الكويت.

١١٠ ـ مناهج البحث في علم النفس: عبد الرحمن عيسوي. سنة ١٤٠٠ / هـ ١٩٨٠ م. منشأة المعارف بالإسكندرية.

فهرس الموضوعات